
منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر
سلسلة التاريخ (2)
الحركة الفكرية بالمغرب
في عهد السعديين
الجزء الأول
محمد حجي
دكتور دولة في الآداب والعلوم الإنسانية
أستاذ التاريخ بكلية الآداب بالرباط

محمد حجي
دكتور دولة في الآداب والعلوم الإنسانية
أستاذ التاريخ بكلية الآداب بالرباط



# الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين

## الجزء الأول



1976 - 1396

اصـــل هذا الكتاب اطروحة باللغـــة الفرنسية ناقشهـــا المـــؤلف يوم 10 ماى 1976 فى جامعة السربون بباريس فنال بها دكتورة الدولة فى الآداب والعلوم الانسانية بدرجة **مشرف جـــدا** .

∴

اعضاء لجنة المناقشة الاساتذة :

- شارل بيلا بصفته استاذا مشرفا
- ارنـــانـــديـــز
- لاووســـت
- بـــودو – لامـــوط
- الشـــويمـــي

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

## أ - اختيار الموضوع

عرف المغرب مع السعديين حركة فكرية وادبية نشيطة فى جملة ما عرف معهم من تجديد فى مختلف الميادين الدينية والسياسية والاقتصادية. وان تتبع مراحل تطور هذه الحركة خلال زهاء قرنين موضوع لا يخلو فى نفسه من طرافة ، لاسيما وقد سبق أن احتككت طوال سنوات بأحداث آخر هذا العصر ورجاله أثناء دراستى **للزاوية الدلائية** ، الامر الذى حبب الى التعرف على خلفيات تلك الاحداث وأسلاف أولئك الرجال من علماء وادباء ، لتكوين نظرة شاملة عن عصر يعد من أكثر عصور تاريخنا الحديث نشاطا وحيوية .

ليست هذه الدراسة لاشباع رغبة شخصية فى توسيع ميدان الاطلاع وربط الاحداث فحسب ، ولكنها — فيما أعتقد — ضرورية لكشف القناع عن الحياة الثقافية فى بلادنا بعد أن آوت مآت الاسر الاندلسية النازحة لآخر مرة عن شبه الجزيرة الايبيرية المسترجعة من قبل المسيحيين ، وعشرات الاسر الوهرانية والتلمسانية قبل اقفال الحدود الشرقية مع الجزائر المحتلة من طرف العثمانيين ، لتعيش بلادنا فى شبه عزلة عن العالم الخارجى حقبة غير قصيرة من الزمن ، لا تجد لها متنفسا الا فى التوسع جنوبا بتخوم بلاد السودان .

ثم ان مثل هذه الدراسة ضرورية كحلقة فى سلسلة الدراسات التى اخذت تظهر للتعريف بالحياة الثقافية بالمغرب فى مختلف عصور تاريخه الاسلامى . ولئن كنا موقنين بان تطور الحركة الفكرية لدى امة ما لا يواكب دائما انقلبات السياسية فيها ، وان مسيرة العلم والادب لا تتوقف عندما تنقرض دولة لتستأنف السير مع قيام دولة اخرى ، فاننا موقنون كذلك بان للتقلبات السياسية اثرها الفعال فى تكييف التيار الفكرى وتقويته او اضعافه لدى الامة ، بما يوفر له النظام القائم من وسائل النمو والانتشار، او يضع فى طريقه من عراقيل ومضايقات . وربما كانت ظاهرة اختلاف المبادىء التى قامت عليها الدول المتعاقبة على حكم المغرب ، وبالتالى اختلاف مواقفها تجاه الحركة الفكرية فيه ، اقوى منها فى كثير من الاقطار الاسلامية الأخرى . وقد يتمكن الذين سيضعون تاريخا عاما للمغرب عندما تتم هذه الدراسات الجزئية ، وانطلاقا من معطيات ، من رسم لوحة كاملة واضحة للنشاط الفكرى المغربى وتطوره عبر القرون الاسلامية ، وتفاعله مع الثقافات العربية المعاصرة له .

❀

# ب- الدراسات السابقة فى الموضوع

اذا كان لم يخصص لحد الآن اى بحث شامل للحياة الفكرية والأدبية بالمغرب ايام السعديين ، فان الدراسات التى اخذت تظهر منذ مطلع القرن العشرين عن بعض الجوانب العلمية والادبية من تاريخ المغرب عموما لمست من قريب او من بعيد العصر الذى نتحدث عنه واذا نحن تجاوزنا ما كتب ر. باصى سنة 1905 عن **مصادر سلوة الانفاس** ومحمد ابن ابى شنب سنة 1907 عن **اجازة الشيخ عبد القادر الفاسى** باعتبار انهما يهتمان قبل كل شىء بالتراجم ، فاننا نجد بعد ذلك دراسات متنوعة لمستشرقين ومغاربة ، يهتم بعضها بجوانب محدودة من بيبليوغرافية او تاريخية او علمية ، وبعضها الآخر — وهو الكثير — يتناول موضوعات عامة فى ابعاد جغرافية وتاريخية شاسعة .

وقد قسمت هذه الدراسات التى تحدثت عن العصر السعدى — ليسهل استعراضها — الى كتب ، ومقالات ومسامرات ، ورتبتها ترتيبا زمنيا بحسب صدورها ، الا عندما تتعدد مؤلفات او ابحاث الكاتب فاذكرها متوالية .

## ا ـ كتب

### مؤرخو الشرفاء

درس ل. بروفنسال في هذا الكتاب الذي نشر سنة 1922 آثار المؤرخين المغاربة الذين عاشوا في القرون الاربعة الاخيرة ايام الشرفاء السعديين والعلويين . ورغم كون موضوعه خاصا بالتاريخ فانه تطرق في المقدمة بشيء من الاسهاب الى بحث الادب المغربي عموما وتطوره منذ اصوله الى الوقت الحاضر ، مع الالمام بحالة الدراسة في القرويين والمراكز الثقافية الأخرى وطريقة تاليف الكتب الدراسية وغيرها . واذا كان هذا الكتاب الاول من نوعه قد ظل عقودا من السنين مرجعا اساسيا للذين يدرسون تاريخ المغرب في العصور الحديثة ، فان اشياء كثيرة جدت خلال نصف القرن الذي مضى على تاليف الكتاب ، لاسيما الاف المخطوطات التي ظهرت بالمغرب في المكتبة الملكية او في الزوايا والمكتبات العامة والخاصة . بعض هذه المخطوطات لم يكن في العشرينات والثلاثينات يعرف حتى اسمه وبعضها كان يظن انه مفقود كما سيتضح ذلك في التراجم التي سنعقدها لبعض من تحدث عنهم ل. بروفنسال .

⁂

### النبوغ المغربي (1)

نشر عبد الله كنون هذا الكتاب سنة 1938 في جزءين عن الادب العربي المغربي منذ نشأته الى نهاية القرن التاسع عشر ، فكان الأول من نوعه باللغة العربية كما كان **مؤرخو الشرفاء** الاول من نوعه باللغة الفرنسية ، ثم اعاد المؤلف طبع **النبوغ المغربي** في ثلاثة أجزاء بعد أن اضاف اليه مواد جديدة وقف عليها فيما بعد ، وصحح أخطاء وقعت في بعض التراجم ، فخصص الجزء الاول للدراسات متبعا تقسيم العصور الأدبية حسب الدول المتعاقبة على حكم المغرب ، والثاني للمنتخبات النثرية ، والثالث للمنتخبات الشعرية . ورغم ما كان لهذا الكتاب من دوى عظيم داخل البلاد وخارجها فانه لم يات بدراسة نقدية حقيقية ، لاهتمامه قبل كل شيء باستعراض الحركة السياسية والفكرية بالمغرب طوال ثلاثة عشر قرنا . وقد نال العصر السعدي في الجزء الاول المخصص للدراسات 34 صفحة ، تناولت سياسة الدولة والحركة العلمية والادبية وتراجم اربعة

---

1) **النبوغ المغربي في الادب العربي** طبع اولا في جزئين بتطوان عام 1357 / 1938 ، ثم اعيد طبعه في 3 أجزاء بدار الكتاب اللبناني في بيروت سنة 1961 .

وعشرين عالما واديبا ، مع استعراض اسماء الكتب المؤلفة فى هـــذا العصر (2) .

***

## ذكريـــات مشاهيـــر رجـــال المغـــرب (3)

هى سلسلة اجزاء صغيرة اصدرها عبد الله كنون تباعا دارسا فى كل جزء شخصية علمية او ادبية ممن ذكروا فى **النبوغ المغربى** . وضعت لمزيد توسع فى تراجم المشهورين من الرجال ونشر ما أمكن الوصول اليه من آثارهم النثرية والشعرية ، اكثر مما هى « كتابة تراجم علمية لهـؤلاء الأشخاص قائمة على التحليل ومستوفية للاغراض الواجبة فى هذا الصدد، لان المصادر تعوزنا كثيرا » (4) نال العصر الذى ندرسه من هذه السلسة عددين : الاول عن عبد العزيز الفشتالى فى 71 صفحة ، والثانى عشر عن محمد ابن غازى فى 34 صفحة (5) .

***

## الادب المغربـــــى (6)

حاول مؤلفا هذا الكتاب محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفـــى تغطية تاريخ الحركة الأدبية فى المغرب طوال أربعة عشر قرنا ، واعطاء نظرة سياسية مفصلة شاملة لاقطار شمال افريقيا منذ الفتح الاسلامـــى الى اليوم ، فكان الالحاح فى دراسة التقلبات السياسية على حساب التعرف على التطورات الادبية . ولم يخصص الكتاب اى فصل لأدب العصـــر السعدى وانما ادمجه مع العهد العلوى فى الفصل الخامس ، مترجما فقط لثلاثة من الادباء السعديين (6 م ) .

---

2) **النبـوغ** ( طبعة لبنان 1 : 233 — 266

3) اصدر معهد مولاى الحسن بتطوان 25 عددا من سلسلة **ذكريات مشاهير رجال المغـرب** فى ظرف 5 سنوات ، ثم نشرت دار الكتاب اللبنانى 5 أعداد اخرى ( من 26 الى 30 ) واعادت طبع الاعداد الخمسة الاولى .

4) من مقدمة العدد الاول من سلسلة **مشاهير رجال المغرب** صفحة 7 .

5) يجب الا نغفل هنا الاشارة الى ان السيد عبد الله كنون نشر سنة 1954 **رسائل سعدية** ونشر سنة 1964 جزءا من **مناهل الصفا** الذين تتحدث عنها فى الفصل التالى .

6) دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، 1960 ، فى 602 صفحة .

6م) **الادب المغربى** من صفحة 299 الى صفحة 376 .

## القصيدة (7)

درس عباس الجراري فى هذه الاطروحة دراسة مستفيضة القصيدة الزجلية بالمغرب خلال العصور ، وقد اختص الفصل الثانى من الباب الثالث منها بمرحلة تطور الزجل ايام الوطاسيين والسعديين وتراجم اشهر الزجاليين فى هذه المرحلة (8) .

وهناك كتب متعددة تتحدث عن تاريخ الادب المغربى الفت لاغراض بيداغوجية نتحدث عن اثنين منها نالا شيئا من الشهرة ونقل عنهما بعض الباحثين ، وهما :

## المنتخبات العبقرية : (9)

الفها القاضى محمد السائح لتلاميذ المدارس الثانوية مشتملة على مقدمتين : الاولى فى الاحوال السياسية بالمغرب الاقصى وتقلبات الدول فيه ، والثانية فى الحركة العلمية بالممالك الاسلامية عبر العصور ، باختصار كثير . وقد ترجم — على طريقته المسجعة — لستة من الادباء السعديين واتى بنماذج من انتاجهم النثرى والشعرى (10) .

⁂

## تاريخ الادب العربى (11)

الفه ابراهيم الالغى لتلاميذ أقسام الباكالوريا بالمنطقة الشمالية بالمغرب مشتملا على تاريخ الادب فى المغرب طوال أربعة عشر قرنا ، وفى الاندلس مدة ثمانية قرون . وخلال هذا الاستعراض الخاطف خصص المؤلف سبع عشرة صفحة للعهد السعدى ، مشيرا الى الحياة السياسية والعلمية ومترجما لخمسة من رجالات هذا العصر (12) .

---

7) نشرته مكتبة الطالب بالرباط ، 1971 ، فى 715 صفحة .
8) **القصيدة** من صفحة 562 الى صفحة 603 .
9) **المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية** ، المطبعة الرسمية بالرباط ، 1920 ، فى 237 صفحة .
10) م . السائح **المنتخبات** من صفحة 22 الى 52 .
11) **تاريخ الادب العربى المغربى والاندلسى** هو الجزء الثانى فى السلسلة (كان الجزء الاول عن أدب العصر الحديث فى العالم العربى ) المطبعة المهدية بتطوان ، 1375 — 1955 ، فى 164 صفحة .
12) ا . الالغى ، **تاريخ الادب** ، ص 73 — 89 .

## ب — مقـالات ومسـامـرات

### الادب العربى المغربـى والاركيولوجيـا (13)

درس ل. بروفنسـال فى القسم الاول من هذا المقال حالة الدراسات البيليوغرافية المتعلقة بالادب العربى المغربى فى العشرينات من هـذا القرن ، موسعا مفهوم الادب بما يشمل ما الف فى الدين او اللغة او التاريخ او غيرها ،ويظهر فى المقال الاتجاه التاريخى للكاتب الذى يهتم اكثـر بالحديث عن كتب الحوليات والتراجم والمناقب عبر العصور بما فى ذلك العهد السعدى .

⁂

### مـا نعـرف عن الطب القديم فى المغرب (14)

بعد ان اعطى الدكتور رونو نظرة موجزة عن حالة الطب بالمغرب حتى آخر ايام المرينيين خصص بضع صفحات للعصر السعدى ، فوقع فى اضطراب بسبب المعلومات المتنافرة المتوفرة لديه . حكم اولا بالسلب التام على هذا العصر (15) ، ثم استدرك بذكر اسم أسرة أدراق الفاسية التى اشتهرت بالطب أواخر القرن السابع عشر ، أخذا من كتاب **نشـر المثانى** الذى نقل حديثا آنذاك الى الفرنسية ، وبذكر أسماء بعض الكتب الطبية المؤلفة فى أواخر ذلك القرن ايضا أخدا من **فهرس** مكتبة خاصـة نشر حديثا كذلك ، غير ان حظ ابى القاسم الوزير الغسانى اشهر اطبـاء العصر السعدى كان سيئا فى هذا المقال ، حيث حرف اسمه فدعـى الفشتالى بدل الغسانى ، ونسب اليه كتاب **كشف الرموز** (16) وهـو لمجهول بدلا من كتبه المعروفـة (17) .

13) نشرة معهد الدراسات العليا المغربية ، العدد الاول ، ديسمبر 1920 ، ص 164 — 174

14) المصدر السابق ص 71 — 83 .

15) المصدر السابق ، ص 75 .

16) انظر س. هلوش والرجراجى **فهرس المخطوطات** ، 2 : 367 .

17) نشير الى ان الدكتور رنو بعد مرور 13 سنة على كتابة هذا المقال صحح اسم الطبيب الغسانى ونسب اليه كتابين من كتبه المعروفة ، وذلك فى الفصل الذى حرره بكتاب **التعريف بالمغرب** ( صفحة 180 من الطبعة الثانية ) .

## الكتابــة والكتـــاب (18)

حاول عبد الحميد الرندى ان يعطى فى **مسامرته** نظرة عن تطـــور الانشاء العربى فى المشرق والمغرب منذ الجاهلية الى العصر الحاضر مع الالمام باخبار اشهر الكتاب ، فسقط فى الاختصار المخل الذى لا يكاد يبـين احيانا . وقد مر فى مسيرته السريعة بالعصر السعدى وترجم باقتضـاب لاحد عشر من ادباء هذا العصر بعد أن صنفهم حسب الملوك الذين خدموا فى بلاطهم ، مبتدئا بسعيد الحامدى كاتب السلطان احمد الاعرج ، وخاتما بعبد العزيز التغلبى كاتب السلطان زيدان ابن المنصور .

***

## تاريـــخ الشعر والشعـــراء بفـــاس (19)

قسم احمد النميشى **محاضرته** قسمين : استعرض فى القسم الاول تطور الشعر فى المغرب من عهد الادارسة الى عصره ، مشيرا الى أن النهضة الادبية التى لم يعرفها المغرب الا مع الموحدين والمرينيين قـد انطمست معالمها فى عهد الوطاسيين لتظهر من جديد مع السعديين . وقد قسم العصر السعدى أربعة اقسام : طور الانتعاش وينتهى بموت عبد الله الغالب ( 1574/981 ) ، تليه فترة ركود أيام عبد الملك ( 983 — 1576/986 — 1578 ) ، بعدها عهد الازدهار أيام حكم المنصور ( 986 — 1578/1012 — 1603 ) ، تليها فترة توقف أيام زيدان لينتثر عقـــد السعديين بموته عام 1628/1037 .

وخصص القسم الثانى لاشهر شعراء فاس مرتبين بحسب وفياتهم مبتدئا من المولى ادريس مؤسس فاس الى معاصرى المحاضر ، يعرف بالشاعر فى بضعة اسطر ويذكر تاريخ وفاته ، ثم ياتى ببيتين أو ثلاثة أبيات من مختار شعره . وقد خصص 24 ترجمة لشعراء العصر السعدى (20).

***

---

18) عنوان **مسامرة** القيت بفاس يوم 13 ماى 1923 ، وطبعت بالمطبعة الحجرية بفاس ، عام 1924/1342 ، فى 32 صفحة .

19) عنوان **مسامرة** القيت فى المدرسة الثانوية الادريسية بفاس مساء 17 دينمبر 1924 ، وطبعت بمطبعة اندرى بفاس ، عام 1343 / 1924 ، فى 97 صفحة .

20) أ. النميشى ، **تاريخ الشعر** ، ص 37 — 60 . ولم نترجم فى كتابنا هذا الا لعشرة من 24 المذكورين عند النميشى ، ضاربين صفحا عن الباقين لانهم من المقلين .

## الحياة الفكرية بالمغرب (21)

بحث ل. بروفنسال فى هذا الفصل مختلف مظاهر الحياة الفكرية بالمغرب طوال العصر الاسلامى . وفيما يخص القرن السادس عشر بين الدور العلمى الهام الذى قامت به الزوايا المنتشرة فى انحاء البلاد ، فى حين اخذت فاس تفقد اهميتها العلمية القديمة ، مستعرضا فى الاخير أسماء اللامعين من العلماء فى مختلف فروع المعرفة ، سواء منها الدينية والدنيوية، ومن بينهم بعض رجالات العصر السعدى .

*

## اللهجات (22)

تحدث ج كولان فى القسم الثانى من هذا البحث المتعلق باللغة العربية فى المغرب عن تاريخ شعر الملحون فى الفترة الاولى الممتدة الى نهاية المرينيين ، وفى الفترة الثانية التى تبتدىء مع السعديين لتستمر حتى اليوم . وقد بين بعض مميزات الملحون وترجم باقتضاب لاثنين من شيوخ الملحون فى العصر السعدى .

*

## تطور اسلوب الانشاء فى المغرب الاقصى (23)

تناول محمد الحجوى فى هذه **المسامرة** تاريخ النثر العربى بالمغرب وتطوره منذ الفتح الاسلامى الى يومه ، متبعا فى التقسيم الدول المتعاقبة على حكم البلاد . وقد جعل عهد الوطاسيين والسعديين أحط عهود الانشاء بالمغرب ، مستدلا برسالة قصيرة ملحونة لمحمد الشيخ المامون يستنجد فيها بملك اسبانيا فيليب الثالث ( 1598 — 1621 ) ولم يستثن المحاضر

---

(21) هذا هو الفصل 8 من البحث الذي نشرته د. م. ا. فى مادة مغرب ، سنة 1930 ، 3 : 340 — 342 . وقد اعيد نشر هذا الفصل فى كتاب **التعريف بالمغرب** الذى أصدره معهد الدراسات العليا المغربية بمناسبة انعقاد مؤتمره الثامن بفاس سنة 1933 ، ص 171 — 178 .

(22) هذا هو الفصل 7 من البحث المنشور فى د. م. ا ، مادة مغرب ، 3 : 333 — 340 ، وفى **التعريف بالمغرب** ، صفحة 208 — 233 .

(23) مسامرة القيت فى المؤتمر الثامن الذى نظمه معهد الدراسات العليا المغربية بفاس فى شهر ابريل 1933 ، ونشرت فى مجلة **المغرب** الرياضية كذيل للعدد 9 ، فى ماى 1933 ، ص . 1 — 27 ، وللعدد 11 ، فى يوليوز 1933 ، ص. 1 — 28 .

الا عهد احمد المنصور وبعض رسائل للدلائيين وغيرهم دون ان يذكر اى اسم من اسماء كبار كتاب العصر السعدى جاعلا بذلك الشاذ قاعـدة والعام الشائع استثناء ! واستنتج فى الخاتمة ان اطوار الانشاء فى المغرب خمسة ، ثالثها طور الضعف والانحلال المتمثل فى عهد الوطاسيـين والسعديين دون استثناء !

**

## الأدب المغربـي (24)

حاول محمد الفاسى ان يقدم فى هذه **المقالة** نظرة موجزة وشاملة فى نفس الوقت عن الادب المغربى منذ الفتح الاسلامى الى اليوم ، متبعا فى التقسيم ايضا تسلسل الدول ، وخصص الفصل الخامس لعصـر الوطاسيين والسعديين ، معتبرا أن بدء النهضة الادبية فيهما انما كان بعد معركة وادى المخازن ( 1578/986 ) بسبب تشجيع أحمد المنصـور وحدبه على الادب والأدباء ، مترجما باختصار لثمانية من أعلام هذا العصر.

**

## نظـــرة عامـــة (25)

اشار محمد الفاسى فى بداية هذه المحاضرة الى الصعوبات القائمة فى وجه تاريخ الآداب العربية بالمغرب الاقصى قديما وحديثا قبل أن يتحدث عن الجهود الاولى التى أخذ يبذلها فى هذا السبيل بعض العلماء من مغاربة ومستشرقين ، مستعرضا ما أخرجته المطابع آنذاك من كتب ودوريات تهتم بماضى المغرب تاريخا وتراجم وأدبا ، مشيدا بالخصوص بالدور الذى يقوم به أساتذة معهد الدراسات العليا المغربية بالربـــاط فى مجلـة ( هيسبريس )، أعظم مصدر لتاريخ المغرب السياسى والادبى والاجتماعى فى نظره ، وفى سلسلة منشورات الكتب العربية .

---

24) كتب هذا المقال فى **مغرب** من منشورات دائرة المعارف الاستعمارية البحرية ، باريز، سنة 1940 ، ص. 410 — 428 .

25) الاسم الكامل **نظرة عامة على تاريخ الاداب العربية بالمغرب الاقصى** ، وهـى المحاضرة الاولى فى سلسلة المحاضرات الادبية التى أخذ محمد الفاسى يلقيها باذاعة المغرب ، سنة 1940 ، وقد نشرتها جريدة **التقدم** السلاوية فى عددها الممتاز رقم 1، 20 ابريل 1940 ، ص. 6 — 7 .

## الرحالة المغاربة

هذه سلسلة مقالات ظل محمد الفاسى ينشرها فى الجرائد والمجلات منذ سنة 1934 (26) ، بعضها عن من الرحلة بالمغرب عموما ، وبعضها من رحالة باعيانهم . وقد لخص زبدة ذلك فى المقدمة التى كتبها لرحلة ابن عثمان المكناسى : **الاكسير فى فكاك الاسير** ، اول رحلة نشرها فى سلسلة الرحلات السفارية ، ( الرباط 1965 ) ، حيث أعطى نظرة شاملة عن فن الرحلة بالمغرب منذ اصوله مارا بالعصر السعدى وممثلا بأنواع من الرحلات التى كتبت فيه . ثم تحدث بشيء من التفصيل عن احدى رحلات العصر السعدى فى المقدمة التى كتبها لرحلة ابن مليح : **أنس السارى والسارب** ، وهى الرحلة الثانية التى نشرها فى سلسلة الرحلات الحجازية ( فاس 1968 ) ، وقد استمرت هذه الرحلة من عام 1630/1040 الى عام 1633/1042 .

❀

## شعر الملحون

يرجع اهتمام محمد الفاسى بشعر الملحون الى عام 1925 وهو ما يزال تلميذا بثانوية مولاى ادريس بفاس ، وقد كتب فيه مقالات ومحاضرات وأحاديث اذاعية وترجم كثيرا من قصائد الملحون الى الفرنسية (27) . وربما كان خلاصة ذلك فى المحاضرة التى القاها بثانوية النهضة بسلا سنة 1963 ونشرتها كل من مجلة **تطوان** (28) **والبحث العلمى** (29) وفيها يتحدث عن ظهور هذا الفن الشعبى أيام السعديين ويذكر من عرف من شعراء هذا العصر وما احدثوا فيه من تنويع أخذه عنهم شعراء القرون التالية . ثم نشر محمد الفاسى لاول مرة أهم ما كتب عن أوزان الملحون المغربى لحد الآن فى سلسلة مقالات **عروض الملحون ومصطلحاته** (30) ، محاولا بذلك تقنين أوزان الشعر الملحون على نحو ما فعل الخليل بأوزان الشعر الفصيح .

---

(26) اول مقال فى هذه السلسلة **ابن بطوطة ورحلته** المنشور فى **مجلة المغرب** الرباطية ، غشت – شتنبر 1934 ، ص. 12 – 15 . انظر عن هذه السلسلة **متنوعات محمد الفاسى** ص. 127 – 147 .

(27) انظر عن هذه السلسلة **متنوعات محمد الفاسى** ص. 93 – 96 93 96 – 96 – القسم الفرنسى ، وصفحة 131 – 147 فى القسم العربى .

(28) **تطوان** ، 9 ، 1964 ص. 7 – 30 .

(29) **البحث العلمى** عدد 1 يناير – ابريل 1964 صفحة 41 – 64 .

(30) **الثقافة المغربية** 1 يناير – فبراير 1970 صفحة 7 – 29 – و عدد 2 – 3 مارس – دسمبر 1970 صفحة 5 – 23 وعدد 4 ابريل 1971 صفحة 1 – 24 وعدد 5 ديسمبر 1971 صفحة 1 – 20

### الموسيقى المغربية المسمــاة اندلسيــة

محاضرة القاها محمد الفاسى بمدرج كلية العلوم بالرباط بمناسبة افتتاح الموسم الثقافى لسنة 1962 ، وربما كانت امتع محاضرة استمعت اليها لا فيما يخص المعلومات القيمة التى اشتملت عليها فحسب ، ولكن ايضا للطريقة التطبيقية المرحة التى اختارها لها المحاضر ، حيث كان جوق من هواة الطرب الاندلسى يقدم نماذج حية للصنائع المختلفة التى يتحدث عنها المحاضر . وقد تعرض الى ما جد من الأنغام والاناشيد فى الموسيقى المغربية أيام السعديين ، ونشر نص هذه المحاضرة فى عدة مجــلات بالعربية والفرنسية (31) .

⁂

### مراكــز الثقافــة المغربيـــــة (32)

تحدث عبد العزيز ابن عبد الله فى هذا المقال عن الدور الثقافــى لمدينتى فاس ومراكش فى أطوارهما التاريخية كعاصمتين سياسيتــين وعلميتين ، مشيرا باقتضاب الى حالتهما أيام السعديين .

⁂

### الحــركــة الفكريــة فى عهــد الشرفــاء (33)

ابتدأ عبد العزيز بن عبد الله هذا البحث بالكلام على مصادر تاريخ الفكر أيام السعديين فالعلويين ، ممثلا ببعض أنواعها من كتب الفقــه والتاريخ والتراجم والاراجيز ، ثم أتى على الخصائص الفكرية المشتركة بين العصرين السعدى والعلوى ، جاعلا من أبرز ذلك احتلال فاس مركز الصدارة العلمية واتحاد المناهج التعليمية فى القرويين وغيرها فى كــلا العصرين ، وختم بالحديث عن العلاقات بين المغرب والمشرق العربى عن طريق الرحلات العلمية فى العهد السعدى وما بعده .

---

31) انظر مثلا مجلة **تطوان** ، 7 ، 1962 ، ص . 7 — 26 .

32) انظر مجلة **رسالة المغرب** الرباطية عدد 8 — 9 ، أبريل — ماى 1948 ، ص. 478 — 482 .

33) أصل هذا البحث محاضرة القيت على طلبة كلية الاداب بالرباط وطبعت على ( الستانسيل) ثم نشرتها مجلة **رسالة المغرب** فى عددها الممتاز الخاص بعيد العرش تحت عنــوان **الحركة الفكرية فى العهد العلوى** ، عدد 34 ، نونبر 1951 ، ص. 11 — 16 ، وعدد 135 ، ديسمبر 1951 ، ص. 13 — 20 .

## المرأة المراكشية فى الحقل الفكرى (34)

بعد مقدمة طويلة استغرقت نحو ثلثى المقال عن المرأة عموما فى العالم القديم وفى الاسلام، استعرض عبد العزيز ابن عبد الله اشهر النساء المغربيات من عهد الادارسة الى العلويين ، وخصص نحو صفحتين للعصر الوطاسى والسعدى متحدثا عن اربع نساء من هذا العصر .

⁂

## تاريخ التعليم الاسلامى بالمغرب (35)

بالرغم من شمول موضوع البحث للعصر الاسلامى كله بالمغرب ، فان عبد العزيز ابن عبد الله لم يات فيه الا بمعلومات قليلة ومتفرقة عما كان يدرس من الفنون أيام السعديين ، وعن بعض أوقاف الكراسى العلمية فى عهدهم .

⁂

## الخزانة العلمية بالمغرب (36)

وضع محمد العابد الفاسى هذا البحثبمناسبة عيد جامعة القرويين، مؤرخا فيه للمكتبة العلمية بالمغرب منذ الفتح الاسلامى الى أيامنا هذه . وقد خصص للعصر الذى ندرسه أربعة فصول ممتعة بينت اجمالا حال بعض المكتبات أيام الوطاسيين والسعديين ، ومكتبة أحمد المنصور الخاصة بمراكش ، والخزانة التى بناها بجوار جامع القرويين بفاس .

⁂

---

34) انظر صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، جزء 6 ، عدد 1 — 2 ، سنة 1958 ، ص. 259 — 276 .

35) انظر مجلة دعوة الحق السنة 4 عدد 1 اكتوبر 1960 ص. 53 — 57 .

36) نشرته مطبعة الرسالة بالرباط ، 1380 / 1960 ، فى 79 ص.

## ظاهـــرة تعريبـــة فى المغـــرب السعـــدى (37)

بعد أن استعرض محمد المنونى ما عرف من اشتغال المغاربة بتعلم اللغات الاجنبية والترجمة منها الى العربية منذ العصر الموحدى الـــى منتصف القرن التاسع عشر ، تحدث عن اربعة من المترجمين فى العصر السعدى ، منصلا القول فى كتابى **العز والمنافع** فى فن المدفعية ، **والرسالة الزتوطية** فى فن التعديل ورصد الكواكب .

***

## اساتذة الهندســـة ومؤلفوهـــا فى المغرب السعدى (38)

استعرض محمد المنونى فى هذا المقال أسماء اثنى عشر رياضيـــا ممن درسوا فن الهندسة ، اثنان منهم من رجال العصر العلوى ، وذكر بعض الكتب التى الفوها فى هذا الفن والمكتبات التى توجد فيها واصفا ما وقف عليه منها .

***

## كراســـى الاساتـــذة بجامعـــة القرويـــين (39)

تناول محمد المنونى فى هذا البحث الكراسى العلمية فى القرويـــين وغيرها من مساجد فاس ومدارسها ، وما وقف عليها السلاطين والافراد من أوقاف ، وذلك منذ العصر المرينى الى اليوم . وقد ذكر ثمانية عشر كرسيا من الكراسى العلمية فى العهد الوطاسى والسعدى ، ومن كـــان يشغلها من العلماء ، والمادة التى كانوا يدرسون عليها .

---

(37) انظر مجلة **اللسان العربى** ، الرباط ، السنة 1 ، عدد 1 ، يونيه 1964 ، ص. 52 — 66 .

(38) انظر مجلة **دعوة الحق** السنة 9 عدد 2 ديسمبر 1965 ص. 101 — 104 .

(39) نشر هذا البحث مسلسلا فى ثلاث مقالات بمجلة **دعوة الحق** ، السنة 9 ، عدد 4 ، ببراير 1966 ، ص. 91 — 97 ، وعدد 5 ، مارس 1966 ، ص. 91 — 97 ، وعدد 6 — 7 ، ابريل — ماى 1966 ، ص. 117 — 119 .

# ج ـ المصادر الرئيسية

اقصد بالمصادر الرئيسية كتبا وصلت الينا من العصر السعدى نفسه ، واحتوت على معلومات تتعلق بالحياة الفكرية والادبية أو على نصوص نثرية أو شعرية من هذا العصر . وقد صنفتها سبعة أصناف مرتبة كذلك داخل كل صنف ترتيبا زمنيا بحسب تأليفها .

## 1 ـ كتب التاريخ

### مناهل الصفا فى اخبار الملوك الشرفا

ابتدأ عبد العزيز الفشتالى تأليف هذا الكتاب على ما يظهر فى العقد الأخير من القرن العاشر / السادس عشر الميلادى ، ولا يعرف تاريخ انتهائه ولا عدد اجزائه الا ما ذكره أحمد المقرى من أنه يعرف تمام ثمانى مجلدات منه (40) . وقد اعتبر المهتمون بتاريخ المغرب فى النصف الاول من هذا القرن كتاب **المناهل** ضائعا ، الى ان عثر أخيرا على جزء واحد منه فى نسختين ،الاولى بفاس نشرها عبد الله كنون بتطوان ، سنة 1964 ، على أنها مختصر الجزء الثانى ، والنسخة الثانية بتونس أوسع من الاولى (41) . وهما معا تتحدثان عن فترة عشرين سنة من دولة أحمد المنصور ، منذ توليه الملك عام 1578/986 الى ايقاعه بقبائل أعراب الغرب أوائل عام 1597/1006

***

### المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور

الف احمد ابن القاضى **المنتقى** بعد خروجه من اسر المسيحيين عام 1587/995 شكرا لمخدومه احمد المنصور الذى بذل فى خلاصه فدية عظيمة . واذا كان هذا الكتاب بقى متداولا بدون انقطاع فان بعض أبوابه

---

40) المقرى **نفح الطيب** ، 7 : 82 .

41) كانت فى خزانة المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ثم صارت الى م. و بتونس تحت عدد 818 فى 268 ورقة ، من قياس 280 × 210 مم ، تسعة عشر سطرا فى كل وجه انظر من نسختى هذا الجزء من كتاب **المناهل** مقالنا فى **دعوة الحق** ، السنة 9 ، يونيه 1966 ، العدد 8 ، ص. 70 وما بعدها .

غير معروفة الان حسب ما تبين من مقارنة مخطوطاته المتعددة فى المكتبات المغربية (42) . ويتناول الكتاب اخبار احمد المنصور من ولادته ونشأته وتعلمه وصفاته الخلقية والخلقية الى توليه الملك وسيرته فى سياسة الرعية . ويختص الباب الرابع والعشرون بذكر فقهاء العصر وابناء الزمان، ومن اجتمع بهم المؤلف فى سفره من المشايخ والاخوان .

⁂

## 2 — كتب التراجم

### دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (43)

الف محمد ابن عسكر **الدوحة** عام 1577/985 ، اى قبل وفاته بسنة واحدة ، كفهرس ذكر فيه شيوخه وما قرا عليهم من فنون او اخذ عنهم من مبادىء التصوف ، الا أنه توسع فذكر كل من عرف من شيوخ القرن العاشر / السادس عشر الميلادى ، سواء لقيهم أو لم يلقهم ، بل ذكر من أعلام هذا القرن حتى الذين لم يعاصرهم . وتمتاز **الدوحة** بعنايتها اكثر بعلماء شمال المغرب وخاصة قرى جبال الريف .



### درة الحجال فى أسماء الرجال (44)

الف احمد بن القاضى هذا الكتاب عام 1591/999، واهداه لمخدومه المنصور ، مذيلا به **وفيات الاعيان** لابن خلكان ( ت 1282/681 ) جامعا فيه اثنتين وعشرين وخمسمائة وألف ترجمة لأعلام ثلاثة قرون ونيف ، من اواخر القرن السابع الى أوائل القرن الحادى عشر . ورتب التراجم على

---

42) انظر عن اختلاف مخطوطات **المنتقى** مقالنا فى **دعوة الحق** ، السنة 10 ، نونبر 1966 ، العدد 1 ،ص 100 وما بعدها .

43) طبعت **الدوحة** على الحجر بفاس عام 1309 / 1892 فى 104 صفحة ، ( وقد حققناها واعدنا طبعها فى مطبعة دار المغرب للتاليف والترجمة والنشر عام 1976/1396 .

44) طبعت **درة الحجال** أولا بالمطبعة الجديدة بالرباط ، 1934 — 1936 ، بعناية ك. س علوش ، فى جزءين ، 618 صفحة ، واعيد طبعها بالقاهرة بعناية محمد الاحمدى أبى النور فى ثلاثة اجزاء ، 1970 — 1974 ، فى 322 + 349 + 561 صفحة . وقد اعتمدنا هذه الطبعة الاخيرة .

حروف المعجم بحسب الاصطلاح المغربى ، الا انه لم يرتبها ترتيبا زمنيا داخل كل حرف . وتمتاز **درة الحجال** بانها لا تختص بالمغاربة ، وانما تعرف بالمشارقة والاندلسيين ايضا .

⁂

## جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس (45)

الفها احمد بن القاضى حوالى عام 1596/1004 ، واهداها ايضا للمنصور ، معرفا فيها بتاريخ مدينة فاس ومحاسنها ، مترجما لملوكها وعلمائها وادبائها ، سواء كانوا من اهلها الاصليين أو من الطارئين عليها، وذلك منذ تاسيسها عام 192 / 808 الى يوم التأليف . وتراجم **الجذوة** مرتبة ترتيبا ابجديا مغربيا ، وترتيبا زمنيا حسب الوفيات داخل كل حرف. وقد التزم ابن القاضى ان يذكر فى تراجم العلماء والادباء ، ومن بينهم رجال العصر السعدى ، بعض ما لهم من تآليف واشعار .

⁂

## ٨ نيل الابتهاج بتطريز الديباج (46)

الف احمد بابا السودانى **نيل الابتهاج** فى مدينة مراكش عام 1005/ 1597 ، مذيلا به **الديباج المذهب** لابن فرحون ( ت . 799 / 1397 ) ومستدركا بعض التراجم التى أهملها هذا الاخير . وقد ترجم لابن فرحون ومن بعده من فقهاء المالكية مشارقة ومغاربة الى يوم التأليف . وتراجم الكتاب مرتبة ترتيبا أبجديا ( شرقيا ) ، وترتيبا زمنيا تقريبا حسب الوفيات داخل كل حرف . وفى تراجم فقهاء العصر السعدى كغيرهم يذكر مشيختهم وتآليفهم .

⁂

45) طبعت **الجذوة** على الحجر بفاس عام 1309 / 1892 فى 355 صفحة ، وأعيد طبعها بالرباط عام 1975 . وقد اعتمدنا الطبعة الحجرية

46) طبع **نيل الابتهاج** مرارا . والطبعة التى اعتمدناها هى التى طبع فيها بهامش **الديباج المذهب** لابن فرحون ، بمطبعة ابن شقرون فى القاهرة ، 1932/1351 ، فى 361 صفحة .

## كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج (47)

الف احمد بابا **كفاية المحتاج** بمراكش ايضا عام 1603/1012 ، مختصرا كتابه السابق **نيل الابتهاج** و « مقتصرا فيه على مشاهير الائمة واولى التصنيف دون غيرهم بنفس ترتيب **نيل الابتهاج** . وتمتاز **كفاية المحتاج** نضلا عما اشتملت عليه من اخبار مؤلفى العصر السعدى بترجمة شخصية مطولة للمؤلف فى نحو 65 صفحة كفهرس خاص به (49)، تليه لائحة مفصلة للمصادر التى اعتمد عليها .

⁂

## ازهار الرياض فى اخبار عياض (50)

الف احمد المقرى **ازهار الرياض** بمدينة فاس قبيل نزوحه عنها عام 1618/1027 ، معرفا بالقاضىعياض السبتى ( ت . 544 / 1149 ) ملما فيه استطرادا بأخبار كثير من علماء المغرب والاندلس وبذلك نجد فى هذا الكتاب تراجم بعض رجال العصر السعدى وقطعا شعرية ونثرية لهم ، لا توجد فى غيره .



## نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب (51)

الف أحمد المقرى هذا الكتاب بالقاهرة عام 1629/1038 استجابة لالحاح تلاميذه الدمشقيين الراغبين فى مزيد من التعرف على اديب الاندلس الكبير لسان الدين ابن الخطيب ( ت . 776 / 1374 ) بعدما سمعوا عنه

---

47) توجد فى م. م بالرباط مخطوطتان جيدتان من **كفاية المحتاج** ، الاولى بخط مغربى ومسجلة تحت عدد 681 ، وهى التى اعتمدتها ، والثانية بخط مشرقى ومسجلة تحت عدد 453 .

48) من خطبة **كفاية المحتاج** ورقة 1 ظ .

49) المصدر السابق من ورقة 156 ظ الى ورقة 188 و .

50) توجد مخطوطات كثيرة **لازهار الرياض** بمكتات المغرب والمشرق ، من احسنها مخطوطة م. ع بالرباط عدد 229 ك ، ومخطوطة م. م بالرباط عدد 784 ، كل منها فى سفرين ضخمين . وقد طبع الجزء الاول منه بالمطبعة الرسمية العربية بتونس عام 1322 / 1904 ثم طبعت الاجزاء الثلاثة الاولى منه بعناية المعهد الخليفى بتطوان ، فى مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة 1339 / 1942 ، فى 371 و 429 و 368 صفحة، وهى التى اعتمدت عليها .

51) توجد المخطوطة الاصلية **لنفح الطيب** فى م. م.ب الرباط ، عدد 273 بخط المؤلف . وطبع القسم الاول من **نفح الطيب** بليدن سنة 1855 ، ثم طبع الكتاب كاملا مرارا بمصر ، على ان احسن طبعة علمية شاملة للكتاب هى طبعة دار صادر بيروت ، سنة 1968 ، بتحقيق الدكتور احسان عباس ، فى 8 مجلدات ، خصص آخرها للفهارس ، وهى التى اعتمدت .

من المقرى ما اثار اعجابهم به . والكتاب قسمان متميزان ، اولهما يتحدث عن الاندلس عامة فى ثمانية فصول ، والثانى خاص بابن الخطيب فى ثمانية فصول اخرى . ورغم الطابع الاندلسى للكتاب فانه يشتمل علىاستطرادات كثيرة تتعلق بالمغرب السعدى ، وفيها شىء غير قليل من أخبار ورسائل وقصائد لبعض رجالاته ممن لقيهم المؤلف أو سمع عنهم .

**

## مــرآة المحاسن من اخبــار الشيخ ابى المحاسن (52)

الف محمد العربى الفاسى **مرآة المحاسن** عام 1636/1046 زمن تشرده عن مسقط راسه فاس ، وربما كان ذلك سبب بقاء الكتاب ناقصا ، للتعريف بوالده الشيخ ابي المحاسن . وفى هذا الكتاب اخبار مهمة تتعلق بالحياة الفكرية فى المغرب أيام السعديين ، وتراجم عدد من رجالات هذا العصر ، منها ترجمة شخصية مطولة للمؤلف تتشبه أن تكون فهرســــه الخاص (53) .

**

## 3 ــ فـهــــارس

### التعلــل برسوم الاسناد بعد انتقال اهــل المنزل والناد (54).

هذا الفهرس وذيله ، ولو أنهما فى الحقيقة يتحدثان عن دراســـة محمد ابن غازى وشيوخه قبيل العصر السعدى ، يعتبران أساس كــل فهارس هذا العصر ومرجعها الاصيل ، لما كان لابن غازى من اتساع فى الرواية من جهة ، ولكثرة تلامذته وانتشارهم فى مختلف أنحاء المغرب من جهة ثانية . وهما الى ذلك يمكنانا من مقارنة ما قرأ ابن غازى فى النصف الثانى من القرن التاسع ، وما اقرأه واجاز به تلاميذه فى أوائل القــرن العاشر .

---

52) طبعت **مرآة المحاسن** على الحجر بفاس عام 1906/1324 ، على ما بها من بياض ونقص، لان المؤلف مات قبل اتمامها .

53) انظر م. العربي الفاسى ، **مرآة** ، ص. 159 الى 189 ، ومن ص 205 الى 238، وهو آخـر الكتــاب .

54) توجد نسخ متعددة **لفهرس** ابن غازى **وذيلها** فى المكتبات المغربية ، واحسنها مخطوطة م. م. بالرباط ، عدد 3444 ز بخط المؤلــف .

## رسالة الاخوان من اهل الفقه وحملـة القــرآن (55)

الف على بن ميمون الغمارى هذه الرسالة بدمشق بعدما ورد عليه فيها حاجان مغربيان من حاجا ، عام 1509/915 ، وحدثاه عن حال التعليم بفاس ، وكانت الاخبار قد انقطعت عنه منذ سنوات فاشتاق الى ان يجتمع بعلماء القرويين ويفاتحهم بما حصل عليه من العلم الباطن بعد ان تركهم وهو قاصر على العلم الظاهر . ولما وجد ذلك متعذرا لبعد الشقة كتب اليهم **رسالة الاخوان** «على مقتضى سلوك الطريق المحمدية الممدة من اسرار العلوم اللادنية» (56). وبعد ان اثبت فى الرسالة سنده فى التصوف ذكر اشياخه بفاس وما قرأ عليهم فى مختلف الفنون الشرعية واللغوية والعقلية ، واتــى بتفصيلات لا توجد عند غيره عن حياة الطلبة بفاس وجدهم فى القــراءة والتحصيل ليل نهار ، والاكباب على المطالعة فى المكتبات العامة فى اوقات محددة . وقد أعاد ابن ميمون ذكر شيوخه وقراءته عليهم فى **الرسالة المجازة فى معرفة الاجازة** (57) مضيفا تفصيلات كثيرة عن طريقة حفظ القرآن الكريم واتقان رسمه وضبطه وتجويده وما يجتازه المقرىء من امتحانات آنذاك قبل ان يحصل على الاجازة فيه .



## الالمام ببعض من لقيت من علماء الاسلام (58)

كتب عبد الواحد السجلماسى هذا **الفهرس** بمراكش عام 1575/982 مبينا فيه دراسته بدرعة وفاس ، مترجما لمن قرأ عليهم من شيوخهما . وقد

---

55) توجد نسخ كثيرة من **رسالة الاخوان** بالمكتبات المغربية ، والتى اعتمدتها هى مخطوطة م. ع. بالرباط عدد 1780 د ، ضمن مجموع ( ص. 152 — 150 ) بخط مغربى دقيــق ملـــون .

56) ع. الغمارى **رسالة الاخوان** ص.54 .

57) توجد مخطوطة **الرسالة المجازة** بمكتبة خاصة بفاس ، وتملك المكتبة العامة بالربــاط ميكروفيلما عن هذه المخطوطة ، عدد 1343 . وقد نشر محمد الفاسى فصلا من **الرسالة المجازة** تحت عنوان **الدراسة بالقرويين ايام الوطاسيين** بمجلة **رسالة المغرب** ، السنة الاولى ، عدد 11 ، يوليوز 1943 ، ص. 41 — 43 .

58) المخطوطة الوحيدة **للالمام** — فيما أعلم — توجد بمكتبة ابراهيم الكتانى الخاصة بالرباط، انتسخت من خط المؤلف فى حياته عام 998/ 1590 ، وفى آخرها قراءة المؤرخ أحمد ابن القاضى هذا الفهرس على مؤلفه الذى اجازه اجازة عامة بخط ابن القاضى وتوقيــع السجلماسى . كما توجد بآخرها اجازة ابن القاضى للسجلماسى ( تدبيج ) ، واجازتان اخريان لابن القاضى بخطه من ابى الحسن القرافى ومحمد التواتى ، وثالثة لابن القاضى ايضا من امام الدين الخليلى بخطه المشرقى .

اثبت نص اجازة رضوان الجنوى له وسنده فى الحديث ، ونصوص اجازات اخرى حصل عليها من علماء مغاربة ومشارقة .

⁂

## فهرس المنجور (59)

كتب احمد المنجور هذا الفهرس بمراكش عام 1591/989 ، مجيزا به تلميذه السلطان احمد المنصور الذهبى . اشتمل الفهرس على كل ما قرأه المنجور على شيوخه مع توسع فى تراجم هؤلاء . فكان أفيد وأمتع فهارس العصر السعدى لما احتوى عليه من معلومات كثيرة عن مظاهر الحياة الثقافية فى هذا العصر ، واستطرادات واشارات ادبية ممتعة .

⁂

## رائد الفلاح بعوالى الاسانيد الصحاح (60)

كتب احمد بن القاضى هذا الفهرس عام 1901/1010 مجيزا به الامير زيدان بن احمد المنصور الذهبى ، مشتملا على أسانيد ابن القاضى فى كتب القراءات والتفسير والحديث والتصوف والرحلات والفهارس واللغة والادب فضلا عن تراجم شيوخه وأجازاتهم له . ويمتاز **رائد الفلاح** بصفحات أدبية شيقة خصصها ابن القاضى فى الخاتمة لما رواه هو عن زيدان من اشعار واخبار ، وذلك كل ما بقى لنا من آثار ذلك الامير الاديب المغمور .

⁂

---

59) يوجد فى الواقع فهرستان للمنجور صغير وكبير يتفقان فى اكثر الفصول . ويمتاز الكبير بزيادات فى مواضع متعددة تبلغ احيانا اكثر من صفحتين . وهناك نسخ متعددة لفهرسى المنجور ، احسنها مخطوطة مكتبة ابراهيم الكتانى الخاصة التى يظن أنها بخط المؤلف ، وعلى ظهر الورقة الاولى منها اجازة ابى القاسم المخلوفى للمؤرخ احمد ابن القاضى بخط هذا الاخير وتوقيع المجيز ، بتاريخ 18 محرم 16/999 نونبر 1590 . وعندى مصور من هذا المخطوط ، وهو الذى اعتمدته . وكنت قد خرجت هذا الفهرس على الالة الكاتبة وحققته ليكون اطروحة اضافية قبل ان يتغير نظام الدكتوراه .

60) ربما كانت المخطوطة الوحيدة **لرائد الفلاح** هى التى بمكتبة الاكاديمية الملكية التاريخية بمدريد ، عدد 17 كينكس ، وهى بخط المؤلف .

### اصليت الخريت فى قطع بلعـــوم العفريـــت النفريـــت (61)

هذا الكتاب هو فى نفس الوقت فهرس ورحلة ، الفه احمد ابن ابى محلى بوادى الساورة ( ناحية كولومبشار غربى الجزائر اليوم ) عام 1016/ 1908 فى اربعة ابواب . يتحدث فى الباب الاول عن شيوخه الصوفية ، وفى الثانى عن اساتذته العلماء من مغاربة ومشارقة ، وفى الثالث عن حياتـه الخاصة : نسبه ونشاته واشتغاله بالتعلم فى تافيلالت ثم فى فاس وباديـة تستاوت الى انقطاعه للتصوف ، وفى آخر هذا الباب ادمج اخبار رحلتيـه الحجازيتين . اما الباب الرابع فقد خصصه لما شاهد من خوارق العادات.

⁂

### الفوائـــد الجمـــة باسنـــاد علـــوم الامـــة (62)

كتبها عبد الرحمن التمنارتى بترودانت عام 1636/1045 ، مسجلا فى البابين الاولين احداث طفولته وتعلمه فى قريته تمنارت بجنوب سوس ، ثم هجرته الى عاصمة الاقليم ترودانت ليدرس على شيوخها الى أن يصيـر العالم الاول فيها مدرسا وقاضيا وخطيبا ، تاركا للبابين الاخيرين ما شاهد من الغرائب والمرائى الحسان . وأهم مميزات **الفوائد الجمة** أنها تعكس مع **الاصليت** الحياة العلمية فى جنوب المغرب ، لترسم مع الفهارس السابقـة المبرزة للحالة العلمية بالشمال مشهدا متكاملا لاحد جوانب الحياة الفكرية بالمغرب أيام السعديين .

⁂

## 4 ــ جغـــرافيـــا ورحـــلات

### وصـــف افريقيـــا (63)

الف الحسن الوزان الفاسى المدعو ليون الافريقى هذا الكتاب سنة 1526/932 وهو أسير بمدينة روما ، متحدثا فيه عن جغرافية افريقيـــا

---

61) يوجد فى م. م. بالرباط ثلاث مخطوطات **للاصليت** ، أحسنها المخطوطة عدد 100 ، وهى تامة صينة كتبت عام 1701/1113 بخط مغربى واضح ، فى 146 ورقة من الحجم الكبير .

62) توجد مخطوطات متعددة **للفوائد الجمة** ، وأصلها نسخة المكتبة العامة بالرباط عـــدد 1420 د المصورة عن مخطوطة قاضى ترودانت سابقا موسى الرسموكى ، وقد انتسخها للمؤلف عام 1046 / 1637 أحد تلاميذه بترودانت . تقع فى 377 صفحة من الحجم المتوسط وهى التىاعتمدتها بعد أن لفقت ما بها من محو فى بعض الاوراق اعتمادا على مخطوطة خاصة بسلا . وقد ترجم الكولونيل جستنار مقاطع من فهرس التمنارتى ونشرها بفرنسا سنة 1953 .

63) الطبعة الجديدة المترجمة من الايطالية من قبل أ ابيولار ، باريز 1956 .

عموما والمغرب الاقصى خصوصا . وفي القسم الثالث المخصص لمملكة فاس تناول بعض جوانب الحياة الفكرية في عاصمة المغرب اوائل القرن الهجري العاشر . فوصف القرويين وكراسيها العلمية والمدارس التابعة لها والدراسة فيها (64) . وفي الكتاتيب القرآنية (65) وغير ذلك .

⁂

## النفحة المسكية في السفارة التركية (66)

كتبها علي التمكروتي اواخر عام 1591/999 بعد ما رجع الى مسقط راسه بدرعة ، وكان قد تغيب عنها خمسة وعشرين شهرا قام اثناءها برحلة سفارية عن مخدومه احمد المنصور الذهبي الى الخليفة العثماني مراد الثالث ( 982 — 1003 / 1574 — 1595 ) بالقسطنطينية . هذه الرحلة مليئة بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والاستطرادات الادبية والمناظرات الشعرية ، الى جانب ما ترسم عن العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب السعدي والامبراطورية العثمانية .



## انس السارى والسارب (67)

الف محمد السراج المعروف بابن مليح هذه الرحلة بمراكش بعد أن رجع من رحلته الحجازية عام 1633/1042 ، واصفا الطريق الصحراوي الذي لم تكتب فيه اية رحلة من قبل . ولما كان المؤلف عالما ومتصوفا في نفس الوقت فقد عني في رحلته هذه باعطاء نظرة عن الحركة الصوفية في جنوب المغرب والصحراء وعن العلاقات الثقافية بين المغرب وبلاد المشرق أواخر العصر السعدي .



---

64) ح الوزان **وصف افريقيا** 1 : 184 — 187 .

65) نفس المصدر 1 : 215 .

66) طبعت **النفحة المسكية** مصورة عن نسخة خطية قديمة بباريز بدون تاريخ .

67) الاسم الكامل للرحلة هو **انس السارى والسارب من اقطار المغارب الى منتهى الآمال والمارب سيد الاعاجم والاعارب** ، وقد طبعت بفاس عام 1968/1388 بتحقيق وتقديم محمد الفاسي .

## مختصــر رحلــة الشهــاب الــى لقــاء الاحباب (68)

كتب احمد الحجرى هذا المختصر بالقاهرة عام 1047 / 1637 بطلب من شيخ المالكية بمصر على الاجهورى ( 967 — 1559/1066 — 1655 ) وسماه **ناصر الدين على القوم الكافرين** والرحلة الأصلية تقع فى اربعة وعشرين بابا على الأقل ، لم يتمكن الحجرى من انتساخها كاملة للاجهورى بسبب اضطراره الى الرجوع الى المغرب ، فاختصرها له فى ثلاثة عشر بابا ، مبتدئا من الباب الثانى عشر فى ذكر تاريخها منذ القديم الى خروج المسلمين منها . ويشتمل البابان الثانى والثالث من **المختصر** على رحلة الحجرى متنكرا من الأندلس الى مراكش ، والأبواب العشرة الباقية على رحلته الى فرنسا وهولندا ومناظراته لقسيسى النصارى واحبار اليهود ، مقدما بذلك نظرة عن الصراع الفكرى الدينى لدى الموريسكيين الذين نزحوا الى المغرب أيام السعديين .

***

# 5 — دواويــن ومجمــوعــات أدبيــة

## ديــوان التــازى (69)

لم يشر احد ممن ترجم لمحمد ابن يجبش التازى — على قلتهم — الى وجود ديوان خاص به ، وانما ذكروا ان له توشيحات وقصائد ومقطعات كلها رائقة ، وله فى فن التصوف العجب من النظم والنثر . يعتبر هذا الديوان فريدا من نوعه فى الادب المغربى لا فى القرن العاشر فقط ولكن فى كل القرون السابقة ، بما اشتمل عليه من اشعار وموشحات رقيقة لا تنحط عن اشعار ابن الفارض ( ت 1235/632 ) وازجال الششترى ( ت. 668/

---

68) **تعتبر رحلة الشهاب** الاصلية اليوم مفقودة ، ومختصرها المسمى **ناصر الدين على القوم الكافرين** مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، عدد 1634 ت ، فى 131 ورقة من قياس 210 × 140 مم و 17 سطرا فى كل صفحة ، وهو بخط المؤلف ، كتبه بتونس عام 1051 / 1641 . ويوجد عند ج كولان كراريس منه ، من الباب السابع الى الاخير . وقد نقل عن هذه الرحلة او مختصرها كل من م. الافرانى فى **نزهة الحادى** ( ص . 106 — 107 ) وم. العياشى فى **ازهار البستان** ( مخطوطة م. ع. بالربــاط عدد 2152 د ، ص. 105 — 107 ) . وتقوم هذه الايام الانسة كليليه سار نييلى من جامعة نابولى بايطاليا بتحقيق الكتاب وترجمته ونشره .

69) المخطوطة الوحيدة لديوان التازى فى المكتبة الملكية بالرباط عدد 3792 ز ، فى 55 ورقة من قياس 200 × 150 مم و 19 سطرا فى كل صفحة ، خط مغربى مليح مشكول أحيانا وهى مبتورة من الاول والاخير ، من جمع احد تلاميذ الشيخ محمد السنوسى معاصر المؤلف . وتحتوى مجموعات خطية متعددة فى المكتبة الملكية على آثار شعرية ونثرية لمحمد التازى .

واضرابهم من كبار ادباء الصوفية بالمشرق والاندلس ، الى مساجلات ادبية رائقة مع اعلام معاصريه ، امثال الشيوخ احمد زروق ( ت . 1493/899 ) ومحمد السنوسى ( ت . 895 / 1490 ) وعبد الله الهبطى .

⁂

## ديوان الدغوغى (70)

لاحمد الدغوغى اشعار كثيرة حافظت لنا على بعضها النسختان المبتورتان من **ديوانه** بالمكتبة الوطنية بمدريد وما نقله سليمان الحوات فى **البدور الضاوية** ، وكلها امداح للشيخ محمد بن ابى بكر الدلائى ، او مولدليات انشدت بحضرته فى حفلات الزاوية الدلائية ، او مساجلات مع أبناء هذه الزاوية الشعراء ، فى حين ضاعت اشعار الدغوغى الهجائية الا ابياتا قليلة، مع ان الهجاء — حسب راى بعض من ترجموا له — الميدان الذى برز فيه الدغوغى اكثر من غيره .

⁂

## ديوان التمنارتى (71)

جمع هذا الديوان فى أواخر حياة الشاعر عبد الرحمن التمنارتى أحد ابنائه ، ورتبه على أربعة أبواب لم تحتفظ النسختان الباقيتان منه الا بالباب الرابع كاملا ، وهو فى المراثى ، والقصائد الموجودة قبله مختلفة المواضيع، اكثرها اخوانيات . وتمتاز قصائد ورسائل هذا الديوان بأنها — فى الغالب — مؤرخة ومقدم لها بما يبين الظروف التى قيلت أو كتبت فيها ، الأمر الذى يعطى هذا الديوان — على بتره وشعره المنظوم على طريقة الفقهاء — قيمة تاريخية مهمة .

---

70) توجد نسختان مبتورتان من ديوان احمد الدغوغى فى اضافتين من أوراق مختلفة بالمكتبة الوطنية بمدريد عدد 18600 و 18601 ، وفى م. ع. بالرباط ميكروفيلم رقم 955 عن مخطوطة رقم 5139 بالمكتبة الوطنية بمدريد ، ويكاد يكون كل ما فيه مذكورا فى **البدور الضاوية** لسليمان الحوات .

71) فى م. م بالرباط نسختان مبتورتان من ديوان التمنارتى ، الاولى عدد 5623 فيها 51 ورقة، والثانية عدد 8841 وفيها 26 ورقة ، كلاهما من قياس 190 × 145 مم ، والمسطرة مختلفة من16او 18 و 21 بخط مغربى عادى .

## ــ ادبيـــــات ابن عيســـى (72)

هو مجموع ادبى مجهول المؤلف ، يشتمل قسمه الاول على شعر ونثر لأدباء من العصر السعدى ، تتخلله استطرادات وتعقبــه أدبيات لأندلسيين ومشارقة من غير هذا العصر . وقد اطلقت عليه هذا الاسم لأن صفحاتــه الاثنتى عشرة الاولى تختص بأدبيات الكاتب الشاعر محمد ابن عيســى التملــى ، وتكاد تكون المصدر الوحيد لما بقى من نفثات اقلامه بعد أن عفى الزمان على شعره ونثره ، كما عنى على كتابه **الممدود والمقصور من سنا السلطان ابى العباس المنصــور** .

⁂

## روضـــــة الآس (73)

هى فى الواقع رحلة كتبها احمد المقرى على اثر زيارته الأولى للمغرب عام 1009 ــ 1010 / 1601 ــ 1602 ، لكن كثرة ما حوت من تراجم كتاب وشعراء البلاط السعدى وآثارهم النثرية والشعرية جعلها أقرب الى مجموع ادبى منها الى رحلة . وقد احتفظت **روضة الآس** ، التى بقيت مجهولة الى ما قبل نحو عشرين سنة ، بأسماء أدباء مغاربة لم يعرف عنهم شىء لولاها، وبنصوص أدبية لا توجد فى غيرها من الكتب المعروفة اليوم .



## طــلائع اليمــن والنجـــاح (74)

الف عبد العزيز التملى هذا الكتاب لمحمد الشيخ المأمون أيام ولايته العهد ونيابته عن أبيه بفاس (75) . ويشتمل الموجود من **الطلائع** على قصائد

---

72) مخطوطة م. م. بالرباط ، عدد 5408 ، فى 157 صفحة ( الصفحات 56 الاولى منها هى التى تحتوى على ادبيات العصر السعدى ، والباقى لادباء أندلسيين ومشارقة ) قياس 185 × 145 مم ، سطور 20 ، خط مغربى دقيق ملون مشكول أحيانا .

73) الاسم الكامل : **روضة الآس العاطرة الانفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتــين مراكش وفاس** . طبع بالمطبعة الملكية بالرباط عام 1964/1383 ، بتقديم عبد الوهاب ابن منصور فى 354 صفحــة .

74) الاسم الكامل **للكتاب طلائع اليمن والنجاح فيما اختص بمولانا الشيخ من الامداح** . ولا توجد منه الا مخطوطة واحدة ــ فيما أعلم ــ بخزانة السيد العابد الفاسى بفاس . وقد تفضل فأعارنى اياه وانتسخته بخطى فى 59 صفحة من الحجم الصغير .

75) انتهت ولاية عهد المامون أوائل عام 1603/1012 حيث أودع السجن ، ثم نازع اخوته الملك بعد وفاة والدهم أحمد المنصور ، وسلم مدينة العرائش للاسبان رجاء مساعدتهم اياه ، فكانت نهايته القتل على يد جماعة من المجاهدين بضواحي تطوان عام 1613/1022.

قيلت فى مدح المامون لاربعة عشر شاعرا ، اكثرهم من كتاب بلاطه بفاس ، ومن بينهم شعراء من بادية المغرب كزمران وحصين والخلط لم يرد ذكر اسمائهم فى غير هذا الكتاب .

***

### ادبيات ابن القاضى (76)

كل ما فى القسم الاول من المجموع المجهول المؤلف هو من نفثات اقلام ادباء العصر السعدى ، كثيره نثر ، وقليله محاورات شعرية قصيرة . وقد دعوته بهذا الاسم لان اغلب ما فيه من انشاء محمد بن قاسم ابن القاضى او منقول من خطه . ويمتاز المجموع بكون اكثر ما فيه من مراسلات ومقطعات شعرية مؤرخة ، وتتراوح التواريخ فيه من عام 1591/999 الى عام 1636/1046 .

***

### رسائل سعدية (77)

نشر عبد الله كنون سنة 1954 بتطوان مجموعة **رسائل سعدية** لمؤلف مجهول ، اعتمادا على مخطوطة ( ابزو ) الوحيدة المحتوية على نحو 50 رسالة كاملة ، مع فصول من رسائل اخرى ، وظهائر ، ورقاع ، ومقامة . ثم وقفت على مجموعة مخطوطة (78) من **رسائل سعدية** فيها كثير من الزيادات عما فى الرسائل المطبوعة ، وخاصة الظهائر والرسائل الاخوانية . واخيرا عثرت على مخطوطتين اخريين (79) من **رسائل سعدية** تشتملان على مكاتبات سياسية تبادلها الملوك السعديون المتاخرون مع امراء الدلاء وسوس وسلجماسة ، وحكام الجزائر الاتراك .



---

76) مخطوط م. م. بالرباط ، عدد 7248 ، 29 ورقة اول المجموع ، من قياس 200×170مم سطوره 18 ، خط مغربى واضح ملون

77) دار الطباعة المغربية ، تطوان ، 1954/1373 ، فى 271 صفحة

78) مخطوط م. ع. بالرباط ، عدد 278 ك .

79) مخطوطا م. م. بالرباط ، عدد 1296 ، وعدد 3766 .

## اشعار سعدية (80)

نشرها عبد الله كنون كذيل لكتاب **مناهل الصفا** ، بعد ان وجدها ضمن التقاييد الخطية الملحقة بالكتاب . وتشتمل هذه المجموعة الشعرية المجهولة المؤلف على قصائد كاملة او مختصرة لاشهر شعراء العصر السعدى .

⁂

# 6 ـ كتب فى نقد المجتمع

## بيان غربة الاسلام (81)

انتقد على بن ميمون الغمارى فى هذه الرسالة فقهاء وصوفية المشرق انتقادا مرا بعد أن عاش بين اظهرهم سنين عديدة ، مقارنا بينهم وبين نظرائهم فى المغرب الاقصى ، مفضلا هؤلاء عليهم . وكتب ابن ميمون مثل ذلك فى **رسالة الاخوان** المتقدمة موسعا دائرة انتقاده لتشمل المقرئين زيادة على المتفقهين والمتصوفين ، سواء فى بلاد المشرق أو فى الجزائر وتونس .

⁂

## الألفية السنية (82)

نظم عبد الله الهبطى هذا الرجز فى الف بيت ينتقد حال مجتمعه بجبال غمارة الريفية . تحدث فى القسم الأول على ما وقع عند قومه من تغيير فى العقائد وأركان الاسلام ، ثم تخلص لانتقاد عاداتهم فى الأعراس والمآتم والأسواق والمزارع ، وعقد فصلا لانتقاد ظاهرة انتشار شرب الخمر فى

---

80) المطبعة المهدية بتطوان ، 1964 ، ص. 263 ــ 304 .

81) الاسم الكامل لهذه الرسالة **بيان غربة الاسلام بواسطة صنفى المتفقهة والمتفقرة من اهل مصر والشام وما يليها من بلاد الاعجام** . مخطوطة م . ع بالرباط ، عدد 2123 ك ( اول مجموع من ص. 1 الى ص. 169. مقياس س 195 × 150 مم ، سطور 19 فى كل صفحة ، بخط مغربى واضح ملون .

82) الاسم الكامل لهذا الرجز **الالفية السنية فى تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير فى الملة الاسلامية** . وتوجد منه 4 مخطوطات بالمكتبة الملكية بالرباط ، اعتمدت منها عدد 2808 فى 29 ورقة ، من قياس 210 × 180 مم ، سطور مختلفة 19 ــ 20 ــ 21 فى الوجه ، بخط مغربى واضح مشكول ملون

قبائل الريف ، مؤكدا بذلك ما اتى به الحسن الوزان في كتاب **وصف افريقيا** (83) .



**المنجنيـــــق** (84) .

رمى احمد بن ابى محلى بهذا المنجنيق شيخ نجيج عبد القادر السماحى راس الدجالين المتصوفة – في نظر المؤلف – . وفي الكتاب ثلاثة ابواب . انتقد في الاول الطائفة اليوسفية او العكازية الضالة ، وفي الثاني الشيخ عبد القادر السماحى ذاكرا مخالفاته للدين مشنعا على اتباعه ، بينما خص الباب الثالث بذكر المهدى والمهدوية وانتقاد المنكرين لذلك . واتبع ابن ابى محلى المنجنيق برسالة مطولة سماها **السيف البارق** (85) ضمنها كثيرا من الشعر والنثر في هجو الشيخ السماحى والتشنيع عليه وعلى اتباعه ، تتخللها اجوبة عن اسئلة متعددة كان قد وجهها لعدد من علماء شمال افريقيا بشأن انحرافات شيخ نجيج . ويعقب ابن ابى محلى على كل جواب مادحا من وافقه في الراى ، ومنتقدا بعنف من خالفه .

**سـم ســاعــة** (86)

الف ابن ابى محلى هذا الكتاب ردا على الذين انتقدوا كتابيه السابقين **المنجنيق و السيف** ، مبتدئا بالاجابة عن رسالة معتدلة وردت عليه من قاضي الجماعة بتيكورارين محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الوطاسى الذى حاول التوفيق بين ابى محلى وعبد القادر السماحى ، مؤولا ما صدر عنهمـــا

---

83) جـــزء 1 ، ص. 268 – 269 .

84) الاسم الكامل للكتاب **المنجنيق لرمى البدعى الزنديق** . توجد منه مخطوطتان ، الاولى في م. ع. بالرباط ، عدد 338 ق ، في 227 صفحة ، من قياس 280 × 185 مـم ، سطور مختلفة : 22 – 24 ، بخط مغربي جميل ملون . انتسخت بحضرة المؤلف بعد بضعة ايام فقط من انتهائه من تاليف الكتاب ، وهي التي اعتمدتها . والثانية في م. م بالرباط ، عدد 582 ، في 155 ورقة ، من قياس 250 × 200 مم بخط مغربي جيد ملون ومذهـب

85) الاسم الكامل لهذه الرسالة **السيف البارق مع السهم الراشق** ، توجد منها نسختان في ذيل **المنجنيق** بمخطوطتيه السابقتين .

86) الاسم الكامل : **سم ساعة في تقطيع امعاء مفارق الجماعة** ، مخطوط م. ع بالرباط ، عدد 338 ق ، ( داخل مجلد **المنجنيق** ) . في 125 صفحة من قياس 280 × 185 مم ، سطور مختلفة : 22 – 24 ، بخط مغربي جيد ملون ، انتسخ بحضرة المؤلف اثناء التاليف

« باختلاف نظر الاولياء الصالحين تبعا لاختلاف درجاتهم فى السلوك » . ثم درج اجوبة اخرى لبعض علماء شمال افريقيا بشأن الشيخ السماحـــى ـ يظهر انها وصلته متاخرة ــ ، واهمها جواب عالم الجزائر الشيخ سعيد تدورة ( ت. 1066 / 1656 ) .

⁂

## مهــــراس رؤوس الجهلـــــة (87)

عنى ابن ابى محلى فى هذا الكتاب ، الى جانب الرد على منتقديـــه وتسفيه آرائهم ، بتاويل ما صدر عنه من اقوال ووعود موقوتة لم تتحقق فى الابان الذى حدد لها ، مثل هلاك خصمه السماحى وخروج المهدى المنتظر، الامر الذى جعل موقف اتباع ابن ابى محلى حرجا ، فكتب اليه بعضهـــم يستفسر . وكان جواب ابن ابى محلى مطولا ممزوجا باستطرادات فقهيـــة وشطحات صوفية على عادته .

⁂

## سلسبيـــل الحقيقـــة والحـــق (88).

هذا الكتاب آخر ما ألف ابن أبى محلى فى النقد ومناقشة الاعتراضات والاستشكالات الصوفية الواردة عليه من بعض أصدقائه ، وفى مقدمتهـــم محمد بن ابى بكر شيخ زاوية الدلاء ، اذ انتهى منه فى 26 ذى القعدة 1019 موافق 2 فبراير 1611 بعد أن بلغه خبر تسليم المامون السعدى مدينـــة العرائش للاسبان ، فتوقف عن الكتابة وانشأ قصيدة شينية فى رثاء المدينة الضائعة من أحسن الشعر الوطنى لذلك العصر . ولم تمض الا أيام قليلة حتى كان ابن أبى محلى قد كسر القلم وحمل السيف ليقود ثورة عارمـــة تكتسح بلاد درعة وتافيلالت ، وتشرد زيدان عن دار ملكه مراكش .

---

87) **مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدراس نفوس السفلة المنخدعة** . مخطوطة م. ع. بالرباط عدد 192 ك ، فى 221 صفحة ، من قياس 200 × 150 مم ، سطوره مختلفة: 23 ــ 25 ، بخط مغربى دقيق جميل ملون .

88) **سلسبيل الحقيقة والحق فى سبيل الشريعة للخلق** . توجد منه مخطوطتان فى م. م. بالرباط الاولى عدد 4733 ، فى 206 ورقة ، من قياس 205 × 150 مم ، 20 سطرا فى الوجه بخط مشرقى مذهب ــ وهى التى اعتمدتها ــ ، والثانية عدد 5916 ، مبتورة من الاخير، فى 84 ورقة ، من قياس 195 × 150 مم ، 26 سطرا فى الوجه ، بخط مغربى جميل

# مدخل تاريخي

## ملامح العصر السعدي

# مدخل تاريخي

## ملامح العصر السعدى

### 1 ـ الغرب الاسلامى عند ظهور السعديين

بلغ الغرب الاسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى واوائل القرن العاشر ( 15 ـ 16 م ) حدا من التدهور والانحلال لم يصل اليه قط ، فالدول القائمة فيه شاخت وأخذ زمام الامور يفلت من يدها ، تاركا المجال فسيحا للفتن الداخلية ، والباب مفتوحا للهجمات الخارجية ؟ وزاد من سوء حظ هذه البلاد انها ترديت فى هذا الدرك السحيق فى وقت كان الغرب المسيحى ، لاسيما اسبانيا والبرتغال ، يعيش نهضة عظيمة فى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وقد فتحت له الكشوف الجغرافية الكبرى آفاقا واسعة فى أميركا والشرقين الاوسط والاقصى ، وجعلت الثروات الطائلة تتكدس بين يديه ، الامر الذى أغرى الدولتين المسيحيتين فى شبه جزيرة ايبريا بالانقضاض على افريقيا الواقعة فى طريق المستعمرات الجديدة ، خاصة المغرب الكبير الذى ما زال رجال الكنيسة المتعصبون يدعون الى اكتساحه والقضاء على سكانه المسلمين

## ا ـ نهاية دولة الاسلام فى الاندلس .

انقسم النصريون ملوك غرناطة على انفسهم ، واضرمها امراؤهم فتنا مستمرة ضد بعضهم فى المدن القليلة الباقية بأيديهم ، فى الوقت الذى اتحدت مملكتا قشتالة واركون تحت امرة الزوجين الكاثولكيين فيرديناد وايزابيلا ( 884/1479 ) من اجل الاجهاز على ما بقى من المملكة الاسلامية بالاندلس . وقد استهدفت خطة المسيحيين الهجومية فى المرحلة الاخيرة :

1 ـ قطع كل علاقة للاندلس بالعدوة الافريقية عن طريق الاستيلاء على الشواطىء الجنوبية ، وتم للمسيحيين فعلا تطويق مملكة غرناطة عندما احتلوا مالقة ، والمنكب ( المنيكار ) والمرية .

2 ـ تشجيع الانقسامات الداخلية عند المسلمين بممالاءة جانب من المتنازعين على جانب الى أن انتهى الامر بانقسام هذه المملكة الصغيرة الى شطرين : الأنحاء الشرقية ، ويحكمها محمد الزغل فى وادى آش ، والأنحاء الغربية تحت حكم أبى عبد الله محمد بن على ابن الاحمر فى غرناطة .

وبذلك تمكن فيرديناند من القضاء على الامارة الشرقية على انفراد قبل أن يتوجه بكل قوته نحو غرناطة ، ليرغم أهلها ـ بعد سلسلة من المعارك وشهور من الحصار ـ على توقيع معاهدة الاستسلام يوم 21 محرم 897/25 نونبر 1491 (1) .

❦

## ب ـ فشل ريح الزيانيين والحفصيين :

بلغت الدولة الزيانية فى تلمسان أرذل العمر خلال النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى ( 15 م ) حيث لم يعد نفوذها يجاوز أرباض المدينة، بينما تكونت امارات قبلية متعددة فى شرق المغرب الاوسط وجنوبه ، لا تهتم بغير التطاحن فيما بينها ، لذلك لم يجد الاسبانيون كبير صعوبة فى أن يستولوا فى ظرف ست سنوات فقط ( 911 ـ 917 / 1505 ـ 1511 ) على أهم الموانىء ، مثل المرسى الكبير ، ووهران ، وتنس ، وبجاية ، والجزائر ومستغانم . وكان رد الفعل التركى المتمثل فى المعارك التى

(1) انظر تفاصيل ذلك عند م. ع. عنان ، نهاية الاندلس ، الكتاب الثانى ، ص. 144 ـ 220 .

قادها الاخوان عروج وخير الدين ( بربروس ) ضد الاسبانيين برا وبحرا، وضد بعض الرؤساء المحليين والملوك الزيانيين المتحالفين مع الاسبان . ولم يمض على ذلك اكثر من سبع سنـــوات ( 917 — 924 / 1511 — 1518 ) حتى صار المغرب الاوسط ولاية عثمانية (2) تحت حكم خيـــر الدين باشا الذى انعم عليه الخليفة العثمانى سليم الاول ( 918 — 926/ 1512 — 1520 ) بلقب باى لرباى ( امير الامراء ) .

ولم يكن حظ المغرب الادنى فى هذه الفترة العصيبة بأحسن من حظ جيرانه ، ولو أن حدوده كانت تمتد شرقا الى طرابلس ( وسط ليبيـــا الحالية ) ، وغربا الى عنابة ( شرق الجزائر ) . فقد لجأ المتأخرون مـــن الملوك الحفصيين ، لتغطية عجزهم ، الى اعطاء اقطاعات كثيرة لقبائل الاعراب ، فزاد ذلك من تطاول البدو على السلطة المركزية ، ومن حدة التنافس فيما بينهم ، وكثرت الفتن وقلت الارزاق ، ثم جاء وباء عـــام 1493/899 فقضى على عدد وافر من سكان المدن والأرياف ، وفى جملتهم الملك زكرياء الحفصى . وقد بلغ من تهافت رجال البيت المالك بعده على السلطة أن كان الابن منهم يثور على أبيه ولا يتردد فى التمثيل به اذا ما ظفر بــــه .

وقد عرف المغرب الادنى منذ مطلع القرن العاشر الهجرى ( 16 م ) الوجود التركى مع الاخوين عروج وخير الدين الذين استقروا فى جزيـــرة جربة باتفاق مع الملك الحفصى ، كما عرف الوجود الاسبانى مع غزوات القرصان بدرو نفارو الذى احتل طرابلس ، ونزل بجزيرة جربة ، وجزائر قرقنة شمال مدينة صفاقس ( 916 / 1510 ) ، ثم مع حملات الامبراطور ( شارلكان ) ( 1516 — 1558 ) التى انتهت باحتلال تونس العاصمة ، وامضاء معاهدة 6 صفر 942 / 26 يوليوز 1535 ، التى اطلقت اليـــد للاسبانيين فى القطر كله ، وضمنت لهم التنازل نهائيا عن حلق الوادى ، وبنزرت ، وعنابة ، بالاضافة الى جباية سنوية ثقلية تقدم الى الامبراطور . ثم احتل اسبانيون ثغرى المهدية فكادت سيطرتهم تتم على سواحل البلاد كلها . وسيظل الحفصيون يتأرجحون بين القوتين المتصارعتين فى البلاد ، يحتمون يوما بالاتراك ، ويمدون أيديهم يوما آخر الى الاسبانيين ، والشعب البيئس بين شقى الرحى يقاسى الامرين من هذا المد والجزر الـــى أن تخلصه الحملة التركية الكبرى بقيادة الوزير سنـــان باشـــا ( 981 / 1573 ) من الحفصيين والاسبانيين معا ، لتصبح هذه البلاد بدورها ولاية عثمانية ، وتتصل منطقة نفوذ الاتراك من مصر الى تلمسان .

---

2) سيظل الزيانيون متشبثين بملك تلمسان مستظهرين فى اغلب الاحيان بالاسبانيين الى أن يفتى علماء المدينة بخلع آخرهم الحسن بن عبد الله ( 962 / 1555 ) فيلتجىء الـــى اسبانيا حيث ينقطـــع خبـــره .

## ج – انحلال سلطة المرينيين والوطاسيين .

بعد ان تعاقب على العرش المغربى ، منذ مقتل ابى عنان المرينى ، اربعة عشر ملكا فى ظرف يسير لم يكن من بينهم من يطمئن على نفسه او يستطيع بالاحرى اعادة الطمأنينة الى البلاد ، قام آخرهم عبد الحق بن ابى سعيد المرينى بمذبحة الوطاسيين الرهيبة ، واسناد الوزارة الى اليهوديين هرون وشاويل انتقاما من اهل فاس الذين تاكد من انحرافهم عنه فساءت سيرة اليهوديين وكثر تعسفهما ومصادرتهما لاموال تجار المسلمين، وانتهى الامر بثورة شعبية قضت على حياة اليهوديين وعبد الحق جميعا (1465/869) . وبعد أن حاول الادارسة فى فاس – بدون جدوى – استرجاع ملكهم القديم ، قام محمد الشيخ الوطاسى ( 876 /1472 – 1505 ) الناجى من المذبحة بالدعوة الى نفسه فى اصيلا ثم فى فاس ، فكانت له ولابنائه من بعده سلطة محدودة فى الشمال تقل كلما ابتعدت المنطقة عن المدينة الادريسية لتصير مجرد سلطة اسمية فى حوز مراكش ، بينما تركت بلاد ما وراء الاطلس الى نفسها هملا .

هذه البيئة المنحلة سهلت مهمة البرتغاليين فى غزو الشواطىء المغربية ، ثم فى احتكار هذا الغزو عملا بمعاهدة ( توردیسلاس ) (3) التى اطلقت لهم اليد فى المغرب الاقصى مثلما اطلقت يد الاسبانيين فى بقية اقطار شمال افريقيا . وهكذا تمكن البرتغاليون فى مدة لا تجاوز نصف قرن الا قليلا ( 862 – 921 / 1458 – 1515 ) من السيطرة على كل الموانىء المغربية فى البحر المتوسط والمحيط الاطلنطيقى الى مصب نهر ماسة باقصى بلاد سوس (4) ، باستثناء مدينة سلا .

⁂

3) توردیسلاس مدينة اسبانية تقع على نهر دويرو الذى يصب قرب ميناء بورطو شمالى غربى البرتغال ، عقدت فيها سنة 1494 معاهدة بين اسبانيا والبرتغال ، حددت مناطق المستعمرات الافريقية لكل من الدولتين المسيحيتين .

4) نشير الى ان البرتغاليين احتلوا مدينة سبتة عام 1415/818 ، لكنها كانت عملية وحيدة توقف بعدها هجومهم على المغرب مدة تنيف على 45 سنة . كما نشير الى ان الاسبانيين استولوا على مدينة مليلية عام 1497/902 ، وعلى حجر باديس عام 1507/912 ، باعتبارهما بداية المنطقة الشرقية التى قضى لهم بها مؤتمر توردیسلاس الآنف الذكر . وكانوا قد استولوا قبل ذلك على منطقة ساحلية باقصى الجنوب المغربى مقابلة الجزر الخالدات التى يحتلونها منذ مطلع القرن 15 م .

## 2 ــ ظـروف قيـام السعـديين بالجنـوب

كانت بلاد ما وراء الاطلس ــ كما اشرنا الى ذلك سابقا ــ موكولة الى نفسها لا اثر لسلطة الوطاسيين فيها ، ولم يبرز من بين رؤساء القبائل من يستطيع فرض سلطته على المنطقة كلها ، غير أن حركة التصـوف المتمكنة الجذور فى البلاد منذ قرون وجدت فى تلك الظروف السياسـة الصعبة بيئة صالحة لنموها وانتشارها . وقد ظهر على مسرح الاحداث رجال واعوان من بين شيوخ الزوايا لعبوا ادوارا حاسمة فى حل المشاكل القائمـــة .

⁂

### ا ــ مقـاومـة الاحتـلال ودور رجـال الديـن .

احتل البرتغاليون ساحل فونتى ( بجوار اكدير الحالية ) ونزلوا فى مصب نهر ماسة ، ( 875 ــ 904 / 1470 ــ 1497 ) ، وذلك فى اطار سياستهم الاقتصادية الرامية الى الاستيلاء على ذهب السودان عن طريق الاتجار المباشر مع هذه البلاد .

وقد اصطبغ رد الفعل لدى المغاربة بصبغة دينية صوفية ، حيث اخذ عدد المريدين يكثر فى الزوايا ، واصبح دور الشيوخ لا يقتصر علـى تلقين الاذكار والحض والاوراد ، وانما اخذوا الى جانب ذلك يبثون الحماس الدينى والحمية الوطنية فى نفوس اتباعهم ، مهيئين بذلك أفواجا مـن المتطوعين لقتال المحتلين المسيحيين .

نال شيوخ التصوف ثقة العامة بحسن سلوكهم وسعيهم المتواصل لتامين السبل وحماية المظلومين وايواء الفقراء وابناء السبيل والافاضة عليهم مما يفىء الله على زواياهم من النذر والهدايا . واحاط العامة هـؤلاء الشيوخ بهالات من القداسة والاكبار ، واعتقدوا لهم من الكرامـات الخارقة للعادة ما جعلهم فى أعين الجمهور يتصرفون بالارداة ، ويؤثـرون فى الاحداث بالهمة والعزيمة . واذا كانت اغلبية تلك المعتقدات خرافيـة باطلة ، فانها ــ ولاشك ــ ذات اثر فعال فى ارساء قواعد الامتثال والنظام اللازمين لكل قيادة ناجحة .

⁂

ب ــ الدعوة الى الالتفاف حول السعديين .

بلور نشاط شيوخ الجنوب في حركة سياسية عملت على تغيير الوضع القائم عن طريق اقامة حكومة جديدة تستطيع ان توقف المغيرين المسيحيين عند حدهم وبرزت في هذا الميدان اربع زوايا . زاوية بدمرة في تفيلالت ، وزاوية تكمدارت في درعة حيث تربى احمد ومحمد ابنا الفقيه محمد بن عبد الرحمن ( الذى سيعرف فيما بعد باسم القائم بامر الله ) فقد نشر شيخ هاتين الزاويتين عبد الله بن عمر المدغري ( ت حوالى 1522/928 ) في المناطق الصحراوية فضائل الاسرة الزيدانية الشريفة ، وقام في سبيل ذلك برحلة طويلة دخل اثناءها الى بلاد سوس بثا دعوته بين شيوخها الذين تربطهم به أواصر الطريقة الشاذلية وتزعمت هذه الحركة في بلاد جزولة زاوية تيدسى بضاحية ترودانت ، وزاوية اقا فيما يلي الصحراء الكبرى .

كان الشيخ بركات بن محمد التدسي ( ت بعد 917 / 1511 ) يشرف على اعمال المجاهدين الذين يباكرون البرتغاليين ويراوحونهم بمنطقتي فونتي وماسة ، في مناوشات لم تستطع ردع المسيحيين ، ولكنها كانت تستفزهم للقيام باغارات انتقامية يزعجون خلالها السكان من قراهم ، ويأسرون من رجالهم ونسائهم واطفالهم ، فيسعى الشيخ بركات في فداء الاسرى والمفاوضة من اجل الحصول على هدنة تجعل قبائل الناحية تامن ــ ولو الى حين ــ شر الغارات المفاجئة ونهب السابلة عبر الطرق الساحلية ، لكن البرتغاليين كانوا دائما يرفضون أن يفاوضوا الا اميرا سياسيا . وحدث مثل ذلك في سواحل اقصى الجنوب حيث كان الشيخ محمد بن مبارك الاقاوى ( ت 924 / 1518 ) يحرض المجاهدين على مدافعة المسيحيين المغيرين .

تكتلت جهود الشيخين التيدسي والاقاوي ، وقد تأكد لهما عدم جدوى المقاومة غير المنظمة ، لاقناع جمهور السوسيين بضرورة اقامة حكومة جديدة قادرة على اصلاح الوضع الفاسد . واذا كان لهذه الدعوة أصداء حسنة فقد عارضتها رغبة رؤساء القبائل الملحة في اسناد السلطة الى احد السوسيين .

وعرضت الامارة فعلا على كل من محمد بن مبارك وبركات بن محمد ، فأبيا الا مبايعة شريف درعة ، نظرا لشجاعته وكفايته في قيادة المجاهدين ، ولنسبه القرشي الذى لا يعارض فيه أحد من سكان المغرب قاطبة .

بعد ذلك نجد الشيخ محمد بن مبارك يستدعي خلال عام 915 / 1509 الى زاوية اقا الفقيه محمد بن عبد الرحمن ، ويطلعه على آخر

التطورات السياسية فى سوس ، ثم يفترق الرجلان بعد ان يتفقا علـــى المبادىء والوسائل ، ليحضرا فى السنة الموالية تجمعا عاما فى زاويـــة تيدسى ، يبايع اثناءه شيوخ الزوايا ورؤساء المصامــــدة وعامـــة السوسيين محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله اميرا للمومنين .

⁂

## ج ـ الانتصـــارات الاولى وتمركـــز سلطـــة السعديـــين

لم يلبث محمد القائم بأمر الله أن قاد من تيدسى حملة منظمـــة هاجمت البرتغاليين واجلتهم ، لاول مرة ، عن القواعد الامامية التى كانوا يحتلونها خارج فونتى ، فاستبشر الناس بذلك خيرا وعدوه من يمن الدولة الناشئة . بلغت أخبار البيعة والانتصار بلاد حاحا والشياظمة بحوز مراكش وكان قد أصاب اهلها من عنت الحامية البرتغالية بآسفـــى ما أصـــاب السوسيين من حامية فونتى ، فوفد على تيدسى رؤساء تلك القبائـــل يبايعون محمد القائم بأمر الله ويرجون منه أن يساعدهم على كف عاديـــة النصارى , اهتبل الامير السعدى الفرصة فنظم شؤون الجنوب وترك ابنه الاصغر محمد أمغار ( الذى سيعرف فيما بعد بمحمد المهدى الشيخ ) نائبا عنه فى تيدسى ، ثم قطع جبال الاطلس مع ابنه البكر أحمد الاعرج وطائفة من المقاتلة السوسيين ليحل فى قرية أفوغال مقر ضريح الشيخ محمد بـــن سليمـــان الجزولـــى (5) .

ومن ثم أخذ محمد القائم ينظم شؤون بلاد الحوز ويهىء الكتائـــب للاغارة على آسفى الى أن توفى عام 923 / 1517 ، فخلفه ابنه أحمـــد الاعرج .

كان للبرتغاليين حليف مغربى فى بلاد عبدة ودكالة يدعى يحيى بن تعففت ، طالما اغروه بالمال والجاه وأمروه على المقاتلة من اهليـــن وبرتغاليين ، واستدعوه الى لشبونة لاخذ رأيه فى وضع خطط التوســـع والتوغل داخل البلاد المغربية . وقد جرت معركتان حاسمتان بـــين السعديين والبرتغاليين ، تمكن أحمد الاعرج فى الثانية من قتل يحيى بـــن تعففت وسحق الجيش البرتغالى الذى تراجعت فلوله الى آسفى متحصنة بالأسوار ( 1521/927 ) وكان من نتائج هذه المعركة بالنسبة للبرتغاليين

---

5) محمد بن سليمان الجزولى الشيخ الصوفى المشهور صاحب كتاب **دلائل الخيرات** . مات مسموما بأفوغال ( قرب شيشاوة ، بين مراكش وآسفى ) عام 1465/870 ، وبها دفن ، ثم أخرجه من قبره تلميذه الثائر عمرو السياف ، وجعله فى تابوت يتقدمه بـــين يديه فى حروبه التى استمرت زهاء 20 سنة . وبعد أن دفن الجزولى بأفوغال مرة ثانية، نقله السعديـــون مع جثة القائم بأمر الله الى مراكش .

التخلى عن سياسة التوسع واستبدالها بسياسة الجلاء عن بعض الموانىء التى يصعب الاحتفاظ بها (6) . ومن الجانب المغربى بادر المراكشيون ولهبرهم الهنتاتى الى الدخول فى طاعة الامير المنتصر . وبانتقال احمد الاعرج الى عاصمة يوسف بن تاشفين بدأت السلطة السعدية تأخذ فى الاستقرار والتمكن .

❖

## 3 ـ التحولات التى عرفها المغرب مـــع السعديين

تغيرت الاوضاع فى المغرب تغيرا عميقا خلال العصر السعدى فى جميع الميادين السياسية والمعاشية والفكرية ، واستبدلت البلاد حالة الضعف والانقسام والفقر التى خيمت على ربوعها طوال القرن التاســـع الهجرى ( 15 م ) بحالة أخرى من القوة والوحدة والغنى . غير ان هـــذا التحول لم يتحقق بين عشية وضحاها ، وانما ظل يتقدم بطيئا مع انتشار نفوذ السعديين ، يتعثر مرة وينهض أخرى ، ليستوى قائما فى النصف الثانى من القرن العاشر .

وسنوجز القول هنا بالقاء نظرة عامة خاطفة لاستجلاء الخطـــــوط الكبرى لمختلف مناحى الحياة أيام السعديين قبل أن نتفرغ لبحث الحركة الفكرية والتعرف على مظاهرها وتطوراتها عن قرب .

❖

### ا ـ فى الميـــدان السيـــاســـى والعسكـــرى

واجه السعديون عندما وصلوا الى الحكم مغربا ممزقا مقصـــوص الاطراف انقطعت فيه السبل ، وساده العيث والنهب والخراب ، وتوالت عليه الغارات المسيحية حتى بلغت مراكش ، وارغمت قبائل الحوز على دفع جزية سنوية لا قبل لها بها . قدر السعديون الموقف تقديرا صحيحا وعرفوا حقيقة ما يتطلبه من مجهود ضخم وقلة ما بأيديهم من وســـائـــل ، فساروا بخطى وئيدة وفق خطة مرحلية محكمة . اقتسم الاخوان محمـــد المهدى الشيخ واحمد الاعرج ابنا محمد القائم بأمر الله العمل لاصـــلاح

---

6) سيغادر البرتغاليون شواطىسوس عام 1541/948 منهزمين أمام محمد الشيخ السعدى وينسحبون فى السنوات التالية من آسفى وآزمور والعرائش وأصيلا سيرا مع سياسة الانكمـــاش .

الوضع فى الجنوب ، فقضيا زهاء ثلث قرن فى السعى المتواصل ، يعمل الاول من قرية تيدسى على توحيد بلاد ما وراء الاطلس ومحاربة البرتغاليين الى ان تمكن من طردهم من سواحل سوس وهدم حصنهم فونتي ، وبنى على انقاضه مدينة اكدير ( 947 / 1541 ) ومهد الثانى من عاصمة مراكش بلاد الحوز الى مجرى نهر ام الربيع ، وحرر قبائل عبدة ودكالة من نيـــر البرتغاليين واتاواتهم الجائرة بعد ان ارغم المحتلين على الاعتصـــام باسوار الحصون التى يحتلونها . غير ان نجاح احمد الاعرج ظل محدودا بسبب مناوشة الوطاسيين له ، فقد استجمع هؤلاء قواهم وهاجموه اكثر من مرة ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين انتهت بصلح بوعقبة ، عام 943 / 1536 ، الذى قسم المغرب الى شمال للوطاسيين وجنـــوب للسعديين (7) .

اعتبر محمد الشيخ اخاه الاعرج فاشلا عاجزا عن مواجهة مشاكل المنطقة ، فقبض عليه وزج به فى السجن (8) ليباشر بنفسه قطع المراحل الباقية فى تمهيد البلاد . استغرقت هذه المرحلة عشر سنوات تمكن خلالها بمساعدة ابنيه القائدين المغوارين الحران وعبد القادر ، ومساندة شيوخ الشاذلية ، من القضاء على نفوذ الوطاسيين فى بلاد تامسنا والغرب ثم فى مكناس وفاس ، ومن استرجاع السلطة من يد الشرفاء بنى راشـــد فى شفشاون وتطوان وسائر بلاد الهبط وجبال غمارة . وتم توحيد المغرب نهائيا يوم السبت 24 شوال 961 / 22 شتنبر 1554 ، وهو اليوم الذى تمكن فيه محمد الشيخ من صرع آخر الوطاسيين ابى حسون على ابواب مدينة فاس ، وتمزيق انصاره من الاعراب واتراك الجزائر .

عاش المغرب بعد ذلك ربع قرن فى شبه ركود سياسى ، وكأنها فترة انتقال من العهد البائد الى العهد الجديد ، أو فترة تلاؤم بين النظام القائم وواقع البلاد . وظهرت مشاكل من نوع جديد ، بعضها يرجع الى الاحوال الداخلية ، وبعضها الآخر يتصل بالمؤثرات والعلاقات الخارجية . وربما كان اخطر المضاعفات الداخلية فساد العلاقات بين السعديين وشيوخ الزوايا ، وما جره من فتن ودسائس ذاق مرارتها كل من الحاكمـــين والمحكومين . فمحمد الشيخ المهدى ، وهو الذى وصل الى ما وصـــل اليه من سعة ملك وقوة سلطان على أكتاف رجال التصوف ، كان يعرف

---

(7) تعددت الروايات لتاريخ الصلح بين السعديين والوطاسيين ، وما ذكرناه هو الثابـــت المحدد لوقعة بوعقبة ، احد مشارع وادى العبيد بتادلا . والواقع ان الصلح تعدد بين الفريقين بتعدد الحروب التى جرت بينهما ، وذلك ما يفسر تضارب أقوال المؤرخـــين المغاربة فى تحديد تاريخ الصلح فيما بين عام 935 و 952 هـ / 1529 — 1545 م .

(8) اختلفت كذلك روايات المؤرخين فى تاريخ هذا الحادث ، ويظهر أن القريب من الصواب هو رواية م . القادرى فى **نشر المثانى** من أن القبض على الاعرج تم عام 1544/951 ، لا مارجحه أ . الناصرى فى **الاستقصا** ( 5 : 18 ) اذ رغم حدوث الخلاف بين الاخويـــن واستفحاله طوال العقد الخامس فان الروايات تتفق على أن مراكش ، وهى مقر **الاعرج**، لم تدخل فى طاعة محمد الشيخ الا عام 951 هـ .

حق المعرفة ما لهؤلاء الرجال من سيطرة روحية على عامة الناس وخاصتهم ، وكان عليه ، لو أراد الابقاء على حسن العلاقات القديمة معهم ان يتخلى عن مخططه الصارم الرامى الى بعث سلطة مركزية كاملة الهيبة معتمدة على جيش نظامى قوى ، ويستبدل ذلك بحكم مرن يبقى على امتيازات المتصوفة ، ويفسح المجال لتدخلاتهم لصالح الافراد والقبائل من اتباعهم . لكنه ـ كما عرفناه ـ رجل حزم واقدام لا يتردد فى الابان المناسب عن اتخاذ المواقف اللازم ، فتخلى عنهم كما تخلى عن أخيه الاعرج من قبل ، وسلك فى ذلك مسلكين مختلفين : استعمل وسائل العنف المكشوفة مع شيوخ زوايا الشمال الذين كانوا يمالئون خصومه الوطاسيين متهما اياهم باخفاء ذخائر الدولة البائدة واموالها ، فسجنهم ونفاهم واغلق زواياهم ، واكتفى مع انصاره القدماء بشىء من المضايقة والصرامة اولا، اذ فرض عليهم وعلى حقولهم ما فرضه على سائر الناس من ( نائبة ) (9) وخراج ، حتى اذا ظهر من بعضهم تنطع أو تمرد على الالزامات الجديدة اتخذ ذلك تعلة لايقافهم عند حدهم ، وحرمان زواياهم من بعض مالها من املاك وذخائر .

اما المصاعب الخارجية التى عرفها المغرب فى هذه الفترة ( الانتقالية ) فتتمثل فى علاقاته مع جيرانه من اتراك ومسيحيين ، اذ يبدو ان السعديين كانوا قد أعطوا الاولوية فى المجابهة للاتراك نظرا لتدخلاتهم العسكرية ضد نجاح الدولة الناشئة اولا ، ثم لمحاولاتهم السلمية فى أن يفرضوا على المغرب التبعية للخلافة العثمانية ، فى حين كانوا يرون فى سياسة الانكماش البرتغالية من جهة ، وفى مناوشة الاسبانيين الدائمة للاتراك بالمغرب الاوسط من جهة أخرى ، ما يدعوهم الى قبول شبه تعايش سلمى معهم ولو الى حين . لذلك نجد محمد المهدى الشيخ يطارد الاتراك الى ما وراء مجرى نهر شلف ، ويبسط نفوذه على غرب الجزائر نحو ثلاث سنوات ، تضطر بعدها جيوشه الى العودة الى المغرب بعد أن تترك هناك عددا وافرا من القتلى ، من بينهم القائدان الحران وعبد القادر ابنا محمد الشيخ . وسيدفع هذا الاخير هو ايضا حياته ثمنا لسياسة التحدى هذه ، على يد جماعة من المحتالين الاتراك ، وتبقى مسألة الحدود الشرقية معلقة .

*

وبالمقابل ، لا نجد طوال هذه المدة اية محاولة جدية لاسترجاع الثغور المحتلة ، باستثناء محاصرة جيوش عبد الله الغالب للبريجة ( الجديدة ) وتراجعهم امام تحصيناتها القوية . بل نجد هذا الملك يمالىء الاسبانيين

---

(9) « النائبة » بمعنى الضريبة ، استعملها السعديون فيما فرضوه على الناس . وكانت اول « نائبة » فرضت سنة 916 / 1510 ببيضة واحدة لكل كانون ، ثم درهم ، وتطورت بعد ذلك الى أن صارت مبالغ مهمة اواخر أيام محمد المهدى الشيخ .

سرا ، او يغض الطرف عنهم على الاقل ، ليستولوا على حجرة بـــــادس بالقرب من مليلية حتى لا يجد الاتراك الذين كانت سفنهم آنذاك تصـول وتجول فى الحوض الغربى للبحر المتوسط منفذا يتسربون منه الى المغرب

واذا بحثنا عن سبب هذا الركود او التقهقر ، والدولة ما زالت فى عنفوان شبابها ، وجدنا العلة كامنة فى النظام العسكرى الذى كان ما يزال معتمدا اساسا على رجال القبائل ، ولو أن عناصر أجنبية تركية ومسيحية كانت قد دخلت اليه ، واسلحة اوربية حديثة قد زود بها بواسطة التجـــار المترددين على الشواطىء المغربية المحررة ، وبخاصة الانجليـــــز والهولانديين البروتيستانيين الذين كانوا لا يعيرون اهتماما للحصـــار الكاثوليكى المضروب على المغرب فى هذا الميدان حتى لا يتمكن من مهاجمة الثغور التى ما تزال تحت الاحتلال البرتغالى والاسبانى . وستستمر عملية جلب الاسلحة الاوربية للمغرب — سرا وعلانية — طوال العهد السعدى.

ولن يبتدىء التنظيم الجدى للجيش الا بعد ان يتسلم عبد الملـــــك المعتصم زمام الامور عام 983 / 1576 ، وكان قد قضى هو واخوه احمد الذى سيلقب فيما بعد بالمنصور الذهبى سنوات فى ديار الخلافة العثمانية، شارك اثناءها فى معارك برية وبحرية تحت راية العثمانيين ، وتعرف عـــن قرب على تنظيمات الجيش التركى الذى يعتبر آنذاك من أقوى وأحـــدث الجيوش فى العالم . عمل عبد الملك على أن يجعل الجيش المغربي على صورة الجيش التركى نظاما ولباسا وأسلحة ، ولم يتردد فى استعمـــال العنف لفرض التنظيم الجديد على رجال القبائل البدو ، وكادت ظاهـــرة الرفض أو التشبث بالتقاليد الموروثة تأخذ طابع فتنة شاملة لولا الظروف الدقيقة التى خلقها نزول القوات البرتغالية فى ناحيتى العرائش والقصر الكبير لمحاولة اكتساح البلاد والقضاء على سيادتها قضاء شاملا .

هكذا لم يكن الانتصار المغربى الساحق فى معركة وادى المخازن عام 1578/986 راجعا الى ما كان يتوفر له من جيش منظم ، كما ظن بعض المؤرخين ، بقدما ما هو راجع الى المشاركة الشعبية الفعالة ، حيـــث استجاب للنفير العام الذى أعلنه عبد الملك فى الجنوب واخوه احمـــد فى الشمال جميع طبقات الامة فى الحواضر والبوادى . وقد استفاد أحمـــد المنصور من التجارب السابقة ، واخذ يدخل التنظيمات الحديثة على جيشه سالكا سبيل المرونة والتدرج ، فاستكثر من الجند الأندلسيين ، والأسرى المسيحيين ، والمرتزقة من الأتراك والاوربيين ، ثم السودانيين ، ولـــم يحتفظ من العنصر المغربي الا بمن توفرت لهم قابلية التطور كالسوسيين، ثم اختار بضع مآت لقيادة الجيش من العنصر الأجنبى ، فى حين صـــرف القادة المغاربة القدامى لتسيير الامور المدنية للدولة ، وتمكن فى النهاية من تكوين جيش نظامى حديث متركب من فرق متعددة ، موحدة الـــزى ، منظمة الصفوف ، مسلحة بأحدث الأسلحة النارية . وسيظل هذا النظام العسكرى قائما فى المغرب قرونا عديدة .

اذا كان السعديون قد نجحوا فى تكوين جيش برى قوى مكنهم من السيطرة على الصحراء الشاسعة وما وراءها من بلاد السودان ، فانهم لم يتمكنوا من اعادة بناء الأسطول المغربى الذى افل نجمه مع ذهاب عز المرينيين رغم ما قام به احمد المنصور بصفة خاصة من احياء دار صناعة السفن الموحدية برباط سلا ، واستجلب لها من اوربا كل ما تحتاج اليه من ادوات ومواد حديثة ، بل واشترى سفنا انجليزية جاهزة لتعزيز الاسطول المغربى الذى جعل مقر قيادته فى العرائش ، وتوفرت له عناصر التجذيف فى السفن الكبرى من رقيق السودان . ومع ذلك فاننا لم نسمع صدى يذكر لنشاط الأسطول الحربى ايام السعديين قبل مجىء آخر المهاجرين الاندلسيين الى مدن أبى رقراق : سلا والرباط والقصبة عام 1609/1017 وقيامهم بحركة الجهاد البحرى الكبرى ضد السفن المسيحية حيث عرفهم الاوربيون بقراصنة سلا ، ولم يكن حينئذ للمتأخرين من السعديين عليهم سلطة تذكر .

على ان النتائج السياسية لمعركة الملوك الثلاثة لم تقتصر على الميدان الداخلى ، وانما عبرت الحدود لتقدم المغرب الى دول الشرق والغرب كقوة مرهوبة الجانب ينبغى التقرب اليها وربط الصلات الودية معها ، فكان ذلك منطلق العلاقات المغربية الاوربية ، والمغربية العثمانية فى العصر الحديث . وقد أعاد التاريخ نفسه ، كما يقال ، فظهر من جديد رجال التصوف على مسرح السياسة بعد أن بدد أبناء أحمد المنصور فى حروبهم الداخلية المفجعة تراث والدهم العظيم ، وعاش المغرب عقودا من السنين موزعا بين المتأخرين من السعديين الذين لم يكن نفوذهم يجاوز ناحية مراكش ، وبين أمراء الزوايا فى سوس ، والدلاء ، وسجلماسة ، وسلا .



## ب — فى الميدان الاقتصادى

عرف الاقتصاد المغربى تطورات حسنة سيرا مع الخط السياسى الجديد الذى سار عليه السعديون . ولئن كان تتبع التفصيلات فى هذا المضمار خارجا عن نطاق بحثنا واختصاصنا ، فاننا نشير فقط الى أن التجديد الاقتصادى فى العصر السعدى شمل البوادى والحواضر على السواء ، فنشطت زراعة الحبوب والاشجار المثمرة ، ورعى الماشية وتربية الخيول ، حتى اكتفت الاسواق الداخلية وأصبح المغرب يصدر كميات وافرة من الحبوب والفواكه اليابسة ، والصوف والجلود ، والعسل والشمع ، والصمغ ، والنيلة ، الخ . زيادة على مضاعفة انتاج معادن الفضة والنحاس فى الاطلس الكبير والصغير ، والحديد فى نواحى تافيلالت ودبدو ومليلية ، والقصدير بضواحى سلا . وقد كانت بعض هذه المواد

المعدنية تصنع فى عين المكان ، فيذاب النحاس فى سوس والاطلـس الصغير ليصدر فى شكل قضبان الى اوربا وافريقيا السوداء ، او تصنع منه ومن الصفار اوانى براقة يقبل عليها السكان وتروج رواجا كبيـرا فى اسواق السودان . كما اشتهرت بعض القبائل المجاوره لمناجم الحديـد بصنع بعض الادوات والاسلحة ، مثلما اشتهرت بلاد دكالة بمصنوعاتها الصوفية الجيده ، من ملبوسات كالجلاليب والسلاهم والحياك، ومفروشات كالحنابل والزرابى .

اما فى المدن فقد تكاثر عدد الصناع ، ولو ان التقنية الصناعية ظلت فى مجملها يدوية تقليدية ، وانتظموا فى حرف يراسها امناء يسهرون علـى جودة الانتاج ويفصلون فى الخلافات التى تقوم بين الصناع بعضهم بعضا ، او بينهم وبين الزبناء ، وحتى الاطباء والصيادلة كان لهم أمناء فى مراكش وفاس لا يرخصون بتعاطى العلاج وصنع الادوية الا لمن ثبتت خبرتـه المهنيـة .

وهناك مادتان مهمتان لعبتا دورا اساسيا فى الاقتصاد المغربى لهذا العهد ، واقترن اسمهما باسم السعديين ، اعنى الذهب والسكر . ففيما يخص الذهب نعرف أن المغرب ظل قرونا عديدة صلة وصل بين افريقيا السوداء واوربا الغربية ، اذ تخرج القوافل المحملة بذهب السودان مـن تمبكتو سالكة عبر الصحراء الطريق المستقيم الذى يمر بمعادن الملـح الشهيرة فى تاودنى وتغزى فلكتاوة ، أو من كاغو معرجة شرقا نحو توات فسجلماسة ، ومن جنى وتمبكتو معرجة غربا الى واحة ودان فتاكوسـت بسوس . لتلتقى كلها فى مدينة مراكش . وعن طريق الموانىء المغربيـة تأخذ أوربا حظها من المعدن الثمين . غير أن الفتن المنتشرة فى آخر العهد المرينى صرفت قوافل الذهب عن مراكش ، فأخذت تتجه عندما تعبـر الصحراء الى المراكز التجارية البرتغالية بسواحل سوس ، أو تأخذ طريق الشرق فتسير من توات او سلجماسة نحو الجزائر وتونس وطرابلـس ومصـر .

وقد اخذت المزاحمة البرتغالية للمغرب فيما يتعلق بذهب السودان شكل حصار قوى حين بدأت سفن الكرافيل البرتغالية ترسو فى الموانىء القريبة من معادن الذهب لتقايض السودانيين مباشرة بالبضائع المغربية التى تستولى عليها من المناطق المحتلة بسوس ودكالة . ولم ينقطع تردد سفن البرتغال التجارية على موانىء غرب افريقيا السوداء حتى بعـد اكتشاف مناجم الذهب والفضة العظيمة بأميركا ، بل صارت تتزود منها ، زيادة على الذهب ، بالرقيق المستخدم فى المشاريع الفلاحية الضخمـة بالعالـم الجديـد .

لذلك نجد السعديين يوجهون جهودهم الحربية كلها ، ومنذ اليوم الاول لتقلدهم زمام الامر ، ضد الاحتلال البرتغالى لسواحل سوس ودكالة

من اجل فك الحصار الاقتصادى المضروب على المغرب ، فكان لهم ذلك بكيفية جزئية ، ولم يتم تخليص التجارة المغربية مع السودان الا بعد القضاء النهائى على البرتغاليين فى معركة الملوك الثلاثة ( 986 /1578 ).

كان من نتائج هذه المعركة ، فى الناحية الاقتصادية ، تدفق الذهب على المغرب بكميات ضخمة بعد طول انقطاع ، وتوزع الثروة المتمثلة فى الغنائم العظيمة على عدد كبير من افراد الامة ، اذ كان المقاتلة من كل انحاء المغرب ومن جميع الطبقات . وحملت الى المغرب معظم الكنوز التى كانت تمتلىء بها خزائن الدولة والقصور البرتغالية لفداء الاسرى من الامراء والنبلاء والقواد . واذا كان الاتصال التجارى مع السودان اصبح مضمونا من جديد بعد اقصاء المنافس الخطير واعادة بسط النفوذ المغربى على المراكز الصحراوية الواقعة فى طرق القوافل ، فاننا نجد احمد المنصور فى آخر القرن العاشر الهجرى ( 16 م ) يسير الى أبعد من ذلك فيرسل جيوشه لتكتسح حوضى السينغال والنيجر ، ويقوم عماله فى تمبكتو بتزويد مراكش بأحمال الذهب فى قوافل منتظمة . وسيستمر دخول الذهب السودانى الى المغرب بقية العهد السعدى ، ولو أن الكمية نقصت بعد موت المنصور ، والقوافل أخذت فى العقود الاخيرة تتجه بدلا من مراكش الى ايليغ ( عاصمة أبى حسون بسوس ) أو الى سجلماسة ( مقر العلويين ) .

اما السكر ، ولو انه كان معروفا فى المغرب منذ أيام المرابطين حسبما فى **المسالك والممالك** لابن جبير ( م. 487/1094 ) **ونزهة المشتاق** للادريسى ( م . 548/1154 ) ، فقد توسع فيه السعديون كثيرا ، وخصصوا الحقول المخزنية الشاسعة فى سوس لزراعة قصب السكر ، وبخاصة حوالى عاصمتيهم القديمتين تيدسى والمحمدية ( تررداتت ) ، وانشؤوا فى نفس المنطقة معامل ضخمة لتصفية السكر جلبوا اليها مياه الاودية لادارة الارحية فى قنوات عظيمة محمولة فى الاماكن المنخفضة على اسوار عالية وفى مسافات طويلة تبلغ نحو ثمانين كيلو مترا ، ثم تنقل المياه فى المعامل الى مرتفعات بطرق هندسية لتتساقط على العجلات المولدة للقوة المحركة . وفى كل معمل عدد كثير من الدنان النحاسية الضخمة لجمع عصير قصب السكر ، تحتها أفران من الطين ما تزال المكتشفة منها مليئة بالرماد . وبعد أن تتم عملية تصفية السكر يجعل فى اوعية ليتبلور ويأخذ شكل ( القالب ) الهرمى المخروط المعروف فى المغرب حتى اليوم .

وقد زاد اتساع مزارع قصب السكر ومعاصره بما انشأ احمد المنصور منها بناحية شيشاوة بين مراكش والصويرة ، حتى أنشئت بجوارها مدن عامرة بالعمال والفنيين حسبما اكدته الحفريات الاخيرة . وقد زار عبد العزيز الفشتالى بعض معامل تصفية السكر فشبهها بأهرام مصر ، وعبر عن اندهاشه من عظمة مساقط المياه الاصطناعية ، وتعدد

الجفان والآلات التقنية التى سماها ( الفلسفية ) بأن ذلك « تحار فيه حكماء يونان ، وجنود سليمان » .

هذه الصناعة الضخمة التى استأثرت بها الحكومة السعدية كانت تزود الأسواق الداخلية بما تحتاج اليه من السكر ، وتمد بكميات وافـرة منه القوافل لتنقله عبر الصحراء الى افريقيا السوداء ، والسفن التجارية لتحمله الى اوربا وبخاصة انجلترا وايطاليا . وبذلك صار السكر فى مقدمة مداخيل خزينة الدولة يمثل فيها نحو 33 ٪ . غير ان الاضطرابات التـى سادت المغرب فى منتصف القرن الحادى عشر للهجرة ( 17 م ) من جهة ، ومزاحمة سكر امريكا وجزر آنتيى من جهة ثانية ، زحزحت المغرب عـن مركز الزعامة فى هذا الميدان الاقتصادى .

***

## ج ـ فى ميـدان الاجتمـاع والعمـران

كانت البداوة طاغية على الحياة الحضرية بالمغرب أوائل القـرن العاشر الهجرى ( 16 م ) بسبب اختفاء عدد كثير من المدن ، وبخاصة فى المنطقة الساحلية التى استولى فيها البرتغاليون والاسبانيون على ثغور قضوا على صبغتها المغربية وحولوها الى مراكز استيطان لجنودهـم وجالياتهم، كما هجر السكان مدنا اخرى لمجرد مضايقة المحتلـين ومجاورتهم أو للشعور بالعزلة بسبب اختلال الامن وانقطاع السبل ، فخلت المدينة الغربية بين الوليدية وآسفى ، ورباط تيط جنوبى البريجـة أو الجديدة الحالية ، ومدينة آنفا فى الموقع الحالى للدار البيضاء ، والقصـر الصغير بين طنجة وسبتة ، وتقلصت الحياة فى مدن أبى رقراق لتبقـى الرباط والقصبة وبعض أحياء سلا قاعا صفصفا . وحتى المدن الداخلية نال منها الخراب بسبب الحروب والفتن المنتشرة أواخر العهد المرينى ، فلم يعد مسكونا فى مدينة مراكش غير نحو ثلثها بينما سقط الباقى خرائـب وركاما ، وحولت أحياء متهدمة الى بساتين تزرع فيها الاشجار والبقول .

على ان هذه السحابة السوداء لم تلبث أن أخذت تنقشع مع ظهور السعديين وانتشار نفوذهم ، فلم يتوسط القرن العاشر ( 16 م ) حتـى تخلصت شواطىء سوس وآسفى وآزمور والعرائش وأصيلا ، وأسست مدن أخرى أو جددت واتسع عمرانها ، كحصن المنكب ( اكدير ايغير ) ، والمحمدية ( ترودانت ) ، وشفشاون ، وتطوان ، كما استرجعت مراكش سالف عمرانها ومجدها لتصبح فى آخر القرن أكثر بهجة وفخامة منها فى أى وقت مضى ، ويشيد فيها قصر البديع أعظم تحفة فنية إحتفظت كتـب التاريخ والرحلات بوصفها ، وتتعدد فيها المنشآت العامة مـن مساجـد

ومكتبات ومارستانات وبساتين وبرك ، والمبانى الخاصة من قصور الوزراء والقواد والكتاب والتجار والصناع .

واذا كنا لا نعرف عدد سكان المغرب فى العصر السعدى لعدم وجود احصاءات مضبوطة ، فان بعض المؤرخين المحدثين قدروا عدد السكان فى اوائل القرن العاشر ( 16 م ) بستة ملايين ونصف أخذاً مما ورد فى كتاب الوزان (10) عن عدد المقاتلة من القبائل البربرية والعربية . ومن المؤكد ان سكان المغرب السعدى تزايد عددهم بتقدم عقود هذا القرن ، لاسيما بعد ان اتسعت حدود الامبراطورية السعدية وشملت الصحراء الكبرى وما وراءها من بلاد السودان . وقد دخلت الى المغرب – بعد خروج الوزان منه – عناصر سكنية جديدة ، فيهم المرتزقة من الاتراك والاوربيين العاملين فى الجيش ، والاسرى والارقاء المسيحيون والسودانيون العاملون فى الجيش كذلك ، وبخاصة فى خدمة القصور والحقول واوراش البناء ومعاصر السكر ، واليهود المشتغلون بالتجارة وصياغة الذهب ، الى عدد غير قليل من الاسر الوهرانية والتلمسانية وقبائل برمتها من أعراب المغرب الاوسط فرت من وجه الاحتلال التركى . وقد استقرت هذه القبائل بسهول سايس وحوض سبو ودعيت **بشراكة** ( لمجيئها من جهة الشرق ) مكونة احد الأركان المهمة فى الجيش السعدى .

على ان اهم العناصر الوافدة على المغرب أيام السعديين هى الجالية الاندلسية التى تتابع نزوحها الى هذه العدوة طوال القرن العاشر ( 16 م ) حتى اذا اصدر الملك الاسبانى فيليب الثالث فى 22 جمادى الثانية 22/1018 سبتمبر 1609 قرار طرد المورسيكين نهائيا من شبه جزيرة ايبريا قصدت أفواج كثيرة منهم المغرب الاقصى ، فعمر الحضريون الرباط والقصبة والاحياء المهجورة فى سلا ، وسكنوا المدن الاخرى حتى بلاد سوس مكونين فى الغالب احياء خاصة بهم ، مشتغلين بالتعليم والتطبيب ومختلف الحرف والصناعات التى يعرفونها ، او متقلدين مناصب فى الجيش ، كما انتشر الفلاحون الاندلسيون فى بوادى المغرب ينشطون الزراعة ويجددون من طرق الرى والغرس والسكنى القروية .

واذا كان امتزاج عناصر السكان المتنوعة فى العصر السعدى لم يتم بطبيعة الحال الا مع تعاقب الاجيال ، وبعد اجتياز مراحل الاحتراز والتمرد ومحاولات الانقلاب والاغتيال بسبب تباين الطباع والعادات ، فان المغاربة عرفوا تطورات مهمة فى حياتهم اليومية منذ وطئت اقدام الوافدين الجدد هذه البلاد ، فطراز البناء الاندلسى لم يعد مقتصرا على مدن الشمال ، وانما انتشر وتخطى جبال الاطلس ، ودخلت الفسيفساء ونقش الحجر والجبس والخشب والفستقيات المائية حتى الدور المتوسطة بعد

---

10) انظر ح. الوزان ، **وصف افريقيا** ، 1 : 27 و 30 الخ ، برينيون ومن معه ، **تاريخ المغرب** ، ص . 185 .

ان اصبح الصناع المختصون يعيشون بين اظهر سكان المدن ، وانتشرت عادة اللباس الابيض الاندلسي في الصيف والمآتم ، ووضع المغاربة وخاصة رجال المخزن والعلماء والتجار ، على رؤوسهم القلنسوة الحمراء ذات الشاشية الزرقاء الاندلسية ، فاصبح ذلك اللباس الرسمي في المغرب واستمر حتى اليوم . كما لبس الجنود والبحارة وكبار الخدم كسوة ( المحصور ) التركية المزخرفة ذات السروال الفضفاض ، والصدرية المزركشة ( الجبدور ) ، وانتشرت بدعة ( المنصورية ) من الملف — القفطان — لدى خاصة الناس ثم عامتهم تقليدا لمخترعها او مستعملها الاول السلطان احمد المنصور ، كما فرشت الدور المغربية بالزرابي التركية ، والحائطيات المطرزة بالذهب او الحرير المعلقة على الجدران ، والارائك الاصطمبولية المستديرة او ( الصطرمبيات ) .

وفي ميدان اللغة ، دخلت المغرب في العصر السعدي مفردات اسبانية مع الاندلسيين ، وبخاصة الموريسكيين الذين لم يكن من السهل عليهم في تخاطبهم اليومي التخلص من اللغة الرومانسية التي درجوا عليها في الاندلس منذ صباهم . ولا زلنا حتى اليوم نقول الساروت ، والبنديرة ، والكشينة ، والفالطا ، الخ ، وقد وجد ل .برونو في كتابه عن **البحر في العادات والصناعات الأهلية بالرباط وسلا (11)** من بين الالفاظ البحرية الثلاثة والخمسين والسبعمائة المستعملة في الرباط وسلا ، 217 كلمة اسبانية . كما ان محمد بنشريفة في كتابه **امثال العوام في الاندلس** (12) استنتج بالمقارنة « ان قسما كبيرا جدا من الامثال ( الاندلسية ) الواردة في مجموعة الزجالي القرطبي — وعددها 2153 مثلا — ما يزال مستعملا في حواضر المغرب وبواديه » .

ودخلت كذلك الى المغرب مفردات تركية وفارسية مع الوافدين ، سواء في الميدان العسكري والاداري مثل سنجق ، وطبجي ، وصبايحي ، وباشا ، وباشدور ، وشاوش ، أو في الحياة العامة ، مثل صابونجي ، وقهوجي ، وخواجي ، ودرويش ، وطارمة ، وطاقية وقطان الخ .

***

### د — في ميدان الفكر والادب

اذا كان النشاط الفكري ايام السعديين هو بالذات موضوع هذه الدراسة ، فاننا سنجتزىء هنا ، ضمن الخطوط الكبرى للعصر السعدي، بالاشارة الى التحولات الثقافية في هذا العصر ، انطلاقا من الفترة السابقة

---

11) ل. برينو ، **البحر** ، 246 — 263 وفي مواضع متفرقة اخرى .
12) م. بنشريفة ، **امثال العوام** ، 1 : 167 .

وبالمقارنة معها حتى تكتمل النظرة العامة منذ البداية من جهة ، وحتى لا نضطر فى صلب هذه الدراسة الى الرجوع الى الوراء .

حقا قد يستغرب المتتبع لتطور الحركة الفكرية بالمغرب من الانقطاع الذى حدث فى الدور الاخير من العهد المرينى ، حين ينتقل من نشاط القرن الثامن ( 14 م ) عصر ابن البناء المراكشى ( ت. عام 721/ 1321 ) ، وابن رشيد السبتى ( ت. عام 1321/721 » ، وابن ابى زرع الفاسى ( ت. 1326/726 ) وابن بطوطة الطنجى ( ت. عام 1376/777 ) الى جانب ابن خلدون وابن الخطيب وعشرات العلماء والادباء المشهورين، ينتقل مباشرة الى خمول القرن التاسع ( 15 م ) حيث لا يجد اى اسم لامع لاديب او مؤرخ او رحالة او حتى مؤلف فى التراجم والمناقب ، باستثناء بعض الصوفية والفقهاء الذين لا يستغنى عنهم المجتمع فى معاملاته اليومية .

ربما كان من اسباب هذا الخمول ما يقال من تلازم السياسة والادب قوة وضعفا وارتقاء وانحطاطا ، ولو ان ذلك غير مطرد . وفى الفصل الأول من هذا المدخل التاريخى اشارة الى المشاكل السياسية الخطيرة التى أخذ المغرب يتخبط فيها منذ اغتيال ابى عنان المرينى ، فقد اجتاحت عواصفها الهوج المساجد والمدارس والمكتبات مثلما خربت قصور الامراء وثكنات الجند وخزينة الدولة . ويعلل الحسن الوزان تأخر العلوم والآداب فى مطلع القرن العاشر (16 م) بفاس وسائر بلاد شمال افريقيا بما كان من تخريب أوقاف المدارس والمعاهد العلمية فى الفتن ، واستيلاء المتأخرين من المرينيين فالوطاسيين على ريع ما تبقى منها عن طريق قروض لا ترد ابدا . وكان ريع اوقاف المدارس بفاس فيما سبق يكفى للانفاق على كل طالب مدة سبع سنوات ، سكنى وطعاما وكسوة ، فلم يبق من ذلك فى زمن الحسن الوزان غير مجرد السكنى للطلبة ، واجور بسيطة للاساتذة ، وبذلك قل عددهم ، وفترت همتهم عن الدرس والتحصيل (13)

وقد يكون من اسباب هذا الخمول ايضا اضطرار العلماء والطلبة الى المشاركة فى حركة الجهاد للوقوف فى وجه المغيرين المسيحيين خاصة فى الشمال . ويذكر من ترجموا لعبد الله الورياغلى المعروف بالعالم انه لما رجع من الرحلة التى قام بها طلبا للعلم خارج المغرب ، وجد البرتغاليين احتلوا طنجة واصيلا ، فاقام فى بلاد الهبط مقسما ايامه بين الجهاد والتدريس . كان يسكن فى مدرسة بمدينة القصر الكبير ويشتغل بالتدريس فى مسجدها خلال فصلى الشتاء والربيع ، ثم يخرج الى الجهاد بقية السنة (14) . وحتى شيخ الجماعة بفاس محمد ابن غازى كان يخرج الى الجهاد فى ثغرى اصيلا والعرائش ، ومات وهو فى طريقه الى احدى تلك الغزوات الجهادية كما سنرى فى ترجمته .

---

(13) ح. الوزان ، **وصف افريقيا** ، 1 : 186 — 187
(14) م. ابن عسكر ، **الدوحـــة** ، 25 — 27

نعم ، تغيرت الاوضاع الثقافية في المغرب مع السعديين . انطلاقا من منبتهم في الجنوب ، والكل يعلم ان بلاد ما وراء الاطلس كانت منذ القرون الاسلامية الاولى مركز اشعاع علمي ، مثلما كانت مهبط التجار ومقصد القوافل . لذلك نجد كثيرا من العلماء والادباء من سوس ودرعة وسجلماسة ونجيج ، ولاسيما في الدور الاول للدولة الجديدة . وساعد على هذا التطور الفكري ان الامراء الجدد انفسهم كانوا رجال علم وادب، فمحمد القائم بأمر الله فقيه اشتغل بالتدريس في مسقط رأسه بدرعة قبل ان يختار للامارة ، وابنه محمد المهدي الشيخ اديب يحفظ **ديوان المتنبي** عن ظهر قلب ، وابناؤه محمد المتوكل واحمد المنصور ، واحفاده محمد بن عبد القادر وزيدان كلهم علماء ادباء شعراء .

واذا كان انتشار العلم والادب في المغرب لهذا العهد سار جنبا الى جنب مع انتشار نفوذ السعديين ، فان هناك عوامل مساعدة عملت على نموه وتمركزه في مختلف جهات البلاد ، من تعدد المراكز الثقافية في الحواضر والبوادي ، وبخاصة مراكش التي استرجعت نشاطها العلمي القديم بما انشىء فيها او جدد من معاهد التعليم ، كمسجد الشرفاء بالمواسين ، ومسجد باب دكالة ، ومسجد ابي العباس السبتي ، والمكتبات الغنية الملحقة بها ، ومدرسة ابن يوسف ( جامعة ابن يوسف فيما بعد ) التي ضاهت كبريات مدارس فاس . بالاضافة الى تجديد جامع القرويين وانشاء المكتبة العظيمة بجواره ، وتوسيع المسجد الكبير بالمحمدية ( ترودانت ) والمرافق الطلابية الملحقة به . انه من الطبيعي ان يتكاثر عدد العلماء والطلبة ايام اقبال الدولة السعدية بعد ان وطئت لهم الاكناف واغدقت عليهم الارزاق . وتجسم هذه العناية قولة احمد المنجور شيخ الجماعة بفاس ، وهو مخضرم عاش ايام الوطاسيين والسعديين : « ما عهدنا بذل المئين في الصلات الا في ايام الشرفاء ، ولا عهدنا بذل الالوف الا في أيام أمير المومنين المنصور ايده الله » (15) .

وحتى بعد ادبار أيام هذه الدولة ، لم يعدم العلماء والمتعلمون — وعددهم آنذاك كثير — مجالا للعمل في الزوايا الكبرى ، مثل الزاوية الدلائية في الاطلس المتوسط ، والزاوية الناصرية في درعة ، والزاوية العياشية في الاطلس الكبير .

وهناك ظاهرة كثرة الكتب في العصر السعدي وتعدد خطوطها من مغربية واندلسية ومشرقية . بعض هذه الكتب من انتاج رجالات هذا العصر في مختلف المواضيع الشرعية واللغوية والرياضية والطبية والتاريخية والادبية ، اهدى منها لخزانة احمد المنصور وحدها ازيد من مائة كتاب (16) ، وبعضها الآخر كتبه نساخون هواة ومحترفون في مراكش

---

15) ع. الفشتالي ، **مناهل الصفا** ، ص . 155

16) المقري ، **روضة الآس** ، ص 69 — 70

وغيرها من المراكز الثقافية المغربية ، او فى القاهرة ومكة والمدينة والقسطنطينية وغيرها من مواسم الشرق الاسلامى ، وحمله الى المغرب رجال من البلاط السعدى كانوا يذهبون بانتظام الى المشرق وفى رواحلهم صناديق مملوءة ذهبا ليعودوا بها مملوءة كتبا (17) . وفى آلاف المخطوطات السعدية التى ما تزال حتى اليوم تزخر بها المكتبات العامة والخاصة بالمغرب ومكتبة دير الاسكوريال باسبانيا أصدق دليل على اتساع حركة التاليف وانتساخ الكتب فى ذلك العهد الزاهر .

على أن هناك ظاهرة اخرى تدل على اتساع الافق الثقافى ايام السعديين ، حيث انتشر الطرب والمرح ، وأخذت الموسيقى الاندلسية المغربية طابعها النهائى فى هذه البلاد ، بازدواج التلحين وانشاد ( بروال) وهى من الشعر المغربى الشعبى الخفيف ، ومقطعات شعرية فصيحة ، وموشحات مغربية الى جانب الأزجال والموشحات الأندلسية التقليدية ، علاوة على ما اضافه الفنانون المغاربة الى أصول هذه الموسيقى الوافدة، مثل نوبة ( الاستهلال ) ، وميزان ( الدرج ) ، وعدد من ( الصنائع ) فى الميازين الأخرى . ويبدو التمازج الموسيقى اكثر وضوحا فيما كان ينشده المغنون او ( المسمعون ) فى الحفلات الكبرى المقامة فى قصر البديع بمراكش ، وفى المساجد والزوايا بالمدن والقرى ، بمناسبة عيد المولد النبوى الشريف ، فيترنمون بقصائد فصيحة وملحونة ، وموشحات ، وأزجال ورباعيات لمغاربة واندلسيين ومشارقة حسب طبوع الموسيقى الاندلسية — المغربية .

17) ع. كنون ، رسائل سعدية ، ص. 80 — 81 ، 104 — 105 ، 182 — 183 ، 233

# القســـم الأول

# الحركة الفكرية فى عهد السعديين

# البابُ الأول

## الفكـــر المـــغـــربي

# الفكر المغربي

## الفصل الأول

### المميزات العامة

لم يكن النشاط الفكري فى المغرب السعدى وجودا من عدم ولا بداية من فراغ ، وانما كان نهوضا من عثار وصحوا من غشاوة . فالمنشآت الثقافية المرينية ، بل وحتى الموحدية والمرابطية ، ما زالت فى معظمها قائمة العين او الاثر ، وذبالة المعرفة لم تنطفىء تماما فى عقول قلة من العلماء المنبثين هنا وهناك . لذلك لم تكد الدولة الناشئة تنفض عن تلك المنشآت غبار الخمول حتى استوت قائمة زاهية ، وكانما لامس إكسير الحياة رجالها فاستفاقت أحلامهم واستقامت اقلامهم .

اننا اذا نظرنا فى معطيات الفكر المغربى على عهد السعديين لنستخلص منها خصائصه ومميزاته ، الفيناه على العموم تقليديا عقديا يعتمد اعتمادا مطلقا على آراء القدامى من علماء الاسلام ، بل وحتى على آراء حكماء الاغريق وفلاسفتهم فى ميدان العلوم البحتة والتجريبية . اللهم الا ما كان من بعض اشراقات فى ميدان البحث والتحليل ، ومبادرات فى مضمار الاجتهاد والتأويل . ونكاد نجد كل الانتاج الفكري بالمغرب لهذا العهد ــ على كثرته وتنوعه ــ مصطبغا بصبغة دينية او ادبية .

## ا ـ الصبغة الدينية :

ليست هيمنة الدين وعلومه عند جميع الامم ببدع فيما قبل العصر الحديث . غير أن هذه الهيمنة أخذت فى المغرب طابعا بارزا بسبب تركز المذهب السنى فيه ، الى وحدة فى العقيدة الاشعرية ، ووحدة فى الفقه المالكى ، ووحدة فى طريقة الجنيد الصوفية . الامر الذى أعطى الدين ورجاله قوة لا تنال منها نزعة أو بدعة ، ولا توهنها مذهبية أو طائفية (1) .

تتجلى الصبغة الدينية للفكر المغربى فى كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية فيما يكتبه علماء هذا العصر ، واقحام الاحكام الفقهية حتى فى كتب الطب والأعشاب والفلك ، واستطراد آراء الصوفية وآدابهم حتى فى مؤلفات قواعد اللغة . كما تتجلى فى الاهتمام المباشر بهذه العلوم الدينية ، واعطائها الاولوية فى مضمار التعليم والتأليف .

واذا كان اهتبال المغاربة بحفظ كتاب الله وتلاوته معروفا منذ القديم، فان عهد السعديين عرف مزيدا من الاقبال على علوم القرآن ، ضبطا ورسما وتجويدا وتفسيرا وقراءات . اعتمد القراء المغاربة أولا على كتب الاقدمين وبخاصة الاندلسيين ، فتناولوها بالشرح والتعليق والاختصار والتذييل ، ثم ألفوا بدورهم كتبا مستقلة عديدة ، مطولة ومختصرة ، فى مختلف مناحى الدراسات القرآنية ، كان لبعضها حظ الخلود والانتشار فى كل أقطار افريقيا الاسلامية الى أيامنا هذه .

لم يكن انتشار الدراسات الفقهية فى الواقع ظاهرة دينية خالصة ، وانما هو ظاهرة دينية ـ دنيوية ، لا لأن الفقه يحتوى على عبادات ومعاملات فحسب ، ولكن لكونه مصدرا للعيش والارتزاق أيضا ، فيتبوأ الفقهاء من المناصب الدينية والخطط الاجتماعية ما لا مطمح فيه لغيرهم من العلماء .

وبرزت ضلاعة فقهاء المغرب السعدى وأصالتهم فى الكتب المستقلة التى وضعوها نظما ونثرا ، واحتل بعضها مركز الصدارة فى الدراسات الفقهية فى جميع بلاد شمال افريقيا حتى اليوم . كما تبدو فى اجتهاداتهم فى الاحكام والنوازل ، سيرا مع مبدأ المذهب المالكى الذى جعل من أصوله ( عمل أهل

---

1) لا يعنى ذلك خلو المغرب تماما من البدع والفرق الضالة ، وانما نقصد خلوه من الفرق المخالفة للسنة المفارقة للجماعة ، كالشيعة والمعتزلة والخوارج ، الموجودة علنيا فى المجتمع الاسلامي بالمشرق .

المدينة ) . وشرع مخالفة المشهور من الاحكام الفقهية لدرء مفسدة او جريان عرف ، فاسسوا بذلك قواعد ( العمل ) (2) الذى اصبح من اهم خصائـــص الفقه بالمغرب حتى اليـــوم .

اما التصوف على عهد السعديين فانه لم يعد مجرد سلوك لقوم زهدوا فى ملذات الحياة ، واقبلوا على العبادة والذكر فى الربط والزوايا ، بقدر مـــا اصبح دراسة ومناظرة بين جماعة من النساك العلماء وبحثا فى العلل النفسية والاعراض المادية ، ومن ضمنها المشاكل السياسيـــة والانحرافـــات الاجتماعية ، وذلك لاجل ايجاد حلول لتلك المشاكل ومعالجة العلل والعادات السيئة . وهذا ما طبع التصوف المغربى فى العصر الذى ندرسه بالجديـــة والعملية وجعله فى مقدمة العناصر الايجابية للفكر المغربى .

## ب ــ الصبغـــة الادبيـــة .

قد يعجب دارس العصر السعدى من كثرة مايلاقى من المظاهر الادبية ورواية النوادر والاشعار حتى فى مجالس القضاة وشيوخ العلم والتصوف بل وفى الاسواق وساحات القتال . وقد يعجب أيضا من وفرة الانتاج الادبـــى ونبوغ عدد وافر من الكتاب والشعراء حتى من بلاد سوس وجبال الاطلـــس والريف . لكن عليه أن يذكر أن انتشار اللغة العربية وآدابها فى هذه البـــلاد بلغ اقصى مداه مع الموحدين والمرينيين ، ثم جاء السعديون فأقاموا أسواق عكاظ فى المحمدية ومراكش وفاس ، وبخاصة فى أعياد المولد النبـــوى ، وحذا حذوهم فى ذلك الدلائيون فى زاويتهم ، والسملاليون فى ايليغ ، فنفقت بضاعة الادب فى كل مكان ، وانطلقت قرائح الادباء تنتج وتبدع ما وسعهـــا الانتاج والابـــداع .

انك لا تقرأ الادب السعدى فى دواوين الشعراء ومجموعات المترسلين فحسب ، ولكنك تقراه ايضا فى كتب التراجم والرحلات ، وفى الاستطرادات التى لا تكاد تخلو منها فهارس العلماء ومؤلفاتهم فى مختلف فروع المعرفة .

---

(2) دعى هذا العمل أولا ( العمل الفاسى ) لارتكازه على عادات فاس واجتهادات فقهائها ، ثم تكاثرت العادات والاجتهادات فى مختلف جهات المغرب فدعى ( العمل المطلق ) . انظر الفصل الخامس من الباب الرابع من هذه الدراسة .

# الفصل الثاني

## العناصر الثقافية المختلفة

اذا كان المغرب السعدى قد انسدت ــ سياسيا ــ حدوده الشمالية بنهاية دولة الاسلام فى الاندلس ، والشرقية بالاحتلال التركى للجزائر ، فانه ظل ــ عمليا ــ متفتحا اشد ما يكون التفتح للثقافة العربية الاسلامية ، ومتطلعا بكل اهتمام الى التطورات العلمية والتقنية فى أوربا المسيحية . دخل الاندلسيون الى المغرب قبل سقوط غرناطة وبعده ، وجاءه أعلام من المغرب الاوسط ضاقوا ذرعا بسلطة الاتراك ، وآخرون من المغرب الادنى انفوا من الخضوع لحكم الاسبان . وشد اليه الرحلة طائفة من علماء المشرق طارت احلامهم لمشاهدة بلاط المنصور الذهبى بعد أن سارت بذكره الركبان ، وطلع اليه من اقصى الجنوب علماء من مختلف جهات الصحراء والسودان . كما جاءه علماء من مختلف انحاء أوربا .

حل كل هؤلاء القوم على الرحب والسعة ، وعملوا فى انسجام مع علماء المغرب على تنشيط حركة فكرية صهرت فى بوتقتها أخيرا جميع الطاقات . لكن ماذا كانت اهمية كل عنصر من هذه العناصر البشرية ؟ وماذا حمل من مجهود فكرى لتلك الحركة ؟

ذلك ما سنحاول استعراضه بايجاز .

### ا ــ العنصر المغربى

يمثل المثقفون المغاربة بطبيعة الحال العنصر الغالب فى الحركة الفكرية بهذه البلاد . وقد تكون معظم تكوينا محليا فى عشرات المراكز الثقافية المنتشرة فى حواضر المغرب وبواديه ، وبخاصة فى مدن فاس ومراكش

والمحمدية ، الا قليلا منهم كانت لهم رحلات دراسية الى المغربين الاوسط والادنى وبلاد الشرق الاسلامى . من هؤلاء من قضى السنوات ذوات العدد فى الدراسة والتوسع فى علم الحديث بصفة خاصة ، ومنهم من استغل فقط فرصة اداء فريضة الحج فعمد الى لقاء كبار الشيوخ فى المراكز التى مر بها ، وحضر مجالسهم التعليمية لمدة قصيرة قبل ان يستجيزهم ليضيف سندا جديدا الى اسانيده القديمة (3) .

وبعد أن كانت العلوم النقلية التى تعتمد على الحفظ والرجوع الى النصوص هى السائدة فى المغرب أوائل عصر السعديين ، تبدلت الاحوال بعد أن استقرت قواعد الدولة وتفتحت على العالم الخارجى ، فاخذت العلوم العقلية تجد طريقها الى حلقات التدريس ، ثم لم تلبث أن صارت تنافس العلوم النقلية وتزاحمها حتى فى المراكز القروية . على انه رغم هذا التوسع والتنوع، لم تتخلص ثقافة المغرب السعدى من صبغتى الدين والادب .

وهناك ظاهرة أخرى لا يجمل اغفالها فى هذا المضمار ، وهى شدة الإلحاح على الدراسات اللغوية والادبية فى الجنوب ، وبخاصة فى سوس ، وتلك ظاهرة قديمة وجدت عند الفرس فى صدر الاسلام ، حيث تفوقوا فى دراسة اللغة العربية وقواعدها وآدابها ، فكان منهم سيبويه ، وابو على الفارسى ، وابن جنى ، كما كان منهم ابن المقفع ، وأبو نواس وغيرهم : كذلك نجد الدراسات اللغوية العليا فى المغرب السعدى تقع فى مراكز بعيدة من مواطن الاعراب ، وكتاب سيبويه الذى لم تعرفه فى هذا العصر فاس ولا غيرها من الحواضر ، كان يدرس فى بعقلية بسوس ، وفى تكروت بدرعة ، وفى زاوية الدلاء بالاطلس المتوسط (4) .

## ب ـ العنصر الاندلسى

يأتى الاندلسيون فى الدرجة الاولى بالنسبة للعناصر الطارئة على المغرب ، سواء منهم القدامى أو المحدثون . فقد استمر تنقلهم الى العدوة الجنوبية طوال ثمانية قرون ، منذ اجلى الحكم بن هشام الاموى الربضيين عن ضاحية قرطبة عام 817/202 فعمروا عدوة الاندلس بفاس ، الى أن قرر

---

3) التند من الالفاظ الاصطلاحية فى علم الحديث . ويعنى تتلسل الرواية من المحدث الى النبي عليه السلام ، وكلما قل عدد الوسطاء فى السلسلة كان السند اعلى واوثق واحب الى العلماء . لذلك تجد المحدثين يستكثرون من الاسانيد ويبحثون عن اعاليها ، لتتعدد وسائل اتصالهم بالرسول الكريم ومن أقرب الطرق الممكنة
ثم توسع علماء المتلمين فى السند ، فجعلوا لكل علم بل ولكل كتاب سندا يصلهم بواضع العلم او مؤلف الكتاب . ولذلك تجد فى بعض الفهارس طرقا متشعبة كثيرة تصل اصحابها بمؤلفى الكتب المدروسة .

4) انظر بحثنا عن **كتاب سيبويه فى المغرب والاندلس** ، **دعوة الحق** ، السنة 16 ، العدد 7 غشت 1974 ، ص 160 ـ 164 .

فيليب الثالث الكاثوليكي طرد آخر الموريسيكين عن شبه جزيرة ايبيريا عـام 1609/1018 . ويهمنا فى هذه الدراسة من دخل المغرب منهم عقب انهيار مملكة غرناطة ، وهم كثيرون حملوا الى المغرب الوانا من الثقافة ان لم تكن جديدة تماما فقد كانت نادرة كعلم القراءات والطب والموسيقى والترجمة .

فمن المعلوم ان مدرسة القراءات الاندلسية قديمة أصيلة ، تبنت قراءة نافع براويتى ورش وقالون من طرق متعددة (5)، وعرفت سائر القـراءات الاخرى المتواترة منها والشاذة . اكتملت هذه المدرسة مع ابى عمرو الدانى ( ت . 1052/444 ) ، وانتشرت كتبه ، وكتب ابى محمد الشاطبى ( ت . 1194/590 ) ، وابى عبد الله الشريشي الخراز ( ت . 1318/718 ) وغيرهم من ائمة القراء الاندلسيين فى بلاد المغرب حتى مصر .

أما مدرسة القراءات المغربية فلم تتكون الا فى القرن الهجرى السادس، واكتملت مع ابن بـرى التـازى ( ت. 1331/731 ) ، ثم ادركهـا من الضعف والفتور ما أدرك سائر العلوم أواخر العهد المرينى . وقد كان للقراء من بين المهاجرين الاندلسيين فضل المشاركة فى بعث هذا الفن على عهـد السعديين ، غير أن عملهم فى هذا الطور اقتصر على التلقين الشفوى لمختلف القراءات والروايات ، وتدريب الطلبة على تجويد القرآن الكريم ورسمـه وضبطه ، بينما استأثر القراء المغاربة بالتأليف .

وفى ميدان الديانات المقارنة ، عمل بقاء المدجنين والموريسكيين(6) من مسلمى الاندلس مدة طويلة تحت حكم الاسبانيين، واضطرارهم الى التظاهر بالتنصر وانتحال الطقوس الدينية فى الكنائس ، على أن يعرفوا عن قـرب تعاليم المسيحية الكاثوليكية معرفتهم شعائر الاسلام . لذلك اشتغل بعض المهاجرين الاندليسيين من ذوى الميول الملية اللاهوتية بالمقارنة بين عقيدتى التوحيد والتثليث ، وبين تعاليم الاسلام والمسيحية ، عن طريق مناظـرة الرهبان والقساوسة خارج اسبانيا .

---

(5) نزل القرآن على سبعة احرف ، تكونت منها القراءات السبع المتواترة على يد القـراء السبعة . وزاد بعضهم عدد القراءات المتواترة فجعلها عشرا او اربع عشرة . من القراء السبعة نافع بن عبد الرحمن المدنى ( ت. 69 / 785 ) أمـام قـراء اهـل المدينة ، واشهر تلاميذه ورش عثمان بن سعيد المصرى ( ت . 795/179 ) ، وقالون عيسى بن ميناالمدنى ربيـب نافع ( ت. 220 / 835 ) . وتنسب فى الاصطلاح **القراءة** للامام ، **والرواية** للاخذ عنه ، **والطريق** للاخذ عن الراوي . فيقال مثلا ، انتشرت فى الاندلس والمغرب قراءة نافع ، بروايتي ورش وقالون ، مـن طرق متعددة ، اى بواسطة عدد كثير من تلاميذ ورش وقالون .

(6) المدجنون هم الاندلسيون المسلمون الذين رضوا بحكم النصارى عندما استرجع هؤلاء بلادهم فلم ينزحوا عنها تشبثا بما لهم فيها من ضياع ومتاع . وهؤلاء بقوا على اسلامهم ووجدوا فى الاندلس، ودولة الاسلام ما زالت قائمة فى بعض اجزائها . الموريسكيون ، او العرب الاصاغر ، هم الذين بقوا فى الاندلس بعد نهاية دولة الاسلام بها واضطروا الى التنصر . انظر كتابنا **الزاوية الدلائية** ، ص . 167 .

وظلت الاندلس المسلمة حتى آخر عهودها محتفظة بتعاليم الاطبـــاء الزاهراوى القرطبى وابن البيطار المالقى وآل ابن زهر الاشبيليين ، وحمل المهاجرون الغرناطيون من ذلك ما احيى ذماء الدراسات الطبية والصيدلية بالمغرب ، وبخاصة فى فاس ومراكش . وقد قرب الملوك السعديون الاطباء الاندلسيين ، واتخذوا من بينهم طبيب القصر الخاص ، واغدقوا على سائرهم من الصلات والمكافآت ما شجعهم على النشاط فى علاج المرضى وصنـــع الادوية وتاليف الكتب .

وكذلك شغف الاندلسيون منذ القديم بالموسيقى والطرب شغفهم بالطبيعة والراح ، ولم تصرفهم محن الهجرة وضياع الوطن والمال عن رنات المثانى والمثالـــث ، فنفرت منهـــم بعض الاوساط المغربيـــة المحافظة ، مثـــل السلويين القائمين آنذاك بحركة الجهاد (7) . ولو أن احدا من الاندلسيين أو المغاربة لم يؤلف فى الموسيقى لهذا العهد ، فانهم تحدثوا عنها عرضا فى كتبهم الفقهية والصوفية والادبية، وعرفت الموسيقى المغربية ـــ الاندلسية تطورات مهمة سواء من حيث الالحان او الاشعار والازجـــال ، واضيفت الـــى ( النوبات ) (8) الموسيقية العشر القديمة ، نوبة جديدة هى ( الاستهلال ) بميازينه الخمسة ، اخترعه موسيقى من فاس يدعى الحاج علال البطلة فى خلافة عبد الله الغالب ( 964 ـــ 1557/981 ـــ 1574 ) . ولا يستبعد أن يكون هذا الموسيقى من أبناء الاندلسيين المهاجرين .

اما اللغة الاسبانية والبرتغالية فعرفها المغاربة عن طريق الوافديـــن عليهم من الاندلس ، غير أن هذه المعرفة ظلت سطحية ، على ما يظهر لا تعدو طور التفاهم الشفوى واقتباس بعض الكلمات والتراكيب . لذلك بقى الاندلسيون المهاجرون يعتبرون وحدهم خبراء اللغة الاجنبية ، يرجع اليهم فى ترجمة المعاهدات والمراسلات الرسمية . ووجد فى المغرب السعدى ، الى جانب المترجمين العاديين ، علماء وأدباء أندلسيون نقلوا الى اللغة العربية كتبا اسبانية فى الطب والصيدلة ، والفلك ، والفنون الحربية المستحدثة كما سنـــرى .

---

7) انظر اخبار المجاهد العياشى مع الموريسكيين فى الرباط والقصبة ( الاوداية ) فى كتابنا **الزاوية الدلائية** ، ص . 155 و 170 ـــ 174 .

8) **النوبة** فى الاصطلاح الموسيقى المغربى ـــ الاندلسى ، عبارة من وحدة موسيقية كبرى ، تكون لها نغمة خاصة تسمى **الطبـــع** .
تتركب كل نوبة من خمسة **ميازين** ، وهى . **البسيط** ، **والقائم ونصف** ، **والبطايحى** ، **والقدام** ، **والدرج** . وهذا الميزان الاخير لم يكن معروفا عند الاندلسيين وانما اخترعه المغاربـــة .
ولما كان عدد النوبات الباقية احد عشر ، لكل منها خمسة ميازين سميت الموسيقى المغربية ( والسلطانية بالخصوص ) موسيقى الخمسة والخمسين .
انظر م. الفاسي ،**الموسيقى المغربية** ، مجلة **تطوان** ، السنة 1962 ، العدد 7، ص 9

## ج ـ العنصــر الجزائــرى ـ التونســى

لم تنقطع الصلات الثقافية بين اجزاء المغرب الكبير طوال العصـــر الاسلامى ، لانعدام الحواجز الطبيعية بينها ولخضوعها فى الغالب لسلطــة زمنية واحدة . وحتى بعد انفصال ولاة الموحدين فى تلمسان وتونس وتأسيسهم الدولتين الزيانية والحفصية ، لم ترسم حدود فاصلة بين هذه الدول ، وانما بقيت خاضعة لحركة المد والجزر السياسية ، وظل السكان ـ والمثقفــون منهم خاصة ـ يتنقلون بين دولة واخرى دون قيود ولا سدود .

غير أن تدخل الاتراك فى شمال افريقيا فى مطلع القرن العاشر / (16 م) وبسط نفوذهم على الجزائر وتونس ، طرح على المغرب بحدة لم تعرف قبل مشكل الحدود الشرقية . واذا كانت تلك التحركات الحربية المضنية التى اشرنا اليها فى المدخل التاريخى قد افضت الى قيام حدود سياسية شبه قارة بين شرقى بلاد المغرب وغربيها ، فان الاتصال بين رجال الفكر فى المغارب الثلاثة لم ينقطع ، بل اصبح المغرب الاقصى ملجأ ( سياسيا ـ علميا ) ياوى اليه المستنكفون عن سلطة الاسبانيين ، والمناهضون لاستبداد بعـــض الدايات والبايــات .

دخل المغرب على عهد السعديين علماء كثيرون من تلمسان ووهــران والجزائر ومن قسنطينة وعنابة وتونس ، استقر معظمهم فى فاس ، وسكــن بعضهم مراكز علمية أخرى فى تطوان ومكناس ومراكش والمحمدية وتكمدارت. لقوا جميعا من رحابة صدر اخوانهم المغاربة وكرم قراهم ، ومن عناية الملوك الشرفاء وسخى عطاياهم ، ما سلاهم عن الاغتراب ، ودفع بهم الى الانكباب على التدريس والتأليف (9) .

ورغم تشابه اوجه الثقافة فى بلاد المغرب ، فاننا نلاحظ عند هــؤلاء المهاجرين نوعا من الامتياز فى علوم الكلام والمنطق والبلاغة .

ازدهر علم الكلام فى تلمسان مع الامام محمد بن يوسف السنوســى ( ت. 895/1490 ) الذى مزج بين العقائد السنية الاشعرية والبراهــين العقلية المنطقية فى كتبه التعليمية المشهورة : **عقيدة اهل التوحيد** ، وهــى العقيدة الكبرى ، **والعقيدة الوسطى** ، **وام البراهين** المعروفة بالعقيـــدة الصغرى ، **والمقدمات** أو صغرى الصغرى .. نشر المهاجرون من تلاميـذ الامام السنوسى هذه الكتب فى المغرب ، فاعتمدها الناس وراجت بينهم كثيرا ، وكتب عليها المغاربة شروحا وتعاليق عديدة. وظلت **عقائد السنوسى** وما كتب عليها فى العصر السعدى من شروح وحواشى محط عناية الدارسين بالمغرب الى العصر الحاضر .

(9) سنشير الى اهم الشخصيات العلمية الجزائرية التونسية لدى حديثنا عن المراكز الثقافية التى اقاموا فيها ، وذلك فى القسم الثانى من هذه الدراسة .

ولارتباط المنطق بالعقائد فى الدراسات الاسلامية القديمة ، ولو ان من ابواب المنطق ومباحثه الفلسفية ما لا صلة له بعلم الكلام ، الفينا هذا العلم ينتعش بدوره على يد المهاجرين من المغربين الاوسط والادنى ، وكان قد اهمل حتى كادت تنطمس معالمه .

وكان من بين الوافدين ايضا خطباء بلغاء ، ومدرسون فصحاء ، نشروا اساليب البلاغة قواعد وتطبيقا ، ووجدوا من نجباء الطلبة من تلقفوا معارفهم الجمة فوعوها ، وكانوا حلقة اولى فى سلسلة البلاغيين المغاربة الذين صاروا ائمة هذا الفن ، وامست مؤلفاتهم فيه مرجع الدارسين .

## د ـ العنصر الشرقي

كسدت سوق اللغة العربية ببلاد المشرق بعد ان تم للسلطان العثمانى سليم الاول السيطرة على بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن ( 1517/923 ) ، ونقل منها احمال الكتب الى القسطنطينية العاصمة الجديدة للخلافة الاسلامية . (10)

لذلك ما كادت أنباء قيام دولة عربية مستقلة عن النفوذ التركى فى المغرب الاقصى تصل الى المشرق حتى اشرأبت اليها الاعناق ، وراح علماء تلك الاقطار يكاتبون الملوك السعديين ويهدون اليهم مؤلفاتهم وما يقتنون أو يستنسخون من أمهات الكتب وأعلاقها . وكان من نتائج عطايا ملوك المغرب وجوائزهم السنية التى بعثوا بها لقاء تلك الهدايا العلمية ، أن قامت جماعة من رجال الفكر المشارقة بشد الرحال الى مراكش ، جاؤوها من مكة والمدينة وبيت المقدس ، وحتى من بلاد الترك والفرس . وعرف لهم نشاط فى التفسير والحديث والادب .

وقد أبان الاحتكاك بين علماء التفسير المغاربة والمشارقة اختلافا اساسيا فى الاسلوب والوسائل . ذلك أن المفسرين المشارقة اعتمدوا اعتمادا مطلقا تفاسير الشرقيين على اختلاف مذاهبهم دونما تحرج أو تحرز مما يخالف مذهب الجماعة منها ، وكادوا لا يعرفون شيئا عن مؤلفات علماء الغرب الاسلامى فى هذا المضمار ، بينما كان مرجع علمائنا بالدرجة الاولى الى تفاسير الاندلسيين والمغاربة الملتزمين مذهب السنة . واذا أتوا بشىء من تفسير بعض المشارقة كالزمخشرى ، انتقدوه ودحضوا آراءه

---

(10) صارت القاهرة دار الخلافة العباسية بعد سقوط بغداد فى يد التتار عام 1258/656 . ولما تغلب سليم على المماليك ودخل القاهرة ، تنازل له الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ، وسلم له شارات الخلافة : الراية والسيف والبردة النبوية ومفاتيح الحرمين الشريفين ، فتلقب حينئذ سليم ومن أتى بعده من السلاطين العثمانيين بلقب خليفة المسلمين وحامى الحرمين ، وأصبحت القسطنطينية دار الخلافة الاسلامية .

الإعترافية اكثر مما اخذوا منه . وذلك ما جعل بعض هؤلاء الوافدين ينتقصون شيوخ التفسير المغاربة ، على كثرتهم وطول باعهم في ذلك العصر .

وفي مضمار الادب نظم المشارقة الوافدون على المغرب قصائد في مدح الخليفة السعدي ورجال دولته ، باسلوب لا يخلو من جدة في اختيار الانماط وتسنينها ، وحضروا مجالس عامة انشد فيها الشعراء المغاربة مولدياتهم بين يدي الخليفة . وكان للفريقين لقاءات اخرى خاصة تناشدوا فيها الاشعار ، ورووا النوادر والاخبار . ثم فتحت في وجوههم ابواب قصر البديع ورفعت حجب مقاصيره ، فجالسوا على انفراد ملكا اديبا سامرهم باحسن المسامرة ، وساجلهم في قرض الشعر بيتا ببيت وقطعة بقطعة ، حتى اذا خفت ارواحهم طربا ، اثقلهم خلعا وذهبا ، فاذكرهم ادبه وكرمه بما عرفوا من اخبار الرشيد ببغداد ، وما سمعوا عن عاهل اشبيلية ابن عباد .

وفي مساجد مراكش والمحمدية التف الطلبة حول هؤلاء الادباء المشارقة يأخذون عنهم الوانا ادبية جديدة ، وقد راوا فيهم صورا حية لاولئك الشعراء الذين طالما اعجبوا بقصائدهم ، واستشهدوا بأبيات منها في مجالس التدريس . او ليس هؤلاء الشعراء الذين يجالسونهم اليوم هم من ديار امرىء القيس ، وكعب بن زهير والمتنبي ؟

## هـ ـ العنصر السوداني

نقصد بالسودان افريقيا الغربية السوداء الواقعة وراء الصحراء الكبرى . وترجع صلات المغرب الثقافية بهذه البلاد الى عهد دخول الاسلام اليها (1) وبخاصة منذ عهد المرابطين الذين تاخمت مضاربهم الاولى حوض السينغال ، وادت حركتهم الاصلاحية في مطلع القرن الهجري الخامس الى تدفق سيل الاسلام على حوض النيجر وسائر جهات غرب افريقية .

وعند قيام حركة السعديين كانت العلاقات الثقافية قائمة بين المغرب وممالك السودان ، يقصدها علماء من فجيج وفاس وسوس فيستوطنها البعض نهائيا ، ويقيم بها آخرون سنوات قبل أن يرجعوا الى مساقط رؤوسهم . وقد لقي هؤلاء العلماء المغاربة هناك كثيرا من الحفاوة والتقدير ، سواء من عامة الناس او حكامهم ، وكان لهم أثر فعال في نشر الاسلام بين الوثنيين السود .

---

(1) يذكر بعض المؤرخين ان الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري لما اتم فتح المغرب الاقصى اوغل في بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة ، وبنى بها عددا من المساجد . انظر ح. ا. حسن انتشار الاسلام ، ص. 46 ـ 52 .

ولما اصبحت السودان تابعة للمغرب فى مطلع القرن الحادى عشر/ اواخر القرن السادس عشر للميلاد ، دعت الظروف السياسية الى نقل جماعة من علماء تلك البلاد الى مراكش ، وخروج غيرهم تلقائيا الى بلاد سوس ، فاخذوا مجالسهم فى مساجد مراكش وايليغ الى جانب علمـاء المغرب ، وازدحم الطلبة على دروسهم فى مختلف العلوم اللغوية والشرعية، والفوا فى النحو والفقه والحديث والتصوف غير ان اهم مادة امتاز بها النشاط السودانى فى المغرب لهذا العهد هى التراجم .

وجد السودانيون فى المغرب من مصادر تراجم اعلام الاسلام عبر العصور ما لا عهد لهم به ، فاندفع بعضهم يؤلف كتبا فى تراجم فقهاء المالكية فى بلاد المغرب والاندلس والسودان والمشرق، وذلك منذ القرون الاسلامية الاولى الى اوائل القرن الحادى عشر .

## و ـ العنصـــر الاوربـــــى :

اتصل المغرب على عهد السعديين بوصفه دولة متوسطية بجيرانه الاوربيين المسيحيين ، ولم تقتصر صلاته بهم على الناحيتين السياسيـة والتجارية المشار اليهما سابقا ، وانما أخذت الثقافة حظها فى هذا الاتصال ولو فى نطاق محدود . وكان من المنتظر أن تكتسى الصلات الثقافية المغربية ـ الاوربية أهمية كبرى لولا ظروف الاحتلال الاسبانـــى ـ البرتغالـــى للشواطىء المغربية ، وما ترتب عن ذلك من قتال وتربص وحذر مستمر .

اختلفت طبيعة التأثير الثقافى للعنصر الاوربى فى المغرب بالنسبـة للعناصر السابقة لاختلاف اللغة والدين والتراث ، ومع ذلك كان هنـاك تفاعل وتجاوب فكرى بين العدوتين . فقد أفاد المغاربة من احتكاكهـم بالاوربيين هنا وهناك بما اكتسبوا من خبرة علمية ، ونقلوا الى اللغة العربية من كتب علمية وآلات هندسية . ودرس الاوربيون الذين أقاموا بالمغـرب اللغة العربية ، واقتنوا من الكتب العلمية والادبية ما أغنى مكتباتهم الخاصة ومكتبات بلادهم العامة وجعلهم فى طليعة المستشرقين الاوربيين . بينما تعرف فريق آخر من الادباء الاوربيين على بلادنا عن طريق ما كتبه عنها أو تحدث به اليهم مواطنوهم التجار والبحارة وغيرهم ، فاتخذوا من أحداث المغرب البارزة وشخصياته المعاصرة موضوعات لكتاباتهم القصصية والمسرحية .

نذكر من هؤلاء الاوربيين ثلاثة فرنسيين :

ـ كيوم بيرار (12) ( ت. 1591/999 ) .

---

12) انظر ترجمته عند هـ. دوكاستر ، مصادر غير منشورة ، فرنسا ، السلسلة الاولى 3 : 6 ـ 9 ، ج. كايى ، التمثيل الديبلوماسى ، 12 ـ 16 ، هـ . طيراس تاريخ المغـرب 2 : 227 ، ج . دونيردان ، مراكش ، 1 : 436 .

طبيب جراح زاول مهنته فى مسقط راسه نيس ثم فى مرسيليا والقسطنطينية ، وفى هذه المدينة الاخيرة تعرف عليه عبد الملك المعتصم عندما جاءها مستنجدا بالخليفة العثمانى سليم الثانى .

ولما تسنم عبد الملك عرش المغرب اتخذ من كيوم بيرار طبيبا خاصا له ، وسمى لدى ملك فرنسا هنرى الثالث فعينه قنصلا لفرنسا بالمغرب عام 1577/985 . وقد شهد كيوم معركة وادى المخازن وعالج عبد الملك دون جدوى ، ثم سار فى ركاب احمد المنصور الى فاس وحضر بيعته هناك، وظل فى خدمته حتى عام 1587/995 .

اتقن كيوم اللغة العربية فى السنوات العشر التى قضاها بالمغرب . ولاشك انه كان يأخذ ذلك عن زملائه الاطباء فى مراكش وفاس ، أمثال ابى القاسم الوزير الغسانى ، وعبد الغنى الزمورى ، وعلى بن ابراهيم الاندلسى ، ويطلع اثناء ذلك على النصوص العربية الاصيلة لكتب ابن سينا وابن رشد وابن زهر وغيرهم من الاطباء المسلمين القدامى . ولا شك ايضا فى أن الاطباء المغاربة استفادوا بدورهم من خبرة كيوم ومعلوماته فيما الفوا من كتب .

– ارنو دوليسل (13) ( ت. 1613/1022 )

طبيب باريسى كبير ، عرف وهو يزاول مهنته فى مسقط راسه بميله الى اللغة العربية والاطلاع على آثار الاطباء العرب الذين كانت أوربا آنذاك ما تزال تعتمد عليهم . ولما أعلن كيوم بيرار رغبته فى الرجوع الى فرنسا ، خف ارنو دوليسل الى المغرب ليخلفه كطبيب خاص لاحمد المنصور ، وقضى فى هذه البلاد احدى عشرة سنة ( 996 — 1007 / 1588 — 1599) تضلع اثناءها فى اللغة العربية وحصل على ثروة طائلة ، فكان أول استاذ لكرسى اللغة العربية بالمعهد الفرنسى .

– ايتيان هوبير (14) ( ت. 1614/1023 )

طبيب ذكى ولد ونشا ودرس فى اورليان ، ثم جاء الى المغرب عام 1598/1006 ليقوم مقام الطبيب ارنو فى بلاط أحمد المنصور . ورغم أن مقام هوبير فى المغرب لم يطل بسبب الاضطرابات التى اعقبت وفاة احمد

---

13) انظر ترجمته عند هـ. دوكاستر ، مصادر غير منشورة ، فرنسا ، السلسلة الاولى ، 3 : 13 –21 ، ج. كايى ، التمثيل الديبلوماسى ، 16 — 20 ، هـ . طيراس ، تاريخ المغرب ، 2 : 227 ، ج. دوليردان ، مراكش . 1 : 436 .

14) انظر ترجمته عند هـ. دوكاستر ، مصادر غير منشورة ، فرنسا ، السلسلة الاولى ، 3 : 22 — 27 ، ج. كايى ، التمثيل الديبلوماسى ، 17 ، هـ. طيراس تاريخ المغرب ، 2.227 ، ج. دوليردان . مراكش ، 1 : 436

المنصور ، فان حصيلته فى اللغــة العربيــة لم تــقــل عــن حصيلــة سابقيه . وزاد عليها بالكمية الكبيرة من الكتب العربية التى اقتناها من المغرب ، فكانت كل ثروته التى رجع بها الى فرنسا .

وقد عين الطبيب هوبير بعد رجوعه من المغرب استاذا فى كلية الطب بجامعة باريز ، وهو اول من علم اللغة العربية فيها .

ونذكــر من الهولانديــين :

— طــومــا اربانيــوس (15) ( ت. 1033 / 1624 )

تخرج بجامعة لايد ، ودرس فيها مبادىء اللغة العربية ، ثم رحل الى اقطار اوربية عديدة بحثا عن المخطوطات العربية ، واتصل اثناء رحلتــه بعدد من المغاربة اخذ عنهم اللغة . ولم تفصح كتب التراجم عما اذا كان اربانيوس قد دخل المغرب ، ولا نظن الا انه قد فعل نظرا لشدة الاتصــال آنذاك بين البلاد المنخفضة والمغرب ، وارتباط دراسة اربانيوس وتدريسه للغة العربية بالمغاربة .

عاد اخيرا اربنيوس الى بلاده واستقر به المقام فى لايد حيث أسنــد اليه كرسى اللغة العربية فى جامعتها عام 1022 / 1613 ، واستعــان فى تدريسه بمغربى . ثم انشأ هذا العالم فى داره مطبعة عربية هى التى اصبحت فيما بعد دار بريل الشهيرة .

ويظهر التاثير المغربى عند اربانيوس فى التاليف (16) ايضا حيث سمى كتابه فى قواعد العربية واللاتينية **المقدمة الاجرومية** (17) ، وظل هذا الكتاب يدرس فى أوربا زهاء قرنين .

— يعقــوب كوليــــوس (18) ( ت. 1077 / 1667 )

اخذ العربية عن اربنيوس ووجهه هذا الى دراسة العلوم الرياضيــة والطبيعية والفلكية عند العرب ، وصحب سفير البلاد المنخفضة الى المغرب

---

15) انظر ترجمته عند هـ. دوكاستر **مصادر غير منشورة** ، البلاد المنخفضة ، السلسلة الاولى 3 : 250 ، هامش 1 ، وفى اماكــن متفرقــة بهــذا الجــزء وباجــزاء 4 ، 5 ، 6 ، ن. العقيقى ، **المستشرقون** ، 2 : 653 — 654 .

16) انظر لائحة مؤلفاته عند ن. العقيقى ، **المستشرقون** 2 : 654 .

17) طبع هذا الكتاب اربع مرات فى لايد ، أولها عام 1613/1022 ، وفى باليرمو عــــام 1796/1210 ، وفى باريس عام 1844/1260 .

18) انظر ترجمته عند هـ. دوكاستر ، **مصادر غير منشورة** : البلاد الواطئة ، السلسلــة الاولى ، 3 : 268 هامش 3 ، و 571 — 585 ، ومواضع متفرقة فى هــذا الجــزء وفى الاجزاء التالية 4 ، 5 ، 6 ، ن. العقيقى ، **المستشرقون** ، 2 : 654 — 655 ، كتابنا **الزاوية الدلائية** ، 198 هامش 54 .

خلال عامي 1031 — 1032 / 1622 — 1623 رغبة منه في اتقان اللغة العربية . وقد حمل كوليوس معه من المغرب كثيرا من الكتب النادرة في العلوم الرياضية أو الاسلامية ، ثم اسند اليه كرسي اللغة العربية في جامعة لايد بعد وفاة استاذه اربنيوس . ولم تنقطع صلة كوليوس بالمغاربة ومراسلاتهم ، ولازم اعضاء السفارة المغربية التي اقامت في لاهاي خمسة اشهر خلال عام 1069 / 1659 .

الف كوليوس او ترجم كتبا عربية عديدة (19) ، من اهمها **معجم عربي لاتيني** (20) استعمل فيه **بالصحاح** ، وظل مرجعا للمستشرقين طوال 175 سنة .

اما الانجليز فلا نعرف منهم من تعلم العربية في المغرب على عهد السعديين الا أن ترددهم على بلادنا وكتابتهم عنها بلغتهم فاقت كل ما قام به سائر الاوربيين في ذلك العصر . ففضلا عن عشرات الرحلات والقصص (21) التي كتبها البحارة والتجار الانجليز عن مشاهداتهم في المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر ( 16 و 17 م ) والتي امتزج فيها الواقع بالخيال ولاقت اقبالا عظيما من الجمهور ، دخلت الموضوعات المغربية الادب الانجليزي الرفيع على عهد الملكة اليزابيت وخلفها جاك الاول ، وتحدث عنه كبار الكتاب والشعراء في اشارات عابرة او عروض مفصلة . وسنقتصر على ذكر ثلاثة من اشهر الادباء الانجليز الذين اصطبغ ادبهم بالصبغة المغربية .

جورج بيل (22) ( ت . 1004 / 1596 )

اديب روائي اهتم بأحداث المغرب في عصره ، وكتب مسرحية مثلت في لندن عام 1002 / 1594 عن معركة وادي المخازن بعنوان :

« معركة القصر في بلاد البربر بين سبستيان ملك البرتغال وعبد الملك ملك المغرب ، وهلاك القائد طـ. صطكلي » .

تحتوي هذه المسرحية على مبالغات في تصوير عنف المغاربة ، وتجاني الواقع في تقرير وحشيتهم وسفكهم للدماء . فسفراء السلطان يتركون طوعا ايديهم تحترق على نار الجمر ، وجميع المغاربة سود مخيفون!

---

(19) انظر قائمة مؤلفات كوليوس عند ن. العقيقي ، **المستشرقون** 2 ، 654 — 655 .

(20) طبع في لايدمام 1063 — 1653 .

(21) انظر ذلك عند ر. لبيل ، **المغرب عند المؤلفين الانجليز** ، ص 5 — 57 .

(22) انظر ترجمته في **دائرة المعارف البريطانية** ، 17 : 522 والمراجع المذكورة هناك ، ر. لبيل ، **المغرب عند المؤلفين الانجليز** ، 42 — 43 .

ومع ذلك فانها تحكى الصدى الهائل الذى تركه الانتصار المغربى فى الجزر البريطانيـــة .

اما القائد طوما صطاكلى فهو شخصية شعبية كبرى فى انجلترا ، اذ يقال انه ابن غير شرعى لملكها العظيم هنرى الثامن ، طالما حارب فى مختلف جهات أوربا الى أن لقى مصرعه على راس المرتزقة الايطاليين الذين جاءوا فى ركاب سبستيان الى القصر الكبير .

ـــ ويليـــام شيـــكسبـــير (23) ( 1025 / 1616 )

اشهر الشعراء المسرحيين الانجليز واكثرهم استعمالا لاحداث المغرب فى آثاره الادبية ، حتى أن احد النقاد المعاصرين أحصى الاشارات الـــــى المغرب والمغاربة فى مسرحيات شكسبير فتجاوزت الستين (24) . على أن ابرز الشخصيات المغربية عنده ثلاث : اليهودى هرون ، والامير السعدى ابن أحمد المنصور ، والقائد عطيل .

فاليهودى هرون يمثل دورا مهما فى مأساة **تيتوس اندرونيكوس** التى كتبها شكسبير عام 997 ـــ 998 / 1589 ـــ 1590 . وهو فى المسرحيـــة يهودى مغربى هجين أسود . كان عبدا فتعتق بفضل تامورة التى أصبحت حليلة الامبراطور . واجتهد فى مضايقة القائد النبيل تيتوس الذى سبق له أن سجنهما ، فقام بسلسلة مؤامرات فظيعة أدت الى اتهام أبناء تيتـــوس بجريمة قتل شنيع ، واغتصاب ابنته بوحشية ، وقطع يمنى تيتوس نفسه . وأكثر فى اثناء ذلك من الوشايات وشهادات الزور وأعمال الخزى والنفاق الى أن انكشفت حقيقته فألقى عليه القبض ، ومع ذلك لم يتردد هرون فى التبجح بكل ما اقترف من جرائم ، غير آسف على شىء أسفه على أنه لـــم يتمكن من الاساءة أكثر مما فعـــل .

لقد انتقم شكسبير لابناء جلدته فى شخص هرون من يهودى مغربى خبيث كان يقيم فى مدينة آسفى ويتآمر ضد التجار الانجليز فيشى بهم لدى الحكام ليلقوا بهم فى غياهب السجون .

وفى مسرحية **تاجر البندقيـــة** التى مثلت عام 1004 / 1596 ، ولم تمض غير بضع سنوات على فتح المغرب للسودان الذى جعل أحمـــد المنصور من أغنى ملوك الارض ، خصص شكسبير للامير السعدى دورا مليئا بالشهامة والنخوة ولو أنه ثانوى . فالوارثة الحسناء توتيو تودد اليها

---

23) انظر ترجمته فى **دائرة المعارف البريطانية** . 20 : 441 ـــ 461 والمراجع المذكورة هناك ر. لبيل ، **المغرب عند المؤلفين الانجليز** ، 44 ـــ 52 .

24) الكونتيس شامبران ، **شيكسبير والمغرب** ، **مجلة باريس** ، السنة 32 ، العـــدد 11 15 يونيه 1925 ، ص. 8 .

عدد من النبلاء الراغبين فى الزواج منها ، غير أن وصية والدها قضت بالا تقبل زوجا لها الا من يختار من بين علب ثلاث العلبة التى تحتوى على صورتها وهذه العلب احداها من رصاص ، والثانية من فضة ، والثالثة من ذهب .

وجاء الامير المغربى فى ابهة لائقة بعظمة السعديين وشرف محتدهم، مخاطب الحسناء بقوله : « لا تحفلى بلون بشرتى ، فقد سودتها شمس ساطعة عشت فى جوارها وغذيت تحت وهجها .. ان دمى لاحمر بقدر حمرة دم اى رجل من الشمال .. ولكى احظى بقلبك لا ترانى اتردد فى التصدى بهذا السيف لاكثر الناس جـراة واقدامـا . . . »

رات بونيو هذا الكلام تيمنا بالامير المغربى الشهم ، فلم تسخر منه كما فعلت قبل مع امير اركون واجابت بانه لو لم يكن اختيارها مشروطا لكانت مؤهلات الامير كفيلة باجتذاب مودتها . ولسوء حظ الامير ابن الملك الذهبى اختار العلبة الذهبية فلم تكن هى الرابحـة .

اما **عطيـل** فانه الشخصية الرئيسية فى المسرحية التى تحمـل اسمه والتى مثلت عام 1013 / 1604 . وهو قائد مغربى نبيل ينحدر من اسرة حربية ماجدة من برابرة الاطلس ، التحق بخدمة البندقية واخلص لها، وعرف كيف يستولى على قلب الحسناء ديسديمون ويتزوج بها . ولما احدقت الاخطار بالبندقية ودعى عطيل للدفاع عنها خرج توا لقتال الاتراك. وبذلك امكن للماكر ياكو ان يدخل فى روع القائد المغوار لدى عودتـه ان زوجته خانته فى غيبته ،فاستولى عليه الغضب وقتلها ، ثم ثاب الى رشده وعرف براءتها فقتل نفسه .

انها ماساة من مآسى الغيرة الانسانية ، لكن ما تحتوى عليه من تفاصيل عن طبيعة عطيل وتصرفاته واقواله تصور روح رجـال الاطلـس النوبية ، ونجدتهم الحربية ، كما ترسم سذاجتهم واعتقادهم فى السحر وتطرفهم العاطفى .

– طومـا هيـوود ( ت. 1051 / 1641 )

اديب قصاص ، كتب عام 1039 / 1630 مسرحية هزلية بعنـوان **فتـاة الغرب الجميلة** تحدث فيها عن مغرب ما بعد احمـد المنصـور . بطلة القصة بيص ، خادمة حسناء رحالة عرفت كيف تحافظ على الشـرف الانجليزى فى كل مكان ، وتمكنت فى النهاية من امتلاك قلب سلطان المغرب بمزاياها العديدة .

ففى الفصل الخامس من الرواية نجد سفينة البطلة بيص قد ارست بميناء المعمورة شمالى مدينة سلا ، فى جولتها حول العالم بحثا عن خطيبها. ولفتت انباء الحسناء الى سلطان فاس مولاى الشيخ « 25 » فبعث فى طلبها ولم يلبث ان وقع فى شراك حبها ورغب فى الزواج منها لكنها تمكنت من مداراة الامير ومغازلته للحصول على حرية العمل ، فلم يمض وقت قصير حتى عثرت على خطيبها بكيفية عجيبة لا تخطر ببال .

وفى هذا الفصل ايضا اشارات الى انقسام سلطة السعديين ونشاط القرصنة فى ميناء المعمورة قبل سقوطها للمرة الثانية فى يد الاسبانيين ومشكل الاسرى الاوربيين فى المغرب .

∴

كذلك نشطت الحركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين ، وتفاعلت مع مختلف العناصر التى امكنها ان تتصل بها فى افريقيا وآسيا وأوربا .

---

25) يقصد ولا شك محمد المامون الشيخ ، فانه الذى تولى فعلا سلطة فاس بعد وفاة أبيه ، لكنه كان قد قتل قبل تاليف المسرحية ، اى عام 1022 / 1613 .

# البابُ الثاني

## التعليم



# الفصل الأول

## الطابع العام

اصطبغ التعليم فى العصر الذى ندرسه بطابعين : طابع الشمول من حيث التوزيع الجغرافى ، وطابع التنوع من حيث المادة التى يدرسها المتعلمون . وكما أدى سوء الاحوال الداخلية فى نهاية العهد المرينى الى تدهور الحالة التعليمية فى المغرب ، دفعت بوادر التحسن السياسى مع قيام دولة الشرفاء الى انتعاش التعليم .

وضع السعديون فى مقدمة اهتماماتهم التعليم الى جانب الجهاد والاقتصاد . وليس ذلك ببدع من أسرة عالمة قضى رئيسها محمد بن عبد الرحمن ( القائم بأمر الله ) شطرا مهما من حياته معلما بدرعة قبل أن يبايع بالخلافة ، وتخرج أبناؤه وأحفاده الذين ولوا الامر من بعده علماء أدباء .

شملت عناية الشرفاء فى البداية المراكز الثقافية فى الجنوب ، وكان لحركتهم اثر غير مباشر فى تنشيط التعليم بالشمال أيضا ، ولو أن البلاد الواقعة وراء نهر أم الربيع ظلت خاضعة لنفوذ الوطاسيين زهاء نصف قرن. ذلك أن هؤلاء عملوا بحكم التقليد والمنافسة على اصطناع العلماء والانفاق عليهم وعلى الطلبة بسخاء ، بعد أن كانوا يستحوذون على أموال الوقف بدعوى الاقتراض لتمويل حركاتهم العسكرية الفاشلة .

صرف السعديون عددا غير قليل من علماء المتصوفة عن الخوض فى السياسة التى طالما شغلتهم من قبل ، فتحولت زواياهم الى مراكز تعليمية الى جانب المؤسسات القديمة والمنشآت السعدية الحديثة فى المحمدية وتييوت وتيلكات وغيرها ، واعادوا الى مراكش نضارتها التاريخية بما



# الفصل الأول

## الطابع العام

اصطبغ التعليم فى العصر الذى ندرسه بطابعين : طابع الشمول من حيث التوزيع الجغرافى ، وطابع التنوع من حيث المادة التى يدرسها المتعلمون . وكما أدى سوء الاحوال الداخلية فى نهاية العهد المرينى الى تدهور الحالة التعليمية فى المغرب ، دفعت بوادر التحسن السياسى مع قيام دولة الشرفاء الى انتعاش التعليم .

وضع السعديون فى مقدمة اهتماماتهم التعليم الى جانب الجهاد والاقتصاد . وليس ذلك ببدع من أسرة عالمة قضى رئيسها محمد بن عبد الرحمن ( القائم بأمر الله ) شطرا مهما من حياته معلما بدرعة قبل أن يبايع بالخلافة ، وتخرج أبناؤه وأحفاده الذين ولوا الامر من بعده علماء أدباء .

شملت عناية الشرفاء فى البداية المراكز الثقافية فى الجنوب ، وكان لحركتهم اثر غير مباشر فى تنشيط التعليم بالشمال أيضا ، ولو أن البلاد الواقعة وراء نهر أم الربيع ظلت خاضعة لنفوذ الوطاسيين زهاء نصف قرن. ذلك أن هؤلاء عملوا بحكم التقليد والمنافسة على اصطناع العلماء والانفاق عليهم وعلى الطلبة بسخاء ، بعد أن كانوا يستحوذون على أموال الوقف بدعوى الاقتراض لتمويل حركاتهم العسكرية الفاشلة .

صرف السعديون عددا غير قليل من علماء المتصوفة عن الخوض فى السياسة التى طالما شغلتهم من قبل ، فتحولت زواياهم الى مراكز تعليمية الى جانب المؤسسات القديمة والمنشآت السعدية الحديثة فى المحمدية وتيبوت وتيلكات وغيرها ، وأعادوا الى مراكش نضارتها التاريخية بما

# التعليم

# الفصل الأول

## الطابع العام

اصطبغ التعليم فى العصر الذى ندرسه بطابعين : طابع الشمول من حيث التوزيع الجغرافى ، وطابع التنوع من حيث المادة التى يدرسها المتعلمون . وكما أدى سوء الاحوال الداخلية فى نهاية العهد المرينى الى تدهور الحالة التعليمية فى المغرب ، دفعت بوادر التحسن السياسى مع قيام دولة الشرفاء الى انتعاش التعليم .

وضع السعديون فى مقدمة اهتماماتهم التعليم الى جانب الجهاد والاقتصاد . وليس ذلك ببدع من اسرة عالمة قضى رئيسها محمد بن عبد الرحمن ( القائم بأمر الله ) شطرا مهما من حياته معلما بدرعة قبل أن يبايع بالخلافة ، وتخرج أبناؤه وأحفاده الذين ولوا الامر من بعده علماء أدباء .

شملت عناية الشرفاء فى البداية المراكز الثقافية فى الجنوب ، وكان لحركتهم اثر غير مباشر فى تنشيط التعليم بالشمال أيضا ، ولو أن البلاد الواقعة وراء نهر أم الربيع ظلت خاضعة لنفوذ الوطاسيين زهاء نصف قرن. ذلك ان هؤلاء عملوا بحكم التقليد والمنافسة على اصطناع العلماء والانفاق عليهم وعلى الطلبة بسخاء ، بعد ان كانوا يستحوذون على أموال الوقف بدعوى الاقتراض لتمويل حركاتهم العسكرية الفاشلة .

صرف السعديون عددا غير قليل من علماء المتصوفة عن الخوض فى السياسة التى طالما شغلتهم من قبل ، فتحولت زواياهم الى مراكز تعليمية الى جانب المؤسسات القديمة والمنشآت السعدية الحديثة فى المحمدية وتيبوت وتيلكات وغيرها ، وأعادوا الى مراكش نضارتها التاريخية بما

أنشؤوا فيها من مساجد ومكتبات ، بالاضافة الى مدرسة ابن يوسف والمارستان الكبير (1) .

ولما امتد نفوذ الشرفاء الى الشمال عنوا بتجديد المرافق التعليمية العريقة ، فأصلحوا المساجد والمدارس ، وأولوا عناية خاصة لفاس وبالخصوص القرويين وتجديدها (2) ، وبذلك اصبحت الخريطة التعليمية تمتد من ساحل البحر المتوسط الى تخوم الصحراء ثم الى ما وراءها .

وفيما يتعلق بمادة التعليم ، فان المغرب الذى ظل طوال القرن التاسع منحصرا فى نطاق العلوم النقلية ، اصبح فى عهد الشرفاء ميدانا للدراسات العقلية والتجريبية ، يتعاطاها المغاربة الى جانب العلماء الوافدين عليهم من مختلف الجهات . لكن رغم هذا التفتح وما نتج عنه من تنوع فى المادة الدراسية ، لم يستطع التعليم فى المغرب أن يتخلص من ظاهرتين خطيرتين طالما جثمتا على عقول الدارسين فى عصر الانحطاط وعرقلتا كل تطور فكرى ، وهما : الاختصار والحفظ .

## ا ــ الاختصار

بدأ الاختصار معتدلا فى الفقه عندما اختصر ابن أبى زيد القيروانى المدونة لواسط القرن الرابع ، وتلاه بلديه أبو سعيد البراذعى فى القرن الموالى فلخصها فى كتابه **التهذيب** . وعمل الاندلسيون مثل ذلك فى القراآت والنحو والعروض وغيرها ، غير أن اغلب اختصاراتهم نظم . ثم تولى المشرقيون شؤون ( الاختصار ) و ( النظم ) فأوغلوا فى ذلك حتى كادوا يجعلونه رموزا يحتاج حلها الى شروح وحواش تزيد أضعافا مضاعفة على الاصول المختصرة حجما وتعقيدا .

---

1) من مؤسسات السعديين التعليمية بمراكش :
ا ــ الجامع الكبير بحى المواسين المعروف بجامع الاشراف .
ب ــ جامع باب دكالة على صورة جامع الاشراف .
ج ــ الجامع المجاور لضريح أبى العباس السبتى .
د ــ المكتبة بقبلة هذا الجامع .
هـ ــ الجامع الاعظم بحى ابن صالح ذو المنار العجيب المطعم بالزليج الاخضر المركب بالمتاليز حيث يزال ويرد دون حفر ولا قلع .
و ــ المدرسة الكبرى المتصلة بهذا الجامع المعروفة بمدرسة ابن يوسف التى يضاهى بها المراكشيون ــ حتى اليوم ــ القرويين .
ز ــ المارستان العظيم بحى الطالعة من طابقين وساحتين ، حيث كان الطلبة يتدربون فى بعض حجراته على التمريض وصنع الادوية .
انظر م. الكتانى ، **الطب** ، ص . 73 ، **الطب وآثاره** ، مجلة **المغرب** يونيه ــ يوليوز 1936 ، ص . 15 .

2) اسس الشرفاء زاوية الحزابين غربى جامع القرويين متصلة به ، والمكتبة الكبرى فى قبلته، وهى مكتبة القرويين المعروفة اليوم بحى الصفارين ، وقد جددت قبيل الاستقلال . وجددوا تبليط صحن القرويين بالزليج الملون ، وشيدوا فى جانبه الشرقى والغربى قبتين بديعتين على خصتين من المرمر ، على نحو ما يوجد فى ساحة الاسود بغرناطة .

اشهر المختصرات الشرقية التى دخلت المغرب من قبل وظلـت منتشرة على عهد السعديين : **مختصر ابن الحاجب** (3) و **مختصر خليل** (4) فى الفقه **والفية ابن مالك** (5) ، **ولاميته** فى النحو والصرف . **وتلخيص المفتاح** للقزوينى (6) فى البلاغة . بالاضافة الى المختصرات والمنظومات الاندلسية والمغربية .

**فلماذا هذا الاقبال على الاختصار ؟**

يظهر ان لذلك سببين ، احدهما ضيق مجال العمل امام العلمـاء فى عصر الانحطاط ، حيث أغلق باب الاجتهاد فى الفقه ، وتجمدت العلوم النقلية والعقلية على ما كانت عليه من قبل ، فلم يبق لهؤلاء عند التاليف سـوى تكرار ما قاله الاول فى شروح وذيول ، او فى تجميع مسائل العلوم ونظمها ، او تقليص حجم الكتب المطولة وضغطها فى مختصرات يصعب فهمها .

وثانى السببين قصور همم المتعلمين فى تلك العصور وانصرافهم عن دراسة امهات الكتب ، فراح الشيوخ يلخصونها لهم فى ( امهات ) (7) تحفظ بسهولة نسبية . حتى اذا عجزوا عن فهمها وضعوا لها شروحا ثم حواشى، فازداد الامر تعقيدا وافسد أصحاب المختصرات العلم من حيـث ارادوا اصلاحـه .

## ب ـ الحفـــظ

ظل الحفظ متفشيا فى المغرب طوال العصر الذى ندرسه ، اذ كـان الاطفال يبدؤون فى سن مبكر بحفظ الحروف الهجائية قبل التعرف علـى اشكالها فى الالواح ، ثم يحفظون فاتحة الكتاب ، فسورة الناس ، فسورة الفلق ، ولا يزالون يوالون حفظ سور القرآن من اسفل الى أعلى حتـى

---

3) عثمان بن ابى بكر المصرى المعروف بابن الحاجب « ت . 1248/646 ) له تاليف كثيرة فى القراآت والنحو والصرف والعروض والفقه والاصول . ودخل **مختصره الفقهى** الى شمال افريقيا فى آخر المائة السابعة على يد تلميذه ناصر الدين المشد الى البجائـى . ومـن بجاية انتشر بتونس والمغرب .
انظر م. الحجوى : **الفكر السامى** ، 4 : 66 .

4) خليل بن اسحاق المصرى ( ت . 1374/776 ) من اكبر فقهاء المالكية . شرح **مختصر ابن الحاجب** فى ست مجلدات ، ثم اختصره فى الكتاب المعروف **بمختصر خليل** . فهذا اختصار المختصر . دخل **مختصر خليل** الى المغرب أوائل المائة التاسعة على يد عمر ابن الفتوح المكناسى .
انظر م. ابن غازى ، **الروض الهتون** ، ص . 59 .

5) محمد ابن مالك الطائى ( ت ، 1274/672 ) ، ولد بجيان فى الاندلس وانتقل الى دمشق فتوفى بها . دخلت **الفيته ولاميته** الى المغرب أوائل المائة الثامنة .

6) محمد بن عبد الرحمن القزوينى ( ت. 1339/739 ) قاضى الشام ومصر . اقبل المغاربة على **تلخيصه** منذ أواخر المائة الثامنة .

7) تطور مفهوم **الامهات** فاصبح فى عصر الانحطاط مرادفا **للمتون** اى النصوص المختصرة التى تحفظ من ظهر قلب . وقد كانت الامهات تعنى فى القرون الاولى الاصول التى يرجع اليها فى مختلف العلـــوم .

يحفظوه كله من ظهر قلب وتكرر الختمات فتصل احيانا الى عشرين او تزيد يحفظ المتاهلون من الاطفال اثناءها بعض الروايات المختلفة فى قراءة القرآن و « الكراريس » ، وهى نصوص منثورة ومنظومة تتعلق بكيفية رسم القرآن وضبطه ، وبمبادىء الدين واللغة العربية (8) .

ثم لا ينقطع الحفظ فى مرحلة التعليم المتوسطة ، حيث يكون على المراهق ان يحفظ ( الامهات ) مثل **الفية ابن مالك ولاميته** فى النحو والصرف، **ومختصر ابن الحاجب ومختصر خليل** فى الفقه .. بالاضافة الى حفظ ( الشواهد ) ، وهى الابيات والفقرات التى يمثل بها فى اللغة والنحو والصرف والبلاغة وغيرها . كان على المراهق أن ينقش فى ذاكرته عن كل مسألة تعلمها نصا وشاهدا يؤيد انها حتى لا يتعرض لسخط شيخه وسخرية رفاقه . واشتهرت فى هذا العصر عبارة « من لا يحفظ النص فهو لص » (9).

ويستمر الحفظ فى المرحلة النهائية من الدراسة ، فتجد بعضهم يحفظ **تسهيل ابن مالك ، وديوان المتنبى ، وتوضيح خليل** ( فى ست مجلدات ) .. (10) بل تجد من العلماء المدرسين من يستظهر **صحيحى البخارى و مسلم ، وموطا مالك ، ومدونة سحنون** وغيرها من المؤلفات الطوال (11) .

---

(8) انظر م. العربى الفاسى ، مرآة ، ص. 148 و 160 .
(9) انظر ع. ابن ميمون ، **الرسالة المجازة** ، ص. 276 .
(10) انظر ح. ابن ناصر ، فهرس ، الصفحات الخمس الاولى .
(11) انظر أ. المنجور ، فهرس ، فى مواضع متعددة .

# الفصل الثاني

## المواد الدراسية

تعددت المواد الدراسية وتنوعت على عهد السعديين ، ولو انها ظلت فى نطاق العلوم المتعارفة فى العصور السابقة ، وغدت بعض الكتب الاصيلة تدرس وتناقش بعد ان طال العهد بها فى المغرب ، وعقدت مجالس للتطبيق فيما يحتاج الى مران من العلوم العقلية والتجريبية .

لم تكن هناك اسبقيات ولا مقاييس مضبوطة لتوزيع المادة التعليمية على مراحل ، وانما كان الطلبة يختارون ما يلائم أذواقهم ويساير درجة ادراكهم ، فيحضرون هذه المجالس أو تلك ، الا قلة منهم كانت تحظى بتوجيه اب أو اخ أو قريب عالم ، فتامن العثرات التى قد يقع فيها غيرهم(1)

ويمكن تصنيف المواد الدراسية فى المرحلتين المتوسطة والنهائية لهذا المعهد خمسة اصناف :

### اولا ــ علوم شرعية

وتسمى ايضا علوما **نقلية** و **وضعية** ، لانها مسندة الى خبر واضعها الشرعي دون أن يكون للعقل دخل فيها ما عدا الحاق الفروع بالاصول . وقد جعل ابن خلدون كل العلوم العربية نقلية ، باستثناء العلوم الفلسفية التى دعاها **طبيعية** يهتدى الانسان اليها بفكره (2) .

وعد علماء المغرب السعدى العلوم الشرعية النقلية اثنى عشر (3)

---

(1) انظر أ. المنجور ، **فهرس** مواضع متعددة ، م. العربى الفاسى ، **مرآة** ، ص. 160 — 161 و 167 ومواضع متعددة أخرى ، أ. الكولالى ، **تنبيه** ، ص. 15 و 18 ومواضع أخرى متفرقة .

(2) ع. ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص. 779 — 782 .
وقد قسم الحسن اليوسى العلوم الى **اسلامية** ، **وقديمة** ، وجعل عدد العلوم الاسلامية اربعة عشر ، وادخل فى العلوم القديمة الحساب والهندسة والطب والتنجيم الخ .
انظر كتابه **القانون** ، ص. 21 — 102 .

(3) نظم هذه العلوم الاثنى عشر فى بيتين الشيخ ابو بكر التطكتانى الذى سنتحدث عنه فى القسم الثانى لدى كلامنا على المدرسين فى مراكش .
انظر البيتين عند ع. ابن ابراهيم ، **الاعلام** ، 1 : 146 .

### ا ـ التفسير والقراءات

يبحث التفسير عن معانى القرآن الكريم افرادا وتركيبا واعرابا ، ويشمل اسباب النزول والناسخ والمنسوخ . ويتضمن القراآت ، علاوة على معرفة الحروف التى اختلف فيها القراء السبعة او العشرة ، ثلاثة علوم فرعية هى :

ـ **التجويد** الباحث فى قواعد التلاوة من ترقيق وتفخيم ، وامالة وتسهيل ومد وقصر ، وادغام ووقف . وتلحق به آداب التلاوة واحكام الاستعاذة والبسملة والفصل بين السور .

ـ **الرسم** الباحث فى كيفية تصوير الفاظ القرآن عند الكتابة على نحو ما فى المصحف العثمانى ، ببيان ما يثبت وما يحذف وما يزاد من الحروف وما يوصل منها ومن الكلمات وما يفصل .

ـ **الضبط** الباحث عن الحركات والسكنات وصور الهمزة باختلاف موقعها من الكلمة وما الى ذلك .



### ب ـ الحديث

ويدعى ايضا **السنة** . يبحث فى اقوال النبى عليه السلام وافعاله وتقاريره ويهتم فيه بالسند والمتن معا . ويتفرع عنه علم آخر هو :

ـ **مصطلح** الحديث الباحث فى تاريخ تدوين الحديث والطرق التى سلكها المحدثون الاولون فى رواية الحديث وتصفيته من الشوائب الموضوعة . ويتضمن انواع الحديث ومراتب التعديل والتجريح وطبقات الرواة وما الى ذلك .



### ج ـ اصول الدين

ويسمى ايضا علم **التوحيد** ، **والكلام** ، **والعقائد** ، **والالهيات** يبحث فى مسائل الايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، معتمدا فى اثبات صفات الله تعالى على البراهين المنطقية . ورغم تشبث علماء التوحيد المغاربة بالمذهب السنى الاشعرى ، فانهم توسعوا فى العصر السعدى فى دراسة المذاهب المخالفة كالاعتزال والتشيع .



### د ـ اصول الفقه

ويطلق عليها فى الغالب **الاصول** ، وتدعى أصول الفقه واصول الدين معا **الاصلين** .

درسوا فى الاصول ادلة الفقه الاجمالية من كتاب ، وسنة ، واجماع، وقياس ، واستدلال ، وتعادل ، وترجيح ، وتوسعوا فى مباحـث الاجتهـاد والتقليد والفتوى والاستفتاء ، وبحثوا فى اسس المذاهب الفقهية المختلفة ووجهات نظر الائمة فى مسائل الخلاف ، كل ذلك فى نطاق تشبثهم بالمذهب المالكى وتاييده .

⁂

## هـ ـ الـفـقـــه

لم يدرس بالمغرب فى العصر السعدى من الفقه الباحث عن الاحكام الشرعية التفصيلية الا ما كان على مذهب مالك . ولم يجد فقهاء الشافعية والحنفية الوافدون من المشرق آنذاك من يرغب فى فقههم فكفوا عـــن تدريسه وانصرفوا الى التفسير والحديـــث .

والفقـــه قسمـــان كبيـــران :

ـ **عـــبـــادات** : من طهارة وصلاة وصيام وزكاة وحج ، وجهـــاد وضحيـــة وذبائح وصيـــد ..

ـ **معامـــلات** . من بيوع واجارة ، وقضاء ، وشهادة ، ونكاح ، وطلاق ، وهبة ، ووقف ، وقصاص ، وحدود ..

⁂

## و ـ الـفـرائـــض :

وتسمى ايضا علم **الارث** و **الميـــراث** .

تبحث الفرائض فى قسمة تركة الميت على ورثته والحقوق الواجب اخراجها من التركـــة .

وتشتمل الفرائض علـــى :

ـ **مباحث فقهية** . من اسباب الارث وموانعه ، واحكام الوصيـــة ، والاقرار والمناسخـــات .

ـ **مباحث حسابية** . من كيفية قسمة التركة على انصبة الورثة آحادا صحيحـــة وكسورا .

## ز ـ التوقيت .

ويسمى ايضا **علم الوقت** . يتوصل به الى معرفة الاوقات والجهات من طريق حساب سير الشمس والقمر ومنازل النجوم . وقد عدوه ضمن العلوم الشرعية وان كان قديما قبل الاسلام ، لتوقف كثير من العبادات عليه ، كمعرفة اوقات الصلاة والصيام والافطار ، وجهة القبلة . وقد شاع فى المغرب السعدى استعمال الازياج ، والالات الهندسية كالربع المجيب والاسطرلاب .

❈

## ح ـ التصوف

عرف المغاربة التصوف على طريقة الجنيد : « أن يميتك الحق عنه . ويحييك بـه » . وبحثوا فى الاحسان ، والتوبة ، والذكر ، والسلوك ، والجذب ، والقطبانية . كما خاضوا فى مسالة شيخ التربية ، والسبحة والخرقة والسجادة ، وآداب المريد .

❈

## ط ـ اللغة

اعتبروا اللغة العربية من العلوم الشرعية لكونها لغة القرآن والحديث ، لا غنى عنها لمن يريد معرفة الاحكام الشرعية من ينابيعها الاولى . وبحثوا فى مدلولات الالفاظ وما فيها من مترادف ومشترك .

❈

## ى ـ النحو

وسموه ايضا **علم الاعراب** ، واطلقوه على ما يشمل علمين متكاملين .

— **النحو** الباحث عن احوال اواخر الكلم عند التركيب اعرابا وبناء ، وعن احكام الاسماء والافعال والحروف ومعانيها .

— **الصرف** الباحث من بنية الكلمات وما يعرض لها من صحة واعتلال ، وقلب وابدال ، وفك وادغام ..

## ك ـ البـــلاغـــة

اطلقوا البلاغة على ثلاثة علـــوم متكاملة ايضا :

ـ **البيـــان** : الباحث فى الطرق المختلفة لا يراد الالفـــاظ العربيـــة وتنوع دلالتها . وتوسعوا فى مباحث الحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة والكنايـــة .

ـ **المعـــانـــى** : الباحث فى مطابقة الكلام لمقتضى الحـــال ، عـــن طريق الايجاز او الاطناب أو المساواة ، والفصل او الوصل ، والاطلاق او القصر .

ـ **البـــديـــع** : الذى تعرف به وجوه تحسين الكلام ، بواسطـــة المحسنات المعنوية كالطباق والتورية ، او اللفظية كالسجع والجناس .

⁂

## ل ـ التـــاريـــخ

وسموه ايضا **علم السير** لاشتماله على ثلاثة فروع :

ـ **السيـــرة** : التى تعنى بترجمة الرسول عليه السلام، واحواله التى سار عليها فى ماكله وملبسه ، واقواله وافعاله وسائر تصرفاته مـــن مبعثـــه الى وفـــاتـــه .

ـ **المغـــازى** : وهى تاريخ حروب النبى الكريم ضد المشركين .

ـ **الشمائل** : فى صفات النبى الخلقيـــة والخلقيـــة .

والحق علماء المغرب السعدى بهذه الفروع الثلاثـــة الاصطلاحيـــة القديمة فرعين آخرين كان لهما حظ فى المجالس التعليمية ، وهما :

ـ **التـــراجـــم** : درسوا فيها اخبار ائمة المذهب المالكـــى فى دروس الفقه ، واخبار الصالحين فى مجالس التصوف وغيرهـــا .

ـ **اخبـــار الزمـــن** : وهو نوع من التاريخ السياسى والاجتماعى، درسوا فيه احوال الامم القديمة ، واحداث العالم الاسلامى منذ عهـــد الخلفاء الراشدين والامويين الى القرن الحادى عشر .

## ثانيا : علوم ادبية

عنوا بالعلوم الادبية ، فى مقابل ما سبق من العلوم الشرعية ، اربعة فنون (4) :

### 1 ـ العروض :

اطلقوه على الفنين المتعلقين بالصناعة الشعرية :

ـ **علم الميزان** : الذى تعرف به تفاعيل البحور الشعرية الخمسة عشر وما الحق بها ، مع ما يعتريها من العلل والزحافات .

ـ **القافية** : التى تبحث فى اواخر الابيات الشعرية ، واحكام الروى الذى تبنى عليه القصيدة ، وما يلحقه من وصل وحركة .



### 2 ـ الشعر :

تمرن طلبة ذلك العصر على تذوق الشعر العربى واكتساب ملكة قرضه ، فضلا عن دراسة العروض ، بدراسة الشواهد الشعرية المنبثة فى ثنايا كتب اللغة وقواعدها ، وفيها الكثير من اشعار الجاهلية وصدر الاسلام . وحفظوها مع قصائد لفحول شعراء العصر العباسى .



### 3 ـ الانشاء

وسموه ايضا **علم الكتابة** درسوه فى اعجاز القرآن ، وخطب الرسول وجوامع كلمه ، وفى أثر الصحابة وكتب المقامات والنوادر .

### 4 ـ الخط

فرقوا بين **الخط** و **الرسم** ، فقصروا هذا الاخير على تصوير الفاظ القرآن الكريم على الطريقة المعهودة ، وتعلموه ضمن القراآت كما تقدم . بينما خصصوا دروسا لتعليم قواعد الخط العربى المطلق باشكاله المغربية والاندلسية والمشرقية (5) .

---

4) هناك من يجعل اللغة وقواعدها والتاريخ من جملة علوم الادب ، لكننا اعتمدنا ما نص عليه علماء العصر الذى ندرسه كما سبقت الاشارة الى ذلك

5) انظر بعض تفاصيل دراسة الخط فى القسم الثانى لدى كلامنا على مراكش .

## ثالثا ـ علـــوم بحتـــة :

### ا ـ رياضيـــات :

درس المتعلمون فى المغرب السعدى ما يتعلق بحساب الاعـداد الصحيحة والنسبية والجذور ، والجبر والمقابلة . واستعملوا الارقـــام العربية المعروفة بهذا الاسم حتى اليوم وسموها **حروف الغبار** ، وارقاما اخرى سموها **رسم الزمام او القلم الفاسى** ، وهى عبارة من رموز للاعداد الصحيحة والكسور ، تتركب من حروف عربية بتغيير قليل لبعض اشكالها. الواحد فيها مثلا . هاء واقفة ، فاذا وضعت تحتها خطا صارت الفا (6) .

### ب ـ هنـدســـة :

تعلموا اشكال الخطوط والسطوح والاجرام وحساباتاها ، واتقنوا رسم مختلف الاشكال الهندسية من دوائر وزوايا ، وبرعوا فى صناعـــة التكسيـر المتعلق بالمساحـات .

❋ × ❋

## رابعـا ـ علـوم تجريبيـــة :

### ا ـ طـــب

شملت الدراسات الطبية فى العصر السعدى ما كتبه القدماء عـــن العناصر الاربعة ، واعضاء البدن ، وانواع الاخلاط ، والمزاج والروح .. وعنيت بوسائل علاج الامراض وبخاصة الحميات والاورام .

### ب ـ صيدلـــــة

كثيرا ما عدوا الصيدلة من فروع الطب ، ودرسوا فيها الاعشـــاب وطبائعها ، وقارنوا بين اعشاب البلاد الاخرى وما يماثلها فى الخاصيات من اعشاب المغرب ، وحضروا العقاقير المفردة والمركبـــة .

---

6) نظم رموز القلم الفاسى مبينا اشكالها واعدادها ، عبد القادر الفاسى ( ت. 1680/1.091) فى نحو عشرين بيتا توجد مخطوطة فى بعض مجاميع المكتبة العامة بالرباط . وقد بقى العدول يستعملون القلم الفاسى حتى منتصف قرننا هذا .

## خامسا — علوم عقلية

### ا — منطق

ارتبطت دراسة المنطق بعلم الكلام ، الا انهم لم يقتصروا على المباحث المنطقية — الكلامية ، بل درسوا ايضا أنواع الدلالة الوضعية، واقسام المعرفات ، والقضايا واحكامها ، والتناقض والعكس والقياس .

### ب — البحث والمناظرة

افردوهما عن المنطق وان كانا مندرجين فيه ، لانهم درسوا علاوة على المباحث المنطقية من اثبات ومعارضة ، وتعليل ومناقضة ، آدابا يلزم الباحثين والمتناظرين مراعاتها للوصول الى الحقيقة دون خصام ولا مهاترة .

☘

تلك هى العلوم التى شغلت الدارسين فى المغرب السعدى ، وهى رغم طابعها التقليدى لا تخلو من ملامح التجديد والطابع المحلى .

# الفصل الثالث

## الطـرق التعليميـــة

❀

لم تختلف طرق التعليم فى العصر السعدى اختلافا جوهريا عنها فى العصور السابقة ، ولم تترد فيه أصداء المبادىء التربوية التى نادى بها ابن خلدون فى **المقدمة** ، الا اجتهادات شخصية لبعض رجال التدريـــس استوحوها من تجاربهم الخاصة أو اختاروها من أسس مدارس التعليم القديمـــة .

### أ ـ مـدارس التعليـم القديمـــة

لما كان الفقه من أول العلوم الشرعية التى تصدى لها علماء الاسلام نالـــت **المدونــة** عناية فقهاء المالكية السابقين ، واختلفت طرق تدريسهم لها شرقا وغربا ، فبرزت ثلاثة أساليب متميزة طبقت فيما بعد على غيـــر المدونـــة من كتب الفقه وقواعد اللغة وسائر ما تدرسه المسلمـــون . وبذلك تكونت المدارس التاليـــة :

#### 1 ـ مـدرسـة العـــراق

اتخذ العراقيون الكتاب المدروس منطلقا للخوض فى المسائل المتعلقة بالموضوع ، دونما تقيد بحرفية النص او اهتمام بالالفاظ .

### 2 ــ مدرسة القيروان

اتجهت عناية القيروانيين ، بعكس حال العراقيين ، الى نص الكتاب بالدرجة الاولى ، فشرحوا الالفاظ وحققوا مدلولها ، وصححوا الروايات ونبهوا على ما فيها من اضطراب واختلاف او تناقض .

### 3 ــ المدرسة المغربية الاندلسية

سلكت هذه المدرسة سبيلا وسطا بين اسلوبى العراق والقيروان ، فعنيت بالموضوع اصوله وفروعه عنايتها بالالفاظ والروايات ووجوه الاحتمال فيها . وكان رائد هذه المدرسة عياض بن موسى السبتى دفين مراكش (ت 1149/544) امام العدوتين وقاضيهما (1) .

☙

## ب ــ طرق التعليم فى العصر السعدى

تاثرت طرق التعليم فى العصر السعدى بالمدارس القديمة ، وتاثرت اكثر بمشكل **الاختصار والنظم** الذى تفاقم خطره مع مرور الزمن بتضخم عدد **الشروح و الحواشى** . ورغم تعدد الطرق التعليمية فى هذا العصر واختلافها باختلاف وجهات نظر العلماء على ما سنبينه ، كانت هناك ظاهرة مشتركة بين جميع الطرق لا تكاد تتخلف ، الا وهى انطلاق جميع الدروس من ( نص الكتاب ) يقرؤه أنجب الطلبة بين يدى الشيخ فى بداية الدرس ، ويتخذ هذا الطالب الذى تسميه الفهارس **ساردا** او **قارئا** مجلسه وسط الحلقة الاولى ، ويجلس الى يمينه وشماله المتقدمون من الطلبة على شكل نصف دائرة تحيط بالاستاذ الجالس على كرسى او المستند الى سارية ، ويجلس الطلبة الآخرون فى أنصاف دوائر خلفية موازية . ولا ينتهى دور السارد عند القراءة الاولى ، وانما يظل طوال الدرس حاملا الكراسة مستعدا لقراءة الفقرات او التعليقات التى قد يطلب منه الاستاذ أن يقرأها .

ثم تختلف الطرق التى يسلكها الشيوخ بعد هذه المرحلة الاولى من الدرس . ويمكن أرجاع طرق التعليم فى العصر السعدى الى اربع :

### 1 ــ طريقة حل المتن

هذه ابسط طريقة تعليمية عرفناها لذلك العصر . يقتصر المدرسون فيها على شرح النص المدروس بعبارتهم الخاصة دون الرجوع الى كلام الشراح والمحشين ، ويكون الشرح والامثلة التى يسوقونها هى خلاصة ما عند أولئك الشراح ، لكن دون حشو ولا الحاح فى الافتراض والاعتراض .

---

1) انظر ا. المقرى ، ازهار ، 3 : 22 ــ 23 .

ولم تستعمل هذه الطريقة مع المبتدئين من الطلبة نحسب ، وانما طبقت ايضا ببراعة فى الدروس العليا حيث ظهرت مقدرة المدرسين واحاطتهم الشاملة بالموضوع .

ولهذه الطريقة مدرستان بالشمال والجنوب :

## ـ مــدرســة الشمــال

مثل هذه المدرسة آل ابراهيم الدكاليون المشترائيون الذين تسلسل فيهم العلم بفاس اجيالا عديدة (2) . فكانت دروسهم فى **المدونة والرسالة** وغيرهما بالقرويين من احفل المجالس التى يشهدها الى جانب الشادين من الطلبة جماعة من اعلام المدرسين ، لا تسمع فيها تعقيبات الشراح والمحشين وانما هى فروع تلحق باصولها ، ومسائل تضم الى نظائرها .

وقد اختلفت آراء علماء القرويين فى هذه الطريقة « المباشرة » ، نحبذها المتفتحون المنصفون منهم ولو لم يطبقوها ، وفى مقدمتهم مفتى فاس وكبير مدرسيها عبد الواحد الونشريسى الذى كان يحضر مجالس احد هؤلاء المشترائيين « ويعجب من فصاحته ورشاقته فى ذلك ، ويقول فى تدريسه : ذلك هو السهل الممتنع ! » (3) وذمها آخرون اعتبروها عجزا وقصورا . ولم يتورع قاضى الجماعة بفاس عبد الواحد الحميدى عن أن ينتقد يوما فى مجلسه العامر بقبة المدرسة المصباحية آل ابراهيم عموما ، ويخص احدهم من معاصريه بقوله : « واحمرهم ذلك بلقاسم » (4) .

وتخرج على يد آل ابراهيم عدد وافر من العلماء نشروا طريقتهم « المصفاة » فى بادية فاس وبلاد الريف .

## ـ مــدرســة الجنــوب .

تزعم الطريقة المبسطة فى الجنوب كبير علماء درعة وشيخ الجماعة بها محمد ابن مهدى الجرارى الذى كان يقول : « حقيقة الاقراء تصحيح المتن ، وحل المشكل ، وايضاح المتفل ، وزيادة أخرى غير ذلك ضررها بالمتعلم اكثر من نفعها » (5) وانتشرت طريقته مع المتخرجين عليه ، وهم كثير ، فى درعة وتفيلالت وسوس ، وفى مراكش نفسها .

---

2) سنتحدث من اشهر علماء هذه الاسرة لدى كلامنا على فاس فى القسم الثانـــى .
3) أ. المنجـــور ، فهـــرس ، ص . 31 .
4) أ. الكلالـــى ، تنبيـــــه ، ص. 19 .
5) ع. السجلماســـى ، فهـــرس ، ص . 85 .

## 2 ـ طريقة حك المسائل

هذه هى الطريقة الغالبة فى العصر السعدى . يهتم اصحابها بالالحاح فى بحث المسائل وتقليب وجوه النظر فيها ، وايراد الاستشكالات أو اعتراضها ، وجلب النقول ومناقشتها ، لتتكون ملكة البحث عند المتعلمين .

واذا كان من عيوب هذه الطريقة البطء ، وشغل الطلبة بالقشور عن اللب ، وتفويت فرص التحصيل على غير الاذكياء منهم ، فان ما يمزجها به بعض المدرسين الموهوبين من حوار واملاء ، يضفى عليها طابع الحيوية والبسط والحرية . ويأتى على رأس هذه الطبقة شيخ القراء والنحاة محمد ابن مجبر المسارى الذى « ترتفع فى مجلسه للابحاث النحوية سوق نافقة ، وتنثال عليه آراء نجباء الطلبة واسئلتها المختلفة والمتوافقة ، ما شئت من ابراد تهتز النفوس الادمية لسماعه ، واشكال تحار الافكار فى حسنه وابداعه . وهو ـ امتع الله ببقائه ـ يحسن الاصغاء الى تلك الايرادات والانصات ، ويعطي ذلك حقه من النظر والالتفات ، ثم يكر على ذلك بزوال جلاليب الخفا والالباس ، ويوفى كل سائل واجبه من الرعاية والايناس ، ويتحف المتعلمين بتقاييده وفوائده ، ويمدهم بغرائبه وفرائده . فترى الاقلام فى ايدى الطلبة فى مجلس درسه راكعة فى المحابر وساجدة ، وبصلاته على الكاتبين بها عائدة .. » (6)

وقد احسن احد طلبة ذلك العصر التعبير عن صعوبة طريقة حك المسائل ومقارنتها بغيرها اذ قال : « كنت اجلس بمجلس أحمد المقرى فأجد العلم كله واضحا ، فاذا جلست بمجلس الشيخ ابن عاشر كان كله مشكلا » (7) . وعلق المؤرخ محمد الافرانى على هذا بقوله : « يشير الى أن المقرى كان حافظا لا يتعقب المسائل ، وابن عاشر كان نقادا يحك المسائل حتى يستنبط منها أمورا تنشط الانظار ، وتحير الافكار » (8) .

⁂

## 3 ـ طريقة المحاضرة

هذه طريقة نخبة المدرسين من المفسرين والمحدثين ، والفقهاء والمعقوليين . يعتمدون على تنسيق العرض وحسن الاداء ، مع الاشراف على آراء المتقدمين ومناقشتها والترجيح عند الاقتضاء .

يأتى على رأس المحدثين والمعقوليين الامام أحمد المنجور الذى عرف بطول النفس فى التدريس وسلاسة التعبير . وقد وصف أحد طلبته درسا من دروسه الحديثية بهذه العبارات : « وقفت ليلة بجامع القرويين ،

(6) ع. السجلماسى ، فهرس ، ص. 91. ونشير الى ان السجلماسى وصف هذه الدروس من مشاهدة ، اذ كان من بين الآخذين عن الشيخ ابن مجبر .

(7) م. ميارة ، نظم اللآلى والدرر ، ص . 333 .

(8) م. الافرانى ، صفوة ، ص. 140 .

والامام المنجور — رحمه الله — يومئذ على كرسيه بين المغرب والعشاء في الشتاء ، يقرر في سند من أسانيد متونه ويعرف برجاله ، اما في **مسلم** او **البخاري** .. والبحث في أحوال السند بمعرفة رجاله علما ودينا وحفظا وبلدا وزمانا وغير ذلك مما يتعلق بالسند ، حتى تتحقق براءته من قوادح الريبة ، ثم يخوض بعدها فيما يخص المتن لفظا أولا ، ومعنى ثانيا ، وما فيه من الروايات ، ومن يوافقه او يخالفه من اهل الصحاح على ذلـــك عموما او خصوصا . ثم يأتي بما يعين على فهمه من غيرها كالحسان وما قاربها من الاحاديث ، لتقييد أو تعميم ، أو جمع بين متعارضين ، أو ترجيح او تزييف او تبيين او نسخ لما يشهد لمذهب من المذاهب بأرجحيـــة أو ضدها ، الى غير ذلك من فوائد الاعراب واللغة واستنباط الاحكام » (9) .

وعبر طالب آخر عن اعجابه بمحاضرات المنجور بعـــد ان ظـــل يحضرها زهاء خمس عشرة سنة بقوله : « صارت الدنيا تصغر بين عيني كلما ذكرت اكل التراب للسانـــه .. » (10)

ويمثل الطبقة الاخرى من المحاضرين المفوهين الشيخ احمـــد الزموري صاحب كرسي التفسير بجامع الاندلس ، فقد كان « طلق العبارة جدا ، فصيح اللسان ، جيد الحفظ ، دقيق الفهم .. حضرت مجلسه يوم قراءته لقوله تبارك وتعالى : « واحل الله البيع وحرم الربا الى قولـــه خالدون » . وحكى رحمه الله في تأويلات الآية ما ينيف على ثلاث وعشرين تأويلا ، كلها باللفظ ، وهو ينقلها رحمه الله ويعد في أصابعه الثاني والثالث الى آخرها . ثم قال رحمه الله : قال الامام الفخر ( الرازي ) : فان قلت قوله تعالى : « ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هذه الآية تشهد لمذهب المعتزلة في قولهم بتخليد العصاة من المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا ، لقوله ومن عاد اي الى فعل الربا فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ثم قال رحمه الله : واجيب عن الآية لاهل السنة بأوجه أقربهـــا وجهان : أحدهما أن معنى قوله ومن عاد ، معناه عاد الى اعتقاد حلية الربا بدليل : « وأحل الله البيع وحرم الربا » ، اي فمن خالف ذلك واعتقـــد الحلية فهو مخلد في النار . ولا شك أن من حلل ما حرم الله فهو كافـــر ، والكافر مخلد في النار ، والخلود على بابه . والجواب الثاني أن نـــزول الخلود بمعنى طول المدة ، فيكون المعنى ومن عاد الى فعل الربا فيدوم بقاؤه في النار ثم يخرج . والخلود بمعنى طول المـــدة وارد في كـــلام العرب .. » (11)

وهناك صنف ثالث من المحاضرين الراسخين في علـــوم الظاهـــر والباطن ، مزجوا دروسهم في التفسير والحديث والفقه وغيرها بمباحـــث

---

9) أ. ابن ابي محلي ، **الاصليت** ، ورقة 72 .
10) أ. ابن القاضـــي ، **درة** ، 1 : 143 .
11) أ. الكلالـــي ، **تنبيـــه** ، ص . 17 .

التصوف واخبار السلف الصالح ، لكان لكلامهم حلاوة ، وعلى مجالسهم اقبال عظيم من الخاصة والعامة ، وهم كثيرون في زوايا الصومعة وسجلماسة والدلاء كما سنرى .

⁂

## 4 ـ طريقة المناظرة

ارقى طريقة تعليمية في العصر السعدي لولا انها بقيت محدودة بين قلة من العلماء المحققين . كان الحاضرون من اساتذة وطلبة يشاركون في القراءة والمناقشة . وهذه اربعة نماذج لمجالس المناظرة .

### ا ـ نموذج الونشريسي

خلف عبد الواحد الونشريسي اباه مؤلف **المعيار** في كراسيه بالقرويين والمدارس التابعة لها ، وغدت مجالسه الفقهية بصفة خاصة ملتقى النابهين من الطلبة وكبار الفقهاء .

كان الونشريسي يفتح باب المناقشة على مصراعيه ، ولا يستنكف عن اي استشكال او اعتراض لما عرف عنه من سعة العلم وسلامة الطبع. غير ان بعض من كان يحضر هذه المجالس من رجال التدريس لم يكونوا يضبطون اعصابهم عند اعتراض الاقران فلا ينقطع اللجاج الا بتدخل الشيخ. وحدث ذات يوم اثناء درس **مختصر ابن الحاجب** ان اختلف فقيهان كبيران من الحاضرين حول مسألة دقيقة ، واحتد النزاع بينهما الى ان ادى الحال الى المشاتمة وافتراق المجلس (12) .

### ب ـ نموذج ابن خروف

محمد بن خروف التونسي مالك ناصية العلوم العقلية دون منازع ، ومع ذلك تحاشاه عامة طلبة فاس حين قدم اليها ، لغرابة مادة تخصصه وصعوبتها ، ولانغلاق عبارته بشبه عجمة استولت على لسانه نظرا لطول مكثه في الاسر عند الاسبانيين .

عرف قدر هذا العالم جماعة قليلة من نجباء الطلبة ، كان يعقد لهم مجالس مصغرة يتباحث فيها معهم اكثر مما يلقى عليهم من مسائل المنطق والاصول والبلاغة ، ويستعملون اللوح ( الابيض ) بين يديه لشرح الاشكال والصور المنطقية ، فحذقوا هذه العلوم ونشروها بنفس الطريقة في انحاء المغرب (13) .

---

12) انظر ا. المنجور ، فهرس ، ص 29 .
13) ا. المنجور ، فهرس ، ص 39 .

### ج ــ نمــوذج القصـــار

محمد القصار مشارك فى العلوم النقلية والعقلية محقق فى كثير منها الا ان عبارته كانت قاصرة لا تساعده على الانطلاق فى الشرح ، فانصرف منه هو ايضا جمهور الطلبة ، ولازم مجالسه المصغرة للبحث والمناقشة عدد قليل من النجباء نالوا علما غزيرا .

« وكانت مجالسه تقوم مقام دروس كثيرة ، فانها كان يحصل بها من الفوائد ما لا يكاد يحصل فى دروس كثيرة . وكان امام عصره تفننا فى العلوم وتبحرا فيها ، وجودة نظر ودقة فهم وسهولة ماخذ ، واختصاصا بايضاح المشكل وتسهيل العويص ، على وجازة فطر عليها فى كلامه ربما لم يتاد معها المقصود لكثير ممن قصر فهمه ، فتحامى لذلك الاستفادة منه كثير منهم . اما اهل التحصيل ، والفهم الاصيل ، فاكبوا على الاخذ والاستفادة منه فحصلوا على علم عظيم وملكة تامة » (14) .

وتخرج على يد الامام القصار وسار على طريقته فى البحث والتحقيق جماعة من فطاحل علماء الدور الاخير من دولة السعديين .

### د ــ المجلــس المشتـــرك

ابتدع الامامان القاضى ابو القاسم بن ابى النعيم ، والمفتى احمـــد المقرى طريقة طريفة للتدريس بالقرويين . كانا يعقدان مجلسا مشتركـــا يحضره نبهاء الطلبة وعلماء المدينة . وتحمل الى المجلس كثير من المراجع المختارة من مكتبة الجامعة . فيتناوب الشيخان فى التقرير ، ويشـــارك الحاضرون فى التعليق والقراءة والمناقشة (15) .

***

تلك اشهر الطرق التعليمية فى العصر السعدى ، ولو ان الطرق فى الواقع لا تدخل تحت حصر ، لكثرة تنوعها واختلافها باختلاف عقـــول المدرسين واساليبهم فى الفهم والتفهيم .

---

14) م. العربى الفاسى ، مــراة ، ص. 163 .
ونشير ان العربى الفاسى لازم مجالس الشيخ القصار تسنين عديدة .

15) انظر م. مبـارة ، نظـم ، الفصل الاول .
ونشير الى ان محمد مبارة كان من جملة من يحضر هذا المجلس المشترك .

# الفصل الرابع

## الاجـــــازة

⁂

### ١ ـ الاجــــازة والروايــــة

الاجازة فى الاصل من مصطلحات المحدثين يعدونها فى الدرجـــة الثالثة من أنواع **الرواية** ، ويأتى قبلها : **السماع** اى سماع لفظ الشيخ من حفظه او كتابه ، **والعرض** اى قراءة الطالب على الشيخ وعرضه الحديث عليه كما يعرض القرآن على المقرئ .

**الاجــازة** عندهم : ان يقول المحدث لغيره أجزت لك أن تروى عنى كتابى او هذا الكتاب الذى حدثنى به فلان ، ويبين سنده ، دون سماع ولا عـــرض .

وتوسع المتأخرون من علماء المسلمين فى الاجازة ، فاطلقوها على كل أنواع الرواية ، وجعلوها غير قاصرة على الحديث ، بل شاملة لسائر العلوم النقلية والعقلية (1) .

---

(1) انظر ع. ابن زيدان ، نبلـــق ، مخطـوط غير مـرقـم .

## ب ـ الاجـازة والفهـــرس

عندما يجيز الشيخ الطالب فى علم او جملة علوم اخذها عنه ، يذكر سنده هو فى تلك العلوم ، مبينا الشيوخ الذين اخذ عنهم وشيوخهـــم متسلسلين الى واضع العلم او مؤلف الكتاب .

واذا توسع المجيز فى ترجمة هؤلاء الشيوخ وذكر تاريخ ولادتهـم ووفاتهم ومقروءاتهم ، صارت الاجازة فهرسا فى كراسة او عدة كراريس . والعصر السعدى غنى بهذه الاجازات ـ الفهارس كما سنرى . على أن معظم الاجازات انما هى موجزة فى ورقة او ورقات . وقد تلحق هـــذه الاجازات الموجزة بفهارس المجيزين ، فيحال فيها على ما اشتملت عليـه تلك الفهارس .

## ج ـ انــواع الاجـازة

تعددت الاجازات وتساهل بعض الشيوخ فيها بقصد التبرك ونشر السند على اوسع نطاق باعتبار انه من خصائص الامة الاسلامية . اجازوا سكان المدينة والقطر وجميع المعاصرين ، وقالوا للمجاز : اجزت لــك ولولدك ولعقبك ما تناسلوا !

لن نتعرض لهذه الاجازات ( الصورية ) . وانما نذكر الاجازات التى نالها اصحابها بعد جد وكد ، واعترف لهم الشيوخ ، عن وعى وتثبت ، بانهم حصلوا على ملكة تامة تؤهلهم لرواية العلم عنهم ونقله الى آخرين .

ويمكن تصنيف اجازات العصر السعدى اولا الى صنفين : اجازات خاصة تتعلق بعلم او جملة علوم معينة ، واجازات عامة تشمل جميـــع معارف المجيز .



# اجـازات خـاصـة

ووقفنا على نوعين من الاجازات الخاصة :

## اجـازات قـرآنيـة :

وهى اكثر الاجازات فى هذا العصر عددا ودقة ، واوفرها عناية وزخرفة ، لانتشار علوم القرآن كما اشرنا الى ذلك من قبل . لا يكاد يخلو فهرس من فهارس علماء هذا العصر من نص اجازة قرآنية او اشارة اليها. وسنكتفى بالتعليق على الاجازتين اللتين نشرنا صورتهما فى آخر الكتاب .

— **اولاهما** مؤرخة فى اواسط شعبان عام 981/ديسمبر 1573 . اجاز بها الاستاذ محمد بن احمد ابن مجبر المسارى الطالب احمد بن علـى الزمورى . وهى مكتوبة على رق غزال بخط مغربى جميل دقيق ملـون داخل اطار مزخرف مذهب ، الا ان بها تمزقا وخروقا كثيرة . تحتوى على اسانيد الشيخ ابن مجبر فى القراآت عن شيخيه الامامين محمد ابن غازى وموسى الزواوى بسندهما المشهور .

**والاجازة الثانية** مؤرخة فى اوائل شعبان عام 1035 / ابريل — مـاى 1626 . اجاز بها الاستاذ عبد الواحد ابن عاشر الطالب أحمد بن محمد الزمورى حفيد أحمد بن على الزمورى المجاز قبل . وهى مكتوبة أيضا على رق غزال (2) بخط مغربى جميل ودقيق جدا ، رسمت فيها أسماء وجمل وسطور كاملة بمحلول الذهب ، فى اطار رائع مزخرف بالذهب أيضـا ومختلف الالوان . وهى بحق تحفة فنية وعلمية ما رايت لها نظيـرا فى المـوضـوع .

نقلت هذه الاجازة بخطى — على ما فيها من خرم ومحو — مستعينا بمكبرة وببعض الاصول التى تشير اليها ، فخرجت فى نحو ست عشـرة صفحة . وهى الى الفهرس أقرب منها الى الاجازة ، لما تحتوى عليه من تفصيل فى أسانيد الشيخ ابن عاشر فى علوم القرآن ورواياته المتسلسلة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها خلاصة أسانيد المغاربـة والاندلسيين المتصلة بكبار القراء فى البصرة والكوفة وبغـداد والقاهـرة ودمشق والحرمين الشريفين .

ذكر المجيز فيها ما حصله الطالب المجاز على يده بقوله : « .. فقرا كتاب الله وسعى فى تحصيله ، الى أن استجمع من علومه ما آذن بتكميله.

---

(2) طول هذه اللوحة الفنية 68 سم ، وعرضها 58 سم . وبها 88 سطرا بالاضافة الـى سطرين اثنانيين بخط المجيز ، يليها توقيعه وتوقيع ثلاثة من الشهود الشرفاء هم محمد ابن ابى طالب الجوطى ، ومحمد بن محمد البوعنانى ، ومحمد بن أحمد العراقى .

وكان فى جملة ما تقاضاه من ديونه ، وتعاطاه من التجر فى فنونه ، أن تلا على جميعه من اوله الى آخره ختمتين ، احداهما لنافع ، والثانية جمع فيها بين قراآت الائمة السبعة المشهورين — رضى الله عنهم — عرضا من صدره برواياتهم المشهورة عنهم ، وادرج فى قراءته الادغام الكبير لابى عمرو ابن العلاء . وكل ذلك بطريق **التيسير** لابى عمرو الدانى ، وبملخصه **حرز الامانى ووجه التهانى** ، للامام ابى القاسم الشاطبى رحمه اللـــه تعالى . ولما كمل له ذلك على نحو ما ذكر من التفسير والتفصيل ، وكان من اهل التجويد للقراآت مع الضبط لاحكامها والتحصيل ، ســال منــى — ارشده الله — أن اجيز له ذلك .. »

ثم استعرض المجيز اسانيده واجازها كلها للطالب الزمـــورى ، وكرر فى الاخير لفظ الاجازة مضيفا الى ما تقدم اسماء مصنفات اخرى كثيرة فى علوم القرآن قراها عليه المجاز او سمعها عنه او عرضها عليـــه : « .. وقد اجزت الفقيه الارضى ابا العباس احمد المذكور أن يروى عــن الشيوخ المذكورين فى هذا الكتاب وغيره .. واجزته فى جميع ما قرا على من الكتاب العزيز والمعروضات المذكورة اجازة عامة بشروطها .اجزته أن يروى عنى بحدثنا وانبانا واخبرنا ، واذنت له فى ذلك اذنا تاما .. »

مثل هذا التثبت فى تفصيل المقروء والمعروض والتاكد من استكمـال ملكة الطالب نجده فى جميع الاجازات القرآنية . ومما يدل على تشدد القراء المغاربة فى الاجازة لهذا العهد أن ابا الطيب الحسن الزياتي — وهو من اكبر القراء والمؤلفين المكثرين — لم تكن له اجازة قرآنية لانه لم يكمل فى حياة شيخه جمع القراآت السبع ولم يعرض مقروآته بعد ذلك علـى غيره فلم يجزه احد (3) . ورفض الاستاذ محمد بن يوسف الترغى أن يجيز محمد ابن على الجزولى الكفيف الذى ظل يتردد على بابه سنة كاملة (4) .

## اجـــازات حديثيـــة

لم يبلغ المحدثون لهذا العهد من التثبت والاحتياط عند الاجازة مـــا بلغه القراء ، فاكتفوا أحيانا بما درسه الطالب عليهم من بعض الكتـــاب وتاكدت لهم به سلامة نطقه وصحة ادراكه ، ليجيزوا له الكتاب كلـــه أو جملة الصحاح والسنن وما الى ذلك . وربما كان مرد ذلك الى طول كتـب الحديث وتعددها ، اوالى الرغبة فى نشر السند والتشجيع على الاقبـال على الحديث .

اكثر الاجازات الحديثية لهذا العهد شرقية اتى بها من درس هذا العلم من المغاربة فى المشرق — وهم قليل — ، أو من حج منهم ولقى مشايخ

---

(3) انظر م. العربى الفاسى « مـــرآة » ص . 166 .
(4) انظر م. الافرانـــى « صفـــوة » ص. 134 .

الحديث في الطريق او في الحرمين الشريفين — وهم كثير — . ويعتبر عبد الرحمن سقين ، بعد الامام ابن غازي ، شيخ الحديث في المغرب السعدي اليه مرجع كل الاجازات مباشرة او بوسائط ، لما حصل له من توسع في الروايات بالمغرب والمشرق .

وسنقتصر على اربعة نماذج من الاجازات الحديثية :

1 — **اجازة عبد الرحمن سقين** في اوائـــل عـــام 1548/955 بمدينـــة فاس ، لاحمد المنجور فيما قرا عليه او سمعه منه او حدثه به من **الموطـــا** ، **وصحيحي البخاري ومسلم** ، **وسنن ابي داوود** ، **والترمذي** ، **والنسائي** ، **وابن ماجه** ، وسائر مصنفات الحديث الواردة في اجازة سقين المشرقيـــة وفهارس مجيزيه المغاربة ، وتشمل كل كتب الحديث تقريبا (5) .

2 — **اجازة امام الدين الخليلي** في 5 محرم عام 3/999 نونبر 1590 بمدينة مراكش ، لاحمد ابن القاضي جميع مصنفات الحديث التي يرويها عن شيوخه المشارقة العرب والعجم . والمجيز مـــن علمـــاء الشـــام المستوطنين مراكش ، واجازته من احسن الاجازات التي وصلتنا مـــن العصر السعدي ، وهي مكتوبة على ورق أبيض متين بخط المجيز المشرقي الجميل في خمس صفحات (6) .

ذكر امام الدين في صلب الاجازة أسانيده في الحديث ، ومن أخذ عنهم او اجازوه من محدثي القدس ، ومصر ، والحرمين الشرفيين ، وحمص ، وحماة ، وحلب وانطاكية ، وطرابلس الشام ، والقسطنطينية ، ثم طرابس الغرب ، وتونس والجزائر . لذلك تعتبر هذه الاجازة موسوعة لعلم الحديث في القرن العاشر .

3 — **اجـــازة احمـــد بابا السودانـــي** (7) ، في 15 ربيع الثاني عام 13/1010 أكتوبر 1601 بمدينة مراكش ، لاحمد المقرى في **المـــوطـــا** ، وصحيحي **البخاري ومسلم** ، والشفا لعياض ، وغيرها من الكتب الستـــة وسائر مصنفات الحديث التي يرويها بسنده السوداني المفصل المتصل بكبار المحدثين المشارقة .

4 — **اجازة محمد القصار** (8)، في اول ربيع الثاني عـــام 8/1012 سبتمبر 1603 بمدينة فاس ، لمحمد بن ابي بكر الدلائي ما سمعه منه من **وصحيحي البخاري ومسلم** ، **والشفـــا** لعياض ، وغيرها من الكتب الستـــة الحديث التي يرويها — بواسطة — عن الامام عبد الرحمن سقين بسنديه المشرقي والمغربي المشار اليهما قبل .

---

(5) انظر ملخص هذه الاجازة عند أ. المنجور ، **فهرستي** ، ص. 5 .
(6) مخطوطـــة خاصـــة بالربـــــاط .
(7) انظر نص هذه الاجازة كاملا عند أ. المقرى ، **روضة** ، ص. 305 — 312 .
(8) انظر نص الاجازة في كتابنا **الزاوية الدلائيـــة** ، ملحق رقم 6 ، ص. 278 — 279 .

## اجــــازات عـــامـــة

الاجازات العامة اكثر انواع الاجازات ، لان المجيز فى الغالب لا يكتب الاجازة للطالب الا عندما ينهى دراسته او يعزم على السفر ان كان مـــن بلد آخـــر . ونظرا لظاهرة المشاركة المتفشية لدى علماء المغـــرب السعدى رأينا معظم اجازاتهم تشتمل على عدد العلوم النقلية والعقليـــة التى قراها الطالب فعلا او اضافها الشيخ للمقروء تأكيدا لثقته فى تحصيل الطالب ، ودفعا به للخوض فى سائر العلوم .

لدينا عشرات الاجازات العامة من هذا العصر نقتصر ايضا على الاشارة الى اربع منها :

1 ـــ **اجازة محمد ابن غازى** (9) فى اوائل القرن العاشر بمدينة فاس لعلى بن هارون المطغرى جميع الكتب الثلاثة والسبعين التى قراها عليه او سمعها منه او عرضها عليه . وقد قرأ عليه بعض هذه الكتب اكثر من مرة : **فالقرآن** عرضه عليه نحو عشرين ختمة بالطرق العشر والروايات المتعددة ، و **صحيح البخارى** نحو عشر ختمات ، **ورسالة ابن ابى زيد** أربع ختمات ،**والموطا** ، **والمدونة** ثلاث ختمات .. ولا عجب ، فابن هرون لازم دروس ابن غازى ست عشرة سنة قبل ان يجاز ، وبقى يحضر دروسه بعد ذلك ، وقد صار هو ايضا مدرسا بالقرويين ، ثلاث عشرة سنة اخرى الى وفاة الشيخ ابن غـــازى .

كتب ابن هرون الاجازة بخطه من املاء الشيخ مشتملة على كـــل مقروآته عليه ، والحقها بآخر **فهرس ابن غازى** ، وكتب هذا بخطه اسفل الاجازة متصلا بها : « صحيح ذلك . وكتب متلفظا بلفظ الاجازة الموصوفة فوقه محمد بن محمد بن على ابن غازى سمح الله له » (10) .

2 ـــ **اجــــازة احمد المنجور** (11) فى أواخر رجب عام 989/غشـــت 1581 للسلطان احمد المنصور الذهبى جميع ما قرأ عليه من **صحيـــح البخارى** ، **والموطا** ، **وجامع الترمذى** ، **وصحيح مسلم** ، وسائر مصنفات الحديث ، والفقه ، والاصول ، والكلام ، والمنطق .. مما رواه هو عـــن شيوخه المغاربة فى اجازاتهم لـــه .

هذه الاجازة طويلة فى عدة كراريس سنتحدث عنها فى الفصـــل المتعلق بالفهارس لما اشتملت عليه من أسانيد مفصلة وتراجم وافيـــة لعلماء القرن العاشر .

---

9) انظر ملخص هذه الاجازة عند أ. المنجور ، **فهـــرس** ، ص. 21 ـــ 23 .
10) المصدر السابق ، ص . 23 .
11) هى **فهرس المنجور** الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد ذكر المنجور آخرها مؤلفاته الاثنتى عشرة واجازها ايضا لاحمد المنصور بهذه العبارة : « وقد اجزت لمولانا امير المومنين المنصور المؤيد ، ابى العباس مولانا احمد ، الشريف الحسنى ، هذه التآليف وغيرها من سائر ما صح لديه نسبته الى باى وجه أخذته عن شيوخى او لفقته ، اجازة تامة ، مطلقة عامة ، يروى بها عنى ما شاء وكيف شاء ، ويروى لمن شاء كذلك بشرطها المعتبر .. » (12)

3 ــ **اجازة محمد ابن ناصر الدين الطبلاوى** الشافعى (13) ، حوالى عام 1583/991 بالقاهرة ، لسعيد الماغوسى . كتب الشيخ الطبلاوى تقريظا مطولا نثرا ونظما لكتاب الماغوسى **ايضاح المبهم من لامية العجم،** واردف ذلك باجازة عامة جاء فيها : « .. وقد اجزته أن يروى عنى جميع ما يجوز لى روايته ودرايته من العلوم الشرعية والآلية .. » (14)

كان الماغوسى درس على الشيخ الطبلاوى عام 1566/974 وما بعده ، **المغنى** لابن هشام ، **وعقائد** النسفى ، **وايضاح** القزوينى ، **والشفا** لعياض . . ولم يجزه ، فلما وصله تأليف الماغوسى قرظه واجازه معا (15)

4 ــ **اجازة ابى القاسم الفجيجى** فى 28 ذى القعدة عام 10/1008 يونيه 1600 بفجيج لاحمد ابن ابى محلى جميع ما قراه أو رواه عن شيوخه المغاربة والمشارقة . وتمتاز هذه الاجازة بشدة تثبت المجيز ، وتدقيقه فى وصف المقروء ، والطريقة المتبعة فى الدراسة ، والوقت الذى تمت فيه ، فقال عن **صحيح البخارى** بأن المجاز قراه عليه « من اول مفتتحه فى بدء الوحى الى اختتامه فى باب وضع الموازين المنتهى بحديث كلمتان ، قراءة تحقيق ، وأبحاث وتدقيق ، فى الاسامى والمتون ، واستنباط احكام الترجيح التى ترتقب بالعيون ، وتقتبس منها الفنون ، من اصل وفرع من مفهوم ومنطوق ومظنون ، مع ملاحظة ما عز عن العقول بتصفح **شرح** الشهاب ابن حجر ، **وتنقيح** (16) **و توشيح** (17) **ومشارق الانوار** (18) ، وغير هؤلاء من الموضوعات لحل مقفل أو مشكل معضل، صباحا ومساء وبين العشائين .. » (19)

---

12) المصدر الاخير ، ص. 43 .

13) المجيز هو محمد ابن الشيخ المؤلف الشهير ناصر الدين محمد بن سالم الطبلاوى ( ت. 1559/966 ) وليس هو الاب كما يفهم من سياق أحمد المقرى فى **روضة الآس** وليس هو ايضا منصور سبط ناصر الدين الطبلاوى ( ت. 1505/1014 ) صاحب **المنظومة** المشهورة فى الاستعارة . ولم اقف على تاريخ وفاة المجيز .

14) أ. المقرى ، **روضة** ، ص. 239 .

15) انظر نص الاجازة فى المصدر السابق ، ص. 237 ــ 239 .

16) المراد بالتنقيح شرح **صحيح البخارى** لبدر الدين الزركشى ( ت. 1391/794 ) .

17) الاشارة الى **التوشيح على الجامع الصحيح** ، لجلال الدين السيوطى ( ت. 1505/911 )

18) **مشارق الانوار** لشهاب الدين القسطلانى ( ت. 1517/923 ) .

19) أ. بن ابى محلى ، **الاصليت** ، ورقة 76 .
انظر نص الاجازة كاملا فى هذا الكتاب ، ورقة 75 ــ 77 ظ .

# اجــــازات جـــمـــاعيـــــة

٭

من الاجازات الجماعية ما ينطق بها الاستاذ عند ختم كتاب ، فيجيـــز جميع من حضر من الطلبة . وهذه الاجازات لا تكتب غالبا ، وانما ينـــص عليها من تعنيه فى فهرس او غيره . ومنها ما يعين فيها المجيز المجازيـــن ويسميهم باسمائهم . وقد تحصل الاجازة الجماعية بعد سماع فهرس الشيخ منه مباشرة ، ويكون المجازون حينئذ من اخص طلبته او من العلمـــاء الراغبين فى الانتساب اليه سندا ورواية .

من نماذج الاجـــازات الجماعيـــة :

ا ــ **اجـــازة الامـــام ابن غـــازى** ، فى اوائل القرن العاشر بمدينة فاس لولديه أحمد ومحمد ، وعبد الواحد الونشريسى ، وعلى ابن هرون المطغرى ، والاخوة الفقهاء محمد وعبد الرحمن وابى القاسم واحمـــد الدكاليين المشترائيين ، ومحمد بن عبد الواحد الغزال ، اجازهم جميع ما اشتمل عليه فهرسه المسمى **بالتعلل برسوم الاسناد** .

كتب هذه الاجازة على وجه الورقة الاولى من الفهرس المذكـــور وعليها عبارة التصحيح وتوقيع ابن غازى (20) .

ب ــ **اجازة المفتى عبد الواحد الحسنى السجلماسى** فى أواخـــر شوال عام 998/غشت 1590 بمدينة مراكش لاحمد ابن القاضى ، ومحمـــد التواتى ، ومحمد بن يعقوب الايسى .. جميع ما اشتمل عليه فهرسه .

كتبت الاجازة على ظهر الورقة الاخيرة من **فهرس السجلماسى ، بخط** احمد ابن القاضى ، وعليها عبارة سماع المجازين لها مـــن المؤلـــف ، وتصحيح هذا وتوقيعه (21) .

ج ــ اجازة عبد الرحمن التمنارتى فى 28 رمضان عـــام 12/1036 يونيه 1627 بمدينة المحمدية لجميع الطلبة الذين حضروا درسه الحديثى بالجامع الكبير ذلك اليوم ، ومن بينهم ولداه محمد وأحمد .

ادمج عبد الرحمن التمنارتى هذه الاجازة فى صلب فهرسه **الفـــوائـــد الجمـــة** ، مبتدئـــا بها الباب الثانى المتعلق بالاسانيد (22) .

٭٭

---

(20) توجد الاجازة الاصلية بخط الامام ابن غازى فى م. م. بالرباط ، تحت عـــدد 3444 ز . انظر صورتها منه ع. ابن زيدان ، **اتحـــاف** ، 4 : 11 .

(21) يوجد الاصل فى مخطوط خاص بالرباط .

(22) ع. التمنارتـــى ، **الفـــوائـــد** ، ص . 96 ــ 97 .

# اجــازات بالـمـراسـلة

لم يتمكن بعض العلماء من شد الرحلة الى بلد بعيد للاخذ عن عالم اشتهر بالسماع الرواية فى الحديث او غيره ، فالتمسوا منه الاجازة عن طريق المراسلة او مع اهداء بعض مؤلفاتهم اليه او بتقديم من طــرف مستجيز حاضر لديه . ورغم تثبت المجيز فى مثل هذه الحال ، ومحاولته التأكد من كفاية المجاز واهليته ، تبقى الاجازة بالمراسلة فى آخر القائمة لتذكر على وجه التبرك او التشريف .. فى الفهارس والاسانيد . منها :

ا ــ **اجازة عبد الرحمن بن عبد القادر الهاشمى** فى 18 شعبــان 28/988 شتنبر 1580 بمكة المكرمة لعبد الواحد الحسنى السجلماسى وبنته الفقيهة صفية . استجازه لهما عالم من توات حج تلك السنة ، بعد أن قرا على الشيخ الهاشمى بالحرم المكى ، وشهد لديه بمقدرة السجلماســـى وابنتــــه (23) .

ب ــ **اجازة احمد بابا السودانــــــى** حوالى عام 1626/1035 بتمبكتو لعبد الرحمن التمنارتى اجازة عامة . أملى أحمد بابا هذه الاجازة المختصرة على ولده محمد ، لانه بلغ حينئذ من الكبر عتيا ، بعد أن تلقــى طلبا من التمنارتى بذلك . وكان يسمع وهو بالمغرب عن نشاط التمنارتى واجتهاده فى الافتاء قبل أن يلى القضاء (24) .

---

23) اثبت ع. السجلماسى نص هذه الاجازة فى ذيل فهرسه ، ص. 93 ــ 94 .
24) انظر الاجازة عند ع. التمنارتى ، الفوائد ، ص. 45 .

# اجــــازات مـــنــظـــومـــة

من شدة عناية علماء العصر السعدى بالاجازة انهم تفننوا فى تحريرها نثرا ونظما . كتب بعضهم اجازات مختصرة لا تجاوز البيتين ، ونظم بعضهم اخرى تبلغ العشرة من الابيات او تزيد .

من نماذج الاجازات المنظومـــة :

ا ـ اجازة احمد الدقون الاندلسى قبيل وفاته عـــام 1515/921 بمدينة فاس لمحمد شقرون ابن ابى جمعة المغراوى اجازة عامة ، وهى حتى اليوم على طرف كل لسان ، لوجازتها واستيفائها كل عناصر الاجازة :

اجـــاز لك الدقـــون يا نجل سيـــدى ابى جمعة والآل كـــل الـــذى روى
فحدث بما استدعيت فيه اجـــازة وسلم على من خالف النفس والهوى(25)

ب ـ **اجازة بـــدر الديـــن القرافـــى** قاضى قضاة المالكية بمصر قبل عام 1600/1008 بالقاهرة لمحمد بن قاسم القصار . وهى من الاجازات بالمراسلة ، جاء فى مطلعها :

لقـــد ابديـــت حقـــا لا مجـــــازا بمـــا صـــار الفقيـــه بـــه مجـــازا
محمـــد بـــن قاســـم مـــن بفاس وبالقصار قد عرف امتيـــازا (26)

ج ـ **اجازة احمد المقرى** عام 1617/1026 بمدينة فاس لمحمد بن يوسف التملى جميع ما له من أسانيد فى القرآت وسائر العلوم ، بالاضافة الى مؤلفاته مطلعها:

« ايا ماجـــدا اعيت محاسنه الوصفـــا
وانسان عين الود والاخلص الاصفـــى

ومشكـــــاة انـــوار القـــــراءة والادا
وصاحب اذيال الكمال على الاكفــــا

.. وها انا ذا اشهـــدت انـــى اجزتكـــم
على السنن المألوف والمقصـــد الاوفى

جميع تاليفـــى ونظمـــى وان هـــــوى
ونثرى وان حاز الركاكة والضعفا»(27)

---

(25) أ. ابن القاضى ، درة ، 1 : 93 .
(26) انظر بقية الاجازة عند أ. المقرى ، روضـــة ، ص 316 ـ 317 .
(27) انظر الاجازة كاملة عند أ. المقرى ، فتـــح ، ص 238 ـ 239 .

# التدبيج

*

التدبيج كذلك من مصطلحات المحدثين . وهو ان يروى قرين عن قرين كان يروى صحابى عن صحابى ، او تابعى عن تابعى ، او اى راو عن آخر يساويه سنا وسندا . وتوسع المتاخرون فجعلوا كل رواية بين الاقران فى اى علم كان تدبيجا . ويمثل التدبيج فى العصر السعدى نوعا من « النهم » العلمى، اذ كان العالم لا يستنكف عن الاخذ عن قرين له فنا او فنونا تنقصه ، يحضر مجالسه العامة او يعقد معه مجالس خاصة ، الى ان يتمكن وينال الاجازة ، وكثيرا ما كان المجيز بدوره يستفيد من قرينه المجاز ، وينال هو ايضا منه اجازة فى مادة اختصاصه .

وقد ضرب احمد ابن القاضى رقما قياسيا ــ كما يقال اليوم ــ فى التدبيج مع معاصريه ، زيادة على الاجازات الكثيرة التى حصل عليها من المغرب والمشرق .

من ذلك :

ا ــ **تدبيجه مع محمد بن ابى بكر التواتى** ، ( 24 شوال عام 998 / 26 غشت 1590 ) اجاز التواتى لابن القاضى **صحيح البخارى** بعد أن قرا عليه بعضه ، بسنده المتصل بالحافظ ابن حجر فالبخارى . وحضر التواتى دروس ابن القاضى فى الحساب والفرائض ونال منه اجازة فى ذلك . (28)

ب ــ **تدبيجه مع عبد الواحد الحسنى السجلماسى** ( 28 شوال 30/998 غشت 1590 ) قرا ابن القاضى بلفظه **فهرس** السجلماسى عليه، فاجازه اياه وكل ما يجوز له وعنه روايته . وقرا السجلماسى على ابن القاضى فاتحة الكتاب بما له فيها من سند واجازة مشرقية خاصة ، فاجازها له مع جميع ما يجوز له وعنه روايته (29) .

ج ــ **تدبيجه مع الامير زيدان** بن احمد المنصور ( أواخر عام 1010/ 1602 ) . اجاز ابن القاضى للامير زيدان جميع ما يحتوى عليه فهرسه **رائد الفلاح** ، وادمج الاجازة فى صلب الفهرس على نحو ما فعل المنجور مع احمد المنصور .

وروى ابن القاضى عن زيدان اشعاره واخباره وقال : « واجاز لى كل ما له من نظم ونثر ، ووضع لى خطه الكريم بذلك » (30) .

*

هذه الاجازات باختلاف انواعها ومصادرها ، ان دلت على شىء فانما تدل على حرص رجال العلم فى المغرب السعدى على الاستفادة والاستزادة عملا بالقول الماثور : « الحكمة ضالة المؤمن انى وجدها اخذها » .

---

28) ع. السجلماسى ، **ذيل الفهرس** ، ص. 96 .
29) المصدر السابق ، ص. 94 ــ 95
30) ا. ابن القاضى ، **رائد الفلاح** ، مخطوط غير مرقم .

# الفصل الخامس

## تقاليد جامعية

❁

للحياة التعليمية طقوسها الخاصة فى كل زمان ومكان ، لاسيما فى المراحل العليا . تتوارث الاجيال فى الامم ذات التاريخ العريق تلك الطقوس وتضفى عليها طابع القداسة لتصير تقاليد مرعية لا تقبل المخالفة .

لذلك الفينا كثيرا من العادات التعليمية على عهد السعديين استمرارا لعادات القرون الخالية ، اصطبغت بالصبغة الآنية الخاضعة لظروف استمرار احتلال الثغور ، وذيول انتصار وادى المخازن وامتلاك السودان .

بعض هذه التقاليد التى سنتعرض لها كانت عامة فى مراكز التعليم الحضرية والقروية ، كأيام العمل والعطل ، وبعضها الآخر خاص بالحواضر العلمية التقليدية كفاس ومراكش .

### ا ـ الدراسة والعطل

جرت العادة فى العصر السعدى ان تبتدىء الدراسة مع تباشير فصل الشتاء الذى يحل فى أوائل نونبر بحسب التقويم الشمسى اليوليانى (1) .

يتفق الشيوخ والطلبة على تحديد موعد افتتاح الدراسة فى المراكز التعليمية الصغرى ، بينما يوكل تعيين يوم الافتتاح فى المراكز الكبرى الى شيخ الجماعة الذى هو فى الواقع قيدوم الاساتذة وعميدهم، بعد أن يستشير قاضى المدينة الذى يكون فى الغالب من بين رجال التدريس .

---

1) الاصلاحات الكريكوريانية للتقويم الشمسى التى حدثت فى النصف الثانى من القرن السادس عشر لم تدخل الى المغرب ، وظلت فيه جميع التقويمات الفلكية والفلاحية وغيرها مبنية على النظام القديم .

ويحدثنا احد طلبة القرويين من افتتاح السنة الجامعية 1002/1593 — 1594 بقوله : « كان — القاضي عبد الواحد الحميدي — ذات يوم يقرا حيث ذكر (2) .. فاذا بقاسم القدومي يسلم عليه في طرف الحلقة ، فرد عليه، فقال له : يا سيدي ان الشيخ سيدي يحيى (3) يسلم عليك وقال لك . اى يوم تبتدىء فيه القراءة لشتوة ذلك العام ؟ فقال له الشيخ : قل له هو الشيخ ففي اى يوم اراد فعلى بركة الله . فقال له : قد قال يوم كذا . فقال له : على بركة الله ، فانصرف عنه .. » (4)

نستنتج من النص السابق ، ومن نصوص اخرى معاصرة ، ان الدروس لم تكن تتعطل تماما فى فصلى الصيف والخريف ، وان بعض العلماء يظلون على تدريسهم مع من يحضر من الطلبة . نعم كانت الدراسة تنشط وتقوى اكثر خلال الفصل الدراسى الذى يستمر طوال فصلى الشتاء والربيع اى من نونبر الى مايو بالتقريب . ففى هذه الفترة ينتظم حضور الطلبة ويلقى الشيوخ دروسهم الوقفية ( الرسمية ) التى يؤجرون عليها من مال الوقف . يعملون خمسة أيام فى الاسبوع ، ويعطلون يومى الخميس والجمعة . وكان بعض المتطوعين من المدرسين يعقدون مجالس اضافية يومى الخميس والجمعة .

لم تكن الدروس خاضعة لحساب الساعات الزمنية ، وانما توقت بأوقات الصلاة ، لوقوعها فى المساجد وقاعات المدارس التى تؤدى فيها الصلوات الخمس المفروضة . تبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح بقليل ، وتنتهى بصلاة العشاء ، اى من قبل طلوع الشمس بنحو ساعة الى ما بعد الغروب بنحو ساعة ايضا (5) .

وتفتح المكتبات العامة ابوابها بين صلاتى الظهر والعصر ليتمكن الطلبة من قراءة الكتب التى يرغبون فيها بين يدى القيم . ولم يكن يسمح باعارة الكتب الا للعلماء .

أما العطل الموسمية ، فتكون أسبوعا عند حلول الاعياد الاسلامية الثلاثة . الفطر والاضحى والمولد ، وأياما قبل حلول رمضان ( شعبانة ) وفى موسم الربيع ، ويوم عاشوراء .

---

2) نعرف ان الحميدى كان يقرىء مختصر خليل بقبة المدرسة المصباحية بعد صلاة الظهر الى نداء العصر . وكان يفعل ذلك على الدوام بغير تخصص بفصل من الفصول حتى يمل الطلبة ولا يمل هو .

3) يقصد يحيى السراج مفتى فاس وشيخ الجماعة بها .

4) ا. الكلالى ، تنبيه ، ص. 20 .

5) وقع عند الحسن الوزان ان الدراسة فى القرويين تنتهى بعد طلوع الشمس بساعة . لكن يجب التنبه الى انه يقصد الدروس التى يحضرها عامة الناس من تجار وغيرهم . انظر وصف افريقيا ، 1 : 185 .

**ب ــ الدراســة فــى السفــر**

قراءة العلماء أثناء السفر عادة اسلامية قديمة ، فقد كان بعضهـم يصطحب معه أحمال الكتب ، وبعضهم يكتفى بالاعلاق منها . لكن الظاهـرة الجديدة فى المغرب السعدى أن نخبة من الطلبة اخذوا يخرجون فى ركاب اساتذتهم ليتابعوا الدراسة عليهم فى الظعن والاقامة .

ويمكن ارجاع اسباب انتشار هذه الظاهرة الى ثلاثة :

1 ــ استمرار احتلال بعض الثغور والتهديد المسيحى بالنـزول فى اخرى أو التوسع من المناطق المحتلة الى الداخل . الامر الذى دفع ببعض العلماء الى الخروج ــ فى جملة المتطوعين ــ الى الربط او مواطن القتال فى الحركات الجهادية .

2 ــ حرص السعديين على أن يشهد حفلاتهم العظيمة بمراكش اكبـر عدد من علماء الحضر والبادية ، وبخاصة ايام المولد النبوى ، جعل المدعوين منهم يتغيبون عن مراكزهم التعليمية الشهر والشهرين او اكثر .

3 ــ انتظام قوافل الحج على طريقى الساحل والصحراء شجع العلماء على شد الرحال الى المشرق ، فكانت هذه الرحلات وما قد يتخللها من زيارة حواضر الاسلام والاتصال بالعلماء واقتناء الكتب تستغرق أحيانا السنــة والسنتـــين .

ومهما يكن من سبب فان هذه الظاهرة بدورها دالة على مدى الاقبـال على التعليم فى ذلك العصر . واذا كان لابد من سرد بعض النماذج فاننـا نقتصر على ما يلـى :

أ ــ تدريس الامام ابن غازى لمن صحبه من الطلبة فى أسفاره المتعددة الى بلاد فزاوة ، وورغة ، والهبط ، وسلا طوال العقدين الاولين من القرن العاشر / ( 16 م ) ، قرؤوا عليه أثناء ذلك فى جملة ما قرؤوا **تلخيص المفتاح** فى علوم البلاغة بشرح سعد الدين التفتازانى ، و **معين الحكـام** لابن عبـد الرفيع التونسى ، **وتاريخ ابن خلدون** (6) .

---

6) انظر أ. المنجور ، **فهرس** ، ص 22 .

ب — تدريس على ابن هرون المطغرى لثلة من الطلبة صحبوه فى سفره الى تطوان ، عام 1541/948 ، فقرؤوا عليه **الخزرجية** فى العروض (7).

ج — تدريس احمد المنجور لمن كان يصحبه من الطلاب فى رحلاتـــه المتعددة الى مراكش ، وهى تمتد من عام 1579/987 الى عام 1585/993 جملة من كتب الحديث والبلاغة والعروض والادب (8) .

د — تدريس الشيخ محمد ابن ناصر الدرعى لأخيه الحسين فى رحلتهما الحجازية عام 1660/1070 حيث ختم عليه **مختصر خليل** فى المراحل التى تطوها فى الرجوع بين مصر وطرابلس وبسكرة (9) .

ونشير فى الأخير الى حركات احمد المنصور فى جنوب البلاد وشمالها، ومن كان يصحبه فيها من العلماء والكتاب والشعراء ، حيث كانت تقـــع مناظرات علمية ، ومساجلات ادبية كثيرة (10) .

⁂

## ج — محفـــل الختـــم

عندما تنتهى دراسة كتاب من الكتب المهمة فى التفسير أو الحديث أو الفقه أو غيرها ، يلقى الشيخ الدرس الأخير فى حفل مشهود ، يحضره علماء المدينة أو القرية ، والقاضى والعدول وجمهور الناس ،وحتى ممثل السلطان ان كان .

يتكون درس الختم غالبا من ثلاثة عناصر :

1 — ترجمة وافية لمؤلف الكتاب الذى يحتفل بختمه ، تشمل بخاصـــة دراسته ومؤلفاته واسانيده المتصلة بالرسول عليه السلام أو بامام المذهب أو بغيرهما .

2 — استعراض ما للشيخ من روايات واجازات فى الموضوع وقـــراءة اسانيده المختلفة — من حفظه — المتسلسلة الى مؤلف الكتاب .

---

7) المصدر السابق ، ص. 23. ونشير الى ان ابن هرون ذهب الى تطوان فى نطاق الحركة الجهادية التى قام بها حاكم فاس احمد الوطاسى ضد المحتلين بسبتة ، وتم خلالها زواج الامير الوطاسى بالسيدة الحرة بنت الامير ابن راشد حاكمة تطوان . انظر أ. الناصرى ، **الاستقصا** ، 4 : 154 ، م. داود ، **تاريخ تطوان** ، 1 :117 — 123 .

8) أ. المنجور ، **فهرس** ، ص: 4 و 10 ومواضع متعددة أخرى ، ع .السجلماسى ، **فهرس** ص. 90 .

9) ح. ابن ناصر ، **فهرس** ، ص. 1 .

10) انظر مثلا . ع. الفشتالى ، **مناهل** ، ص. 191 ، 1: المقرى ، **روضة** ، ص : 176

3 — تحليل مفصل للموضوع ، وكثيرا ما يركز على نص صغير كسورة الناس ، وحديث « كلمتان حبيبتان الى الرحمن » ، يستفرغ الشيخ جهده فى الشرح والتأويل ، والتخريج والتعليل .

اشتهرت حفلات ختم **صحيح البخاري** فى رمضان للامام ابن غازى فى فاس أوائل العصر السعدى ، ولقاضى الجماعة بمراكش ابى القاســم الشاطبى على عهد احمد المنصور . كما اشتهرت فى هذا العهد ايضا حفلات ختم **تفسير فخر الدين الرازى** ، للشيخ احمد بن على الزمورى صاحـــب كرسى التفسير بجامع الاندلس بفاس .

واكتسى حفل ختم **صحيح البخارى** بزاوية الدلاء طابع الموسم ، تشد اليه الرحال من كل مكان ويطعم فيه الطعام على طريقة الدلاء الحاتمية . يلقى الشيخ محمد بن ابى بكر الدلائى درس الختم فى نصف يوم كامل يشهده علماء من فاس ومراكش وغيرهما ، ويتلوه انشاد القصائد (11) فى مدح البخارى وكتابه ، والاشادة بشيخ الدلاء وسعة علمه . ولم يكن الشيخ محمد ابن ناصر الدرعى يتخلف فى رمضان عن قراءة صحيح البخارى وختمه بزاوية تمكروت فى نهاية العهد السعدى (12).

---

(11) انظر احدى هذه القصائد فى كتابنا **الزاوية الدلائية** ، ملحق رقم 3 — ص. 273 .

(12) انظر عن حفلات الختم أ. المنجور ، **فهرس** ، فى مواضع متعددة ، أ. ابن القاضــى ، **درة** ، 3 : 284 ، أ. الكلالى ، **تنبيه** ، ص. 17 ، م عبد الســلام الناصــرى ، **المزايــا** ، ص. 19 — 20 . ع. الكتانى ، **فهرس الفهارس** 2 : 25

# الفصل السادس

## ظـروف عيـش الاسـاتــذة

انتحل المدرسون ايام السعديين مختلف اسباب المعاش التى لا تعوقهم عن القيام بمهمتهم التعليمية ، وسلكوا فى تحصيل الرزق سبلا متنوعة بتنوع البيئات الحضرية او القروية التى كانوا يعيشون فيها . منها :

### أ ـ القضاء والفتيــا .

كان القضاء أيام السعديين خاصا بالمدن وبعض القرى المهمة التى تتوسط قبائل كبيرة ، يتولاه اكابر الفقهاء بظهير من الملك نفسه ، ويمتد نفوذ قاضى المدينة الى ضواحيها القريبة وأحيانا الى الاقليم كله ، ويسمى كل من قاضى فاس ومراكش والمحمدية قاضى الجماعة .

والى جانب القاضى يعين فى المدن الكبرى ، بظهير كذلك ، مفت يرجع اليه الخصوم ـ مسبقا ـ لمعرفة الاحكام الشرعية المتعلقة بقضاياهم أو يعرضون عليه أحكام القضاة التى لا ترضيهم ليصححها أو يفتى ببطلانها. فكان المفتى لذلك بمثابة الخبير القانونى ، والمراقب للأحكام أو قاضى الاستئناف ، ولو لم يكن من حقه اصدار أحكام الزامية (1) ومن ثم كانت درجة المفتى أعلى من درجة القاضى ماديا ومعنويا ، فكان القاضى عندما تحمد سيرته ، بعد طول الممارسة والتجربة ، يرقى الى مرتبة مفت ، مثلما حدث لعبد الواحد الونشريسى الذى مكث فى قضاء الجماعة بفاس ثمانى عشرة سنة قبل ان يلى خطة الفتوى على اثر وفاة شيخه على ابن هـرون

(1) عندما يختلف راى القاضى والمفتى فى نازلة ويتشبث كل منهما برأيه ، يرفع الامر الى السلطان . ومن امثلة ذلك افتاء يحيى السراج باعتبار شهادة الاب والابن كشهادة واحد اعتمادا على ما فى **مختصر** خليل ، وحكم القاضى عبد الواحد الحميدى باعتبارهما شاهدين تبعا لما فى **تحفة** ابن عاصم ، فرفعت المسالة الى احمد المنصور واثبت راى القاضى لانه جار على ما به العمل.
انظر ت. ابن سودة ، **شرح التحفة** ، 1 : 97 .

عام 1545/951 . على ان هناك من شيوخ الجماعة من ولى الفتوى مباشرة دون سابق ولاية للقضاء ، كعلى السكتانى وعبد الواحد السجلماسى فى مراكش ، ويحيى السراج ومحمد القصار فى فاس . كما أن هناك من ولى القضاء والفتوى معا كعبد الرحمن التمنارتى فى مدينة المحمدية ( ترودانت ) .

ونشير هنا الى أن بعض أهل الورع من مشايخ العلم فى هذا العصر كانوا يستنكفون عن تولى مناصب القضاء والفتيا ، فرارا من الاتصال بالمخزن ورجاله ، كشيخ الجماعة بفاس محمد ابن غازى الذى انتحل مختلف الاعذار للتملص من خطة الفتيا (2) ، وعالم درعة محمد ابن مهدى الذى اعرض بشمم عن خطة القضاء ، « مع ما هو عليه من الضرورة الفادحة ، والخصاصة الواضحة » (3) ، وأحمد بن على الشفشاونى الذى تعين عليه قضاء بلده فوليه مكرها ، وما زال يتنصل منه الى أن تمكن من ذلك ، وكتب فصلا عن هذه المحنة قال فيه انه ليس فى سلفه من انتمى للمخزن (4) . وقد انتقد أحمد المنجور انتقادا مرا خطة القضاء فى عصره ، وقال انها أفلست فى آخر أيام الوطاسيين عندما أسندت الى من لا تتوفر فيه الكفاية العلمية ولا النزاهة الاخلاقية ، ثم ظهر داء القضاء من جديد أيام عبد الله الغالب ومن أتى بعده من الشرفاء (5) .

ويظهر أن الخصومات أيام السعديين لم تكن كثيرة ، حتى فى المدن التجارية الكبرى كفاس ومراكش والمحمدية ، حيث نجد القضاة والمفتين من أنشط عناصر التدريس ، ولم يكن الخصوم يحجمون عن غشيان حلقات تدريس هؤلاء ليعرضوا عليهم قضاياهم المستعجلة ، ويتلقوا منهم الاحكام او الفتاوى على مرأى ومسمع من الطلبة الذين لا تقل استفادتهم من هذه النوازل التطبيقية الحية عما يستفيدونه من الدروس النظرية (6) .

واذا كانت أجور القضاة والمفتين لهذا العهد غير معروفة لدينا ، فان هناك ظواهر كثيرة تدل على مدى رخاء عيشهم وسعة رزقهم ، حتى أنهم كانوا يبنون الدور الفخمة ويمتلكون الاجنة والحقول ، ويستطيعون تقديم الهبات السنية العديدة للطلبة والفقراء (7) . وقد اشتهر غنى قاضى فاس عبد الواحد الحميدى بعد أن كان مملقا ، فكانت « بنته تلبس خلاخل ذهب لا تحملها الا بسلسلة فى حزامها ، ولها اماء يتبعنها يحملن ما تخرج من حللها » (8) .

---

2) أ. المنجور ، فهرس ، ص. 38
3) ع. السجلماسى ، فهرس ، ص 85 .
4) وقف على هذا الفصل بخط مؤلفه م. العربى الفاسى ، مرآة ، ص. 170 .
5) أ. المنجور ، فهرس ص. 28، ونشير الى انه كانت خصومة حادة بين أ. المنجور وقاضى فاس عبد الواحد الحميدى لها علاقة بمشكل البلديين الذى سنتحدث عنه فى فصل آت .
6) انظر مثلا أ. الكلالى ، تنبيه ، ص. 20
7) انظر مثلا ، أ . المنجور ، فهرس ، ص. 27 ، و أ . الكلالى ، تنبيه ، ص : 20، م. القادرى ، نشر ، 1 : 30 .
8) م. اليفرنى ، صفوة ، ص. 97 .

### ب ــ الانتصاب للشهادة :

تولية هذا المنصب ايام السعديين كان بيد القضاة ، يرخصون لمن عرفوا فيه الكفاية والعدالة بتلقى الشهادات ، دون ان يرجعوا فى ذلك الى السلطان او نائبه ، عملا بما عرف فى المذهب المالكى من أن القاضى يستند الى علمه هو فى تعديل الشهود وتجريحهم (9) .

كان العدول المنتصبون للشهادة يجلسون فى دكاكين خاصة ، تقع غالبا بالقرب من المسجد الاعظم . وقد تكثر هذه الدكاكين المتلاصقة فتسمى سماطا . ويكون سماط عدول فاس مالا يقل من حيث عدد الدكاكين عنه فى الاسواق المتخصصة الاخرى فى المدينة . ووقوعهذا السماط بجوار القرويين يسهل على العلماء الانتقال منه الى مجالس تدريسهم بالقرويين أو بالمدارس القريبة منها ، بل كثيرا ما كان نجباء الطلبة يقفون فى أوقات الفراغ بأبواب دكاكين اساتذتهم فى السماط ، يستوضحون بعض المشكلات ، أو يتذاكرون ويتناقشون فيما لا يتاتى فعله فى حلقات التدريس العامة (10) .

اما اجور هؤلاء العدول فانهم كانوا يتقاضونها من الزبناء بحسب اهمية ما يحررون لهم من وثائق البيوع والانكحة والمواريث وغيرها . ولو ان هذه الاجور مبنية على المكارمة لا ضابط لها ، فانها كانت على العموم تضمن للعدول كفاف العيش ، وتمكنهم أحيانا من شراء عقارات أو القيام برحلة الى المشرق وما الى ذلك .

### ج ــ تولى الامامة والخطابة

الامامة والخطابة من الوظائف ذات الاهمية البالغة ايام السعديين ، لعناية هؤلاء بتشييد المساجد وتجديدها ، ووقف الرباع المغلة الكثيرة عليها. ومن المؤكد أن أجور الائمة والخطباء لم تكن متساوية ، لاختلاف الاوقاف الخاصة بكل مسجد . ففى فاس مثلا كان امام القرويين وخطيبها يتقاضى أكثر مما يتقاضاه أمام جامع الاندلس وخطيبها ، وأجر هذا أرفع من أجر امام جامع الاشراف وخطيبها ، بينما يتقاضى أكثر من هؤلاء جميعا خطيب جامع فاس الجديد حيث يصلى نائب السلطان وولى عهده . وفى مراكش اكتست أوقاف المساجد (11) التى شيدها السعديون أهمية قصوى ، كجامع

---

9) انظرت . ابن سودة ، **شرح التحفة** ، 1 : 40
10) انظر أ. المنجور ، **فهرس** ، ص. 38 .
11) هناك اشارات متعددة للمؤرخين المعاصرين للسعديين تدل على اهمية الاوقاف التى انشاها الملوك والامراء السعديون منذ بداية دولتهم ، واحتفظ لنا أ. ابن القاضى بنص الوثيقة الحبسية التى أوقفت بها عودة الوزكيتية والدة احمد المنصور عقارات بالغة الاهمية على المسجد الذى شيدته بباب دكالة ، ومن بينها نصف القيسارية بوسط مراكش اى سبعون حانوتا الا نصف حانوت . والارحى الجديدة على وادى تسلطنت ، والعين الكبرى بالمخالص خارج باب تاغزوت مع جميع أرضها وجناتها ومائها ...
انظر أ. ابن القاضى **المنتقى** ، ص. 13 ــ 17 .

الشرفاء بالمواسين ، وجامع باب دكالة ، ومسجد أبى العباس السبتى فكانت ارزاق القائمين عليها وافرة ، خاصة جامع المنصور بالقصبة حيث يؤدى امير المومنين صلاة الجمعة .

ومن المزايا التى تكاد تكون عامة بين الائمة والخطباء ، حتى أئمة المساجد الصغيرة المنتشرة فى الاحياء وفى المدن الثانوية أنهم كانوا يتمتعون بالسكنى المجانية فى دور حبسية . ولخطباء المساجد الكبرى زيادة على ذلك بيت خاص فى المسجد يسمى ( مصرية الخطيب ) يتخذونه كمكتب للمطالعة واستقبال العموم أو لالقاء دروس على خواص الطلبة .

## د ـ الكراسى العلمية :

عرف المغرب الكراسى العلمية مع المرينيين ، لكن ازداد عددها وتضاعفت اهميتها مع السعديين ، ولم يعد تأسيسها وتخصيص الاوقاف لها قاصرا على رجال الدولة ، بل أصبح يشارك فى ذلك خاصة الناس وعامتهم .

من بين الكراسى المستحدثة فى فاس أيام الوطاسيين والسعديين : **كرسى البخارى** بشرح **فتح البارى** ، عن يسار الطالع من الباب الواقع بشرقى القرويين ، أنشاه وخصص له أوقافا عديدة الامير أحمد الوطاسى (ت. 1553/960 ) ، وكرسى **محصل المقاصد** فى التوحيد ، عن يمين الداخل للقرويين من باب الحفاة ، لعله من انشاء السلطان احمد المنصور ، **وكرسى الموطا وعمدة الاحكام** فى الحديث ، بأحد أركان القرويين ، **وكرسى** حديثى مماثل له عند باب مقصورة الخطيب بجامع الاندلس ، وهما من انشاء خطيب القرويين عبد العزيز الورياغلى . وكرسى **حرز الامانى** فى تجويد القرآن الكريم بمسجد الشرفاء ، من انشاء ووقف أبى القاسم الكوش الدرعى (12) .

واحدث فى مراكش **كرسى البخارى ، وكرسى مختصر خليل** بجامع الشرفاء بالمواسين ، ولعلهما من انشاء ووقف السلطان عبد الله الغالب . **وكرسى التفسير** بمسجد ابى العباس السبتى ، من انشاء ووقف الامير أبى فارس بن أحمد المنصور ، **وكراسى متعددة** لعلوم متنوعة بجامع باب دكالة من أوقاف عودة الوزكيتية والدة أحمد المنصور (13) .

---

12) بعد ان تخرج ابو القاسم الكوش عالما فى فاس ، رجع الى مسقط رأسه فى درعة بالصحراء ، حيث اشتغل بالتدريس وبعض الاعمال اليدوية التى كان يحسنها ، واقتصد من كسبه البسيط مبلغا ذا بال بعث به الى أحد اساتذته ليشترى عقارا يخصص ريعه لمن يقرىء كتاب **حرز الامانى** ، فاجابه الاستاذ : « قد بلغت البضاعة واشترينا بها عرصة تكرى فى كل سنة بعدد بيوت جدول الصفة المشبهة ، فعينت لمن قام بالكتاب المذكور » . يشير الى الجدول الذى وضعه الاشمونى فى **شرحه لالفية ابن مالك** فى 72 مربعا بعدد حالات الصفة المشبهة

( انظر م. الناصرى ، **الدور المرصعة** ، ص. 135 ) .

13) ا. المقرى ، **روضة** ، ص، 59 و63 .

واحدث في المحمدية ( ترودانت ) **كرسي البخاري ، وكرسي الرسالة ، وكرسي مختصر خليل** (14) بالجامع الكبير ، يظن انها من انشاء ووقف محمد المهدى الشيخ محيى هذه المدينة ومجدد معالمها العلمية الدينية .

وفي القصر الكبير **كرسي تفسير ابن عطية** بشرقي الجامع الكبير ، انشاه ابو المحاسن الفاسي في حدود عام 1592/1000 ، « وبنى طرازا هنالك وحبسه عليه » (15) . وكان في هذا الجامع **كراسي** اخرى قديمة لغير التفسير ..

هكذا يعين صاحب الوقف المادة او الكتاب الذى يدرس على الكرسي ، والمسجد او المدرسة التي يكون فيها ، واحيانا يعين حتى مكان الكرسي داخل المسجد او المدرسة ، والوقت الذى يلقى فيه الدرس ، فيحترم المدرسون رغبات المحبسين ويلتزمون بها التزاما تاما . وكثيرا ما تنوسى اسم الواقف ونسب الكرسي الى العالم الذى درس عليه لاول مرة او طالت مدة تدريسه عليه . وقد تسند الى العالم كراسي متعددة سواء عند انشائها مباشرة ، أو بعد موت أصحابها ، ولذلك نجد كراسي في فنون متنوعة منسوبة لكل من اعلام هذا العصر ، كابن غازى ، والونشريسى ، والمنجور وغيرهم .

لم تكن تسند هذه الكراسي الا للبارزين من العلماء بحسب تخصصهم ولا يتولاها أحد منهم الا بظهير من السلطان أو نائبه(16) ، باستثناء الكراسي التي أنشأها الافراد ، فانهم كانوا يعينون من يتولون التدريس عليها ، ويتخيرونهم كذلك من بين العلماء المقتدرين . واذا تولى عالم كرسيا فانه يظل له مدى الحياة ، الا ان يتنازل هو عنه لاحد من اقرانه أو تلاميذه ، لسبب سفر طويل أو مرض أو عجز عن التدريس أو اشفاق على عالم معسر ، كما فعل عبد الرحمن سقين في تنازله عن **كرسي الفقه** بالمدرسة العنانية بفاس عام 1518/924 لمحمد المدغرى بعد أن كان قد استنابه عند رحلته الطويلة الى بلاد السودان (17) . وكما فعل أحمد بن على الزمورى بتنازله عن **كرسي السير** الذى كان له خلف صومعة القرويين ، سنوات قبل وفاته عام 1593/1001 لتلميذه على بن عمران السلاسى (18). وكما فعل يحيى السراج عام 1587/995 بتنازله عن كرسي التفسير الذى كان له يمين الداخل للقرويين من باب عقبة السبيطريين ، لفائدة تلميذه أبى القاسم بن أبى النعيم (19) .

---

14) ع. التمنارتي ، **الفوائد** 14 و 30 و 47 .
15) م. العربي الفاسي ، **مرآة** ، ص. 13 .
16) أ. الكلالى ، **تنبيه** ، ص. 17 .
17) أ. المنجور ، **فهرس** ، ص. 33 .
18) أ. الجلالى ، **تنبيه** ، ص. 18 .
19) المصدر السابق ، ص. 21 .

هذه الكراسى العلمية ضمنت لاصحابها ، فضلا عن النباهة والجاه ، موردا معاشيا لا ينكر ، لاسيما اذا تعددت . وكانت المورد الوحيد لبعض علماء العصر كاحمد المنجور الذى لم يتول قط قضاء ولا فتيا ولا خطابة ، وظل يدرس على كراسيه حتى الشهور الاخيرة من حياته ، فكان يخرج اليها معتمدا على بعض الطلبة لعدم قدرته على المشى (20) ولم تكن ايرادات الكراسى موحدة ولا متقاربة ، بل كان بعضها يزيد ضعفا أو أضعافا . وكانت كراسى احمد المنجور ، نظرا لطول باعه ومكانته فى الدولة من ذوات المردود الجيد ، فتسابق العلماء بعد وفاته لاستبدال كراسيهم القديمة بها، متطارحين فى ذلك على احمد المنصور وولى عهده المأمون (21) .

## هـ ــ نساخة الكتب :

من الطبيعى أن تزدهر نساخة الكتب فى زمن كثر فيه الاقبال على العلم كالعصر السعدى ، وان يشتغل بها نساخون محترفون . لكن الذى يلفت النظر هنا أن من بين العلماء المدرسين فى هذا العصر من اشتغلوا بالنساخة وتعيشوا بها ، تورعا عن مال الاوقاف أو عزوفا عن المناصب الرسمية . ويلاحظ بخصوص هؤلاء النساخ العلماء انهم كانوا لا يقبلون الا على انتساخ امهات الكتب فى مادة تخصصهم ، فالمقرىء ينسخ **المصاحف** الشريفة ، والمحدث ينسخ **كتب الصحاح** ، والفقيه يكتب **مختصرات ابن الحاجب وخليل** والطبيب كتب الطب ، والنحوى **شروح الفة ابن مالك** وما اليها ، الامر الذى أعطى هذه المنتسخات قيمة خاصة ، وجعل الناس يتنافسون فى اقتنائها .

من هؤلاء العلماء النساخ الفقيه الحسن بن عثمان الجزولى الذى كان يحفظ **توضيح خليل** لكثرة ما اقراه وانتسخه ، وكان يتعيش من نسخه ونسخ **رسالة ابن أبى زيد** . وشيخ القراء بفاس محمد العدى الاندلسى الذى اشتهرت المصاحف التى كان ينسخها بخطه الرائق ، والاتقان الفائق ، متنا ورسما وضبطا ، فاقتناها السلاطين والامراء وسائر الناس ، وبذلوا فيها أغلى الاثمان . وشيخ المحدثين والصوفية بفاس أبو النعيم رضوان الجنوى الذى انقطع لتدريس الحديث ونسخ كتبه .

ومما تجدر ملاحظته أن كثيرا من المنتسخات العلمية فى العصر السعدى ما يزال محفوظا فى المكتبات العامة والخاصة بفاس والرباط ومراكش وغيرها ، وبخاصة المكتبة الملكية بالرباط .

---

(20) المصدر السابق ، ص. 15 .
(21) المصدر السابق ، ص. 17 .

**و ـ وسـائـل مختلفـة :**

الى جانب وسائل العيش السابقةالتى كان العلماء المدرسون يتخذونها نجد طائفة أخرى منهم ، خاصة فى الدورين الاول والثالث من العصر السعدى ، ينزلون الى الاسواق والحقول ليشتغلوا بما يشتغل به عوام النـاس .

من هؤلاء العلماء المحترفين فقيه واحة فجيج ابراهيم بن عبد الجبار الذى الف الصيد فى الصحارى بعد أن تخلص من منصب القضاء ، ونظم **روضة السلوان** فى فضائل الصيد وأحكامه الفقهية . وعالم قبيلة بنى زروال فى جبال الريف محمد بن على الشطيبى الذى قسم أيامه بين التدريس والتأليف ، والاشتغال بالفلاحة والصيد (22) وهو القائل فى مطلع قصيدة له فى الشكوى من الزمان وأهله :

فسد الزمان فأين المهرب ؟ ونشا الحرام فأى رزق يطلب ؟

وامام بلاد درعة أبو القاسم الكوش الذى عرفناه مؤسسا لاحد الكراسى العلمية بفاس ، كان لا ينتهى من الدروس فى قريته الصحراوية حتى يقوم لاشغاله اليدوية ، وكان يتقن حرفا كثيرة تعلمها فى فاس أيام اشتغاله بالطلب ، غير آسف الا على ما فاته من تعلم صناعة الحرير . ومن شدة تواضع هذا الامام وتمام رجولته أن كان يحمل مصنوعاته على عاتقه الى الاسواق ليبيعها ، ولا يترك أحدا من طلبته يساعده فى ذلك (23) .

وفى مدينة فاس نجد أثناء الدور الاول من هذا العصر ، الفقيه عبد الواحد الحميدى قبل أن يبتسم له الحظ مع السعديين ، يبيع الثياب البالية فى حانوت بالسوق المعدة لها (24) ، وفى أواخر هذا العصر نجد الشيخ محمد ميارة يعتمد فى معاشه على حلى من لباس النساء يكريه للناس فى الاعراس (25) ، دون أن يتولى أية خطة شرعية أو دنيوية ، على ما كان له من وثيق الصلة بالمجاهد العياشى أيام حكمه لبلاد الغرب ، ثم بالدلائيين عندما انبسط نفوذهم على هذه المنطقة .

---

(22) ع. التمنارتى ، الفوائد ، ص. 63 ، م. ابن عسكر ، دوحة ، 14 — 15

(23) م. الناصرى ، الدرر المرصعة ، ص. 135

(24) م. القادرى ، نشر ، 1 : 27 .

(25) م. الافرانى ، صفوة ، ص. 140 .

## الهبات الملكية

لم تكن هذه الهبات موقوتة ولا محدودة ، وانما كان العلماء ينالونها فى مناسبات مختلفة بحسب اقدارهم وما تجود به اريحية السلطان او ابنائه الذين ينوبون عنه فى الاقاليم . ويمكن القول بان اعطيات السعديين امتازت على العموم باهمية لم تكن معروفة من قبل . وقد تقدمت الاشارة الى قول الشيخ احمد المنجور الذى عاش فى فاس ايام الوطاسيين والسعديين ، وخبر هبات هؤلاء واولئك : « ما عهدنا بذل المئين فى الصلات الا فى ايام الشرفاء ، ولا عهدنا بذل الالوف الا فى ايام امير المومنين المنصور ايده الله » (26) .

اذا اقبل شهر رمضان هرع العلماء الى البلاط ، يؤمون بالسلطان فى اشفاع التراويح بالليل ، ويعقدون بحضرته المجالس الحديثية بالنهار ، ويتلقون من عطاياه واكرامه يوم عيد الفطر ما تقر به اعينهم ، وتلاحقهم الهدايا خلال السنة ايام عيد الاضحى ، وعاشوراء .

ولما آلت الخلافة الى احمد المنصور جعل من المولد النبوى اكبر احتفال رسمى للدولة والامة ، فكان بلاطه فى مراكش وبلاط ابنائه فى الاقاليم اسواق عكاظ معظم شهر ربيع الاول ، يقصدها العلماء والادباء من جميع الجهات ليشاركوا فى الحفلات الفخمة التى كانت تزدان بايقاد الشموع المزخرفة الضخمة (27) وعزف الاجواق الموسيقية ، وترنم المسمعين باشعار وموشحات كبار رجال الصوفية القدماء ، وانشاد القصائد المولديات بين يدى السلطان (28) او نائبه مما ينظمه الشعراء فى مدح الرسول الكريم ، والاشادة بمآثر آله الشرفاء السعديين ، حتى اذا انتهت ايام الاحتفال انهالت الصلات (29) على جميع المشاركين الحاضرين فى ظروف مختومة عليها توقيع السلطان ، وتشفع صلات العلماء بالخلع السنية مزيدا فى التقدير والتنويه (30) .

من نماذج صلات احمد المنصور للعلماء ، انه اعطى الفقيه احمد الزمورى ذات سنة ، وكان ممن يؤم به فى تراويح رمضان نحو خمسة آلاف اوقية ذهبية ، وجنانا ، وارضا للحراثة بمراكش (31) . واعطى الاديب محمد ابن عمر الشاوى ، وكان قد صاحب اخاه عبد الملك فى غربته عند اتراك

---

(26) ع. الفشتالى ، **مناهل** ، ص 155 .

(27) ما تزال اثارة من الاحتفال بالشموع فى المولد النبوى بمدينة سلا . انظر مقال م. ابن على الدكالى جريدة **المغرب** السلوية ، العدد 136 ، 11 ربيع الاول 1358/1 — 5 — 1939 ، ص 2 ، ع. الفشتالى ، **مناهل** ، ص. 222 .

(28) كان احمد المنصور رقيق الطبع تعجبه الالحان والاصوات الرخيمة ، لذلك كان الشعراء يستنيبون عنهم فى القاء القصائد المولدية بعض المسمعين فيقف الشاعر والمغنى بين يدى السلطان اثناء الالقاء .

(29) عدد احمد ابن القاضى فى **المنتقى** ، ص. 33 ، مبالغ صلات احمد المنصور للحاضرين فى حفلات عيد المولد النبوى بما يتراوح بين 300 و 5000 اوقية من الذهب .

(30) ع. الفشتالى ، **مناهل** ، ص. 243 .

(31) أ. ابن القاضى ، **المنتقى** ، ص. 59 .

الجزائر خراج قبيلة مسفيوة (32) كله باستثناء أعشار الزيت . فلما حان وقت قطاف الزيتون وقدرت اعشار زيته بخمسين قنطارا ، كتب الشاوى أبياتا الى المنصور يطلب منه أن يترك له زيت ذلك الموسم ، فتنازل لـه المنصور عنه مدى الحياة (33) .

رغم هذه الجوائز الخيالية التى تذكر بعطايا هرون الرشيد ، نجد بعض مظاهر التذمر فى أوساط رجال العلم وبخاصة أقربهم الى السلطان وأوثقهم به صلة . ولعل ذلك راجع الى مبالغة السعديين فى تقدير العلماء وتقريبهم اليهم ، حتى أنهم كانوا يجالسونهم ويواكلونهم دونما كلفة ، ويسامرونهـم فى مجالسهم الخاصة . الامر الذى جعل طائفة من العلماء يظنون أنهم — دون غيرهم — أهل المودة والخصوصية فى الدولة ، ويغارون على علمهـم وجاههم من أن يشاركهم غيرهم من السوقة فى الاعطيات السلطانية السنية.

روى المؤرخون ان قاضى الجماعة بفاس عبد الواحد الحميدى وفد على السلطان أحمد المنصور فى جملة علماء فاس بمناسبة العيد كالعادة ، وفى أثناء رجوعهم جمعتهم الطريق بالموسيقيين الفاسيين ، فأخرج احدهـم شبابة من الابريز مرصعة أعطاه المنصور اياها ، وبعضهم قال أعطانى كذا.. مما لم يعط مثله القاضى وغيره من العلماء ، فغضب الحميدى وقال : ان بلغ فاسا لاردن أولادى لصنعة الموسيقى لان صنعة العلم كاسدة (34) ، وبلغت هذه القولة الغضبى مسامع السلطان فتجاوز عنها ، كما تجاوز من قبل على غضبة الامام أحمد المنجور حين غادر مدينة مراكش قبل أن يأذن له بالانصراف (35) نظرا لما كان لهما عليه من دالة المشيخة .

*
* *

وبالجملة ، فان أبواب الرزق والخير كانت واسعة متعددة أمام العلماء فى عهد السعديين ، أيا منها دخلوا أصابوا ما كفاهم مؤنة العيش ، ودفع بهم الى الاقبال على الدرس والافادة .

---

(32) قبيلة كبرى بجنوب المغرب شرق مراكش تشتمل اليوم على أربع عشرة عشيرة وقرى مديدة اشهرها قرية آيت ورير التى هى مركز القيادة . انظر ع. ابن زيدان ، **العز والصولة** 1 : 153 ، هامش 3 .
(33) م. الافرانى ، **نزهة** ، ص 113 .
(34) المصدر الهابق ، ص. 143
(35) ا. ابن القاضى ، **المنتقى** ، ص. 48 .

# الفصل السابع

## ظـروف عيـش الطلبـــة

⁂

تكاثر عدد الطلبة فى العصر السعدى لنفس الاسباب السابقة التى ادت الى تكاثر عدد العلماء . ولو ان ظروف عيش الطلبة قد اختلفت باختلاف المناطق التى كانوا يدرسون فيها ، وبحسب التقلبات السياسية فى هـــذا العصر ، فانها كانت على العموم ظروفا حسنة تغرى بالدرس والتحصيل ، وتذكى فى الشباب روح الطموح والاقدام .

### اين يتعلـم الطلبـــة ؟

تعددت المراكز الثقافية أيام السعديين وانتشرت فى المدن والقرى من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ، غير ان معظم هذه المراكز لم يكن يقدم للطلبة غير دراسة متوسطة لا يتجاوز مستواها ما ندعوه اليوم بالمرحلـــة الثانوية ، ليبقى التعليم العالى خاصا بالمركزين الحضريين الكبيريـــن فـــاس ومراكش . واذا كان لطلبة هذا العصر مطلق الاختيار فى الالتحاق بأى مركز ثقافى شاؤوا فان عوامل مادية متعددة كانت تجعل من فـــاس مهبط طلبـــة شمال البلاد ، ومن مراكش محط رجال طلبة الجنوب (1) .

وقد تطورت بعض المراكز العلمية التى جدت أيام السعديين فنافست عاصمتى فاس ومراكش فى ميدان التعليم العالى بما توفر فيها من اساتذة كفـــاة .

★ منها فى أوائل دولة الشرفاء مدينة المحمدية التـــى جدد بهـــا محمـــد الشيخ المهدى ترودانت القديمة حاضرة بلاد سوس ، ووســـع اكنافهـــا

---

(1) لم تستعد مراكش مكانتها العلمية التقليدية ، وتعد مقصد الطلبة من جديد الا ابتداء مـــن العقد الرابع من القرن العاشر / العقد الثالث من القرن 16 م. اما فيما قبل ذلك فكانت فاس مقصد طلبة الشمال والجنوب معا .

واسكنها ـ فضلا عن عناصر سوسية متنورة ـ مهاجرين أندلسيين وتلمسانيين ، وبقايا البرتغاليين الذين اعتنقوا الاسلام بعد طرد المسيحيين من سواحل سوس (2) . عقدت حلقات التدريس فى المساجد الكبرى الثلاثة، وخاصة الجامع الكبير الذى بالغ الامير السعدى فى توسيعه وزخرفته حتى كان اعظم وانخم من جامعى المواسين وباب دكالة المستحدثين فيما بعد بمراكش (3) ، ووجد طلبة المحمدية لدى أساتذتهم المتوافرين ما لبى رغباتهم فى جميع أطوار التعليم ، فلم يغادروا مدينتهم الا وقد تم تكوينهم العلمى ليشغلوا مناصب فى جهاز الدولة السعدية ، أو ليتفرغوا بدورهم للتدريس .

وحدث مثل ذلك فى أوائل القرن الحادى عشر / 17 م بمدينة الدلاء فى الاطلس المتوسط ، حيث ازدحم مآت ( او آلاف ) (4) الطلبة على حلقات العلماء الدلائيين وغيرهم ، وتخرج منهم فى هذه البقعة الطيبة أعلام طارت شهرتهم شرقا وغربا (5) .

## أين يسكن الطلبة ؟

اعتمدت سكنى الطلبة فى المدن أساسا على المدارس الحبسية المجانية . وقد جدد السعديون المدارس المرينية القديمة . وهى ـ كما نعلم ـ منتشرة فى غالب حواضر البلاد . واستحدثوا مدارس أخرى فيما شيدوه باقليم سوس ، كمدينة المحمدية ، وقرية تيوت القريبة منها ، وواحة اقا بأقصى الجنوب مما يلى الصحراء(6) . وشيدوا فى مراكش مدرسة ابن يوسف العظيمة (7).

وسكن طلبة البادية فى مدارس مجانية أيضا ، لكنها بسيطة بنيت وسقفت بنفس الطريقة التى قامت عليها بيوت القرية . بعضها يتكون من بيت واحد كبير يأوى اليه جميع الطلبة الغرباء فى المركز ، وبعضها يحتوى على بيوت صغيرة متعددة كما هو الحال فى المدن . ويلحق بالمدرسة متوضأ وبئر أو نطفية ان لم تكن عين جارية . على أن هناك مدارس بدوية كبرى عدت

---

(2) تعرف حومة البرتغاليين اليوم فى تارودانت بحومة أولاد بونونة . انظر م. المختار السوسى ، خلال جزولة ، 4 : 178 .
(3) المصدر السابق ، 4 : 148 .
(4) ع. القادرى ، تقاييد تاريخية ، ص . 11 .
(5) انظر كتابنا الزاوية الدلائية ، الباب الثالث ، ص. 71 ـ 130 .
(6) انظر م. المختار السوسى ، خلال جزولة ، 3 : 86 و 192 .
(7) أصل هذه المدرسة من مبانى أبى الحسن المرينى لكنها خربت حتى كادت تندثر ، فبنى على انقاضها عبد الله الغالب السعدى مدرسة عظيمة نسبت اليه . انظر م. المختار السوسى ، خلال جزولة ، 4 : 178 .

بيوت الطلبة فيها بالمآت ، كالمدرسة البونعمانية فى جنوب ســـوس (8) ، ومدرسة سكتانة بالاطلس الكبير (9) « وبلغ عدد بيوت المدرسة التى بازاء جامع الخطبة — فى الزاوية الدلائية — الفا واربعمائة مسكن » (10) .

اذا كانت السكنى فى مدارس البادية لا تتطلب غير ابداء الرغبة فى التعلم وملازمة دروس الشيخ الذى بيده مقاليد كل المرافق التعليمية فى المركز ، فان الامر مختلف بالنسبة لمدارس المدينة الخاضعة لنظار يسيرونها وفق قوانين مقررة . فكان لا يسمح بالسكنى فى المدارس للنساء ولا لمن تخشى منه الفتنة من الولدان ، ويشترط فى الساكن أن يستفرغ جهده فى الـــدرس والتحصيل ، ويلازم حضور مجالس التدريس التى تعقد داخل المدرسة (11) واذا سكن الطالب فى المدرسة عشرة أعوام ولم تظهر نجابته أخرج منها جبرا. وعند توزيع البيوت على الطلبة يراعى الناظر ما يضمن راحتهم ومصالـــح المدرسة والمصلين والدارسين ، فيخصص بيوت الصدارة للعلماء العزب والمتقدمين من الطلبة ، والبيوت المضيئة لمن يشتغل منهم بالنساخـــة ، ويسكن أهل الحضر فى الطابق العلوى لانهم أقل ازعاجا من البدو الجفاة ، ويبعد أصحاب الاصوات المرتفعة عن قبة الصلاة والدراسة الخ (12) .

## كيـــف يـــرزق الطلبـــة ؟

اختلفت أرزاق الطلبة أيام السعديين باعتبار وجودهم فى الحاضرة أو البادية ، وبحسب المناطق الخصبة أو القاحلة التى عاشوا فيها .

ففى الحاضرة كان ينفق على الطلبة من مداخيل أوقاف المدارس، وهى كثيرة جدا تشمل عددا وافرا من دكاكين الاسواق والدور والاجنة والارحية والارويات والحمامات وغيرها فى فاس ومراكش (13)، وتكاد تكون جميـــع البساتين ودكاكين الاسواق فى المحمدية كذلك فى ملك الاوقاف .. (14)

يتولى أمر هذه الاوقاف نظار أو قضاة ، فيقدمون للطلبة الخبز يوميا، ويعطونهم من حين لآخر مبالغ مالية يستعينون بها على قضاء مآربهم الأخرى.

---

8) المختار السوسي ، خلال جزولة ، 4 : 23 .
9) ع. التمنارتى ، الفوائد ، ص. 11 .
10) ع. القادرى ، تقاييد تاريخيـــة ، ص. 11 .
11) لم تكن الدروس تعقد أيام السعديين الا فى المدارس الكبرى ؛ كالمدرســـة البوعنانيـــة والمدرسة المصباحية .
12) انظر ح. اليوسى ، القانون ، الفصل 16 ؛ ص. 191 — 194 .
13) انظر مثلا فى قسم الوثائق بـــ م. ع. بالرباط . حوالة احباس المدارس القديمة بفـــاس رقم 48 ح ، والحوالة الجديدة لاحباس فاس ؛ رقم 45 ح . وحوالة أوقاف مراكش ، رقم 119 ح .
14) انظر المختار السوسى ، خلال جزولة ؛ 4 : 149 وحوالتى أوقاف تارودانت ؛ رقم 145 و 146 ح .

ولم تكن هناك قاعدة تارة ـ على ما يظهر ـ يسير عليها المشرفون على شؤون الطلبة ، لذلك نجد بعضهم يجتهد فى الاحتفاظ ببعض مداخيل الاوقاف عن طريق التقتير على الطلبة ، لينمى مداخيل الاوقاف بشراء عقارات حبسية جديدة ، وبعضهم الآخر يدرك الغاية المتوخاة من الوقف ادراكا سليما فيوسع على الطلبة فى الانفاق . ومن هؤلاء قاضى الجماعة بمدينة المحمدية سعيد بن على الهوزالى الذى ظل يدرس فيها زهاء ثلث قرن « وله عطف عام على طلبة العلم بتوسعة العطاء مما الى نظره من احباس حاضرة السوس . وكان يرى ان توفر مستفادها ذريعة التسلط عليها » (15) . وسلك نفس الطريق من بعده تلميذه عبد الرحمن التمنارتى ، فوسع بدوره على الطلبة طوال مدة قضائه فى حاضرة سوس وتعرض بسبب ذلك الى العزل والمضايقة بعد أن اضطربت أحوال تلك البلاد .

الى جانب مداخيل الاوقاف فى الحواضر ، كانت هناك أسر موسرة تتكفل بالانفاق على بعض الطلبة المعوزين أو الغرباء ، لاسيما ذوى النسب الشريف والاخلاق الفاضلة . من ذلك تكفل أبى المحاسن الفاسى بنفقة أحمد ابن على العلمى الشفشاونى حين قدم فاس سنة 1588/996 وسكن بمدرسة الحلفاويين فى بيت مجاور لبيت أحمد بن أبى المحاسن الفاسى ، وعمه عبد الرحمن العارف ، فكانت مؤنة الطلبة الثلاثة تصلهم يوميا من دار الشيخ أبى المحاسن (16) . واتخذ القاضى عبد الواحد الحميدى عادة له أن يشترى فى بداية كل فصل شتاء عددا عديدا من الحياك (17) يوزعها على طلبته فى قبة المدرسة المصباحية حيث كان يتولى الامامة والتدريس (18) .

أما فى البادية فلم تكن هناك أوقاف للانفاق على الطلبة ، ولكن رجال القبائل يقدمون للمدارس التى بين أظهرهم ما يكفى لمؤونة الاساتذة والطلبة فى شكل اعشار وشرط وهدايا وذبائح . ولعل القبائل السوسية من أكثر قبائل المغرب اعتناء بالعلماء والطلبة ، وأوفاها التزاما بالانفاق بكميات محددة فى أوقات معلومة لا تكاد تتخلف . « يأتون بثلث أعشارهم الى المدرسة لمؤنة من فيها ، ويدفعون من عندهم سنويا عن كل كانون ، صاعا من الحبوب ( نحو 7 كلغ ) واناء معلوما من ادام ( نحو لتر وربع ) من السمن أو زيت الهرجان » (19) . واذا عرفنا أن الكوانين المشارطة لكل مدرسة تعد بالمآت ، وتبلغ أحيانا الفا وخمسمائة ، أدركنا أهمية الاطعمة التى

---

15) ع. التمنارتى ، **الفوائد** ، ص. 24 — 25 .

16) م. العربى الفاسى ، **مرآة** ، ص. 169 .

17) الحايك كساء طويل من الصوف غير مخيط يلفه المرء على نفسه فيستر راسه وجثته كله وكانت الحياك او الكسى من لباس العلماء والطلبة فى العصر السعدى . انظر م. العربى الفاسى ، **مرآة** ، ص. 21 .

18) ا. الكلالى ، **تنبيه** ، ص. 18 .

19) م. المختار السوسى ، **خلال جزولة** ، 4 : 20 — 21 .

تقدم للمدرسة . وللاستاذ مطلق التصرف فى كل ما يحمل الى المدرسة ، بيده مفاتيح المخازن ، يمون نفسه وطلبته ثم لا يراقب عمله (20) .

ونظرا لعدم انتظام تساقط الامطار فى المغرب وتغير المحاصيل الزراعية تبعا لذلك ، عانت مدارس البادية بدورها فى سنوات المحل شيئا من الخصاص ونقصا فى الارزاق . على ان هناك بعض المراكز العلمية البدوية اشتهرت بالخصب ورغد العيش على العموم لوقوعها على ضفاف أودية سوس وأم الربيع وسبو ، أو فى مناطق جبلية غنية ، كزاوية محمد بن ويسعدن بسكتانة الجنوبية حيث تنتشر زراعة الزعفران وتكثر اشجار الزيتون واللوز والجوز. فقد ظل هذا الصوفى العالم يدرس فى زاويته ويطعم الطلبة والمريدين والزوار بكيفية لا يكاد يصدقها العقل مدة اربعين سنة ، « وكانت تكون فى زاويته سبعمائة طالب مرتبين للقراءة ، قال والدى : وعهد الى فى توفير طعامهم ومراقبته حرصا عليهم وعناية بهم ، وكان يفرق فيهم وفى غيرهم انواعا من الثياب واموالا جزيلة .. » (21) ، وكزاوية الدلاء فى حدود الاطلس المتوسط حيث تنتشر الغابات وتكثر قطعان الماشية . فقد آوت هذه الزاوية طوال قرن كامل آلاف الطلبة ، وغذت عقولهم وبطونهم وافاضت عليهم من ضروب الانعام ما لم تخفت أصداؤه حتى اليوم (22) .

وبالمقابل ضاق العيش وقدرت الارزاق على بعض الزوايا والمدارس فى قمم جبال الريف وجزولة ، وبأودية غير ذات زرع فى سوس ودرعة وتفيلالت مما يلى الصحراء ، فلا يكاد يجد طلبة زاوية تاتلت (23) ما يقتاتون به ، ويحاول بعضهم مرة ان يتصل بالشيخ محمد بن يعقوب (ت. 1556/963) فى خلوته ليودعه ، فيطول انتظاره قبل أن يرى بنتا صغيرة تحمل الى الشيخ « اناء فيه طعام قليل قدر ما تطعمه الام لولدها فى المهد ، ومعها اناء صغير فيه ماء » ثم اتت البنت باناء آخر فيه شىء من اللبن ، مزجه الشيخ بقبضة من دقيق نوى التمر وقدمه الى الطالب الذى قال فيما بعد . « فأكلته ولم أرض به وانما ابتلعته مرغما ، والشيخ يحثنى فى أن أمعن فى اكل ما بقى فى الاناء ، ثم دعا لى وحضنى على العلم والدين ، وزودنى بخمس تمرات فأكلتها وذهبت » (24) .

---

20) المصدر السابق فى نفس الصفحتين .

21) ع. التمنارتى ، **الفوائد** ، ص. 11 .

22) انظر كتابنا **الزاوية الدلائية** ، الباب الثالث ، ص. 71 — 130 .

23) تاتلت . منبسط قفر جنوبى سوس لا نبات فيه ولا ماء الا بئرا صغيرة يردها كثير من الناس . لما اتخذ فيها الشيخ محمد بن يعقوب زاوية ، قال عبد الله الغالب السعدى قولته التى ذهبت مثلا عند الصوفية : « الزاوية بالله لا بالساقية »
انظر م. المختار السوسى ، **خلال جزولة** ، 3 : 121 وما بعدها .

24) م. المختار السوسى ، **المعسول** ، 16 : 55 .

وقاسى طلبة الزاوية الناصرية بتمكروت (25) عسرا اشـــد ، لا يتناولون من الطعام الا ما يسد الرمق ، ولا يلبسون من الثياب غير الخرق ، حتى اذا التحق الشيخ محمد بن ناصر بهذه الزاوية 1040/30 — 1631 وصار استاذها اللامع « كان ينام مع أهله على التراب لعدم ما يشترى به حصيرا يفرشه ، وربما افترش ليفا أو جريد نخل » (26) ، واذا أخرج من داره للطلبة صحن الكسكس فى الليل — وهو عمدة قوتهم — لا ينال الطالب منه الا بضع لقيمات لا تغنى من جوع ، ويعتذر لهم الشيخ ابن ناصر مقسما ان اهل بيته لا ياكلون اكثر مما ياكل الطلبة .

وغير بعيد عن الزاوية الناصرية كان الشيخ ابو القاسم الكوش الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق يحض طلبة زاوية سيد الناس (27) على العمل بايديهم فى أوقات الفراغ ، ويعلمهم الى جانب الدروس اللغوية والدينيـة طائفة من الصناعات اليدوية ، وكان قد تعلم منها كثيرا أيام طلبه للعلـم بفاس .

على ان ظاهرة اعتماد الطلبة على أنفسهم فى كسب الرزق اصبحت متفشية حتى فى الحواضر العلمية الكبرى أثناء الدور الثالث الذى انحدر فيه نجم السعديين الى الافول . وقد اثبت مؤلف تازى مجهول الاسم عاش فى فاس فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر / 17 م . فى كتابه الهزلى **مختصر الافاريد** (28) الحرف التى يمتهنها الطلبة آنذاك وقسمها الـى مستحسنة كالنساخة والخياطة والنجارة والتجارة ، ومستهجنة كالحياكة والحجامة والدباغة والجزارة ..

---

25) تمكروت على ضفاف وادى درعة وراء الاطلس الكبير ، بعيدة عن مركز زاكورة بنحـو 22 كلم فى جنوبها الشرقى . — اقليم ورزازات — .

26) أ. الناصرى ، **طلعة المشترى** ، 1.133 .

27) المراد بسيد الناس محمد رسول الله صلعم . وقـد أسس زاوية سيد النـاس بتمكروت الشيخ ابراهيم الانصارى أوائل القرن العاشر / 16 . انظر م. الناصرى ، **الدرر المرصعة** ، ص. 124 — 126 .

28) طبع هذا الكتاب على الحجر بفاس عام 1304 / 1887 .

# البابُ الثالث

## تأليف الكتب

# تأليف الكتب

⁂

# الفصل الأول

⁂

## الطابع العام

من الطبيعي أن يكثر التأليف في بلد بلغ فيه النشاط التعليمي مدى بعيدا ، كما كان حال المغرب الاقصى على عهد السعديين . ومن الطبيعي أيضا أن يتطرق التأليف الى جميع الموضوعات المدروسة السابقة لهذا العهد على تعددها وتنوعها ، وأن تكثر الكتب بالتالي وتنفق سوقها لتمتلىء بها دور الخاصة والمكتبات العامة .

لكن ماذا كان الطابع العام لمؤلفات ذلك العصر ؟ وما حظ المؤلفين فيه من الاصالة ؟ وما كان دور القراء والنساخ ورجال الدولة تجاه الكتاب ؟ قبل الاجابة عن هذه الاسئلة ينبغي أن نتعرف على فلسفة التأليف عند علماء ذلك العصر ، والاغراض المتوخاة منه لديهم ، وهي سبعة : « شيء لم يسبق اليه فيؤلف ، أو شيء الف ناقصا فيكمل ، أو خطأ فيصحح ، أو مشكل فيشرح ، أو مطول فيختصر ، أو مفترق فيجمع ، أو منشور فيرتب » . (1)

---

1) ا. المقري ازهار ، 3 : 34 — 35 . نقل هذا النص من خط بعض الاكابر ولم يسمه . ثم اورد أغراض التأليف هذه منظومة . انظرها هناك .

ونحن اذا استعرضنا مؤلفات العصر السعدى ألفيناها ، من حيث الشكل ، استوفت تلك الاغراض بحظوظ متفاوتة . اقلها الاول الذى لم يسبق اليه ، واكثرها الرابع والخامس المتعلقان بالشرح والاختصار ، مع اضافة غرض ثامن هو « نظم المنثور » اكثروا منه واغربوا بنظم قصائد تعليمية من آلاف الابيات بدلا من الالفية المفردة التقليدية .

واذا نظرنا الى مضمون تلك المؤلفات على اختلاف موضوعاتها لاحظنا الظاهرتان الدينية والادبية اللتان سبقت الاشارة اليهما فى باب التعليم . تفتح كتابا علميا فى الرياضيات او الفلك او الطب فتقرا فيه اول ما تقرا خطبة نسجت على منوال ادبى رصين تتخللها آيات واحاديث واثر السلف الصالح . وتجد فى كتب النحو والصرف والبلاغة الى جانب الشواهد المستقاة من كلام العرب واشعارها ، آيات قرآنية كثيرة حتى الف بعضهم كتبا خاصة فى تفسيرها . وترى العديد من أخبار الصوفية واشعارهم ومصطلحاتهم فى الظاهر والباطن والسلوك والجذب والفناء ومـا الـى ذلـك .

ان كثرة التاليف فى العصر السعدى تعنى بالطبع وفرة عدد القراء من العلماء والمتعلمين وقد عرفنا من بين هؤلاء عددا غير قليل ينسخون الكتب بايديهم ، او يستاجرون على نسخها ثم يقابلونها مع أصولها مشبهين النسخ التى لم تقابل بالرسوم العدلية التى لم يؤد عليها القضاة . (2) على ان الاقبال على قراءة الكتب واقتنائها غـدا شائعا فى ذلك العصر عند اصناف كثيرة من القراء من بين الوزراء والكتاب والقواد والولاة والتجار وغيرهم . وتقدم فن النساخة ، او الوراقة كما دعوه أحيانا ، فأصبحت لها مشيخة خاصة ، واساتذة يلقنون قواعد الخط فى مجالس التعليم بالمساجد كما سبقت الاشارة الى ذلك . وغدت دكاكين النساخين تفتح فى الاسواق العامة بالمدن والقرى (3) وتعددت الخطوط بتعدد العناصر العاملة فى هذا الميدان من مغاربة واندلسيين ومشارقة . والتجأ ذوو الثراء من المغاربة الى اسواق المشرق يقتنون من أعلاق كتبها ، حاملين معهم لتلك الغاية اكياس الذهب ، فضلا عما كانت تجلبه القوافل الرسمية من أحمال الكتب الـى بـلاط مراكـش .

---

(2) انظر ا. المنجور ، فهرس ، ص. 19 — 20 و 27 و 29 و 34 ، ا. الكلالى ، تنبيـه ص. 18 .

(3) انظر ع. التمنارتى ، الفوائد ، ص. 216 — 217 .

وإذا كان الجو العلمي السائد آنذاك وحده حافزا على الاقبال على التأليف ونشر الكتب ، فان لتشجيع الملوك الشرفاء أثره الفعال ايضا في هذا المضمار . استمر هذا التشجيع من عهد نشأة الدولة مع محمد المهدى الشيخ ( الاكبر ) الى عهد الاضمحلال مع محمد الشيخ ( الاصغر ) (4) وبرز أكثر على عهد احمد المنصور الذهبي . تقرأ ذلك في مقدمات عشرات الكتب وفي خاتمات اخرى مما اهدى لمكتبات اولئك الملوك ، او الف بايعاز منهم لافادة العلماء والمتعلمين

هذه الكتب المؤلفة والمنتسخة والمجلوبة وزرعت على مكتبات الخاصة في المدن والارياف ، ووقف عدد وافر منها على الجمهور في المكتبات العامة بالمساجد والاضرحة . واننا قبل ان نحاول التعرف على أصناف الكتب المغربية المؤلفة في العصر السعدى ، سنلقى نظرة خاطفة على الكتب الدراسية القديمة منها والحديثة في ذلك العصر ، ثم نختم الباب بالحديث عن المكتبات العامة والخاصة .



4) هناك ثلاثة من الملوك السعديين يدعى كل منهم محمد الشيخ . اولهم ( الاكبر ) ت. 1557/964 ، والثاني ( الاوسط ) ت. 1022 / 1613 ، والثالث ( الاصغر ) ت. 1654/1064 .

# الفصل الثاني

☘

## الكتب الدراسية

### الكتب الدراسية القديمة

الكتب القديمة التى درست فى العصر السعدى متنوعة ، معظمها من المختصرات والانظام والشروح والحواشى المؤلفة فيما بين القرنين الهجريين السادس والتاسع مما ألفه لاندلسيون والمغاربة ، أمثال ابى محمد الشاطبى ، والكلاعى البلنسى ، وابن عاصم الغرناطى ، وابن عرفة التونسى ، ومحمد السنوسى التلمسانى ، وابن برى التازى ، وابن البناء المراكشى ، أو مما دخل الى الغرب الاسلامى من مؤلفات الشرقيين ، أمثال ابن الحاجب الاسكندرى ، وابن مالك الدمشقى ، وابن هشام المصرى ، وخليل الجندى ، وابن حجر العسقلانى ، وجلال الدين السيوطى .

على أن الدراسات أيام السعديين شملت أيضا بعض الاصول القديمة ، كتفاسير القرآن الكريم لابن عطية الغرناطى ، (5) وأبى بكر ابن العربى الفاسى ، (6) وجار الله الزمخشرى . **وموطأ** مالك ،

---

5) عبد الحق ابن عطية ( ت. 1147/542 ) ، مؤلف **المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز** .

6) ابو بكر محمد ابن العربى المعافرى ، ولد باشبيلية وتوفى بفاس عام 1148/543 . وكتبه فى التفسير المدروسة فى العصر السعدى ، هى **احكام القرآن** ، **وقانون التاويل**.

**والصحيحين** ، **والسنن** ، (7) وكتب القاضى عياض والامام السهيلى (8) فى الحديث والسير . واعتمدت دراسات العقائد واصول الفقه وفروعه والتصوف على كتب امام الحرمين ، (9) والغزالى ، وسحنون ، (10) والبراذعى ، (11) والقشيرى . وفى اللغة والادب على المعلقات العشر ، وقصائد الشنفرى وكعب بن زهير وحسان بن ثابت ، **وكتاب** سيبويه ، **ومثلث** قطرب ، **وفصيح** ثعلب ، **وجمل** الزجاجى ، **وصحاح** الجوهرى ، **ومختصر العين** للزبيدى ، **والامالى** لابى على القالى . وفى العلوم على كتب اقليدس ، وابن سينا ، وابن الياسمين واضراب هؤلاء .

واذا فحصنا عموم الكتب الدراسية القديمة لنتعرف على المقاييس التى بنى عليها علماء العصر السعدى اختيارهم لتلك الكتب ، الفيناهم لا يتقيدون بدين أو مذهب أو ناحية جغرافية عندما يتعلق الامر بدراسات لغوية أو علمية بحتة أو تجريبية ، فيدسون حتى آثار الوثنيين واليهود فى الشرق والغرب . ولا يشترطون مذهبا معينا — داخل نطاق السنة والجماعة — فى علوم القرآن والحديث واصول الدين واصول الفقه والتصوف فيدرسون كتب الشافعية والحنابلة وغيرهم من السنيين ، باستثناء كتاب **الكشاف** الذى افتتنوا بمباحثه البلاغية والعقلية ، وتوسعوا قولا وكتابة فى تزييف آرائه الاعتزالية . أما فروع الفقه ، فلم ينظروا الا فيما جاء على مذهب مالك .

⁂

---

7) غلب اسم السنن فى العصر الذى ندرسته على اربعة كتب هى : سنن ابن ماجه ، وابى داوود ، والترمذى ، والنسائى . وان كان كتاب الترمذى يسمى الجامع الصحيح . واطلقوا على هذه السنن الاربع مع صحيحى البخارى ومسلم . الكتب الستة . وقد تعددت اصطلاحات المحدثين فى تسمية الكتب صحاحا أو سننا أو مساند باختلاف الاعصار والامصار .

8) عياض والسهيلى معا مدفونان بمراكش ، ومعتبران من رجالها الصالحين السبعة . وقد تعددت كتب عياض المدروسة على عهد السعديين . اما السهيلى قد درسوا له : **الروض الانف** فى شرح سيرة ابن هشام .

9) امام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوينى الشافعى . ( ت . 478 / 1085 ) درست من كتبه **الارشاد** فى العقائد **والورقات** فى اصول الفقه .

10) سحنون عبد السلام بن سعيد القيروانى ( ت. 854/240 ) اخذ فى الشرق عن ابن القاسم تلميذ **الامام** مالك ، وكتب المدونة .

11) البراذعي خلف ابن القاسم القيرواني ( ت. بعد 372 / 982 ) كتابه المقروء فى العهد السعدى هو . **تهذيب المدونة** .

## الكتب الدراسية الحديثة

الف علماء العصر السعدى فى جميع الموضوعات الدراسية ربما فاقت عددا من الكتب الدراسية القديمة التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، وامتازت على العموم بطابعى التجربة والتطبيق .

هذه الكتب الدراسية الحديثة أصناف ثلاثة :

### ا ـ كتب مرتجلة او مختصرة

ادرك بعض المؤلفين حاجة طلابهم الى كتب من مستوى معين ، فوضعوها لهم او اختصروا من كتب قديمة نثرا أو نظما ؛ ثم درسوها لهم . ومن هذا القبيل معظم مؤلفات الامام ابن غازى ، وعبد الواحد الونشريشى ، وعبد الواحد ابن عاشر ، والعربى الفاسى وغيرهم .

### ب ـ شروح وحواش

اراد بعض العلماء فى هذا العصر أن يكيفوا ( المتون ) و ( الامهات ) التى يقومون بتدريسها ، ويطبعوها بطابعهم الخاص ؛ فوضعوا لها شروحا او حواشى كتبوها اثناء مدة الدريس ، وانتسخها الطلبة ثم انتشرت واشتهرت .

وهناك حواش كثيرة كتبها العلماء فى هامش النسخ التى استعملوها اثناء التدريس ولم يخرجوها بأنفسهم ، وانما خرجها تلاميذهم او ابناؤهم او علماء آخرون تطوعوا أو كلفوا بذلك من قبل حاكم عالم . من ذلك حاشية احمد القدومى على **شرح المرادى لالفية ابن مالك ، وحاشيته** على **شرح المكودى للالفية** أيضا اللتان استخرجهما تلاميذه (12) وحواشى الحسن الزياتى العديدة التى خرجها ولده عبد العزيز ، (13) **وحاشية** احمد المنجور الكبرى على **شرح كبرى عقائد السنوسى** التى أمر السلطان احمد المنصور بتخريجها من مبيضتها الصعبة الدقيقة المكتوبة على الهوامش . (14)

---

12) انظر ا. المنجور ، فهرس ، ص. 35 .

13) انظر م. العربى الفاسى ، مرآة ، ص. 167 .

14) ا. المنجور ، فهرس ، ص. 43

وقد ادركت حرفة الاختصار الشراح والمحشين فى هذا العصر فراحوا يختصرون كتبهم ، الا انهم كانوا يصدرون فى ذلك عن تجربة عندما يتجلى لهم نقص او حشو او صعوبات فى التطبيق . وهكذا اختصر احمد المنجور شروحه على **محصل المقاصد** لابن زكرى التلمسانى ، **والعقيدة الكبرى** للسنوسى ، **والمنهج المنتخب** لعبد الواحد الونشريسى . وكتب العارف عبد الرحمن الفاسى حاشيتين ، مطولة ومختصرة ، على **العقيدة الصغرى** للسنوسى . وحتى الاطباء سلكوا هذا المهيع ، فاختصر ابو القاسم الوزير الغسانى كتابه **حديقة الازهار فى ماهية العشب والعقار** ، وشرحه على **منظومة ابن عزرون** فى الحميات والاورام .

## جـ ـ نظم مختصرات

هذا احط اصناف التاليف التعليمى فى هذا العصر . عمد اصحابه الى مختصرات معقدة فنظموها فى آلاف الابيات ، وزادوها تعقيدا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وييسرون للطلبة سبل الحفظ والتحصيل . من ذلك **نظم** ابى القاسم الفجيجى **مختصر خليل** فى نحو خمسمائة وثمانية آلاف بيت ، **ونظم** عبد الهادى الحسنى السجلماسى **جمع الجوامع** لتاج الدين السبكى فى اصول الفقه ، **وتلخيص المفتاح** للخطيب القزوينى فى البلاغة . (15)

---

15) انظر ا. الفضيلى ، **الدرر البهية** ، 1 : 266 .

# الفصل الثالث

❖

## انواع الكتب المصنفة (16)

### ا ـ كتب علوم القرآن والحديث

الف علماء العصر السعدى عشرات الكتب فى القراءات ورسم القرآن وضبطه ، ما بين منثور ومنظوم ، وشروح وذيول . امتازت هذه الكتب بأنها كانت تقرأ بين يدى مؤلفيها وتروى عنهم ثم عن تلاميذهم من بعد ، ونال الحظوة الكبرى من بينها تقييد **وقف القرآن** (17) لمحمد الهبطى السماتى الذى سنتعرف على نشاطه ضمن رجال التدريس بفاس . وكتابه مختصر جدا ، يقتصر على بيان المكى والمدنى من السور مع ذكر الكلمات التى يوقف عليها ، مبتدئا من أم القرآن الى سورة الناس ، ويدل مع ذلك عن ضلاعة مؤلفه فى علوم القرآن واللغة وقواعدها . أثار هذا الكتاب ضجة كبرى فى أوساط النقاد من القراء أثناء حياة مؤلفه وطوال القرون التالية . واذا كان تفصيل محتوى الكتاب وآراء المنتقدين والمؤيدين لا يتسع له المجال هنا ، فاننا نذكر كدليل على أصالة كتاب الهبطى ومكانته ، أن

---

16) لن نحاول فى هذا الفصل استقصاء الكتب المؤلفة فى المغرب على عهد السعديين ، مكتفين بذكر نماذج منها فقط ، على أن نذكر مؤلفات اخرى فى فصول آتية ، وبخاصة فى القسم الثانى من هذه الدراسة .

17) توجد منه نسخ مخطوطة متعددة بمكتبات المغرب والمشرق واوربا . منها مخطوطات الم. م. بالرباط رقم 4138 د 7708 . ومخطوطة م. وبباريز رقم 672

العمل جار عليه باقطار المغرب منذ عهد المؤلف الى ايامنا هذه ، سواء فى تلاوة القرآن الجماعية بالمساجد ، او فى كتابة المصاحف المخطوطة والمطبوعـــة . (18)

وعنى علماء ذلك العصر بتفسير القرآن الكريم ، فألفوا فى التفسير عموما ، (19) وفى مشكلات القـــرآن ، (20 ) وفى مناسبات الآيـــات والسور ، (21) وفى الآيات التى استشهد بها البلاغيون ، (22) وفى الايات المتضمنة معنى العدد والحساب (23) كما فسروا بعض السور علـى طريقة الاشارة الصوفية (24) . وكلفوا بتفسير **الكشاف** للزمخشري اعجابا بمباحثه البلاغية ، وردا على شبهاته الاعتزالية ، فكتبوا عليه **حاشيتين** ، احداهما للملك احمد المنصور ، والثانية للقاضى محمد بن عبد الله الرجراجي كما امر احمد المنصور بجمع تفسير الامام ابن عرفة التونسى ( ت. 803/ 1400 )من تقاييد تلميذيه البسيلى والسلوى . (25)

---

18) المصاحف المخطوطة على طريقة وقف الهبطى كثيرة جدا فى مكتبات اقطار شمال افريقيا، والمطبوعة منها كذلك عديدة على الحجر والحروف . وآخر ما طبع من المصاحف بوقف الهبطى ، **المصحف الحسنى** بالمطبعة الملكية بالرباط ، عام 1971/1391 **والمصحـف التونسى** بمطبعة الدار التونسية للنشر عام 1969/1389 ، يقع كل منهما فى حجمين كبير وصغير .

19) اهم تفسير فى هذا العصر كتبه عبد الجبار الفجيجى فى اثنـى عشر جـزءا . ( انظـر م. عبد السلام الناصرى ، **رحلة** ، ورقة ، ورقة 36 ظ ) .

20) **اللباب فى مشكلات الكتاب** ، لمحمد بن على الشطيبى ، مخطوطة م. م. الرباط، رقم 1779

21) **الدر الاز هرفى مناسبات الآيات والسور** ، لعبد الله بن على ابن طاهر السجلماسى . وللسجلماسى هذا كتابان آخران يسمى كل منها **الدر الازهر** ، **وهما**

— **الدر الازهر المستخرج من بحر الاسم الاطهر** . جمع فيه 72 فنا من الفنون المتعلقـة بالقرآن على غرار كتاب **الاتقان فى علوم القرآن** لجلال الدين السيوطى .

— **الدر الازهر فى السيرة النبوية** . مخطوطة م. م. بالرباط ، رقم 3753 ( انظر م. الافرانى ، **صفوة** ، **ص. 4** )

22 — **مراقى المجد لآيات السعد** ، لاحمد المنجور مخطوطة م. ع. بالرباط ، رقـــم 812 ومخطوطات م. م. بالرباط ، ارقام 176 و 5038 و 5302 .

23) **الفتح النبيل لما تضمنه من العدد ومعنى الحساب التنزيل** ، لاحمد ابن القاضـــى ، مخطوطة م. ع. بمراكش ، رقم 472 .

24) **تفسير الفاتحة على طريق الاشارة** لعبد الرحمن الفاسى العارف ، مخطوط م. ع بالرباط، رقـم 2074 د .

25) انظر ا. ابن القاضى ، **درة** ، 2 : 231 . م. الافرانى ، **نزهة** ، ص 122 ، ع ابن ابراهيم **الاعلام** ، 2 : 47 .

وفى علوم الحديث الف علماء المغرب السعدى كتبا لم تبلغ شأو مؤلفاتهم فى علوم القرآن كما ولا كيفا وهى مع ذلك عديدة ومتنوعة منها شروح وحواش على **صحيحى** البخارى ومسلم ، (26) **وعمدة الاحكام** (27) لعبدالغنى المقدسى ( ت. 1203/600 ) . ومنها تخريج احاديث **كتاب الشهاب** (28) لمحمد بن سلامة القضاعى ( ت. 1062/454 ) وعنوا كثيراً بكتب **الاربعين** (29) ، فالفوا عددا منها نثرا ونظما . (30) ونظموا فى مصطلح الحديث قصائد تعليمية كثيرة بلغ عدد ابيات بعضها الفا او زاد على ذلك . (31) واختصروا **مقدمة ابن حجر** (32) على شرحه الكبير لصحيح البخارى ، وهى فى الحديث بمثابة **مقدمة ابن خلدون** فى التاريخ .

---

26) اشهرها . **ارشاد اللبيب الى مقاصد حديث الحبيب** ، وهو شرح صحيح **البخارى** للامام محمد ابن غازى ، مخطوطات م. ع. بالرباط ، أرقام 367 و 892 . ومخطوطة م. م. بالرباط ، رقم 5344 .

27) **شرح عمدة الاحكام من كلام خير الانام** ، لاحمد الفاسى . انظر ع. الكتانى ، **فهرس الفهارس** ، 2 : 37 ، ل. بروفنسال ، **شرفا** ، **244** ، **هامش 4** .

28) **تخريج احاديث الشهاب فى المواعظ و الآداب** ، لرضوان الجنوى . انظر ع. الكتانى ، **فهرس الفهارس** 1. 326 .

29) **كتب الاربعين** هى كتب تحتوى على أربعين حديثا فى موضوع معين ، أو بحسب نوع خاص من الاسانيد . عنى بها المحدثون كثيرا منذ القرن الثانى للهجرة ، وألفوا منها المآت ، عملا بحديث : « من حفظ على أمتى أربعين حديثا فى أمر دينها ، بعثه الله فى زمرة الفقهاء والعلماء » . واشهرها كتاب **الاربعين** لمحيى الدين النووى ( ت. 1277/676 ) . انظر م. حاجى خليفة ، **كشف** ، 1. 52 — 61 .

30) اشهر كتب **الاربعين** فى العصر السعدى .

أ — **الاربعين** ، **وشرحها** ، لعلى بن ميمون الغمارى على غرار **اربعين** النووى ، مخطوط خاص بالرباط .

ب — **الاربعين** ، لمحمد بن أبى بكر الدلائى ، فى الرحمة والزهد والمحبة . مخطوط خاص بالرباط .

ج — **منظومة الاربعين** ، لمحمد بن يجبش التازى ، فى الاخلاق ، مخطوطة م . ع بتطوان رقم 542 ، ضمن مجموع ، ص. 68 — 71 .

31) منها :

أ. **نظم القاب الحديث** لمحمد العربى الفاسى ، وهو مطبوع على الحجر بفاس ، ضمن **مجموع المتون** .

ب — نظم آخر للعربى الفاسى **لنخبة الفكر فى مصطلح اهل الاثر** ، للحافظ ابن حجر العسقلانى . مخطوطة م. ع. بالرباط ، رقم 2173 د ، ومخطوطة م ، م بالرباط ، رقم 7586 .

ج — **الفية مصطلح الحديث** لعبد الهادى ابن طاهر السجلماسى .

32) **نظم اللآلى والدرر فى اختصار مقدمة ابن حجر** ، لمحمد ميارة . توجد منه نسخ مخطوطة كثيرة ، من أحسنها مخطوطة م. م. بالرباط ، رقم 3702 ز .
وقد طبعت **مقدمة ابن حجر** فى مجلد مستقل عن الاجزاء 13 لكتابه **فتح البارى بشرح صحيح البخارى** . المطبعة المنيرية بمصر ، عام 1928/1347 .

## ب ــ كتــب التوحيــد والفقــه والتصــوف

معظم مؤلفات علماء المغرب السعدى يتعلق بهذه العلوم الثلاثة وملحقاتها ، لطغيان الروح الدينية آنذاك ، وانتشار التصوف على الخصوص . اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انها تعد بالمآت ، فالفقيه الصوف احمد الصومعى وحده احضر ستين كتابا من مؤلفاته اجاز بها احمد المقرى ، (33) وييبورك السملالى انافت مؤلفاتـه فيها على عشرين . (34) بل لا يكاد يوجد عالم من بين مآت العلماء المذكورين ف هذه الدراسة من لم يؤلف كتابا او كتبا فى هذه العلوم الشرعية .

كان اكثر اعتماد المدرسين للتوحيد فى ذلك العصر على **عقائد السنوسى** الاربع ، فكتبوا عليها نحو عشرين شرحا وحاشية . (35) وشرحوا أيضا **عقائد** المهدى ابن تومرت ، وسعيد الحاحى ، (36) **وكفاية المريد** (37) لاحمد بن عبد الله الزواوى ( ت. 884/1479 ) ، **ومحصل المقاصد** ، (38) لاحمد ابن زكرى التلمسانى ( ت. 899/1493 ) وغيرها . والفوا **عقائد** مستقلة نثرا ونظما ، (39) تدرس للطلبة ، واخرى مبسطة تلقن للنساء والصبيان أو للعوام والخدم . (40)

---

33) انظر أ. المقرى ، **روضة** ، 302 .

34) انظر م. المختار السوسى ، **سوس العالمة** ، 183 . **معسول** ، 5 : 45 — 48 . **خلال** ، مواضع متفرقة .

35) منها . شرحا محمد المامون الحنفصى على المقيدتين **الكبرى والصغرى** . وقد طبعت الاخيرة على الحجر بفاس ، وعلى الحروف بتونس .
— حاشيتا احمد المنجور على **الكبرى و الصغرى أيضا** . مخطوطات م. القرويين ، أرقام 989 ز و 1511 و 8054 ..
— الحواشى الثلاث لعبد الرحمن الفاسى على **الصغرى** . وقد طبعت احداها على الحجر

36) مخطوطات م. م. بالرباط ، ارقام 768 و 6324 و 7699 .

37) منها : شرح عبد الرحمن التمنارتى **لكفاية المريد** . مخطوطة م. ع. بالرباط رقم 2079 د ، ص. 1 — 209 .

38) منها شرحا أحمد المنجور على **محصل المقاصد : مطول ومختصر** . مخطوطات م. القرويين، ارقام 717 و 725 و 1373 و 1381 ...

39) منهـا :
— ارجوزة **اضاءة الدجنة فى اعتقاد اهل السنة** ، لاحمد المقرى . طبعت مع شرح الشيخ عليش عليها فى مصر ، عام 1306 / 1889 .
— مقيدتان : كبرى وصغرى ، لعبد الله ابن طاهر السجلماسى .
— ارجوزة **مراصد المعتمد فى مقاصد المعتقد** لمحمد العربى الفاسى ، مخطوطة م. ع . بالرباط ، رقم 952 د .
— ارجوزة **تلقيح الاذهان بتنقيح البرهان** ، لمحمد العربى الفاسى أيضا ، مخطوطة م. م. بالرباط رقم 6057 .

40) منهـا :
— عقائد متعددة لعبد الله الهبطى ، مخطوطات م. ع. بالرباط ، ارقام 2076 د و 2167 د ، م. ع. بتطوان ، ارقام 353 و 785 .
— وقد أورد أحمد ابن مرضون فى آخر كتابه **كفاية المحتاج** ثلاث عقائد صغرى لعبد الله الهبطـــى .

وفى الفقه تداولوا كثيرا مختصر خليل وكتبوا عليه نحو ثلاثين شرحا وحاشية وتعليقا ، (41) ونظموه فى آلاف الابيات كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وشرحوا ايضا وعلقوا على رسالة ابن ابى زيد القيروانى (42) ، ومختصر ابن الحاجب (43) وتحفة الحكام (44) لابن عاصم الغرناطى (ت 1426/829 ) ، ولامية القضاء ، (46) والمنهج المنتخب الى قواعد المذهب ، (47) كلاهما لعلى بن قاسم الزقاق ( ت 1506/912 ) .

ويأتى فى طليعة المؤلفات الفقهية الاصيلة فى العصر السعدى كتابان للامام ابن غازى هما : الكليات (48) فى اسس مذهب مالك ، مرتبة على ابواب الفقه . و اتحاف ذوى الذكاء والمعرفة بتكميل تقييد ابى الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة (49) علق به على المدونة فى ثلاثة اسفار ضخام ، يتمم سقطات شارحيها الشهيرين ابى الحسن الزرويلى المغربى ( ت 1319/719 ) وابن عرفة التونسى ( ت 1400/803 ) .

---

41) من اشهرها :
— شرح الامام ابن غازى ، المسمى شفاء الغليل فى حل مقفل خليل ، فى جزءين مخطوطات م. القرويين ، ارقام 432 و 434 و 535 . م . ع بالربـــاط رقم 834 د م. م. بالرباط 1862 و 3463
— شرح احمد بابا السودانى المسمى منن الرب الجليل ببيان مبهمات خليل فى جزئين ، مخطوطات م. القرويين ، رقم 428. م. ع بالرباط ، 420 د ، م ، ع بمراكش ، رقم 80 و 473 م. م. بالرباط رقم 4468 و 4975 .
— لاحمد بابا ايضا خمس رسائل فى التعليق على مواضع صعبة من مختصر خليل ، توجد فى مجموعتين فى م. م. بالرباط رقم 9615 و 9616 . وطبعت ثلاث منها على الحجر بفـــاس
— لمحمد ميارة حاشيتان على مختصر خليل . احداهما عامة ، والاخرى على شرح الحطاب للمختصر . مخطوطات م. القرويين ، رقم 456 و 1158 ، م. ع بالرباط ، 2313 د

42) من ذلك :
— الشرح المطول على الرسالة لعبد الواحد الونشريسى .
— تحرير المقالة فى نظم نظائر الرسالة ، للامام ابن غازى . مخطوطات م. ع. بتطوان ، 890 م. م. 9061 . وقد شرح معاصـــره محمـــد الحطاب شيـخ المالكية بالحجـــاز ( ت 1547/954 ) تحرير المقالة . مخطوطات م. ع بالرباط ، 958 ك — م، م، بالرباط رقم 4274 ..

43) شرح عبد الواحد الونشريسى مختصر ابن الحاجب فى اربعة أسفار .

44) شرحها على بن عبد الواحد الانصارى السلوى . ومحمد ميارة بعنوان الاتقان والاحكام فى شرح تحفة الحكام ، وقد طبع هذا الاخير على الحجر بفاس ، وعلى الحروف بمصر .

46) لمحمد ميارة :
1) شـرح على لاميـة الزقـاق .
2) وتذييل عليها نظما
3) وشرح التذييل بعنوان تحفة الاصحاب والرفقة ببعض مسائل بيع الصفقة . يوجـد التذييل وشرحه بخط المؤلف فى المكتبة الوطنية بتونس ، رقم 681 . ( مكتبــة حسن حسنى عبد الوهاب )

47) شرحه احمد المنجور بشرحين : مطول ومختصر . وسمى الاخير المختصر المذهب من شرح المنهج المنتخب ، طبع على الحجر بفاس فى جزئين ، 495 صفحة .

48) طبعت على الحجر بفاس .

49) مخطوطات م. القرويين ، رقم 340 و 1126 ، م . ع بمراكش ، رقم 260 و 625

ولعبد الواحد الونشريسي **سنا المقتبس لفهم قواعد الامام مالك بن انس**، (50) نظم فيها كتاب والده مؤلف **المعيار**، المسمى **ايضاح المسالك الى قواعد مذهب مالك**، وزاد عليه كثيرا متوسعا فى الاستنباط والتمثيل والتعليل . وتعتبر هذه الارجوزة التى تنيف ابياتها على خمسمائة والف بيت معلمة فقهية كبرى لا غنى عنها لمن يريد التعرف على اصول مذهب مالك وفلسفته . وقد شرحها تلميذه احمد المنجور شرحا صافيا .

وكتب الذيوع والخلود لمؤلف صغير من مؤلفات هذا العصر، هى ارجوزة **المرشد المعين على الضرورى من علوم الدين** (51) لعبد الواحد ابن عاشر . وتحتوى على ثلاثة اقسام تتحدث بالتوالى عن عقيدة الاشعرى، وفقه مالك، وتصوف الجنيد، فى اسلوب سلس خال من كل حشو أو تعقيد . يحفظها الناس عن ظهر قلب فى كل بلاد المغرب الى مصر، وفى الاقطار الاسلامية بافريقيا السوداء، من لدن عصر المؤلف الى أيامنا هذه . وقد شرح **المرشد المعين** بعد أن قراه على ناظمه، محمد ميارة بشرحين : كبير وصغير . (52)

والف المغاربة فى ذلك العصر أيضا عشرات الكتب فى مواضيع خاصة **تتعلق بالفقه، كالفرائض**، (53) والنوازل، (54) والتوثيق، (55)

---

50) مخطوط م. م. بالرباط، رقم 6155 .

51) طبع **المرشد المعين** مرات عديدة لا تحصى بالمغرب والمشرق . منفردا ومع شروحه الكثيرة المتزايدة عبر الاجيال .

52) يسمى الشرح الكبير **الدر الثمين والمورد المعين فى شرح المرشد المعين على الضرورى من علوم الدين** . ويسمى الصغير مختصر **الدر الثمين** .. طبعا مرات عديدة على الحجر بفاس، ثم على الحروف بالمغرب والمشرق .

53) منها :
- **الجامع المستوفى لجداول الحوفى**، للامام ابن غازى علق فيه على **الفرائض الحوفية** الشهيرة لقاضى اشبيلية أبى القاسم الحوفى ( ت . 580 / 1184 )، مخطوطة م. م. بالرباط رقم : 10136 .
- **الرائض لطالبى الناهض باعباء علم الفرائض**، لاحمد ابن القاضى مخطوطة م. م. بالرباط، رقم 8840 .

54) من احسنها : **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، لعبد العزيز الزياتى، مخطوطة م. ع. بالرباط رقم 66 ج

55) منها : **اللائق لعلم الوثائق**، لاحمد ابن عرضون الزجلى . طبع على الحجر بفاس وعلى الحروف بتطوان فى جزءين .

والاصـــول ، (56) والجهـــاد ، (57) والديانـــات المقارنـــة (58) وغيرهـــا . (59)

ولا تقل مؤلفات علماء المغرب السعدى فى التصوف عنها فى الفقه والتوحيد ، فقد درسوا وشرحوا **صلاة الانوار** (60) لابن مشيش العلمى ، **والاحزاب** (61) تلميذه ابى الحسن الشاذلى ، و **حزب الفلاح** (62) ، و **دلائل الخيرات** (63) ، كلاهما لمحمد بن سليمان الجزولى ، **وحكم** (64)

---

56) نظم عبد الهادى ابن طاهر السجلماسى اشهر كتب الاصول المسمى **جمع الجوامع** لتاج الدين السبكى ( ت . 771 / 1369 ) . وشرحه شرحا موسعا . مخطوط خاص بالرباط

57) منها :
**فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة** ، لعبد الهادى بن طاهر السجلماسى ، مخطوطة م. م. بالرباط رقم 2992 .

58) منها :
— **النور الباهر فى نصرة الدين الطاهر** ، ليوسف بن عبد الله الاسلامى . راجعه وهذبه القاضى عبد الرحمن التمنارتى . مخطوط خاص بسوس .
— **ناصر الدين على القوم الكافرين** ، لاحمد بن قاسم الحجرى . مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم 1634 ت .

59) مثل :
— **مقنع المحتاج فى آداب الازواج** ، لاحمد ابن عرضون الزجلى ، مخطوطتا م. م. بالرباط ، رقم 4659. م. ع. بتطوان رقم 593
— اختصاره المسمى **الدرر الحسان فى آداب الازواج والولدان** . طبع على الحجر بفاس باسم **مقنع المحتاج** .
— منظومة عبد الله الهبطى فى **فقه النساء** ، **وشرحها** لابى القاسم ابن خجو . وقد طبعا على الحجر بفاس مرتين .

60) منها : — **شرح الصلاة المشيشية** للحسن الزياتى . مخطوطتا م. ع بالرباط ، رقم 798 ج وبتطوان 852 .

61) منها : — **شرح الحزب الكبير** ، وهو المعروف **بحزب البر** ، لعبد الرحمن الفاسى . مخطوط م. م. بالرباط رقم 885
— **شرح حزب البحر** ، لاحمد الصومعى . ( انظر أ. المقرى ، روضة ، 301 )

62) **نور المصباح فى فضائل حزب الفلاح** ، لاحمد الصومعى . المصدر السابق فى نفس الصفحة .

63) تعددت شروح **دلائل الخيرات** فى ذلك العصر . منها :
— **الانوار اللامعات فى شرح دلائل الخيرات** ، لعبد الرحمن الفاسى . طبع على الحجر بفاس ، عام 1317 / 1899 .
— **شرح دلائل الخيرات** ، لمحمد العربى الفاسى ، مخطوطة م. م. بالرباط رقم 3994

64) تعددت كذلك شروح **الحكم** فى ذلك العصر . منها :
— **فتح الباب الملتزم الجامع لبعض معانى كتاب الحكم** ، لامحمد الشطيبى . مخطوطتا م. ع. بالرباط رقم 1777 د و 2627 ك
— **مطلع الانوار السنية فى بعض معانى الحكم العطائية** ، لاحمد الصومعى ، مخطوطة م. ع. بالرباط رقم 722 ق .

ابن عطاء الله الاسكندرى ، وقصائد عبد الله الشقراطى التونسى (65) ، وابن الفارض المصرى (66) ، واحمد الشريشى السلوى (67) ، وابن البناء السرقسطى (68) وغيرهم من كبار الصوفية (69) .

والفوا كتبا مستقلة فى مباحث متنوعة من التصوف ، كمراتب الاولياء وحقيقة القطبانية (70) ، وآداب المريد واسرار العبادات (71) ، وحكم الجهر بالذكر (72) ، والسماع والرقص عند التواجد (73) ، وما الى ذلك من ادعية وأوراد (74) .

---

65) شرح اللامية **الشقراطية** ، لمحمد العربى الفاسى ، مخطوطة م. الوطنية بمدريد ، نسخة جيـدة كتبت عام 1102 / 1690 .

66) **شرح نظم السلوك** لمحمد بن ابراهيم التمنارتى . **ونظم السلوك** هى التائية الكبرى لابن الفارض فى 760 بيتا .

67) **ازالة الخفا وكشف الاستار عن وجوه انوار السرائر وسرائر الانوار** ، لاحمد الفاسى. طبع بمصر . وقد ظن ك. بروكلمان هذا الكتاب غير شرح **القصيدة الشريشية** فذكرهما مما ككتابين مختلفين ضمن مؤلفات احمد الفاسى .
( ذيل ، 2 : 701 — 702 ) .

68) تعددت شروح قصيدة ابن البناء المسماة **المباحث الاصلية عن جملة الطريقة الصوفية** ، وهى رائية فى 473 بيت . منها :
— **شرح المباحث الاصلية** ، لعبد الوارث اليصلوتى . ميكرو فيلم م. ع. بالرباط عن مخطوط معرض 1971 رقم 254 ر .
— **الاشارات السنية الى بعض معانى المباحث الاصلية** ، لمحمد الشطيبى مخطوطات م. م. بالرباط أرقام 1925 — 5610 .

69) مثل : **نزهة الناظرين ومصباح السالكين وشمس العارفين فى بعض معانى مقامـات السالكين** ، لاحمد الصومعى ، فى جزئين ، شرح بهما كتاب شيخ الاسلام الهـروى فى وصف مقامات الاولياء .
ولاحمد الصومعى اختصار هذا الشرح ، واختصار اختصاره . ( انظر أ. المقـرى ، روضة ، 301 ) .

70) **شمس المواسم فى معرفة الولى وحقيقة الولاية والقطب والغوث والخاتم** ، لاحمـد الصومعى ، مخطوطة خاصة بتادلا .

71) **آداب المريد وأسرار العبادات** ، لاحمد الصومعى ، مخطوطة م. القرويين ، رقم 707 .

72) **رسالة حول الجهر بالذكر** ، لاحمد الفاسى ، طبعت على الحجر بفاس .

73) **حكم السماع والرقص** ، لاحمد الفاسى ، طبع ايضا على الحجر بفاس .

74) تعددت كتب الادعية والاوراد أيام السعديين ، منها :
— **مفتاح الجنة المتوقف على الكتاب والسنة** ، لمحمد الشطيبى . مخطوطتـا م. م. بالرباط رقم 5626 و 5908 .
— **حدائق الانوار فى الصلاة على النبى وآله الابرار** ، لاحمد ابن عرضون الزجلـى ، مخطوطة م. ع. بتطوان ، رقم 875 .

على ان اعجب كتاب فى ذلك وصل الينا هو كتاب **العود احمد** للملك احمد المنصور . وهو فى اول مجموع ضخم يضم اورادا واحزابا صوفية للشاذلى ، وابن وفا ، والسهروردى ، وابن جابر الغسانى ، وغيرهم ، باختيار وجمع احمد المنصور نفسه .

رتب المنصور كتابه **العود احمد** (75) على ثمانية ابواب ، استعرض فى اولها الوظائف اليومية والليلية من وقت الانتباه من النوم الى وقت الاضجاع ، واتى فى الابواب التالية بالاذكار الخاصة بالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والنكاح والاكل والشرب والسفر .. ، وختم بذكر فضائل سور القرآن ، وصيغ الصلاة على النبى عليه السلام ، والتعوذ بالله تعالى (76) . وقد وقف احمد المقرى على هذا المجموع نفسه فأخذ بروعته ونفاسته وكتب عنه : « وقد رايت هذا التاليف بخط نأنق فيه صاحبه الى الغاية ، عن أمر هذا الخليفة ، وتخيل لى أنه لا يمكن أن يوجد له نظير فى مضمنه وخطه » (77) .

---

75) مخطوطة م. م. بالرباط ، رقم 4911 . نسخة ملكية مذهبة كتبت لاحمد المنصور فى قصره البديع بمراكش اواسط ذى الحجة ، عام 1009 / 1601 . فى أوائلها وأواخرها لوحات فنية رائعة زخرفت بالذهب والالوان المختلفة ، وكتبت صفحات كاملة بمحلول الذهب ، وزخرف سائرها بالذهب والالوان . والمجموع كله مكتوب بخط مغربى دقيق جميل جدا .

76) سنأتى بنموذج من أسلوب هذا الكتاب فى فصل آت .

77) أ. المقرى ، روضة ، 58 .

## ج ـ كتـــب اللغــــة والادب

ولع علماء العصر السعدى ولوعا خاصا بدراسة بعض كتب اللغــة والادب ، فشرحوها وعلقوا عليها مثل **صحاح** الجوهرى (78) ، **ومثلث** قطرب (79) ، **ولامية العرب** للشنفرى الجاهلى (80) ، **ولامية العجـم** للعميد الطغرائى ( ت. 1120/514 ) (81) ، **وديـــوان المتنبـــى** (82) ، لعبد الرحمن المكودى ، ( ت. 1405/807 ) ، كما شرحوا **والمقصورة** (83) واختصروا او عارضوا وخمسوا **بانت سعاد** (84) للصحابى كعب بن زهير، وقصيدتى **البردة** (85) ، **والهمزية** (86) لشرف الدين البوصيرى ، **والوتريات**

---

78) **حاشية على صحاح الجوهرى** ، لعبد العزيز الرسموكى . مخطوط خاص بسوس .

79) **الجملة المهدية فى شرح الابيات القطربية** ، لمحمد بن مهدى الدرعى . مخطوطا م. م. بالرباط رقم 4515 و 9324 .

80) **اتحاف ذوى الارب بمقاصد لامية العرب** ، لسعيد الماغوسى ، مخطوطات م. م. بالرباط 153 و 431 و 6648 ...

81) **ايضاح المبهم من لامية العجم** لسعيد الماغوسى ايضا . احسن مخطوطاتها فى م. م. بالرباط ، رقم 2000 ، نسخة ملكية مذهبة .

82 ـــ **شرح ديوان المتنبي** للنابغة الهوزالي . مخطوط خاص بسوس

ـــ **ترتيب ديوان المتنبى** لعبد العزيز الفشتالى بأمر من احمد المنصور ، رتبه حسب الابجدية المغربية ، ووضع له مقدمة ادبية رائقة ، وعناوين شيقة . وكتب عليه حواشى كثيرة تتعلق باللغة والبلاغة والسرقات الشعرية وغير ذلك ، مخطوطـة م. ع. بالرباط ، رقم 609 ج .
وهى نسخة ملكية كانت لاحمد المنصور وعليها توقيفاته منشفة بسحيق الذهب .

ـــ وهناك مخطوطة اخرى فى م. ع. بتطوان ، رقم 524 ، منسوبة لسعيد الماغوسى . وذلك مخالف لما اثبته مؤرخو العصر السعدى المعاصرون للفشتالى والماغوسى معا مما لايدع مجالا للشك فى أن **الترتيب هو للفشتالي** لا للماغوسى .
( انظر مثلا أ. ابن القاضي ، **درة** ، 1303 . أ. المقري **روضة** ، 162 )

83) تعددت شروح **مقصورة المكودى** فى ذلك العصر . من اشهرها :
ـــ **شرح** عبد الواحد الحسنى . مخطوطة الاسكوريال ، رقم 32 ، وهو بخط المؤلف .
ـــ **شرح** عبد العزيز الفشتالى . ( انظر م. العربى الفاسى ، **مرآة** ، 163 ) .
ـــ **شرح** ابى بكر التملى ، مخطوط خاص بسوس .

84) ـــ **شرح قصيدة بانت سعاد للعربي الفاسي** ( انظر م. القادري ، نشر ، 1 : 181).
ـــ **معارضة بانت سعاد** لعبد الهادى ابن طاهر السجلماسى . مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 74 د ، ضمن مجموع .

85) تعددت شروح **البردة** وتخميساتها . منها :
ـــ **شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح** ، لعبد الواحد ابن عاشر الانصارى .
( انظر ك. بروكلمان ، ذيل 2 : 700 ) .
ـــ **شرح آخر** ، لمحمد بن سعيد العباسى ، مخطوط خاص بسوس .
ـــ **تخميس البردة** لمحمد ابن يجبش التازى ، مخطوطا م. ع. بالرباط ، رقم 157 د و 2876 ك .
ـــ **تخميس** آخر لاحمد بن الحسن الحاحى ، مخطوط خاص بسوس .

86) **شروح الهمزية** ـــ متعددة كذلك . منها :
ـــ **شرح** احمد الصومعى ، مخطوطا م. م. بالرباط ، رقم 835 و 2166 ز .
ـــ **شرح** آخر لمحمد بن سعيد العباسى . مخطوط خاص بسوس .

فى مدح افضل الكائنات (87) لابن رشيد البغدادى ( ت. 662/63 — 1264 ) ، والمستطرف من كل فن مستظرف لمحمد (88) الابشيهى ( ت. 852/1448 ) والمحاضرات والمحاورات (89) لجلال الدين السيوطى ، وغيرهـا .

والفوا كذلك عشرات الشروح والحواشي علىكتب النحو والصرف والبلاغة والعروض التى اعتمدوها فى الدراسة ، كالشافية (90) لابن الحاجب ، والالفية (91) ولامية الافعال (92) كلاهما لابن مالك والمقدمة النحوية (93) لابن آجروم الصنهاجى ( ت. 723/1323 ) ، ولامية الجمل (94) ، لابن المجراد

---

87 — معارضة الوتريات ، لعبد العزيز الرسموكى . مخطوط خاص بتسوس .
— معارضة أخرى لبعض الوتريات ، لمحمد ابن يجبش التازى ، مخطوط م. م. بالرباط، رقم 3755 ز .
— والوتريات . عبارة من 29 قصيدة مرتبة قوافيها على حروف المعجم ، فى كل منها واحد وعشرون بيتا . ( انظر ن. س. علوش ، فهرس المخطوطات ، 1 : 116 )

88) اختصار المستطرف لبيبورك السملالى . مخطوط خاص بتسوس .

89) مختصر المحاضرات لبيبورك التسملالى ايضا . مخطوط خاص بسوس .

90) كنز الطالب على شافية ابن الحاجب ، لسعيد الماغوتسى ، بأمر من احمد المنصور . يوجد فقط الجزء الاول منه مخطوطا بالاسكوريال رقم 20. وهو فى مجلد ضخم من 269 ورقة من الحجم الكبير ، بخط مغربى دقيق .

91) تعددت شروح الالفية وحواشيها فى هذا العصر . منها :
— شرح الفية ابن مالك للامام ابن القازى ، مخطوطة م. ع. بتطوان ، رقم 534 .
— شرح آخر لاحمد المنجور بأمر من احمد المنصور .
— حاشية على شرح المرادى للالفية ، لعبد الواحد الحسنى ، مخطوط م. م. بالرباط، رقم 8338 ( ضمن مجموع ) .
— حاشية على شرح المكودى للالفية ، للحسن الزياتى ، مخطوط م. م. بالرباط رقم 17734 .

92) تعددت ايضا شروح اللامية وحواشيها ، منها :
— شرح لامية الافعال ، لبيبورك السملالى ، مخطوطتا م. ع. بتطوان رقم 429. و م. م. بالرباط رقم 6701 .
— حاشية على شرح المكلاتى للامية الافعال ، مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 920 ج .

93) لاتكاد تحصى شروح المقدمة الاجرومية وحواشيها وانظامها فى هذا العصر ، منها :
— شرح مقدمة ابن آجروم للحسن الزياتى ، مخطوط م. م. بالرباط ، رقم 1202 .
— شرح شواهد الشريف على الآجرومية ، لاحمد الدقون . مخطوطات كثيرة بالرباط وتطوان وتونس ، من احسنها مخطوط م. م. بالرباط رقم 3890 ز .
— النسط المنظوم من جوهرة ابن آجروم ، للعربى الفاسى ، مخطوط م. ع. بتطوان ، رقم 542 ، ضمن مجموع .

94) شروح لامية الجمل وحواشيها كثيرة ، منها :
— شرح جمل المجراد السلوى للحسن الزياتى ، مخوطات م. القرويين ، رقم 1222 م. م. بالرباط ، رقم 7189 و 3547 .
— شرح لامية المجراد لبيبورك التسملالى ، طبع مرارا بالرباط والدار البيضاء .
— شرح ثالث لسوسى آخر هو على بن احمد الرسموكى . طبع على الحجر بفاس وعلى الحروف بتونس .
— حاشية على شرح الحسن الدرعى للامية الجمل ، لمحمد ميارة ، مخطوطات م. م. بالرباط ، رقم 4482 و 6041 و 6523 ...

السلوى ، **والمغنى** (95) ، **والموضح** (96) ، كلاهما لجمال الدين ابـــن هشام ( ت. 1360/761 ) ، **ونكت السيوطى** (97) على **الالفية والكافيـــة الشافية** و **نزهـــة الطرف** و **شذور الذهب** و **تلخيص المفتـــاح** (98) للخطيب القزوينى ، **وعلاقات المجاز** (99) لابن الصباغ المكناسى ( ت. 749/ 1348 ) **والرامزة الشافية** (100) فى العروض لضياء الدين الخزرجـــى ( ت. 1229/626)

ووضع علماء ذلك العصر كتبا اخرى مستقلة فى هذه المواضيع وقاموا بتدريسها للطلبة ، مثل **امداد بحر القصيد ببحرى اهل التوليـــد** (101) .. للامام ابن غازى ، تكلم فيه على المتدارك والدوبيت ، وأحكام القوافـــى ، و **كافية النهوض فى صناعة العروض** (102) لعبد العزيـــز الرسمـــوكـــى ، **والالفية النحوية** (103) لعبد الهادى ابن طاهر السجلماسى ، و **خريدة الكلل فى الجمل** (104) للعربى الفاسى ، و **مفردات الوزير** (105) **و مختصر حديقة الازهار** (106) ، وهما معجمان للنبات من تاليف ابى القاسم الوزير الغسانى .

اما المؤلفات الادبية الخالصة فكثيرة فى العصر السعدى ، سبق أن اشرنا الى بعضها فى المقدمة ضمن المراجع الاساسية ، وسنتحدث عـــن اخرى فى القسم الثانى من هذه الدراسة . بينما نكتفى هنا بتعليق موجز على اربعـــة منها :

---

95) **حاشية على مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب** ، ليوسف الرسموكى ، مخطوط خـــاص بتـــوس .

96) **شرح أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك** ، لمحمد بن سعيد العباسى ، مخطوط خاص بســـوس .

— **حاشية على أوضح المسالك الى الفقيه ابن مالك** ، للحسن الزياتى . يوجد منه فقط الجزآن الاول والثالث مبثورا ، مخطوط م. م. بالرباط ، رقم 1823 .

97) **اختصار نكت السيوطى** ، لعبد الواحد الحسنى . مخطوطا م. م. بالرباط ، رقم 3597 ز و 8338 .

98) — **نظم تلخيص المفتاح** لعبد الهادى ابن طاهر السجلماسى .

— **شرح** هذا النظم لنفس المؤلف ( انظر ا. الفضيلى ، **الدرر البهية** ، 1 : 265 ) .

99) **شرح نظم علاقات المجاز** لاحمد المنجور مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 1032 د .

100) **شرح خزرجية العروض** لعبد العزيز الرسموكى ، مخطوط خاص بسوس .

101) مخطوطات م. القرويين ، رقم 1314 ، م. م. بالرباط ، رقم 603 ، الاسكوريـــال ، رقم 330 .

102) مخطوط خـــاص بســـوس .

103) انظر ا. الفضيلى ، **الدرر البهية** ، 1 : 265 .

104) توجد مع شرحها لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى فى مخطوط خاص بفاس .

105) مخطوط م .م. بالرباط ، رقم 2994 .

106) مخطوط م. م. بالرباط ، رقم 1063 و 7336 .

1 — **مدد الجيش** (107) لعبد العزيز الفشتالى ، عارض به جيش **التوشيح** (108) للسان الدين ابن الخطيب مستدركا عليه جملة من الموشحات الاندلسية التى اغفلها ، ومضيفا عددا وافرا من موشحات شعراء المغرب على عهد السعديين ، اناف ما يختص منها بمدح احمد المنصور على ثلاثمائة موشح (109) . وفى الاوراق التى بين ايدينا من **مدد الجيش** تسع موشحات اندلسية فى مواضيع متنوعة ، لابى بكر بن ازهر ، وعبد الكريم بن عزرة ، وابى بكر بن البناء الاشبيلى ، وشيخ الكتاب ابى الحسن ابن الجياب . تأتى بعدها موشحة للمؤلف الفشتالى فى الخمر ومعاقرتها ليلا وسحرا ، موريا فيها بالسواد والبياض شعارى الدولتين العباسية والسعدية ، ثم اخرى للطبيب الوزير الغسانى فى مدح احمد المنصور .

2 — **روض السلوان** (110) لابراهيم بن محمد الفجيجى . وهى قصيدة عينية من بحر الطويل . فى ثلاثة عشر ومائتى بيت مع مقدمة نثرية لطيفة . اشتملت القصيدة على ذكر الصيد وفوائده ، وما يتعلق به من الاحكام الفقهية ، مع اشارات ادبية وتاريخية ، ووصف للفرس والصقر والطرائد والصحراء والواحات والطيور . تشبه هذه القصيدة فى بعض مقاطعها لامية الشنفرى ، وفى اخرى معلقة امرىء القيس الى مسحة دينية صوفية بارزة .

3 — **الفريد فى تقييد الشريد** (111) .. لابى القاسم الفجيجى ، شرح به **روض السلوان** المتقدم . وقد وضعه كما قال فى المقدمة استجابة لرغبة الطلبة الذين اشكلت عليهم بعض ابيات القصيدة واشاراتها . ورغم اهتمام المؤلف بالجوانب اللغوية والنحوية والبلاغية ، فان الطابع الادبى يسود الكتاب ، لاسيما وقد مكنته قرابته من الناظم ان يثبت — نقلا عن خطه — كثيرا من التعاليق والقصص الادبية والتاريخية .

---

107) كان **مدد الجيش** كاملا ضمن مخطوطات مكتبة القرويين بفاس فى اوائل هذا القرن ، ثم استعاره بعضهم ولم يرده . وتوجد الآن ستة اوراق من **مدد الجيش** ضمن مجموع ادبى فى مكتبة خاصة بسلا . وهى على ما يبدو بخط المؤلف الفشتالى نفسه ، عليها شطب وابدال والحاق بخطه .

108) طبع بمطبعة المنار فى تونس سنة 1967 .

109) ذكر ذلك احمد المقرى بنقل مباشر عن المؤلف الفشتالى . ( انظر **روضة** ، 162 ) .

110) توجد نسخ مخطوطة كثيرة **لروض السلوان** ، منها فى م. القرويين رقم 1314 ، م. ع. بالرباط ، رقم 268 د ، ( ضمن مجموع ، ص. 106 — 117 ) . ونشر ع. كنون نصها فى **النبوغ** ، 3 : 111 — 119 .

111) مخطوطات م. م. بالرباط ، ارقام 4198 و 4260 و 5808 ، م. حسن حسنى عبد الوهاب بتونس ، رقم 412 .

4 ــ **تحفة الادب فى ذكر مسائل من كلام العرب** (112) لقاسم ابن القاضى . هذا الكتاب فريد من نوعه فى العصر السعدى ، احتوى على بعض ما قصده ابو الفتح الموصلى فى **المثل السائر** ، وابن قتيبة فى **ادب الكاتـــب** مما ينفع الكتاب من قواعد الرسم وغيره . وهو مؤسس على مقدمة ، وسبعة عشر بابا ، وخاتمة .

تحدث المؤلف فى المقدمة عن الادب فجعله أصنافا ثلاثة :

ــ ادب طبعى كالكرم والمروءة والشجاعة .

ــ وادب كسبى ، كالنحو واللغة والشعر والتاريخ .

ــ وادب صوفى ، وهو ضبط الحواس ، ومراعاة الانفاس .

ودرس فى الابواب قواعد الرسم المختلفة ، وأورد فى الخاتمة التـــى تكون نحو ربع الكتاب مسائل أدبية ولغوية متفرقة ربما فاقت فى أهميتهـــا وطرافتها ما احتوت عليه الابواب السابقة .

---

112) مخطوطة م. م. بالرباط ، رقم 53 . بخط المؤلف
وبعد أن اورد المؤلف فى المقدمة اسم الكتاب كما ذكرناه ، وضع عليه خطا وكتب بالهامش **ضوء الصباح لتكميل الايضاح** .

## د ـ كتب التاريخ والتراجم والفهارس والرحلات :

جمعنا هذه الاصناف الاربعة تحت ترجمة واحدة لانها كانت موضوع دراسة ل. بروفنسال فى كتابه **مؤرخو الشرفا** ، ورغم استقصائه وذكره حتى اسماء الكتب المفقودة او التى لم يتمكن من الاطلاع عليها ، فانه لم يأت بأكثر من اربعة وثلاثين كتابا (113) فيما يتعلق بالعصر السعدى . وبذلك فاتـــه اكثر مما ذكر من حيث العدد ، وظهرت بعده كتب كاملة أو اجزاء مما كان يظن مفقودا . وقد راينا ، سيرا مع الخطة التى التزمناها بعدم محاولـــة الاستقصاء ، الا نمثل هنا الا بكتب لم ترد عند ل. بروفنسال ولم يسبق لنا ذكرها فى المقدمة ضمن المصادر الرئيسية .

ففى التاريخ والتراجم ، اختصر احمد الصومعى كتاب **مروج الذهـب ومعدن الجوهر** (114) ، لابى الحسن المسعودى ( ت. 957/346 ) ، ونظم رضوان الجنوى رجال **حلية الاولياء** (115) لابى نعيم الاصبهانى ( ت. 430/ 1038 ) ، وذيل احمد بن على البوسعيدى **الفية العراقى** (116) فى السير ، وكتب **ترجمة اشراق البدر فى عدد اهل بدر** (117) معتمدا على كتـــــاب **الاستيعاب** للحافظ ابن عبد البر ( ت. 1071/463 )

والف يحيى بن سعيد الكرامى **خبر الزمان** (118) فى نحو الفى بيت ، تحدث فيه عن تاريخ العالم منذ بدء الخليقة ، واخبار الرسل من آدم الـــى محمد عليهما السلام ، قبل أن يتخلص الى التاريخ الاسلامى . وكتب محمد ابن عبد الله الهبطى **المعرب الفصيح عن سيرة الشيخ الرضى النصيح** (119) فى ثلاثة وسبعين وثلاثمائة والف بيت ترجم فيه لابيه ترجمة مستفيضـــــة مستوعبة لشيوخه وتلاميذه وأحوال الطريقة الجزولية ـــ الشاذلية عموما . كما كتب محمد العربى الفاسى **شذر الذهب فى خير نسب** (120) مبينا أصول وفروع الشرفاء العلميين .

---

113) منها 18 فى التراجم ، و 9 فهارس ، و 5 فى التاريخ ، ورحلتان .

114) مخطوط م. م. بالرباط ، رقم 4584

115) مخطوط م. م. بالرباط رقم 3758 ، ضمن مجموع .
وهى ارجوزة فى الف ونيف من الابيات ، ذكر فى آخرها انه انتهى من نظمها عام 982 / 1574

116) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 1594 د .

117) مخطوط م. ع. بالرباط رقم 341 ج .
ترجم فيه للنبى عليه السلام ، ثم للعشرة المبشرين بالجنة ، ثم لسائر الصحابة الذين شهدوا بدرا مرتبين على حروف المعجم ، واضعا حرف (خ) على من اختلف فى شهوده بدرا وحرف (ع) على من هو من أهل العقبة .

118) مخطوطنا م. ع. بالرباط ، رقم 239 ج ، م. م بالرباط رقم 3523

119) مخطوطة م. القرويين ، رقم 1389 و مخطوطة خاصة بالرباط .

120) مخطوط خاص بفـاس .
وشذر الذهب عبارة عن قصيدة بائية من بحر الطويل فى نحو 120 بيتا .

والف في هذا العصر كتابان في ترجمة ابي عمرو القسطلي صاحب الضريح الشهير برياض الزيتون في مراكش ، اولهما **شمس المعرفة في سيرة غوث المتصوفة** (121) ، لقاسم الحلفاوي (ت. بعد 1000 / 1591) ، والثاني **شمس القلوب لكل محبوب** (122) لمحمد ابن الفقيرة الزروالي ، والف ايضا كتابان آخران في ترجمة احمد بن موسى السملالي الشهير هما : **اخبار الشيخ احمد بن موسى** (123) لاحمد شيخ سوس ادفال ، و **مناقب السيد احمد بن موسى** (124) لبيورك السملالي . ونظمت ارجوزتان في الشهداء ، احداهما لعبد الله العثماني (125) ، والاخرى للامير يحيى الحاحي (126) .

وفيما يتعلق بالفهارس والرحلات ، كتب محمد بن يعقوب الايسي **فهرسا** (127) حافلا رواه عنه احمد ابن القاضي تدبيجا ، ومحمد العربي الفاسي **فهرسا** (128) جامعا لمشيخة فاس في مطلع القرن الحادي عشر (17 م.) ، ومحمد بن يوسف التملي **فهرسا** (129) يغلب عليه الطابع الادبي وحتى الملك احمد المنصور كتب **فهرسا** شاملا لشيوخه ومقروءاته على كل منهم وسنده في مختلف العلوم العقلية والنقلية ناولها بخطه لكاتبه عبد العزيز الفشتالي فاثبتها بنصها في مناهل الصفا (130) . وخصص عيسى بن محمد البطوئي الفصول الثلاثة الاخيرة من الباب السابع من كتابه **مطلب الفوز والفلاح** (131) لفهرسه الجامع لمشيخة جبال الريف وشرقي المغرب وتلمسان ، ومحمد ميارة الفصل الاول من كتابه **نظم اللالي والدرر** (132) **لفهرس** استوعب شيوخه ومقروءاته واسانيده .

---

121) مخطوط م. ع بمراكش ، رقم 171 ، م. ع. بالرباط رقم 764 ج و 2552 و 3165

122) ميكرو فيلم م. ع. بالرباط رقم 188 .
**ملاحظة :** يوجد تداخل بين الكتابين السابقين ولو ان اولهما مؤسس على خمسة ابواب والثاني على اربعة مع مقدمة وخاتمة في كل منهما . لم اتمكن بعد من المقارنة بينهما .

123) توجد منه نسخ مخطوطة خاصة في الرباط وسوس ، وكلها مبتورة . وقد نشر المختار السوسي بعضه في **المعسول** ، 12 : 20 — 43 .

124) مخطوط خاص بسوس .

125) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 157 د ، ورقة 128 — 129 .

126) انظر م. الافراني ، **نزهة** ، 189 .

127) انظر ع. الكتاني ، **فهرس الفهارس** ، 2 : 472 — 473 ، ع. ابن سودة ، **دليل** ، 2 : 213 .
م. المختار السوسي ، **سوس العالمة** ، 187 .
وقد حرف ل. بروفنسال اسمه فدعاه اليوسي بدل الايسي ، ولم يقل شيئا عن **فهرسه** سوى انه عده من جملة مصادر الافراني في **النزهة** .

128) مخطوط خاص بالرباط .

129) مخطوط خاص بسوس .

130) ص. 188 — 191 .

131) مخطوطا م. م. بالرباط رقم 1667 ، و م. ع بالرباط رقم 2613 ك

132) مخطوطا م. م. بالرباط رقم 855 و 3702 ز .

ومن الرحلات المؤلفة ايام السعديين **رحلة** (133) كبرى لابن خروف التونسي دفين فاس ، ذكر فيها خروجه من تونس ، اطلع على بعضها مؤلف **فهرس الفهارس** (134) . ورحلتان اخريان تتحدثان عن تنقل داخل المغرب، اولاهما لمحمد بن قاسم ابن القاضي (135) والثانية لمحمد العربي الفاسي (136) وقد عثرت على قطعة مهمة من هذه الاخيرة ، يتحدث فيها المؤلف عن خروجه من فاس الى بنى زروال ثم الى الدلاء .

---

133) انظر ع. الكتانى ، **فهرس الفهارس** ، 1 : 279 .

134) المصدر السابق فى نفس الصفحة .

135) انظر م. الكتانى ، **سلوة** ، 3 : 287 ، ع. ابن سودة ، **دليل** ، 2 : 343 .

136) يوجد بعضها ضمن مجموع مخطوط خاص بفاس .

## هـ ـ كتـب علميـــة وتقنيـــة ومترجمـــة

يقل عدد هذه الكتب بالنسبة لكتب اللغة والدين والادب ، وتبقى مع ذلك معدودة بالعشرات

من كتب الرياضيات :

- **منية الحساب** (137) للامام ابن غازي . وهو رجزفي نحو خمسين ومائتى بيت ، يشتمل ـ كما جاء في المقدمة ـ على أمهات علم الحساب .

- **بغية الطلاب على منية الحساب** (138) ، شرح بها الامام ابـن غازى نظمه السابق .

- **اجنحة الرغاب فى معرفة الحساب** (139) ، المعروفة فى سوس **بالمنظومة السملالية** ، لابراهيم بن ابى القاسم السملالى .

- **شرح اجنحة الرغاب فى معرفة الحساب** (140) لعلى بن احمد الرسموكى .

- **شرح كشف الاسرار عن علم حروب الغبار** (141) لحســن الهشتوكى ، شرح به كتاب أبى الحسن القلصادى الشهير فى الحساب والجبـر .

ومن كتب الهنـــدســـة :

- **فتح الخبير بحسن التدبير لفكرموز الاكسير فيصناعة التكسير** (142) لاحمد ابن القاضى ، شرح به **الاكسير الشهير فى الهندسة لابن ليـــون** التجيبـــى ( ت. 750/1349 ) . يحتوى على اشكال هندسية كثيرة رسمت بعناية فائقـــة .

---

137) توجد منها مخطوطات كثيرة . من احسنها مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 2243 ، ضمن مجموع ، ص : 94 ـ 121 .

138) طبعت على الحجر بفاس فى 248 صفحة .

139) مخطوط م. ع. بالرباط رقم 1647 د، ضمن مجموع .

140) مخطوط م. ع. بالرباط رقم 1531 د ، ضمن مجموع .

141) مخطوط خاص بسوس .

142) مخطوط م. م. بالرباط رقم ، 5455 .

— **مقدمات علم التكسير** (143) لاحمد بن محمد الولاتى ، علق به ايضا علـى **الاكسير** ، وضمنه تعاريف واضحة واشكالا هندسيـة تطبيقيـة متقنـة .

ومن المعلوم أن الهندسة المعمارية والصناعية ازدهرت على عهد السعديين الذى شيد فيه قصر البديع وبساتينه وبركه وملحقاته ، أعظم قصر بنى فى المغرب طوال تاريخه سعة وضخامة وفنا وزخرفة (144) واسست مصانع السكر الضخمة فى سوس وحاحا وضواحى مراكش بما احتوت عليه من آلات تذويب السكر وتصفيته وتشكيله فى قوالب مختلفة (145) ، كل ذلك « بحركات هندسية ، ولوالب فلسفية ، ومقاييس حدسية .. » (146) ، غير أن تلك الهندسة لم تسجل فى كتاب أو لم نطلع عليها لحد الآن .

*** *** ***

وفى علوم الفلك والتنجيم والتوقيت كتبوا شروحا عديدة لكتاب **اليسارة فى تعديل السيارة** ، لابن البناء المراكشى ( ت 721 / 1321 ) ، منها شـرح لاحمد بن حميدة المطرفى (147) ، وآخر لاحمد ابن معيوب الاندلسى (148) ، وثالث لعبد الرحمن البعقيلى (149) . وخمسة شروح **لروضة الازهار فى علم وقت الليل والنهار** لعبد الرحمن الجادرى ( ت. 1435/839 ) ، منهـا **لبلب الفضة فى شرح الروضة** (150) لاحمد بن حميدة المطرفى ، **وتفجير الانهار خلال روضة الازهار** (151) لمحمد بن قاسم ابن القاضى ، **وتفجير الانوار من روضة الازهار** (152) لعبد الرحمن البعقيلى ، و **قطف** ايضا **الرسالة الفتحية فى الاعمال الجيبية** لمحمد سبط الماردينى (ت. 912/ 1506) أرجوزة سماها **تحصيل المطلوب من ربع الجيوب** (153) فى عشرين بابا

143) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 2231 د ، ضمن مجموع ص : 95 — 135 .

144) انظر وصف قصر البديع لشاهد عيان هو ع. الفشتالى ، **مناهل** ، 167 — 181 .

145) انظر ب. بيرتيى ، **معامل السكر القديمة** ، 1 : 89 — 220 .

146) ع. الفشتالى ، **مناهل** ، 182 .

147) اسمه : **المقصد الاسنى فى حل مقفل يسارة ابن البناء** ، مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 1596 د ، ورقة 16 — 28 .

148) اسمه **السيارة فى تقديم السيارة** ، انظر م. الامرانى ، **صفوة** ، 104 .

149) مسماه **شرح اليسارة فى الهياة** ، مخطوط خاص بسوس .

150) مخطوط م. ع بالرباط ، رقم 1412 د : اول مجموع ، ورقة 1 — 27 .

151) مخطوط م. م. بالرباط ، رقم 9312 .

152) طبع على الحجر بفاس .

153) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 2187 د ، ضمن مجموع ، ص : 33 — 50 .

والف الفلكيون فى ذلك العصر كتبا اخرى مستقلة نثرا ونظما . منها :

— **جمع المهمات المحتاج اليها فى علم الميقات** (154) ، لاحمد بـن حميدة المطرفى ، بناه على مقدمتين واربعة وعشرين بابا ، مفصلا القول فى كيفية العمل بآلة الاسطرلاب .

— **المقرب فى وصف المجيب (155)** للمطرفى ايضا . بناه على مقدمة وواحد وعشرين بابا ، استوفى فيها طرق استعمال آلة الربع المجيب فى حساب الاطوال والعروض واستخراج الجهات وغير ذلك .

— **ارجوزة فى وصف المنازل** (156) لمحمد بن عبد الله الزمورى .

— **منظومة الربع المجيب** (157) لعبد الواحد ابن عاشر .

— **نبذة فلكية لطالب الاختبارات النجومية** (158) لمحمد بن علـى الشطيبى .

*****

والفوا فى المنطق كتبا منثورة ومنظومة ايضا ، مثل :

— **الدرر المنطقية** (159) لعبد العزيز بن عبد الواحد المكناسى ( ت. حوالى 980 / 1572 بالمدينة المنورة ) . وهى لامية فى ستة عشر ومائة بيت بيت على غرار **لامية الافعال لابن مالك** .

— **مباحث الكلية والجزئية** (160) لمحمد بن عبد الله الهبطى .

— **ارجوزة المنطق** (161) لعبد الرحمن البعقيلى .

— **شرح ارجوزة المنطق** (162) لمحمد بن عبد الله ابن يعقوب .

— **الطالع المشرق من افق المنطق** (163) لمحمد العربى الفاسى .

---

154) مخطوطات م. ع. بتطوان ، رقم 330 م . م بالرباط ، رقم 5471 ر 6676
155) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 1425 ، ضمن مجموع ، ص : 5 — 23 .
156) مخطوط م. ع. بالرباط ، 2027 د ، ثالث فى مجموع .
157) طبعت مع شرحها لمحمد الافصاوي على الحجر بفاس .
158) مخطوطة م. الوطنية بتونس ( مكتبة ح. ح. عبد الوهاب ) ، رقم 26
159) مخطوط م. ع. بالرباط رقم 1072 د ، ضمن مجموع .
160) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 2076 د ، خامس فى مجموع .
161) مخطوط خاص بسوس .
162) مخطوط خاص بسوس .
163) مخطوط م. ع. بتطوان ، رقم 647 ، ضمن مجموع .

وقد تكاثر عدد الاطباء والصيادلة بالمغرب لذلك العهد حتى كان لهم رئيس يرجعون اليه فى الشؤون الفنية ، ويرخص للمتخرجين الجدد بمزاولة التطبيب والعلاج بعد الاختبار والتثبت (164) . ووصلنا من مؤلفاتهم نحو عشرين كتابا ، منها للرئيس أبى القاسم الوزير الغسانى :

— **حديقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار** (165) ، هو معجم نباتى سبق أن تحدثنا عنه ضمن كتب اللغة .

— **اختصار حديقة الازهار** (166) اقتصر فيه على ما يحتاج اليه الطلبة.

— **تفسير بعض الاعشاب والعقاقير مقتطف من كتاب ريحانة الجيوب فى العقاقير والعشوب** (167) وهو معجم طبى ثالث مرتب على حروف المعجم أيضا .

— **الروض المكنون فى شرح رجز ابن عزرون** (168) الفه برسم خزانة ولى العهد محمد المامون الشيخ عام 999 / 1586 شارحا به رجز هارون بن اسحاق ابن عزرون فى الحميات والاورام . **وهو ذيل لارجوزة ابن سينا الطبية** .

ومنها للطبيب عبد الغنى بن مسعود الزمورى :

— **القانون المفيد فى علاج الحصى بقول سديد** (169) أهداه لاحمد المنصور ، وقسمه الى خمسة عشر بابا ، خصص الاخير منها لشرح الادوية الواردة فى الكتاب مرتبة ترتيبا أبجديا .

— **خواص النباتات** (170) شرح فيها الادوية باللسان اليونانى والسريانى والفارسى والعجمى وغير ذلك مما يشكل على أهل العصر .

وكتب أبو القاسم الغول الفشتالى عام 1038 / 1628 **حافظ المزاج ولافظ الامشاج بالعلاج** (171) ويعرف أيضا **بأرجوزة الفشتالى الطبية** فى

---

164) ع. الزمورى ، **القانون المفيد** ، المقدمة .
165) مخطوطات م. ع. بالرباط ، أرقام 1684 و 1685 و 1686 د وكلها مبتورة ، م. م بالرباط رقم 2994 ، تام .
166) مخطوطات م. ع. بالرباط ارقام ، 760 د 359 ج ، م. م بالرباط ، رقم 1063 و 7336 .
167) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 1121 د ، ضمن مجموع ، ورقة 140 — 154 .
168) مخطوطات متعددة ، احسنها مخطوط م. ع بالرباط رقم 1386 د بخط المؤلف .
169) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 294 ق . ثان فى مجموع
170) مخطوط م. ع. بالرباط رقم 955 د ، ضمن مجموع ، ص : 122 — 138 .
171) مخطوطات كثيرة من احسنها مخطوطا م. م. ، بالرباط ، رقم 1705 و 6083 وهما مشكولان مع طرر .

عشرة واربعمائة والف بيت مقسمة الى اربعة وعشرين بابا ، ومحمد بـــن احمد اليمقيلي **مجموع المنافع في علم الطب النافع** (172) المعروف ايضـــا **بطب اليمقيلي** ، وعبد العزيز الرسموكي **كشف الرموز** (173) في مجلد ضخم فسر فيه الاعشاب والامراض والادوية بالشلحة ..

ومن آخر الاطباء المؤلفين في ذلك العصر الرئيس على بن ابراهيم الاندلسي صاحب المنظومات الطبية العديدة المهداة الى الملك الوليد بـــن زيدان (ت. 1636/1045) :

— **ارجوزة الفواكه الصيفية والخريفية** (174) في نحو ثلاثمائة بيت ذكر فيها ثلاثة وعشرين من الفواكه المعروفة بالمغرب آنذاك منبها على طبائعها وفوائدها ومحاذيرها .

— **ارجوزة علاج العيون** (175) وصف فيها ثلاثة وعشرين من العقاقير الناجمة في مختلف اورام العيون .

— ارجوزة ثالثة في **الاعشاب وخواصها في شفاء الامراض** (176) رتبها على حروف المعجم .

— **منظومة في النكاح** (177) اشتملت على جوانب من التربية الجنسية.

⁂

وكنت في اواسط سنة 1967 بعثت الى طبيب صديق لي بمدينـــــة مراكش (178) أعرف فيه سعة الاطلاع على التراث الاسلامي في الطب ، واهتماما خاصا بعلاج الحصى دواء وجراحة ، بعثت اليه بمقتطف من بابين من كتاب **القانون المفيد** للزموري ، وهما الباب الخامس في علامات الحصى الخاصة بها ، والباب السابع في الاعراض التي يقصدها الاطباء بالعلاج في الحصى وقوانين تدبيره . فتلقيت منه جوابا مطولا يثبت صحة النقول الواردة

---

172) مخطوطات كثيرة ايضا من احسنها مخطوط م. ع. بالرباط رقم 1644 د .

173) مخطوط خاص بسوس . انظر م. المختار السوسي ، **خلال** 4 : 18 .

174) مخطوطا م. ع. بالرباط رقم 284 ق ، م. م بالرباط 6499

175) مخطوط م. م. بالرباط رقم 515 .

176) انظر ع. ابن ابراهيم ، **الاعلام ( المخطوط )** ، 9 : 126 .

177) مخطوط خاص بفـــاس .

178) يتعلق الامر بالدكتور احمد رمزي وزير الصحة العمومية بالمغرب حاليا .

فى النص عن خلف الزهراوى وابن سينا وابن البيطار ، ويؤكد « ان الامراض المشار اليها ما زالت صحيحة قائمة ولو اصبح التشخيص اليوم يعتمد على وسائل فحوص امامية اخرى كالاشعة السينية والتحليلات الكيماوية الاخرى. اما فى ذلك العصر فانهم كانوا يسترشدون بدقة العلامات المرضية وقوة الحدس اما فيما يخص المداواة فان كل الاعشاب المذكورة لا يعمل بها اليوم . وليس صحيحا البتة ان كل المتخلى عنه اليوم والمهمل لم يكن ذا جدوى فيما مضى وخاصة فى الطب ، اذ استطاع الانسان ان يقاوم الالم بشتى انواع الوسائل من عشبية ونفسانية .. »

⁂

وألفت فى ميدان التقنيات كتب فى مواضيع كانت تشغل بال طائفة من الصناع والفلاحين والعسكريين وغيرهم ، منها :

ــ **صناعة تسفير الكتب وحل الذهب** (179) لاحمد بن محمد السفيانى، كتبه عام 1029 / 1620 فى مقدمة وثلاثة ابواب ، مبينا كيفية صنع الدفف وكسوتها بالجلد وطريقة حل الذهب وسقيه بالغراء وصفة عمل الترنجة ..

ــ **السكة فى المغرب** (180) عالج فيه محمد بن يعقوب الايسى انواع المسكوكات المغربية من المعدن الثمين . ومن المعلوم انه كان فى دار السكة بمراكش آنذاك اربعمائة والف مطرقة تضرب الدنانير الذهبية الخالصة كل يوم (181) .

ــ **صنعة الفلاحة** (182) رسالة لمحمد بن على الشطيبى رتبها على ثمانية ابواب واعتمد فيها على ما تقرر فى كتب علماء الفلاحة الاندلسيين امثال ابن بصال وابن وافد وابن ليون التيجبى كما اعتمد على تجاربه الشخصية مبينا ما يلائم طبيعة البلاد المغربية بصفة خاصة .

ــ **كيفية قسم المياه لقواديس الديار** (183) لابى القاسم الغول الفشتالى .

ونقلت من الاسبانية والبرتغالية الى العربية كتب فى مواضيع علمية مختلفة منها :

---

179) نشره پـ. ريكار رئيس مصلحة الفنون الاهلية بالمغرب اولا سنة 1918 ، ثم سنة 1925 بالمكتبة الشرقية بباريز ، مع فهرس للكلمات التقنية الواردة فى الكتاب ومقابلها مع شرحها بالفرنسية .

180) مخطوط خاص بسوس .

181) انظر م. الافرانى نزهة 86 .

182) انظر ش. اعراب مقال حول رسالة **صنعة الفلاحة** ، **دعوة الحق** ، السنة 13 ، عدد 1 نونبر 1969 ، ص : 121 وما بعدها .

183) انظر ع. كنون **النبوغ** 1 : 255 .

— **العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع** (184) الفه بالاسبانية ابراهيم غانم الاندلسى التونسى ونقله الى العربية — باتفاق مع المؤلف — احمد بن قاسم الحجرى المراكشى عام 1048 / 1638 فى مقدمة وخمسين بابـا ، اضاف اليها المترجم خاتمة تحدث فيها عن نفسه وتقلبات احواله. يشير الباب الاول الى تاريخ اختراع البارود وما جد فى فن المدفعية بأوربا واميركا آنذاك حيث كان المؤلف يعمل فى صفوف المدفعيين الاسبان . وتتحدث الابـواب التالية عن انواع المدافع وما يحتاج اليه المدفعى من آلات هندسية ومسطرة عددية يعرف بواسطتها وزن الكرات النارية ، وكيفية السفر بالمدافـع فى البر وعمل القناطر على الاودية الخ . يتخلل ذلك سبعون رسما احكم صنعها والتعليق عليها .

— **رسالة زيج زكوط** (185) الفها الاسرائلى ابراهيم السلمنقـى بالعبرية عام 877 / 1472 ثم نقلت الى اللاتينية ومنها الى الاسبانية ، وعن هذه اللغة نقلها احمد بن قاسم الحجرى الى العربية . تقع الرسالة فى اربعة وعشرين بابا تتحدث عن حركات الكواكب السيارة السبعة القديمة ، يأتـى بعدها الزيج فى ثمانية و اربعين و مائتى جدول كل جدول فى صفحة مقسم الى مربعات صغيرة بداخلها ارقام يعرف بواسطها موضع الكوكب المرصود من الفلك لأى وقت فرض ، كما يعرف بها وقت الكسوف والخسوف وما الى ذلك ورغم ان هذا الزيج وضع بحسب طول مدينة سلمنقة فان المغاربة اقبلـوا عليه حين عرب بعد ان كانوا يعتمدون زيج ابن البناء المراكشى ، لان زيـج زكوط لا يحتاج لكثرة العمليات الحسابية التى يتطلبها زيج ابن البناء .

— **مغنى الطبيب عن كتب اعداء الحبيب** (186) للرئيس ابى القاسـم الوزير الغسانى . وهو عبارة عن ترجمة عربية موسعة لكتاب طبى محـرر بالاسبانية أو البرتغالية اهداه بعض اكابر الروم الى احمد المنصور . وقـد اضاف الغسانى الى الاصل المترجم مقدمة وفصولا من انشائه .

— **كتاب رومى** (187) آخر فى الطب نقله من الاسبانية أو البرتغالية الـى العربية الطبيب الرياضى الحسن بن احمد المسفيوى تلميذ الرئيس ابـى القاسم الوزير الغسانى .

---

184) مخطوطات متعددة احسنها مخطوط م. ع. بالرباط رقم 87 ج ، عليه تعليقات فى الهوامش بخط المؤلف .

185) مخطوط م. م. بالرباط ، رقم ضمن مجموع .

186) انظر ا. المقرى روضة ، 217 — 218 .

187) المصدر السابق ص : 172

## و ـ كتب جامعة ومختلفة

نجد من بين مؤلفات علماء العصر السعدى كتبا جامعة لفنون شتى واخرى مشتملة على موضوعات خاصة تختلف عن المجموعات التى اشرنا اليها من قبل ولا تدخل تحت عنوان من العناوين السابقة . وهى كثيرة يعسر تصنيفها او التمثيل لها جميعا .

من الكتب الجامعة ما تحدثنا عنه فى المقدمة ضمن المصادر الرئيسية ككتب احمد المقرى **ازهار الرياض ، ونفح الطيب ، وروضة الآس** . ومنها ما يأتى ذكره متفرقا أثناء فصول القسم الثانى. لذلك نجتزىء هنا نموذجين فقط:

ـ **مطلب الفوز والفلاح فى آداب طريق أهل الفضل والصلاح** (188) لعيسى بن موسى البطوئى فى مجلدين ضخمين من نحو ستمائة ورقة من الحجم الكبير . ورغم كون العنوان يشعر بأنه من كتب التصوف فانه فى الواقع جامع لانواع كثيرة من العلوم الشرعية وغيرها بتفصيل مستوعب . اذ بناه المؤلف على مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة .

تختص المقدمة بذكر فضائل العلم والعلماء والحث على تعلم العلم النافع . ويتناول الباب الاول قواعد الايمان فى خمسة فصول ، والثانى قواعد الاسلام والعمل بها فى خمسة فصول أيضا ، والثالث آداب الانسان مع الخالق تعالى فى ثلاثة عشر فصلا ، والرابع ما يجب للنبى الكريم على أمته فى خمسة فصول ، والخامس حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة فى تسعة فصول ، والسادس محبة أهل الله فى تسعة فصول أيضا ، والسابع المشيخة واحكامها فى تسعة فصول كذلك ، والثامن الجهاد والرباط فى سبيل الله ، بينما تشتمل الخاتمة على وصايا وأفكار مختلفة .

ففى الباب السابع الذى يبدو أكثر الابواب تجاوبا مع عنوان الكتاب لم يخصص المؤلف لمباحث التصوف سوى الفصول الستة الاولى شارحا احكام شيخ التربية وشروطه والمريد وآدابه ومعنى الحقيقة والشريعة والتصوف والفقه .. جاعلا من الفصول الثلاثة الاخيرة **فهرسه** الخاص، ومنه استقينا المعلومات الواردة فى الترجمة التى عقدناها له ولمعاصريه البطوئيين فى القسم الثانى من هذه الدراسة ، وسنتحدث عن مضمون الباب الثامن فى الفصل الخاص بالجهاد من الرابع .

---

188) مخطوطا م. ع. بالرباط رقم 2613 ك ( مبتور من الاول ) ، و م. م بالرباط ، رقم 1667 ( تـام )

— **تنبيه الغافل عما يظنه عالم وهو به جاهل** (189) لاحمد ابن مسعود السكروني . كتاب ضخم في نحو اربعمائة صفحة من القطع الكبير يشتمل على خلاصة معلومات المؤلف في العلوم الشرعية وغيرها ، ويتناول في ابواب وفصول كثيرة متداخلة النية واحكامها في مختلف العبادات ، وصفات اللـــه تعالى ومراتب الايمان ومشكل ايمان المقلد ، ثم يقحم فصولا في العلـــوم واقسامها والقرآن والرحمة والغضب والقضاء والقدر قبل ان يبسط القول في الرسل العرب والعجم من آدم الى محمد عليهما السلام .

يتفرغ المؤلف بعد ذلك للكلام على العبادات من طهارة وصلاة ويفتح اثناء ذلك قوسا عريضا جدا لمباحث التوقيت وكيفية استخراج القبلة ثم يعقد اواخر الكتاب فصلا خاصا بمسائل التنجيم وآخر للاجازة وشروطها وعلاقتها بالتدريس وينتهي الكتاب بفصل طويل عن آداب الاكل والشرب ، بعده خاتمة قصيرة . وهو بذلك شبه معلمة لكن دون ترتيب ولا تنسيق .

⁂

ومن الكتب ذات الموضوعات المختلفة ما سنتحدث عنه في فصـــول تالية كالكتب المتعلقة بالجهاد ومشكل اليهود والبلديين واستعمال التبـــغ وانحراف القبلة ، ومنها ما ضربنا عنه صفحا ككتب الاوفاق وعلم الرمل وسر الحرف والفراسة والكهانة وتعبير الرؤيا على كثرتها وخوض كبار العلماء فيها كالامام ابن غازي وابن عطية الزناتي السلوي ومحمد بن العربـــي الفاسي ، ومنها اخرى طريفة نجتزىء بسوق نماذج منها ، مثل :

— **ارشاد المسافر للربح الوافر** (190) لمحمد ابن يجبش التـــازي . وهو — على صغر حجمه — فريد في بابه اذ لا نعرف كتابا آخر الف في السفر لذلك العهد . قيد فيه — كما جاء في المقدمة — فوائد ينتفع بها المسافر مرشدا اياه الى ضرورة اتباع السنة في الاقامة والظعن ، كأداء صلاة الاستخـــارة ودعائها المشهور والخروج بكرة الخميس ووداع الاخوان والرفق بالدابة التي يركبها ، والبحث عن أهل الخير والدين وزيارة الاخيار والصالحين . واثبت نصوص وصايا نصح بها المسافرين كل من أبي الحسن الشاذلـــي والغزالي ومحمد بن الفتوح المكناسي وعبد الرحمن ابن البناء .

---

189) مخطوطا م. ع. بالرباط 845 ك ( مبتور من الاول ) و 918 ق — تام .

190) طبع على الحجر بفاس غير معزو لمؤلفه . والمخطوط الاصيل في م. ع. بتازا 336 ق وعنه اخذ ميكرو فيلم م. ع. بالرباط 431 .

– **جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان** (191) لاحمد ابن ابى جمعة المغراوى تكلم فيه على احكام المعلمين والمتعلمين وآبائهم وحقوق بعضهم على بعض ، ورتبه على ثلاثة ابواب . الاول فى حكم ( الحدقة ) (192) وموضعها من القرآن وهل هى محدودة او موكولة الى العرف ؟ ولمن تعطى من المعلمين اذ تداولوا صبيا ؟ ومتى يستحقها المعلم ؟ وهل له ذلك ان عاود الصبى القرآن أم لا ؟ الثانى فى حكم الاجارة على تعليم القرآن والاصل فيها ، وهل يقضى بما يعطى للمعلم فى المواسم ؟ وحكم آداب الصبيان وتعليمهم وتسريحهم وقبول هديتهم .. الثالث باب جامع .

– **مقنع المحتاج فى آداب الازواج** (193) لاحمد ابن عرضون الزجلى كتبه عام 975 / 1568 فى جزءين ضخمين مسهبا القول فى علاقات الزوجين منذ الخطبة الى الوفاة ، مستعرضا بشىء غير قليل من التفصيل حقوق كل منهما على الاخر وآداب العشرة والاعتدال فى النفقة واحكام الحمل والولادة والرضاع وتربية الصبيان وعلاقة أوليائهم بالمعلمين ..

– **آداب الزواج وتربية الولدان** (194) اختصر به المؤلف السابق **مقنع المحتاج** بعد مدة يسيرة من انهاء الكتاب المطول . وقد اشتهر المختصر وانتشر اكثر من الاصل ، وهو على نفس الترتيب الا فصولا قليلة حذفت واخرى ادمجت مع غيرها .

يشتمل المختصر على مقدمة فى فوائد النكاح وآفاته ، وثلاثة اقسام : الاول فى الامور التى ينظر فيها قبل عقود النكاح ، وفيه بابان عما يعتبر فى الزوجة ، وما ينبغى للخاطب أن يقدمه من الاستخارة والاستشارة وتحسين النية والنظر الى المخطوبة وبعض ما يتعلق بالخطبة . والثانى فى آداب العشرة ووسائل استمرار الزواج ، وفيه أربعة أبواب تتحدث عن الوليمة والتحذير مما يحدث فيها من البدع وآداب الدخول والجماع وسائر الاداب والحقوق التى على كلا الزوجين . والثالث فى رياضة الولدان ، وفيه بابان عن واجبات الاولياء فى رياضة الولدان وتعليم المعلمين لهم .

---

191) مخطوطا م. ع. بتطوان 710 ( جيد ) م. م بالرباط ، رقم 7579 ضمن مجموع

192) « الحدقة » فى اصطلاح المغاربة مكافأة مالية يقدمها ولى الطفل للمعلم عندما يحفظ الطفل قسطا معينا من القرآن الكريم ، كأن يصل فى الحفظ الى سورة ( الرحمن ) أو ( طه ) .

193) سماه ك. بروكلمان **منية المحتاج** .. ( ذيل 2 : 693 ) يوجد فى م. م بالرباط ثلاث مخطوطات كلها ناقصة يمكن ان تلفق منها نسخة كاملة : 9690 ( تنقصها اوراق من الاخير) 3100 ( تنقصها اوراق اكثر من السابق ) 4699 الجزء الثانى فقط ) .

194) يعنونون هذا الكتاب فى بعض المخطوطات **بمختصر مقنع المحتاج** ، وهى كثيرة فى الرباط وتطوان . واحسنها مخطوط م. الوطنية بمدريد ، رقم 5169 ، كتبت عام 1056 / 1646 من نسخة بخط المؤلف . وقد طبع هذا المختصر على الحجر بفاس عام 1319 / 1901 .

ـــ **رسالة التودد والتحابب** (195) كتبها المؤلف السابق عام 983 / 1575 فى الصداقة والصديق لا على الطريقة الادبية الفلسفية التى سلكها ابو حيان التوحيدى (ت. نحو 400 / 1010 ) ولكن بروح دينية صوفية تدعو جميع المسلمين الى التآخى فى الله ومراعاة حقوق الصداقة « لتصفو الاخوة من شوائب الكدرات » .

تحتوى الرسالة على مقدمة فى المدلول الحق للصحبة ، وبابين : اولهما فى فضل الالفة والاخوة فى الله وشروطها وفوائدها ، والثانى فى آداب الصحبة وحقوقها ، وتنتهى بخاتمة فى آداب الانسان مع سائر الخلق .

☘

وقد الف فى هذا العصر ثلاثة كتب فى السياسة هى :

ـــ **حقوق السلطان والرعية** (196) لمحمد اليسيتنى .

ـــ **نصح ملوك المسلمين** (197) لاحمد ابن القاضى .

ـــ **كتاب المعارف فى كل ما تحتاج اليه الخلائف** (198) ويعرف ايضا **بكتاب السياسة** . لاحمد المنصور . ذكر كاتبه عبد العزيز الفشتالى ان الذى دعا السلطان الى تحرير هذا الكتاب مقصدان : اولهما العمل على مصالح العباد وحياطة البلاد ، لما يفيد ذلك من معرفة تحصين الحصون واختطاطها وتعبئة الحروب ومعرفة انواع مدافع القذف والرجم وما الى ذلك ، والثانى الخروج عن المألوف فى كتب السياسة القاصرة على ذكر مصطلحات الوزير والنديم والمشير وتنمية الخراج والعدل فى الرعية وسيرة المملكة فى الموكب والمركب والملبس ، كما فعل السلطان ابو حمو الزيانى ملك تلمسان فى كتابه **واسطة السلوك** ، وغيره ممن ظلوا فى مرحلة القول والنظر . فاراد احمد المنصور ان ينتقل بكتابه الى مرحلة العمل والتطبيق . والى ذلك اشار المنصور فى خطبة الكتاب بقوله : « وبعد فبنا حاجة الى تكميل نفوسنا فى قواها البشرية ، باستعمالها فى حقائق المعلومات العلمية والنظرية . وعلوم الحكمة العقلية اولى بنا فيما نحن فيه ، واعون على ما نجلبه لهذا الامر العلوى الفاطمى او ننفيه ، فلنصرف اولا عنان القول اليها ، ولنوجف بالخيل والرجل فى ميادين هذه الطروس عليها .. (199) .

---

195) مخطوط م. ع. بتطوان 826 ضمن مجموع .

196) انظر ا. المنجور فهرس 20 .

197) مخطوط م. م. بالرباط ، رقم 1258 .

198) انظر ع. الفشتالى مناهل 215 ـــ 218 ، ا. ابن القاضى جذوة 56 ، م. الافرانى نزهة 16 ـــ 17 ، ع. ابن سودة دليل 2 : 461 .

199) ع. الفشتالى مناهل 217 .

ولاحمد المقرى كتابان فى شبه السيرة النبوية ، الفهما معا بالمدينة المنورة ، لكنهما ــ على عادته ــ يحتويان على موضوعات متعددة :

ــ **فتح المتعال فى مدح النعال** (200) تحدث فيه عن مثال النعل النبوى ومكانته عند المسلمين غربا وشرقا ، وهو فى الواقع توسيع لكتاب آخر الفه المقرى بالقاهرة عام 1030 / 1621 بعنوان **النفحات العنبرية فى نعال خير البرية** حينما انكر عليه بعض ادباء مصر دعواه انه كان يحفظ فى محاسن مثال النعل النبوى اكثر من مائة قافية ( قصيدة ) مما جمعه فى شبابه ببلاد المغرب ، ثم وسع الموضوع وحرره بالمدينة المنورة عام 1033 / 1624 فى كتاب **فتح المتعال**.

يشتمل هذا الكتاب على فاتحة فى معنى النعل ، واربعة ابواب : أولها فيما ورد فى النعال الشريفة من الاحاديث وتفسيرها ، والثانى فى صفة المثال المظليم الحالى للنعل النبوى ، والثالث فى مقطعات وقصائد قيلت فى مثال النعل مرتبة على حروف المعجم ، والرابع فى خواص مثال النعل النبوى ومنافعه . بعد ذلك خاتمة فيها زبدة ما يتعلق بالنعل والمثال لمن أراد الاقتصار عليها .

ويحتوى الباب الثالث على ادب غزير لشعراء المغرب السعدى وكتابه لا فيما يخص النعال الشريفة والشمائل المحمدية فحسب ، ولكن أيضا فى استطرادات ادبية ومساجلات شعرية ونثرية جرت بين المؤلف وأصدقائه من ادباء فاس ومراكش والدلاء وغيرها .

ــ **زهر الكمامة فى العمامة** (201) أرجوزة فى خمسة وثلاثمائة بيت نظمها المقرى بعد انهاء **فتح المتعال** وبناها على ثمانية فصول . الاول فى معنى العمامة لغة واصطلاحا ، والثانى فى بعض الاحاديث الواردة فيها .. وخص الفصل الثامن بذكر جملة من ملابس الرسول عليه السلام كالطليسان والرداء والازار .

---

(200) طبع بحيدر اباد فى الهند عام 1334 / 1916 فى نحو اربعمائة صفحة .

(201) مخطوط م. ع. بالرباط ، رقم 984 د .
وكان **زهر الكمامة** موضوع رسالة قدمت سنة 1956 لنيل ديبلوم الدراسات العليا باحدى الجامعات الاجنبية ، مخطوطة خاصة بالرباط .

# الفصل الرابع

❁

## النقد والتقريظ

لم تبق حركة التأليف فى العصر السعدى دون صدى فى الداخل والخارج فقد اهتم القراء شرقا وغربا بالآثار العلمية والادبية للمؤلفين المغاربة وتذوقوها . قبلوا منها ورفضوا وناقشوا وعلقوا ، غير ان اكثر ما كتب عن مؤلفات ذلك العصر كان تقريظا واطراء . وكان القدماء — عموما — تهيبوا مواجهة المؤلفين بالنقد ، ورأوا فى الرد على هفواتهم تجريحا لامبرر له ما دام الانسان ناقصا بطبعه معرضا للخطأ والنسيان . ورغم ذلك جرت اقلام بعض الكتاب لذلك العهد بتسجيل جوانب النقص والخطأ فى التآليف العلمية والآثار المذهبية ، والتنبيه على ما ينبو عن الذوق السليم من الآثار الادبية .

وقد اجتازت مؤلفات المغاربة واشعارهم ورسائلهم الحدود فوصلت الى بلاد المشرق والسودان وتنافس العلماء والادباء فى اقتنائها والتعليق عليها بالشرح والاقتباس والنقد والتقريظ . والكل يعلم ان معظم كتب التاريخ والتراجم المشرقية كتبت فى ذلك العهد صفحات كثيرة فى تراجم اعلام

❁

... ، مثلما نجد عند نجم الدين الغزى الدمشقى ( ت 1061 / 1651 ) فى **الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة** ، وعبد البر الفيومى ( ت 1071 / 1661 ) فى **منتزه العيون والالباب** ومحمد المحبى ( ت 1111 / 1699 ) فى **خلاصة الاثر فى اعيان القرن الحادى عشر** ... خصص فيها مستقلا من تاليفه لتراجم علماء المغرب وادبائه ... الخفاجى المصرى ( ت 1069 / 58 — 1659 ) فى **ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا** ، وفى **خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا** ، وعلى ابن معصوم المدنى ( ت 1119 / 1707 ) فى **سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر** .

❖ ❖

# النقد

لن نعرض فى هذا الفصل الى ما كتب فى انتقاد مؤلفات القدماء فذلك شىء كثير يزخر به معظم الشروح والحواشى بل حتى الكتب المستقلة ، مثل كتاب **تكميل التقييد وحل التعقيد** الذى انتقد به الامام ابن غازى انتقادا مهذبا شرحى الامامين ابى الحسن الزرويلى وابن عرفة التونسى **للمدونة** ، فكمل نقص الاول واوضح تعقيد الثانى ، **والنور المقتبس** الذى اتم به عبد الواحد الونشريسى نقص كتاب ابيه **ايضاح المسالك** ، وكتابى السلطان احمد المنصور والقاضى محمد الرجراجى فى الرد على شبهات الاعتزال الواردة فى تفسير **الكشاف** للزمخشرى ، وقد سبقت الاشارة اليها جميعا وحسبنا هنا ان نأتى بنماذج لستة من النقاد ، اربعة مغاربة عاش اثنان منهم داخل المغرب وانتقدا بعض المؤلفات فيه ، وانتقل الآخران الى المشرق وكتبا فى الرد على المؤلفين والمبتدعة فى تلك الاقطار ، وناقدان شرقيان استهجنا اشعار بعض الادباء المغاربة .

❖

## 1 — رد احمد بن ابى محلى على رسالة الخروبى

محمد بن على الخروبى الجزائرى ( ت. 963 / 1556 ) عالم صوفى دخل المغرب الاقصى لاول مرة عام 1552/959 موفدا من قبل الخليفة العثمانى سليمان القانونى الى محمد المهدى الشيخ فى شأن الحدود الشرقية ثم جاءه مرة ثانية لنفس المهمة موفدا من قبل حكام الجزائر الاتراك. واذا كانت وساطة الخروبى السياسية لم تنته الى نتيجة ايجابية ، فان اتصالاته العلمية الصوفية كانت نشيطة مفيدة أثارت كثيرا من الجدل والتفكير فى كلا المغربين الاقصى والاوسط (1) .

1) مما كتبه الخروبى فى هذا الصدد : **رسالة ذى الافلاس الى خواص اهل مدينة فاس** وكتب فى الرد عليها جماعة منهم . انظر م. ابن عسكر دوحة 93 .

بعث الخروبى الى ابى عمرو القسطلى ( ت. 974 / 1567 ) وهـــو يومئذ فى اوج مشيخته بمراكش تعج زاويته فيها بوفود المريدين من كل جهات المغرب **برسالة (2)** ينكر عليه فيها دعاويه العريضة التى تشبه فى بعـض الوجوه دعاوى الحلاج . ولم يطلع ابن ابى محلى على هذه الرسالـــة الا اواسط علام 1000 / 1592 فى لكتاوة باسفل درعة ، فكتب فى الرد عليها **رسالة** (3) مطولة عنيفة ، استهلها بمقدمة فيما يجب على السائل والمسؤول والمنتقد وتعريف الدعوة والدعاة واحكامهما . ثم اخذ يحلل **رسالة الخروبى** وينقضها عروة عروة مشهرا باخطائه الصارخة فى المباحـث الصوفيـــة وبتحامله السافر على الشيخ القسطلى . وانهى الرسالة بخاتمة احتوت على ثلاثة ابواب ، الاول فى التماس العذر للخروبى لكونه لم يعرف القسطلى عن قرب ، والثانى فى جملة مسائل غلط فيها كثير من الفقهاء والفقراء ، والثالث فى شرح معنى التجريد والتفريد عند الصوفية .

وقبل ان نأتى بنماذج من رسالة ابن ابى محلى نذكر انه اخذ عـــن القسطلى بواسطة الشيخ محمد بن مبارك الزعرى (4) ( ت. 1598/1006) فاعتبر نفسه من مريديه وتحمس فى الدفاع عنه . منطلقا من قولة القسطلى الشهيرة : « قيل لى اجعل الالوهية نصب عينيك ، والنبوءة تاجا فـــوق راسك ، والولاية تحت قدمك ، وقل لا عليك » .

انتقد ابن محلى على الخروبى استشهاده بحديث الخشيه فقال :

« .. واما قولك : اتقاكم لله اشدكم له خشية الحديث ، فهو صحيح حق فى نفسه ، وانما انت الذى اوردته فى غير محله . فان الطرق الى اللـــه تنحصر فى سبيلين وان كانت شتى : اما مع السلوك وثمرته التقوى ، او مع الجذب وثمرته المحبة . ولكل منهما آداب وشروط ووظائف مذكـــورة فى **الوضاح** (5) وفى غيره من كتب الصوفية رضى الله عنهم . فهلا طالعـت تصانيفهم قبل اخذك فى الرد على لسان الحق وقلب الحقيقة بالقرب ايهـــا المسكين ! حتى سلط الله عليك من يعلم حقيقتك وهو المعروف بك لتكون لمن خلفك آية ! » (6) .

---

2) اورد نص هذه **الرسالة** م. ابن سعيد العميرى **فهرس** . **ونقلها** م. بن عبد الله المراكشى **كناشة** 36 — 38 .

3) مخطوط م. ع. بالرباط رقم 611ك . تنقصها صفحات من الاول والاخير ، الموجود منها 162 صفحة من الحجم الكبير .

4) دفين تساوت على الطريق الذاهبة من الرباط الى وادى زم بانحراف يسير .

5) هذا الكتاب من جملة تاليف ا. ابن محلى الصوفية .

6) ا. ابن أبي محلي ، **رسالة الرد على الخروبي** ، ص. 47 .

ومن عبارة الخروبى التى يقول فيها : « ان كنت من ارباب الجـذب الذين غايتهم البهتة فقد أخرستهم واكمتهم عن تعبير الحال وكشف المقـال عبرة عليهم وهم عارفون بكشفه وبيانه . اولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتـــده »

عقب ابن محلى بهذه العبارات الحادة الساخرة

« قلت : هذا بهتان عظيم وغلط صراح فى الحقيقة وتخبط فى الطريقة. وذلك بل اقول : قولك ان ارباب الجذب غايتهم البهتة . من اين لك هذا ؟ واى دليل يقوم لك على ذلك ! ثم لم تقنع بذلك حتى احرستهم واكمتهم وذلك خلاف المشهود من ارباب الجذب من اول الزمان الى آخره . بل اقول: هم اكثر الصوفية كلاما واشدهم كشفا للحقائق وأسرعهم الى الدعوة حتى نسب حلهم واجلهم الى المخارق ، وحتى كفروا وفسقوا واختلفت فيهم الاراء. ما هذه السنة ايقظك الله ؟!

واما قولك ان ارباب الجذب غايتهم البهتة فهو تحكم منك عليهم وحصر لما لابد عليه الحصر . او ما علمت أن الجذب سبيل للوصول فقط وليس منزل ينتهى اليه ؟! بل هو عبارة عن طى المنازل حتى يقطعها السالـــك بادنى كلفة كلمح البصر او هو اقرب ... ثم المجذوب ــ باتفاق من الصوفية ــ لابد له من التدلى والا كان ناقصا لا يهتدى بحقائقه ، ولا يقتدى بطرائقه ، لعدم سلوكه ورسوخه . وأنت قد حصرته فى البهتة ، وهم يقولون بلســان واحد : هذا بهتان عظيم ! .. » (7)

كل ذلك لم يشف غلة ابن ابى محلى فعقد فصلا خاصا فى اسبـــاب الجذب واقسامه واحكامه عند الصوفية ، تنكيتا على الخروبى ودحضـــا لاقوالـــه .

7) المصدر السابق ص. 49 .

## 2 — انتقاد احمد بن على البوسعيدى كتاب الدر الثمين

كتب محمد بن احمد ميارة عام 1044 / 1634 شرحه الكبير علـــى **المرشد المعين** وسماه **الدر الثمين** ... وقدمه الى زميله القديم فى الدراسة احمد البوسعيدى السوسى المقيم آنذاك بفاس ، فكتب عليه **تعليقـا** (8) وسطا حجما ومضمونا .

استعرض البوسعيدى اولا محاسن الكتاب باقتضاب ، ثم ذكر مـا ينقصه من الكلام على احوال الآخرة مبينا اهمية ذلك وارتباطه الوثيق بمسائل المعتقدات والعبادات التى هى موضوع **الدر الثمين** ، مقترحا على المؤلف اضافة فصل يتدارك به ما فاته . وتخلص بعد ذلك لانتقاد ميارة على تساهله فى منح الالقاب العالية لمن يذكرهم من العلماء ، وهى بلوى عمت فى ذلـك العصر والعصور السابقة فقال :

« ... وكذا يظهر لى ان لا يبالغ المؤرخ فى الثناء بما يختص الله بعلمه من اعمال القلوب كالزهد والولاية الا ان يكون من اهل الاذن ، فان الزهد هو خلو القلب عن الميل الى الدنيا . فقد يكون الانسان تاركا للدنيا ولم يتعلق بيده شىء منها لعدم القسمة الازلية له منها ولكن قلبه مفتون بها ، فهذا ليـس بزاهد . وقد تكون يده عامرة وقلبه فارغ من حبها يرى انه امين فى التصرف فهذا زاهد . فمتى تعرف وتصل الى ما فى قلبه فتشهد عليه ؟! » (9) .

« . ويقتصر المؤرخ على الاوصاف الظاهرة الصادقة كاتقان العلوم والفهم الثاقب والادراك والذكاء والحفظ وقوة العقل والنباهة والاصابـة وعدم الخطأ والفصاحة والنجابة فى التدريس .. ويعتبر هذا كله وما أشبهه مما يوصف به اما بالممارسة أو بالنقل الصحيح . وقد علمت انهم نصوا على ان التزكية بعدما يسافر معه » (10) .

اثبت ميارة نص هذا الانتقاد فى صلب كتابه ، وحاول ان يبرر الاخطاء التى نبه اليها ، ثم ادركه الانصاف فكتب : « الصواب ما قاله — البوسعيدى — رضى الله عنه » . وحذف كثيرا من الالقاب فى مواضعها ، واضاف خاتمة فى احوال الآخرة اقتبسها من احد كتب البوسعيدى نفسه .

⁂

8) اثبته بنصه م. ميارة الدر الثمين 2 : 339 — 341 .

9 — 10) المصدر السابق 2، 341 .

## المؤلفين المشارقة

**3 – انتقاد على بن ميمون المؤلفين المشارقة**

انتقد على بن ميمون الغمارى فى كتابه **بيان غربة الاسلام** علماء الشام والحجاز والاناضول ، بعد ان مكث بين اظهرهم نحو عشرين سنة اطلع خلالها على اخلاقهم وعاداتهم ودرجات ادراكهم وتحصيلهم .

شرح فى المقدمة الوازع الذى حمله على هذا الانتقاد ، وهو النصيحة المأمور بها شرعا ، قبل أن يصنفهم اربعة أصناف : منتصبين للفتوى ، والتدريس ، والتاليف وللقضاء والوعظ والامامة والخطابة ، وأنكر عليهم جميعا تمسكهم بالالقاب البدعية كشمس الدين وفخر الدين ، وحرصهم على الدنيا وتهافتهم على مال الاوقاف ، ثم تخلص الى نقد المؤلفين منهم بقوله :

« .. وأما التصنيف فأمرهم فيه أعجب وأغرب ، لكونهم لا معرفة لهم بقواعد ذلك أصلا ولا بالصالح والفاسد منه ، بل يعمدون الى مطالعة الكتب فينقلون منها على مقتضى فهمهم ، ويقيدون ذلك ولا يعرفون حقيقته ولا اصطلاحه ولا ما ينتج عن ذلك ! ولقد رأيت بعض من يزعم التصنيف والتدريس والفتوى بدمشق الشام سنة أربع بعد تسعمائة ، وانتهت اليه رياسة ذلك فى بلده مع ابناء جنسه ، قيد فى بعض تصنيفه شيئا ما فهم معناه بالكلية ، بل وجد كلاما لبعض من تقدمه بالتصنيف أو بالتقييد فنقله وتكلم فيه بفهم نفسه بغير معرفة قواعد ذلك الفن، فشاء الله وطالعنى عليه فرأيته فسادا فاحشا بكل وجه ، فقلت له : الامر فى هذا على كيت وكيت ! ففهم ما قيل له ثم نظر فى فهمه وما قيده فرآه فاسدا ثم رجع . ولو رآه من لم تكن له خبرة بذلك الفن وقواعده ، بل رأى الكلام مكتوبا فى الكاغد لتبعه أيضا وحفظه وقيده كذلك ومشى الامر على الفساد .. » (11) .

وبعد ان بين ابن ميمون الشروط التى يجب أن تتوفر فى المؤلف حمل على المنتحلين للتأليف فى ذلك الزمان بقوله : « .. وأما من كان تصنيفه جمع ما فى الكتب المصنفة المجموعة قبله فهذا لا يجوز أن يقال فى حقه مصنف بل هو ناسخ . والناسخ نفسه يشترط فيه الا يعمد الى نسخ فن من الفنون حتى يكون من ائمة ذلك الفن .. وهذه الصفات كلها ليست بتصنيف عند أهل الحق والحقيقة . لكن لما كثر الجهل والوهم والهوى وقوى على أربابه صدروا انفسهم للنسخ على الجهل بقواعده وفروعه وسموا انفسهم مصنفين، فيظن من هو اعمى منهم أن ذلك تصنيف ، الا أن يقال تصنيف الكذب فنعم ! فان هذا الامر الذى هو عليه من التخليط هم صنفوه اى ابدعوه .. حملهم على هذا طلب الرياسة والرياء والسمعة وحب الدنيا فضلوا واضلوا » (12) .

---

11) ع. ابن ميمون بيان ص. 68 – 69 .

12) المصدر السابق ص. 69 – 71 .

## 4 ـ رد عبد الله بن فارس التازى على شيعة العراق

كتب عبد الله التازى عام 1009 / 1901 وهو يومئذ بمشهد على فى العراق **كتاب المناظرة والمعارضة** (13) **فى رد الرافضة** . والغريب فى هذا الكتاب هو جراة المؤلف على مهاجمة غلاة الشيعة فى عقر دارهم وتشبثه بالمذهب السنى فى ذلك الوسط البدعى ، واعتماده فى مناظرتهم على خطة عقلية قطعية بينها فى المقدمة بقوله : « وانى ملتزم ان لا احتج بالحديث الا نادرا لكون متنه مظنونا يجوز للخصم دفع الاحتجاج به بدعوى الكذب له . بل اما احتج بالقرآن لكونه مقطوع المتن أو بالمعقول المقطوع الدلالة . وعلم الله تعالى ـ وكفى به عليما ـ انى لا استعين فى ذلك الرد بكتاب بـــل بديهة .. » (14) .

وقبل ان يشرع المؤلف فى تحطيم آراء الشيعة ، وكلها تقديس لعلــى وابنائه ، شرح منذ البداية موقفه من على وآل البيت عموما الذى هو موقف اهل السنة متأسيا بأسلوب القرآن فى الصدع بالحق فى مثل هذه المواقــف للتمييز بينه وبين الباطل : « وانى معتذر الى امير المؤمنين على رضى الله عنه والى مجموع أهل البيت عليهم السلام بما يوهم التجرأ به فى الحق الذى كان الاغماض عنه أولى ، ولان الله تعالى أجاز مثله بقوله عمن هو افضل من على وهو عيسى عليه السلام حين قالت النصارى به وبأمه :

« ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام » (15) .

ثم أتى بمقدمة فى صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، بعدها سبعـة فصول : أولها فى دحض شبهات الشيعة القائلة بوجوب امامة علـــى دون سواه من الصحابة ، والثانى فى رفض دعواهم تفضيل على على سائـــر الصحابة ، والثالث فيما خالفوا فيه الجماعة من مسائل الاصول كنفى رؤية الله تعالى ، والرابع فيما خالفوا من مسائل الفروع كمسح الرجلـــين فى الوضوء بدل غسلهما اعتمادا على القراءة الشاذة بجر « وأرجلكم » (16) .. واورد فى الفصل الاخير عدد فرق الشيعة البالغة احدى وثلاثين فرقة ، من امامية وزيدية وغلاة ، مبينا ما تتميز به كل منها من المعتقدات الباطلة .

---

13) مخطوط م. الوطنية بباريز ، رقم 1461 ، اول مجموع ، ورقة 1 ـ 48 . خط مشرقى وسـط .

14) ع. التازى **كتاب المناظرة** ورقة 1 .

15) المصدر السابق ورقة 1 ـ 2 .

16) الاشارة الى الآية السادسة من السورة الخامسة .

## 7 — انتقاد الشهاب الخفاجى ( عطاس النسيم )

بعث الوزير الكاتب عبد العزيز الفشتالى من مراكش برسالة طويلة (17) الى احمد المقرى بفاس استهلها بقطعة شعرية جاء فيها :

يا نسمة عطت بها ريح الصبا
فتضمخت بعبيرها قنن الربا

هبى على ساحات احمد واشرحى
شوقى الى لقياه شرحا مطنبا ..

اورد هذه الابيات الشهاب الخفاجى فى كتابه **ريحانة الالبا** (18) وعتب عليها بهذه العبارة : « اقول : استعارة العطاس للنسيم غير مستحسنة . والمعروف فى كلام فصحاء العرب عطس الصبح والفجر ! وفى **شرح الفصيح** للمرزقى . يقال عطس اذا فجأته صيحة من غير ارادة . ومصدره العطس . والعطاس الاسم جعل كالادواء . ويقال أرغم الله معطسه اى انفه وعطس الصبح انفجر على التشبيه » (19) . ثم أورد ابياتا لادباء مشارقة اسندوا العطاس للفجر والصبح .

ورغم ان الخفاجى كان سليم القصد على ما يبدو فى هذا الانتقاد ، لانه طالما عبر عن الفشتالى بصاحبه ، ونوه ببلاغة أسلوبه ودقة لفظه ومعناه فى الترجمة التى عقدها له فى نفس الكتاب . رغم ذلك لم يحالفه التوفيق فيما أخذ على الفشتالى . ذلك أن انتقاده لغوى صرف مركز على عدم ورود اسناد العطاس فى كلام العرب لغير الانسان والفجر والصبح ، وكأنه غفل عن فحوى النص الذى استشهد به وهو يؤكد استعمال العطاس فى اللغة حقيقة ومجازا . وما دام باب المجاز قد فتح فلماذا لا يتصرف فيه اللغوى الاديب على سنن القواعد البلاغية المضبوطة ؟ ! بل ان استعارة العطاس للريح أوفق من استعارته للفجر والصبح ، لحركة الريح المحسوسة التى قد تقوى أحيانا بكيفية مفاجئة فيكون صوتها اشبه شىء بصوت العطاس ، فضلا عن الحيوية والخفة التى تجمع بينهما . وقد أورد ابن الاثير فى **النهاية** وابن منظور فى **لسان العرب** تعليقا على حديث : « كان — النبى — يحب العطاس ويكره التثاؤب » أن العطاس انما يكون مع خفة البدن وانفتاح المسام وتيسير الحركات . هذا بالاضافة الى ما فى التجانس اللفظى بين النسيم والعطاس من وقع موسيقى لا يند عن ذوق اديب كالخفاجى !

---

17) هذه الرسالة مؤرخة فى يوم الخميس 20 محرم 25/1027 يناير 1618 انظرها بتمامها عند ا. البترى فتح 242 — 244 .

18) 296 — 297 .

19) المصدر السابق فى نفس الصفحة .

## 8 ـ انتقاد النجم الغزى ( ضياع مغربى بين المشارقة )

خرج الحسين بن قاسم الدرعى من المغرب حوالى عام 1596/1004 حاجا ، وكان قاضيا بالنيابة فى سلا ، فجال فى بلاد الحجاز وتركيا والشام ، واستقر به المقام اخيرا فى قرية العلا ببادية الشام ، « واحبه اهلها واثنوا عليه وجعلوه لهم اماما وخطيبا ومعلما لاطفالهم ومفتيا لهم على مذهب مالك لانهم مالكيون .. » (20) غير انه بقى يحن الى وطنه المغرب ، وانشد يوما فى جملة ما انشد من شعر كثير رواه عنه ادباء المشرق قوله :

ارى غـارة الاقـدار للمـرء لاحقـة
ولـو فـر منها راكبـا متـن شاهقـة
ومـا خـط فى ام الكتـاب تسوقـه
اليـه المقاديـر التـى هـى سابقـة
فـلا ذاق من صاب التغرب مـن بكـى
علـى مغربى ضاع بين مشارقـة (21)

فتضايق نجم الدين الغزى مؤلف كتاب **الكواكب السائرة** ، وكان حاضرا ، وعاتب الدرعى قائلا : « ما ضعت بين المشارقة بل شاع ذكرك وضـاع نشرك وسما قدرك . فما انصفت فيما قلت ! »

ظن الغزى ان الحسين الدرعى رجع عن فكرة ( الضياع ) وندم واقر بنعمة المشـرق وفضل المشارقة حـين كتب بعد ذلك : « فاعتـرف ـ الدرعى ـ بذلك من حيث لا يسعه الانكار ، وقال انها نفثة مصدور على وجه الاعتذار . ثم ادمج القول بانه وان حصل فى ( العـلا ) تمام النعمـة الا انه فى بلدة صغيرة ليس بها عالم يعرف قدره .. » (22) . وما فطن الغزى الى وجه الاعتذار الشفاف الذى لا يكاد يخفى تأكيد ( الضياع ) بالمقام فى قرية صغيرة لا علم بها ولا حضارة . وذلك ما تنطق به ابيات العتابى التـى انشدهـا له الدرعى اخيـرا . (23)

---

20) م. المحبى **خلاصة** 2 : 103 .

21) نفس المصدر فى نفس الصفحة .

22) المصدر السابق ص. 104 .

23) المصدر السابق فى نفس الصفحة .

# التقريظ

قلنا ان اكثر ما كتبه المعلقون على مؤلفات العصر السعدى كان مدحا وتقريظا . وهذا النوع من الاطراء ينبغى الا يقبل الا بمزيد من الاحتراس والتثبت ، لان اصحابه كثيرا ما يندفعون وراء عاطفة او مجاملة ، فتكل اعينهم عن مشاهدة العيوب ، وتنطلق اقلامهم تكيل الثناء والاعجاب بغير حساب ! لذلك اقتصرنا هنا على نماذج لاربعة من المقرظين : مغربيين ومشرقيين كانت تقاريظهم ذات مغزى خاص .

❀

## 1 — تقريظ محمد الطيب الدلائى نصيحة المفترين . (24)

الف محمد ميارة اواسط عام 1641/1051 **كتاب نصيحة المفترين** (25) فى مناصرة الاسلاميين ( البلديين ) الذين وجدوا آنذاك متنفسا مع الدلائيين حكام فاس الجدد . وكان رد فعل الارستوقراطية الفاسية عنيفا على كل من الموقف السياسى للدلائيين والتأييد الدينى لمحمد ميارة الذى شرح كتابه موقف الاسلام فى التسوية بين جميع المسلمين مهما اختلفت اصولهم واجناسهم ، وادى بهم الحال الى ان اغروا السفهاء بالطواف فى الاسواق بكتاب **نصيحة المفترين** ساخرين من مؤلفه ، ومشهرين باصله اليهودى حتى اضطر ميارة الى ان يكتب للسلطان محمد الحاج الدلائى ليكف عنه ايدى الرعاع .

اجاب محمد الطيب الدلائى عن اذن عمه السلطان محمد الحاج برسالتين بعث بهما الى فاس مشيدا بالكتاب ومؤلفه . وجه الاولى الى ميارة نفسه ، والثانية الى العالمين الشريفين محمد الصقلى ومحمد العمرانى . جاء فى الرسالة الثانية « .. واعلامكم بأن تاليف العالم الاشهر القدوة الذى به يفتخر ، الذى تغنى شهرته عن وصف ، وظاهر فضله يغنى عن كشف ، سيدى محمد ميارة ، هو تاليف قد ضرب فى الابداع بهم مصيب ، وفى انواع المحاسن حاز اوفر نصيب . وفيه من اقاويل العلماء ما يرفع الالباس ، ويزجر الاحرف المتغالى من الناس . ليس فيه الا ما استند لكتاب او سنة ، مما شرعه صلى الله عليه وسلم او سنه .. » (26) .

هكذا يركز التقريظ على محتوى الكتاب ومطابقته لتعاليم الاسلام ويهيب الدلائى فى الاخير بالشريفين ان يناصرا مؤلفه بين خاصة اهل فاس وعامتهم .

---

(24) مخطوط م. ع بالرباط ، رقم 923 ك ( ص. 125 — 128 ) .
(25) سنتحدث عن هذا الكتاب بشىء من التفصيل فى الباب الرابع .
(26) المصدر السابق ص. 126 — 127 .

## 2 ـ تقريظ محمد بن عبد الواحد العوفى نصيحة المفترين ايضا . (27)

هذا التقريظ الثانى مطول فى نحو عشر صفحات ، كتبه فى فاس احد علماء القرويين الادباء مؤيدا زميله ميارة تاييدا مطلقا وحاملا بعنف على عالم آخر لم يذكر اسمه يبدو انه كان المحرض على مضايقة مؤلف **نصيحة المفترين** . وبعد مقدمة مشرقة مسجعة يقول محمد العوفى : « .. هذا وان العالم النحرير ، ذو القدر الرفيع الخطير ، ابو عبد الله محمد بن احمد ميارة ، زكى الله قلبه بالتقوى وانارة ، سئل عن مسألة فى الوقت وكان من غيره اولى بالسؤال ، لتضلعه بعلوم الشريعة وما انبنت عليه من اقوال وافعال ، فانتدب لذلك واجاب ، وتحرى فيها غاية الصواب ، والف فيها تاليفا ما الفه غيره ، ظهرت فيه مزيته وقدره ، وقرب فيه البيان غاية التقريب ، وهذبه فائق التهذيب .. ثم لما شاع بين العقلاء كلامه ، واستفاض تصده ومرامه ، وتلقاه الناس بالقبول ، وانزلوه محل الاكرام من محل النزول ، سمع بذلك جاهل حسود ، فبئس الحاسد ونعم المحسود ! وقد قيل ان الحسود لا يسود . وكأنه ـ عفا الله عنا وعنه ـ شرق بريقه ، حسدا من خبث صدره وضيقه ، وما مراده الا النعت بالباطل ، الذى ليس تحته من طائل ، واداه الامر الى ان طعن فى الشىء الحسن ، حتى جزع وسب ولعن .. وما ذاك الا لما طلع على قلبه من الران ، اذ الجهل اقبح شىء بالانسان ، حتى انه يشاركه فى معناه الحيوان .. (28)



## 3 ـ تقريظ بدر الدين القرافى ايضاح المبهم من لامية العجم . (29)

اعجب المشارقة بشرح سعيد الماغوسى **للامية العجم** ، وهو من الكتب المؤلفة برسم خزانة أحمد المنصور ، فقرظه جماعة منهم قاضى قضاة المالكية بمصر بدر الدين القرافى ( ت. 1600/1008 ) . قال بعد مقدمة طويلة واطراء كثير للماغوسى :

« .. قد تمتع فكرى وخاطرى ، واحاط سمعى وناظرى ، بما أبدعه وابداه فى **شرح لامية العجم** ، وكشف به من مغلقاتها ما انعجم ، فكان لراقم بردها المؤيد الطغرائى به الجد الاتم ، والفخر الاشم ، لما اشتمل عليه من جواهر وفرائد ، وزواهر غرر وعوائد . قد ابدع واعرب ، واجاد فيما بين تراكيبه واغرب ، وابدى من العجائب ما انشى واطرب ، واشرق فى هذا القطر المصرى ما به اقرب ، واشاد بنيان ما الف ، وجمع القلوب على ذلك والف .. » (30)

---

27) نفس المخطوط السابق ص. 115 ـ 124 .
28) المصدر السابق ص. 115 ـ 116 .
29) أ. المقرى روضة 235 ـ 237 .
30) المصدر السابق ص. 235 ـ 236 .

وسار القراف على هذا النهج فى مدح الكتاب ومؤلفه نثرا ونظما رافعا المافوسى الى درجة كبار شيوخ اللغة والادب امثال سيبويه والزمخشرى وبديع الزمان الهمدانى والحريرى وغيرهم .

⁂

**4 ـ تقريظ شيوخ الازهر كتب ابن ابى محلى . (31)**

حل احمد ابن ابى محلى بالقاهرة اكثر من مرة ، واقام فى رواق المغاربة بالجامع الازهر اكثر من سنة ، دارسا ومناظرا وناسخا الكتب لنفسه وللناس . اعجب شيوخ الازهر بحدة ذكائه وصلابة عوده وتبحره فى علم التصوف ، فقرؤوا كتبه وقرظوها ، واهتموا بالرسائل التى وجهها اليهم فى مواضيع مختلفة من الفقه والتصوف ، فأجابوا عنها وفصلوا القول فيها . بعض هذه الرسائل فى حجم كتب سنتحدث عنها فى فصول آتيــة .

استمرت المراسلة بين ابن أبى محلى وشيوخ الازهر زهاء عشرين سنة . ويوجد كثير من هذه الرسائل منبثا فى ثنايا كتب ابن أبى محلى لاسيما **الاصليت** . منها رسالة شيخ الرياضيين والموقتين بالازهر محمد بن ابى الخير الحسنى ، وهى مؤرخة فى 6 جمادى الاولى عام 9/1015 شتنبر 1606 ، يقول فيها بعد المقدمة :

« .. أن يمن ـ الله تعالى ـ على الوجود بدوام بقاء أستاذ الزمان ، وقطب دائرة العرفان ، وامام مسلكى العصر والاوان ، سيدى ومولاى وأستاذى ، ووسيلتى الى الله وملاذى ، شمس وصلتى ، وامام قبلتى ، نور لبى ، وحياة قلبى ، الشيخ ابى العباس أحمد بن عبد الله بن القاضى ابن أبى محلى ( .. ) ولما وصل اليه كتابكم الشريف على يد أعز الاخوان فى الله سيدى الحاج محمد بن على الدرعى ( .. ) حرك منى ساكنا ، واظهر ما كان عنده خفيا كامنا .. » (32) .

وجاء فى رسالة اخرى مؤرخة قبل السابقة بستة أيام ، لشيخ فقهاء الشافعية بالازهر عبد الهادى بن احمد المرصفى .

---

31) ا. ابن ابى محلى **الاصليت** ورقة 87 ـ 90 .

32) المصدر السابق ورقة 88 و .

« .. ونفس الفقير متشوفة الى الوقوف على **الصمدانية الكبرى** ، فانكم اشرتم اليها فى **القسطاس** وما صرحتم بها ، والفقير ما عرف محلا يتطلبها منه ( .. وقد دخل كتابكم **الوضاح** فى ملك الفقير من تركة محمد الشيخ الرشيدى ولله الحمد . وارجو الله تعالى ان يطلعنى على ما اشتمل عليه من الأسرار الجليلة .. » (33) .

هذه الرسالة طويلة تتخللها قصيدة تائية من بحر الطويل فى خمسة عشر بيتا ، اعتذر ابن أبى محلى عن اثباتها وغيرها مما مدحه به المشارقة، للرد على من زعموا فى حضرة السلطان السعدى أن كتب ابن ابى محلى فى المشرق تثير السخرية بالمغاربة .

❖

كذلك تجلى اهتمام رجال الفكر بتآليف المغاربة فى العهد السعدى ، وترددت اصداؤها غربا وشرقا .

---

33) نفس المصدر ورقة 90 و .

# الفصل السادس

❀

## المكتبات العامة والخاصة

يرجع عهد المغرب بالمكتبات الخاصة الى عصر الادارسة والمرابطين، وبالمكتبات العامة الى أيام الموحدين والمرينيين . غير ان هؤلاء الاخيرين ، وقد فاقوا من سبقهم فى الاعتناء بدور العلم ، قصروا اهتمامهم على الحواضر الكبرى ، فشيدوا فيها المكتبات من سبتة وطنجة وتازا وفاس شمالا الى آسفى ومراكش جنوبا (1) .

جاء السعديون الى الحكم بعد فترة غير قصيرة من التدهور كما نعلم فأحيوا الدارس من المدارس والمكتبات ، وشيدوا أخرى شحنوها بنفائس الكتب . ويمكن اجمال مميزات المكتبات لهذا العهد فى خمس :

**اولا :** اتساع الرقعة الجغرافية للمكتبات تبعا لاتساع المراكز الثقافية وانتشارها فى البوادى فضلا عن المدن ، وخصوصا فى جبال الاطلس وما وراءها من بلاد تافيلالت ودرعة وسوس .

**ثانيا :** دخول كميات كثيرة من الكتب الاندلسية الى المغرب مع الافواج الاخيرة من المهاجرين ، وجلب أعداد وافرة اخرى من الكتب المشرقية والسودانية .

**ثالثا :** وفرة المؤلفات المغربية واقبال الطلبة عليها بالدراسة والنساخة .

---

1) انظر م. ابن مرزوق المسند ، البابان الاربعون والواحد والاربعون ، ص. 266 — 273 .

**رابعا :** توفر وسائل الكتابة بكثرة وجود الورق المصنوع داخـــل المغرب (2) والمجلوب من اوربا ، حتى ان الكتابة على الرق كادت تنتهي في هذا العصر ، باستثناء قلة من صكوك العقود والاجارات وما اشبهها ، بل وبالامعان في استعمال محلول الذهب في كتابة العناوين الكوفيـة المزخرفـة والجداول الملونة وتحلية الغلافات الجلدية المزوقة بالذهب ايضا ، الــى تعدد الخطوط النسخية من مغربية واندلسية ومشرقية .

**خامسا :** بقاء معظم كتب العصر السعدي الى اليوم باستثناء مــا ضاع من المكتبة الملكية الآئلة الى الاسكوريال (3) . وذلك بنفس الشمول في الحواضر والبوادي : في مدن تطوان وفاس ومراكش وفي قرى تادلا وآيت عياش ودرعة وسوس ..

نجد في المغرب السعدي عشرات المكتبات العامة ومآت المكتبــات الخاصة (4) غير اننا لن نتعرض لها كلها جريا على خطتنا في الاكتفاء بذكــر نماذج فقـــط :

---

(2) من المعلوم ان المغرب انتج الورق واستعمله في الكتابة منذ اواسط القرن الخامس/(11م) حيث كان في فاس وحدها 104 معمل للكاغد . وتضاعف هذا العدد مع مرور الزمن حتى صار في اوائل القرن السابع / ( 13 م )اربعمائة معمل في حي خاص قرب باب الحمراء بفاس ما زال حتى اليوم يعرف بالكغادين ، بالاضافة الى معامل الورق الشهيرة في سبتة وشاطبة . ولما اضطربت احوال المغرب في اواخر العصر المريني اخذت بلادنا تستـورد الورق من البندقية وغيرها ، فاحتدم جدال الفقهاء حول جواز الكتابة على الورق الافرنجي. وقد ظلت معامل الورق قائمة في فاس الى ما بعد العصر السعدي ( انظر ع. ابــن زرع **القرطاس** ، 49 ، ع. الجزنائي **زهرة الآس** ، 33 . ا. القلقشندي **صبح الاعشى** 2 : 477 م. المنوني ، **العلوم والآداب** ، 256 — 257 ، ش أ. جوليان ، **تاريخ افريقيا الشماليـة** 2 : 122 .

(3) لما تغلب الثائر احمد ابن ابي محلي على زيدان ابن المنصور فيصيف عام 1612/1020 حمل زيدان في جملة ما استطاع ان يحمل من الذخائر ثلاثة آلاف كتاب الى مرسى آسفي لينقلها في سفينة كاسطيلان الفرنسي الى اكدير . لكن ربان السفينة فر في ليلة 22 جوان 1612 بالحمولة الثمينة في اتجاه مرسيليا ، فاعترضت طريقه سفن قرصانية اسبانية وأسـرت السفينة ، وارسلت الكتب الى الاسكوريال حيث ما يزال بعضها الى اليوم . وقد انقضت صاعقة على دير الاسكوريال عام 1671/1081 فاحرقت نحو الفي مجلد من مخطوطاتـه العربية . انظر : هـ. دوكاستر ، **وثائق غير منشورة** ، فرنسا ، السلسلة الاولى ، 2 : 541 وما بعدها .

(4) انظر م. المنوني **دور الكتب** ، ص. 19 — 102 . فقد ذكر 128 مكتبة من المكتبــات المشهورة بالمغرب عبر عصور تاريخه الاسلامي من لدن الادارسة الى الوقت الحاضــر ، وضمنها بعض مكتبات العصر السعدي .

# أ ـ مكـتـبـات عـامـة

لا يكاد يخلو مسجد كبير فى اية مدينة مغربية من مكتبة عامة تشتمل على مصاحف القرآن الكريم على كتب قليلة او كثيرة فى العلوم الدينية زيادة واللغوية وغيرها . وتفتح هذه المكتبات فى وجه عموم المستفيدين من العلماء والطلبة للقراءة او النساخة او المقابلة داخل الحريم المتصل بغرفة الكتب او فى البلاط المتصل بها من المسجد ، وذلك فى أوقات معينة (5) تحت سمع القيم وبصـره (6) .

من اشهر المكتبات العامـة :

## 1 ـ مكتبـة القـرويين بفـاس

هناك مكتبتان فى القرويين أيام السعديين ، أولاهما مرينية من تأسيس ابى عنان ، تقع فى الركن الشرقى من الجامع ، ويدخل اليها من أعلى المستودع (7) . ومن محتوياتها **تاريخ العبر** الذى أوقفه ابن خلدون نفسه على طلبة القرويين . والثانية سعدية من انشاء أحمد المنصور فى قبلة الجامع (8) احتوت على انفس الكتب القديمة والحديثة فى جميع الفنون وغطت على سابقتها . وقد اتصل بقبة الكتب فيها حريم يدخله القراء من بويب قريب من المحراب ما يزال اثره باديا الى الآن .

## 2 ـ مكتبـة جامـع الانـدلس بفـاس

تحتل هذه المكتبة الدرجة الثانية بعد مكتبة القرويين ، ومعظم كتبها قديمة من مؤلفات عصر الموحدين والمرينيين فى التفسير والحديث بصفة خاصة (9) .

---

(5) كثيرا ما كانت تفتح هذه المكتبات العامة فيما بين صلاتى الظهر والعصر . انظر ع. ابن ميمون **الرسالة المجازة** ، ص. 279 .

(6) كان القيم على المكتبة العامة يختار من بين العلماء المشهورين بالجد والنزاهة . وقد اراد احمد المنصور ان يكون القيم على مكتبته فى القرويين احد ابناء الشيخ ابى المحاسن الفاسى لكن هذا اعتذر بلطف . انظر م. العربى الفاسى **مرآة** ، 30 .

(7) المستودع بيت حصين بابه مسلح بالنحاس وفيه صناديق متينة توضع فيها مداخيل العقارات الحبسية لتصرف على مصالح المسجد وفى أرزاق العاملين به من العلماء والمؤذنين وغيرهم ونظرا لحرص المرينيين على الكتب جعلوا باب المكتبة داخل المستودع .

(8) انظر وصف قبة الكتب الشامخة المزخرفة والمرافق المتصلة بها عند القيم الحالى لمكتبة القرويين م. العابد الفاسى ، **الخزانة العلمية** ، 46 .

(9) انظر ع. ابن ميمون **الرسالة المجازة** ، 279 .

## 3 — مكتبـة ابن يوســف بمراكش

اسسها عبد الله الغالب حوالى عام 1558/965 عندما جدد المدرسة الكبرى المتصلة بجامع على بن يوسف المرابطى . وفضلا عن الكتب التـى اوقفها الغالب على هذه المكتبة ظل المؤلفون وغيرهم من العلمـاء وذوى اليسار يتنافسون فى وقف الكتب عليها (10) .

## 4 — مكتبـة جامع الشرفـا بمراكش

هى اخت المكتبة السابقة ، اسسها فى نفس التاريخ تقريبا عبد الله الغالب واوقف عليها من نفائس الكتب اكثر ، وظل الامراء السعديـــون والمحسنون من العلماء والاثرياء يوقفون عليها من أمهات الكتب ما جعلها فى الجنوب قرينة مكتبة القرويين فى الشمال . ومن هذه المكتبة كان اكثـــر استفادة احمد بابا السودانى لتأليف كتبه الشهيرة فى التراجم (11) .

## 5 — مكتبـة الحرم العبـاســى بمراكش

اسس هذه المكتبة الامير ابو فارس عبد الله الواثق بـــن احمـــد المنصور فى قبلة الجامع الكبير الذى شيده بجوار ضريح ابى العباس السبتى وقد عبر أحمد المقرى عن كثرة الكتب التى أوقفها ابو فارس على هـــذه المكتبة بقوله : « وحبس عليها خزائن من الكتب العتيقة » (12) . فكأنه جمع فيها ما يملأ مكتبات عديدة (13) .

## 6 — مكتبـة جامــع الحــرة بمــراكــش

من تأسيس الحرة مسعودة الوزكيتية أم أحمد المنصور حوالى عام 1587/995 . بنتها فى قبلة الجامع الذى شيدته بباب دكالة وأوقفت عليهـــا جملة وافرة من الكتب العلمية ، وتنافس فى اهداء الكتب العلمية الى هـــذه المكتبة كل من أحمد المنصور وأبنائه وأحفاده وجملـــة من العلمـــاء والمعتنـــين (14) .

---

10) ما تزال م. ع بمراكش تحتفظ حتى اليوم ببعض الكتب الموقوفة على مكتبة ابن يوسف فى العصر السعدى . مثل المخطوطات أرقام 385 و 464 و 499 ..

11) انظر ا. بابا نيل 53 و 197 و 265 . ومن كتب جامع الشرفاء الباقية اليـــوم فى م. ع بمراكش المخطوطات ارقام 26 و 139 ..

12) روضة 59. انظر ايضا م. الافرانى نزهة 171 .

13) تشتت كتب هذه المكتبة فى المغرب واسبانيا . ممن مخطوطاتها الباقية اليـوم فى م. ع بمكناس ، ارقام 7 و 22 و 224 و 358 ، وفى الاسكوريال رقم 1840 ...

14) انظر ا. ابن القاضى المنتقى 13 — 17 ، ا. المقرى روضة 63 . من المخطوطات الباقية من هذه المكتبة اليوم فى م. ع. بمراكش ارقام 64 و 112 و 136 و 449 ...

## 7 – مكتبة الجامع الكبير بالمحمدية

من تأسيس محمد المهدى الشيخ حوالى عام 1528/935 عندما جدد بناء مدينة تارودانت ، وتوالت العناية بهذه المكتبة من لدن الملوك السعديين والعلماء السوسيين والتلمسانيين والاندلسيين الذين استوطنوا هذه المدينة (15) .

## 8 – مكتبة المسجد الاعظم بمكناس

احيى السعديون هذه المكتبة القديمة وأوقفوا عليها العديد من الكتب، وازدادت عنايتهم بها عند ما عين الامير العالم زيدان بن احمد المنصور واليا على مكناس (16) .

## 9 – مكتبة جامع قصبة الرباط

هذه المكتبة من عمل المهاجرين الاندلسيين الذين عمروا الرباط والقصبة ( الاوداية ) فى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ( 16 – 17 م ) ، ولم يكتف هؤلاء بتزويد المكتبة بما حملوا معهم من تراث الفردوس المفقود ، بل اشتروا لها الكتب أيضا من المشرق أثناء رحلاتهم الحجازية (17) .

## 10 – مكتبة الجامع الاعظم بآسفى

حاول السعديون أن يعيدوا الى آسفى المحررة حياتها الثقافية الاولى فجددوا جامعها الكبير ومدرستها ومكتبتها القديمة . وشارك الجمهور فى اغناء مكتبة الجامع الاعظم التى لم تستجلب القراء الا بعد مضى فترة غير قصيرة (18) .

---

15) من مخطوطات هذه المكتبة الباقية اليوم مخطوط م. ع. بمكناس رقم 409 ، وهو من تحبيس زيدان بن احمد المنصور .

16) من مخطوطاتها الباقية اليوم فى م. ع بمكناس رقم 395 . وهو من تحبيس الامير زيدان ايضا .

17) من الكتب الباقية اليوم مخطوطة م. ع بمكناس رقم 58 وهى **عمدة القارىء فى شرح صحيح البخارى** لبدر الدين العينى . كانت فى الاصل تسعة اجزاء لم يبق منها سوى الاول والثالث والخامس والتاسع مع بتر . اشتراها بالاسكندرية المجاهد عبد الله الاندلسى الشهير بالقصرى عام 1629/1039 وحبسها على مسجد القصبة ( الاوداية ) ووجهها الى محل التحبيس .

18) من مخطوطات هذه المكتبة الباقية اليوم فى آسفى جزء من **مشارق الانوار** للقاضى عياض من تحبيس القائد عبد الله عام 1594/1003 .

## 11 ـ مكتبـة دار العـدة في فجيـــج

اسس هذه المكتبة في مطلع القرن العاشر ( 16 م ) الشيخ عبد الجبار ابن احمد البرزوزي الفجيجي وأوقف عليها هـو واولاده العلمـاء كتبـا كثيرة ، من ضمنها تآليفهم في التفسير والفقه والادب « حبس على من ينتفع به من الذرية وغيرهم بالنظر فيها والانتساخ منها ان كان اهلا لذلك ، ثم ترد بعد ذلك لمحلها ، معقب مؤبد .. » (19) .

وقد ظلت هذه المكتبة مقصد العلماء والطلبة في صحراء المغـــرب الشرقية طوال العصر السعدي بل والى ما بعده (20) .

## 12 ـ مكتبـة الجامـع الكبيـر بالدلاء

بنيت هذه المكتبة ضمن الجامع الكبير الذي اسسه الشيخ ابو بكر بن محمد الدلائي أواخر القرن العاشر ( 16 م ) بزاوية الدلاء القديمـــة ، وازداد عدد الكتب التي اغناها به ابناء الشيخ واحفاده العلماء والامراء ، حتـــى امست تعد بالآلاف ، وشبهها بعض المؤرخين بمكتبة الخليفة الاموي الحكم المستنصر في قرطبة (21) .

---

(19) رسم وقف مكتبة فجيج . مخطوط خاص .

(20) زار أبو العباس الهلالي ( ت. 1175 / 1761 ) مكتبة فجيج ومكث فيها يومين لم يتمكن حتى من تصفح أوائل كتبها لكثرتها . ثم اخذ أمر هذه المكتبة يختل بعد ذلك حين اخذ بعض أحفاد الشيخ عبد الجبار يبيعون الكتب خارج فجيج . ولما زارها الرحالة محمد بن عبد السلام الناصري عام 1783/1197 الفاها « تفرقت شذر مذر حتى لم يبق منها الا الاثر ». انظر ابن عبد السلام الناصري **رحلة** ، ورقة 37 و ، ع . الكتاني ، **فهرس الفهارس** ، 2 : 263 .

(21) انظر كتابنا **الزاوية الدلائية** 71 وهامش 4 .

## ب ـ مكتبات خاصة

لم يكن يخلو منزل من منازل العلماء فى العصر السعدى من مكتبة صغيرة او كبيرة فى الحاضرة او البادية ، بل اضحى ينافسهم فى اقتناء الكتب واستنساخها الملوك والامراء وذوو المناصب السامية فى الدولة، والموسرون الميسورون من بين التجار والرحالة . واذا كانت كتب الوقف فى المكتبات العامة لا تعار خارج الحريم او المسجد ، فان كتب الخاصة تعار من منزل الى منزل ومن بلد لآخر . حتى كان بعضهم يتخذ بيت الكتب بجوار قاعة الاستقبال لتتاح الفرصة لمن اراد من الزوار أن يستفيد بالقراءة او النساخة او المقابلة ، كما كان بعض المتادبين ينشئون لاستعارة كتاب او كتب ابياتا يورون فيها بأسماء الكتب او المؤلفين .

لذلك لم تعمر المكتبات الخاصة طويلا بعكس المكتبات العامة وتبدد معظمها باثر موت اصحابها او بعده بجيل او اجيال معدودة ، باستثناء قلة من مكتبات بعض الاسر العلمية الثرية فانها ظلت سليمة مآت السنين . (22)

من اشهر المكتبات الخاصة فى هذا العصر :

### 1 ـ مكتبة آل الفرديس بفاس

قد تكون هذه أقدم مكتبة خاصة عرفت فى المغرب ، اذ تسلسل العلم والرياسة والثروة فى آل الفرديس التغلبيين بفاس أزيد من سبعة قرون . عمل علماؤهم الرؤساء الاولون مع أمراء مغراوة أواخر الدولة الادريسية ، وعرف منهم آخرون مع المرابطين والموحدين والمرينيين . وقد آلت مكتبتهم العظيمة فى القرنين العاشر والحادى عشر ( 16 و 17 م » الى الفقيه الصوفى محمد ابن القاضى محمد الفرديس ، ثم الى ابنه الاديب الشاعر أحمد الفرديس . ومن هذه المكتبة استقى أحمد الونشريسي مادة معلمته الفقهية الكبرى **المعيار** ، وبكتبها استعان أحمد المنجور أثناء طلبه للعلم وقال عن صاحبها . « .. فكان لا يضن بكتاب علم عن طالب ، فلكم أعاننى ـ رحمة الله عليه ـ بكتبه العلمية » . (23) .

---

22) انظر م. ابن عسكر **دوحة** ، 12 ، ا. المقرى **روضة** 83 و 200 ، م. الافرانى **صفوة** 103 .

23) ا. المنجور ، **فهرس** ، 14 . وانظر ايضا فيها صفحات 15 و 27 28 ، ا. ابن القاضى **جذوة** ، 151 و 154 ، ع. ابن ابراهيم **الاعلام** 2 : 79 .

## 2 ـ مكتبـة بني الملجـوم بفـــاس

ثانية مكتبة مغربية قديمة . وبنو الملجوم احفاد القائد العربى الشهير المهلب ابن ابى صفرة الازدى عرفوا فى فاس بالعلم والرياسة والثروة منذ اواخر القرن الثانى ( 8 م ) . بل ان جدهم الوزير عمير بن مصعب هـو الذى ارتاد موقع مدينة فاس واشار على المولى ادريس الثانى ببنائها فيه ، واليه تنسب عين عمير الشهيرة خارج باب الفتوح . « وقد ذكر غير واحد من المؤرخين ان احد بنى الملجوم قضاة فاس واصلائها بيعت اوراق كتبه التى هي غير مجلدة بل متفرقة بستة آلاف دينار .. » . (24) وعرف من اصحاب هذه المكتبة فى القرن العاشر ( 16 م ) عبد الرحمن ابن الملجوم من الشيوخ المدرسين بالقرويين . (25)

## 3 ـ مكتبـة آل ابـن القاضـى بفـاس

ينتسب آل ابن القاضى الى الامير موسى بن ابى العافية المكناسى المتغلب على المغرب اواخر عصر الادارسة . وتسلسل فيهم العلم والرياسة بفاس اجيالا عديدة ، فكانت مكتبتهم العلمية على عهد السعديين زاخرة بكتب الرياضيات والهندسة والفلك والتوقيت ، فضلا عن كتب الفقه واللغـة والادب . (26) وتعاقب على ملكية هذه المكتبة فى عصر السعديين محمد بن ابى القاسم ابن القاضى فولده القاسم فحفيده محمد .

## 4 ـ مكتبـة الهبطييـن بالريـف

جمع عبد الله الهبطى فى منزله بالجبل الاشهب من ضاحية شفشاون امهات الكتب فى التفسير والحديث والكلام والفقه والتصوف ، اقتناها خلال رحلته العلمية الطويلة بفاس وتازا ، او انتسخها له المريدون والطلبـة الوافدون على زاويته ، ونماها من بعده ابناؤه العلماء (27) .

استفاد من هذه المكتبة الرجال والنساء ، اذ كان الشيخ الهبطـى وامراته العالمة يشجعان من يدرس عليهما باعارة الكتـب والحـض على القراءة . (28)

---

24) ا. المقرى **نفـح** 2 : 502 .
25) انظر ا. المنجور **فهرس** ، 15 ، ا. ابن القاضى ، **جذوة** ، 260 — 261 .
26) من بين الكتب الباقية منها الان مخطوطا م. م. بالرباط رقم 53 بخط محمد بن القاسم ابن القاضى ( الحفيد ) ويشتمل على بعض مؤلفات والده فى الرياضيات والهندسة . ورقم 5296 فى الهندسة من تاليف محمد ابن القاضى الحفيد ، ورقم 7248 الذى تسميناه **ابيات ابن القاضى** لان اكثر ما فيه من انشاء محمد ابن القاضى وشعره .
27) انظر ا. ابن القاضي ، **جذوة** 153 ، م. العربي الفاسي ، **مرآة** ، 163 ، م. القادري ، **نشر** ، 1 : 117 و 120 و 156 — 157 .
28) انظر م. ابن عسكر ، **دوحة** ، 12 ، م. الهبطى **المعرب** ، ابيات متفرقة ، م. المهـدى الفاســى ، **ممتـع** ، 76 .

## 5 ــ مكتبــة الصومعيين بتــادلا

عرف احمد بن قاسم الصومعى بشغفه باقتناء الكتب واستنساخها شغفه بالتدريس والتاليف ، فكانت مكتبته فى الصومعة ( داى القديمة ) بضاحية مدينة بني ملال الحالية تنيف اسفارها على الالف فى مختلف العلوم اللغوية والشرعية وبخاصة كتب التصوف . (29)

## 6 ــ المكتبــة الملكيــة بمــراكش

ام المكتبات الخاصة فى هذا العصر واهمها على الاطلاق . حوت من نفائس مؤلفات القدماء والمحدثين ما لم تحوه مكتبة اخرى من قبل فى هذا البلد ، واهدى اليها مآت المؤلفين كتبهم من المغرب والمشرق ، الى ما حمل لها او انتسخ لحسابها طوال نحو قرن ونصف .

وبلغت المكتبة السعدية ذروة مجدها مع احمد المنصور الذى رتب لها فى قصره خطاطين ماهرين للنساخة ، وفنانين للتجليد والتزويــق . واخذوا يكتبون بدل المداد بمحلول الذهب والعنبر المسقى بماء الورد ، وينشفون بمسحوق الذهب بدل التراب . فضلا عن الوراقين المشارقة الذى لم يفتروا عن امــداده بما ينتجــون فى القاهرة واصطمبول والحرمــين الشــريفيــــن .

اننا نعتقد جازمين أن الثلاثة آلاف من الاسفار التى آلت الــــى الاسكوريال ليست كل المكتبة الملكية السعدية ولا تمثل حتى أهم ما كان فيها . وآية ذلك مآت الكتب المبعثرة فى مكتبات المغرب حتى الآن ، ومــن بينها كتب امتازت بحظوة خاصة عند المنصور ، وأثارت اعجاب من تحدثوا عنها من المؤرخين المعاصرين ، وقد سبقت الاشارة الى بعضها (30) ، وكمصحف الفاتح عقبة بن نافع الفهرى الذى انتسخه فى منتصف القرن الاول للهجرة بالقيروان من مصحف الخليفة عثمان بن عفان . وبقى هذا المصحف متداولا فى خزائن السعديين ثم العلويين . (31) وما نخال زيدان الا قــد ازعج على اثر هزيمته الخاطفة امام بن ابى محلى ، فلم يتمكن من اخذ اكثر ولا احسن مما اخذ من الكتب والذخائر .

---

(29) انظر ا. المقرى ، روضة 300 . م. الافرانى صفوة 23، ع ابن ابراهيم ، الاعلام، 2: 74

(30) انظر فيما سبق هوامش 75 و 77 و 82 من ص. 148 و 149 .

(31) بعث السلطان عبد الله بن اسماعيل العلوى بهذا المصحف فى جملة مصاحف اخـرى هدية للحرم النبوى عام 1155 / 1742 . وقد تعد الآن المصحف العقبانى من الحرم .

على ان المكتبة السعدية استعادت بعد هذه النكبة شيئا من روائها مع الملوك المتأخرين فى هذه الدولة ، وبخاصة الوليد بن زيدان ومحمد الشيخ الأصغـــــر . (32)

## 7 ــ مكتبــة المــزوار بالاطلــس الكبيــر

صاحب هذه المكتبة عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى ، من اخوال احمد المنصور وكبار رجال دولته . تولى القيادة والوزارة والحجابة ، وولاه المنصور على الاطلس الكبير ولاية دائمة ، فلقب بالمزوار والقائد عزوز ، كما لقب بصاحب جبل درن وولد مولاة النـــاس .

عاش عبد العزيز بين قومه وزكيته على نمط عيشة المنصور فى مراكش محاطا بالعلماء والادباء ، ولو أن بضاعته الثقافية مزجاة ، فاتحا لهم ابواب مكتبته التى عدت أسفارها بالآلاف . (33)

## 8 ــ مكتبــة العياشييــن بوســط الاطلــس

بدات هذه المكتبة بسيطة فى اواسط القرن الحادى عشر ( 17 م ) مع الشيخ محمد بن ابى بكر العياشى مؤسس الزاوية العياشية ، واتسعت بعد ذلك مع ابنه الرحالة ابى سالم العياشى فأحفاده الى ان امست بعد السعديين من أهم مكتبات بادية المغرب . (34)

## 9 ــ مكتبــة آل ابن طاهر بتفيــلالـــت

تسلسل العلم فى الشرفاء آل ابن طاهر الحسنيين اجيالا عديدة . ولما انتقلوا فى عصر السعديين من سجلماسة الى مدغرة جددوا بهـــا مراسم العلم ، واسسوا مكتبة اشتملت بالخصوص على امهات كتب التفسير والحديث ، اذ كان عبد الله بن على ابن طاهر من كبار المفسرين والمحدثين ، واستمرت عناية ابنائه العلماء بالمكتبة يزودونها بمؤلفاتهم وما يقتنون من الكتب فى مختلف العلوم . (35)

---

32) انظر ا. المقرى ، **روضة** ، 69ــ 70 م. الافرانى ، **نزهة** ، 122 ــ 23 ، م. المنونى، **دور الكتب** ، 71 .

33) انظر ا. ابن القاضى ، **درة** ، 3 : 129 ، م. الافرانى ، **نزهة** ، 152 . وقد زعـــم الافرانى ان عدد مجلدات مكتبة المزوار بلغت خمسين الفا .

34) تعرف هذه المكتبة اليوم بمكتبة الزاوية الحمزاوية ، نسبة الى حمزة حفيد الشيخ محمد ابن ابى بكر العياشى . انظر كتابنا **الزاوية الدلائية** ، 64 ــ 65 .

35) انظر ع. ابن زيدان ، **العقود الزبرجدية** ، مخطوط خاص . م. المنونى ، **دور الكتب** ، 102 .

### 10 — مكتبة الناصريين بدرعة

يرجع تاريخ تأسيس هذه المكتبة الى عام 1040 / 1630 حين انتقل الشيخ محمد ابن ناصر الدرعى الى زاوية تمكروت لنشر العلم ثم لتربية المريدين . ولم يكن يملك حينئذ غير مجموعة كتبه ، فكانت ملقاة على الارض مباشرة فى ركن البيت الذى ينام فيه الشيخ واهله على التراب ، حتى اذا اهدى اليه بعض المحسنين حصيرا آثر به الكتب فوضعها عليه .

وقد تحسنت الحالة المادية بعد ذلك تحسنا نسبيا عندما اشتهر صلاح الشيخ ابن ناصر وعلمه ، فتكاثر عدد الوافدين عليه من المريدين والطلبة ، وازداد عدد الكتب بما نسخه الشيخ وأهله وطلبته وبما أهدى اليه . ثم خصص بيت للكتب حين جدد بناء الزاوية ومرافقها . (36)

### 11 — مكتبة الحاحيين بزداغة

اصل هذه المكتبة من بلاد حاحا فى قرية تفوغالت بين مراكش والصويرة ، نقلها آل سعيد الحاحيون معهم أواسط القرن الهجرى العاشر الى تفيلالت زداغة فى الاطلس الكبير . وكانت تجمع كتب التوحيد والفقه والتصوف خاصة أيام عبد الله ابن سعيد الحاحى ، حتى اذا آل أمر الزاوية الى ابنه الامير يحيى الذى استحوذ على السلطة فى شمال بلاد سوس تضخم حجم المكتبة بما انتسخه أو أهداه اليه العلماء والطلبة المتوافدون عليه من السهل والجبل ، وكثرت فيها حينئذ كتب الحديث واللغة والادب . (37)

### 12 — مكتبة الامراء السملاليين بايليغ

لما استبد الامير ابو حسون السملالى بالسلطة فى جنوب سوس عام 1021 / 1612 واسس عاصمة امارته ايليغ حاول ان يجعل قصره فيها على صورة « البديع » بمراكش ومكتبته على هيئة مكتبة زيدان . وهيهات !

---

36) كانت المكتبة ملكا للشيخ محمد ابن ناصر ثم أوقفها — كلها او بعضها — على طلبة العلم فى آخر حياته . وتضخم عدد الكتب فى هذه المكتبة عبر الاجيال حتى اضحت من اغنى المكتبات المغربية بالمخطوطات ، وتضم منها اليوم زهاء 4.200 مخطوط .

37) ما تزال كثير من كتب هذه المكتبة موزعة على المكتات الخاصة فى سوس . انظر م. المختار السوسى ، خلال ، الجزآن الثانى والرابع فى مواضع متفرقة .

سلك ابو حسون نفس خطة السعديين فى استجلاب الكتب واستنساخها فى ايليغ وخارجها ، غير ان دائرة عمله لم تجاوز بعض الجهات فى سوس والصحراء وجبال الاطلس ، ولا نعرف له اتصالا بالمشرق . ومهما يكـــن فقد تكونت فى ايليغ مكتبة اميرية ظلت تنمو وتفيد رجال الحاشية والمقربين من الامير ، وفيهم عدد غير قليل من العلماء والادباء طوال نصف قرن ، الى ان لقيت نفس مصير مكتبة الدلاء على يد الرشيد بن الشريف . (38)

## 13 ــ مكتبـــة اليعقوبييـــن بالاطلس الصغيـــر

عرفت قرية تزموت فى شرقى ايليغ الكتب مع علمائها الكراميين المعروفين بنشاطهم فى التعليم والتاليف منذ القرن التاسع / (15 م ) واتسعت المكتبة مع اليعقوبيين النازحين الى هنالك اوائل القرن الحادى عشر/ ( 17 م ) بعشرات مؤلفاتهم ومآت منتسخاتهم ومنتسخات تلاميذهم .

وتفرع عن المكتبة اليعقوبية هذه ثلاث مكتبات اخرى فى بعقيلـــة من الاطلس الصغير أيضا بما حمله احفاد الشيخ عبد الله ابـــن يعقوب من كتب الى مساكنهم الجديدة . هناك ، وما زالت مخطوطاتها حتى اليوم تعـــد بالآلاف . (39)

## 14 ــ المكتبـــة المسناويـــة بتيكـــوراريـــن

كون محمد بن اسماعيل المسناوي من علماء تيكورارين بالصحراء اوائل القرن الهجرى الحادى عشر مكتبة عظيمة اقتنى معظم كتبها مـــن اصطمبول بواسطة الوزير الاعظم هناك (40) ، واستجلب اخرى من الجهات التى زارها فى شمال افريقيا والسودان ومصر والحجاز واليمن والعراق وغيرها . وقد أوصى عند موته أن تحمل كتبه الالف والخمسمائة الى الحرم النبوى ، فلم يحمل منها الا القليل وتبددت فى الصحراء . (41)

---

38) انظر م. المختار السوسى ، **ايليغ** ، 142 ــ 143 ، **خلال** ، فى مواضع متفرقة ، كتابنا **الزاوية الدلائية** ، 142 وهامش 25 .

39) انظر م. المختار السوسى ، **خلال** ، الجزآن الثاني والرابع فى مواضع متفرقة ، **سوس** 168 ــ 169 .

40) لقى المسناوى الوزير الاعظم التركى ببغداد عند ضريح الشيخ عبد القادر الجيلالـــى ، والوزير آنذاك مصروف عن عمله متخوف من غائلة السلطان ، فطلب من الشيـــخ المسناوى ان يدعو الله له ففعل . ثم دخل المسناوى القسطنطينية فالفى صاحبه قد عاد مزاولة عمله كصدر اعظم ، ولقى من اصناف الحفاوة لديه الكثير . ولما عـــرف الوزيـــر رغبة المسناوى فى اقتناء الكتب استدعى الدلال المسؤول وامره بأن يعرض على الشيخ كل ما يقع بيده من كتب على أن يسدد هو الثمن .

41) انظر أ. العياشى ، **رحلة** ، 1 : 40 ــ 43 ، م. القادرى ، **نشر** ، 1 : 207 ــ 209

## 15 ــ مكتبات آل اقيمت وبغيع بتمبكتو

توارث آل اقيت الصنهاجيون العلم فى تمبكتو أجيالا عديدة ، وكانت لهم مكتبات غنية بالمؤلفات القديمة فى الحديث والفقه ، اقتنوا معظمها اثناء رحلاتهم الدراسية ببلاد المغرب والمشرق ، واستنسخوا اخرى محليا بخطوطهم السودانية البدوية . ومن اعظمها مكتبة أحمد بن احمد اقيت والد المؤرخ الشهير احمد بابا ، فقد كان « وافر الخزانة محتوية على كل علق نفيس سموحا باعارتها » . (42)

ولما احتلت جيوش احمد المنصور تمبكتو فى نهاية القرن العاشر / ( 16 م ) اصابت الفتنة فيما اصابت مكتبات آل آقيت ، وتحدث عن ذلك احمد بابا السوداني بقوله : « انا أقل عشيرتى كتبا وذهبت لى ست عشرة مائة مجلد » . (43) .

واشتهرت اسرة بغيغ الونكرية التنبكتية بالعلم والكتب كذلك على عهد السعديين . واعظم مكتباتهم مكتبة محمد بن محمود شيخ احمد بابا الذى قال عنه : « بذل نفائس الكتب الغربية العزيزة لهم ــ لاهل العلم ــ ولا يفتش بعد ذلك عنها كائنا ما كان من جميع الفنون ، فضاع له بذلك جملة من كتبه ــ نفعه الله بذلك ــ وربما يأتى لبابه طالب يطلب كتابا فيعطيه له من غير معرفته من هو ، فكان العجب العجاب فى ذلك ايثارا لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراء ونسخا . وقد جئته يوما اطلب منه كتب نحو ففتش فى خزانته فأعطانى كل ما ظفر به منها .. » . (44)

❖

كذلك انتشرت المكتبات العامة والخاصة على عهد السعديين ، شمالا وجنوبا ، حاضرة وبادية .

---

42) ا. بابا ، كفاية ، 157 و ، ع. السعدى ، تاريخ السودان ، 42 .

43) م. القادرى ، نشر ، 1 : 152 .

44) ا. بابا ، كفاية ، 157 ظ ، ع السعدى ، تاريخ السودان ، 44 .

# الباب الرابع

*

## مسائل فكرية مهمة

## شغلت المثقفين فى عهد السعديين

# مسائل فكرية مهمة

* *

# الفصل الأول

*

## الجهاد

الجهاد ظاهرة عامة فى العصر السعدى من لدن قيام الدولة الى نهايتها، وذلك بسبب ظروف الاحتلال الاجنبى لثغور مغربية كثيرة لم يتمكن السعديون من طردهم منها جميعا ، رغم ما بذلوا من جهد فى مجالات القتال والدبلوماسية وكان لظاهرة الجهاد انعكاسات بارزة الملامح فى كل من الميدانين العملى والفكرى .

### ا ــ فى الميدان العملى :

اصطبغت اهم الاحداث فى هذا العصر بصبغة الجهاد انطلاقا من تاسيس الدولة ، اذ لم يكن لمحمد القائم بأمر الله من ميزة ، بعد نسبه الشريف ، غير بروزه فى ميدان الجهاد . وطوال المرحلة الاولى للدولة بقى التنافس على اشده بين الشرفاء والوطاسيين ، هؤلاء يناهضون البرتغاليين فى ثغور الشمال ، واولئك يقاتلونهم فى السواحل الجنوبية .

ومثلت معركة وادى المخازن ابرز حدث عسكرى فى وسط ذلك العهد ، حيث رجع الفضل الاكبر لفوز المغرب الى المجاهدين المتطوعين الذيـــن توافدوا من جميع الجهات ملبين نداء عبد الملك المعتصم وأخيه أحمد .

ولما استلم امراء الزوايا أزمة السلطة فى أواخر دولة السعديـــين ، تنافسوا بدورهم فى أعمال الجهاد ، وغامروا بما استطاعوا فى معارك كانت لها حظوظ قليلة أو كثيرة من النجاح ، وتميز من بينهم فى هذا المضمار المجاهد العياشى بسلا ، ويحيى الحاحى فى السوس الاقصى ، والدلائيون فى الاطلس المتوســـط .

على أن هناك ظاهرة غريبة نشير اليها هنا اشارة عابرة وهى تستحق مزيدا من التوسع لو لم يكن ذلك خارجا عن نطاق بحثنا ، ألا وهى كثرة تطوع العلماء ومشاركتهم الفعلية فى المعارك وحراسة الثغور . فمن الامام ابـــن غازى وتلميذه على ابن هرون اللذين طالما خرجا فى الحركات الجهادية تحت لـــواء الوطاسيين ، الى الشيخ أبى المحاسن الفاسى ومحمد بن ريســـون العالمى اللذين ابليا البلاء الحسن فى معركة وادى المخازن ، الى محمد بن ابراهيم وعبد الرحمن بن محمد التمنارتيين اللذين كان لهما حظ وافـــر فى محاصرة المحتلين وحراسة الثغور السوسية ، الى عبد الواحد ابن عاشر وعبد الهادى ابن طاهر اللذين حملا السلاح الى جانب المجاهد العياشى . فكان هؤلاء الاعلام ، وأضرابهم كثير ، أرباب السيوف والاقلام .

## ب — فى الميدان الفكـــرى :

شغلت مسألة الجهاد بال المفكرين فى العصر السعدى ، فكتب عنهـــا المحدثون والفقهاء ، وسالت بها أقلام الكتاب والشعراء . ولما كان الجهاد يمثل احد أبواب الفقه العادية فقد تحدثت عنه قليلا أو كثيرا معظم الكتـــب الفقهية المؤلفة فى هذا العصر ، ومن ضمنها الشروح والحواشى **لرسالـــة** ابن أبى زيد القيروانى ، **ومختصرى** ابن الحاجب وخليل وغيرها ، وكتـــب النوازل ... غير أننا لن نشير هنا — على سبيل التمثيل — الا الى أربعة مـــن الكتب المستقلة فى موضوع الجهاد ، وبعض الآثار الادبية والمناقشـــات الفقهية المتعلقة بـــه .

1 — **تنبيـــه الهمم العاليـــة** (1) لمحمد ابن يجبش التازى . أقدم مؤلفات الجهاد فى العصر الذى ندرسه . حدد المؤلف فى المقدمة الغرض الذى يهدف

(1) ميكرو فيلم خ. ع. بالرباط ، رقم 431 . والاصل مخطوط الجامع الاعظم بتازا ، رقم 336 ، ضمن مجموع ، من ص. 425 — 465 .

اليه ، ذاكرا أن أحد محبيه لم يزل يحضه على تاليف كتاب مختصر يتضمن من النثر والنظم ما يساعد على « تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزاكية ، وقمع الشرذمة الطاغية ، عجل الله دمارها ، ومحا ببواتـــر المسلمين آثارها » (2) .

فصل التازى فى كتابه الكلام على أحكام الرباط والجهاد فى البر والبحر بأسلوب أدبى حى ، ، يعتمد على الخطاب والدعوة الى التأمل والاعتبار ، ويكثر فيه من الاستفهام والمقارنة والتحضيض ، مما يدل على غيرة اسلامية صادقة ، وشعور وطنى فياض .

يقول فى تنبيه مواطنيه الى الاخطار المحدقة بهم ، واستعداد العـدو للانقضاض عليهم : « ما هذه الغفلة العظيمة ، التى أضحت على القلـــوب مقيمة ، وركنت اليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ؟ ! أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم ، مشتغلون بكل حيلة فى نيل الوصول اليكم؟! قد جمعوا من العدد ما لا يحصى له عدد ، وارسلوا جيوشهم وعيونهم فى كل بلد ، ليخبروهم بما عندكم من عدة ، وما أنتم عليه من قوة وشدة ... » (3).

ويقول فى التفجع على سوء أحوال المسلمين ، وما يلاقونه من هوان واسترقاق على يد المسيحيين فى عدوتى المغرب والاندلس :

« ... وقد أبدلوا بعد العز والفرح ، ذلا وحزنا ، واستولى عليهم الكرب والترح ، حسا ومعنى . قد أوثقوا بالسلاسل والحديد ، وهم كل يوم فى عذاب شديد ، وصاروا من جملة المماليك والعبيد . كانوا بالامس أغنياء آمنـــين ، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين . انتهبت أموالهم ، وتغيرت أحوالهم . فرقـــت عنهم نساؤهم ، واخذت منهم بناتهم وأبناؤهم . وصار الكفرة يتنافســـون فى بيعهم بالاثمان ، وجعلوا يفرقونهم فى سائر البلدان ، ويريدون أن يفتنوهم فى دينهم ، ويفسدوا عليهم قوة يقينهم . فما هذه الغفلة عن اخوانكم يا معشر المسلمين ؟! » (4) .

---

2) المصدر السابق ، ص 425 .
3) المصدر السابق ، ص 426 — 427 .
4) نفس المصدر ، ص 427 .

ويختم الكتاب بقصيدة حماسية طويلة (5) فى التفجع على سقوط الثغور المغربية فى يد العدو ، والدعوة الى الجهاد لتحريرها ، مبينا أن الفرقة والتنازع اصل الضعف والانحلال ، وأن الوحدة والاستعداد الحق هما سبيل الخلاص .

يذكر الشاعر قلقه وتخوفه من استئساد البرتغاليين وتواكل المغاربة ، ويصف بالخصوص ماساة سقوط اصيلا :

«..ولم استطع صبرا، وكيفبمحلى — وقد هتكت من ديننا كل حرمة

وشاركنا الاعداء فى قطر غربنا — وقد أخذوا جل البلاد البهية

وقد ارعبت تلك السواحل منهم — وصاروا يؤدون الخراج كجزية

وانتم شغلتم بالتعلل والمنى — بلغتم مراد النفس من كل لذة

واسعفتم الشيطان مما اراده — وملتم الى نهج الطباع الخسيسة

فهذا هوان واحتقار وذلة — وعار شنيع ثم قلة حيلة ..

فقصة آصيلا عرفتم جميعا — وما فعل الاعداء من شر غدرة

واضحت على الاسلام تبكى رسومها — وسكانها قد صاروا فى أرض غربة

مساجدها تبكى على فقد أهلها — كأن لم يكن فيها مردد سورة

صوامعها قد عطلت عن أذانها — كأن لم يكن فيها أذان مصوت

مجالس أهل العلم يا صاح بدلت — بتلبيس رهبانورجس الاخسة»(6)

5) تبلغ ابيات هذه القصيدة 168 ، وهى تائية من البحر الطويل . انظرها تامة فى المصدر السابق ، 441 — 448 .

6) المصدر السابق ، ص. 441 — 442 .

ويحرض على الانفاق فى سبيل الله بقوله :

« ولا تبخلوا بالمال وهـو لربكـم ... وانتـم له فالبخل شـر سجيـة
فمـن كان ذا مال ولم يك ذا نـدى ... فذلك ممقوت خبيث الطويـة .. »

ثم يستنهض الهمم للثورة والكفاح مذكرا بالامجاد الخالدة :

« ايا اولياء النصر يا اهل غربنـا ... بكم تضرب الامثال فى كـل بلـدة
وانتم هم الشجعان فى شدة الوغـى ... وانتم هم الابطال عنـد الحقيقـة
فكيف يضيع المستجير بجاهكـم ... وانتم مـلاذ الخائف المتشبـث
واسلافكم لم تـال عن مستغيثهـم ... على نهجهـم فامضوا بصدق عزيمة
فكم انقذوا من مستغيث بجاههـم ... وكم كشفوا من كربة مستقـرة
وكم من جيوش اوردوها حتوفهـا ... وكم فرقوا فى دهرهم من كتيبـة
وكم وصلوا من ذمة لمـن انتمـى ... اليهم كما يحكـى عن اهل الجزيرة..
فقد كان هـذا والعـدو ببرهـم ... وفى الغرب عاد القوم فى قرب عدوة
وصاروا يرومون البـلاد ببركـم ... يحطون منكم قريـة بعـد قريـة..
فيا عجبا مـن ذلكـم لعدوكـم ... وانتم لكم فى الحرب اعظم صولة !..
فاين اسود الغرب اين رجالـه ؟ ... واين ذوو الخيل العتاق الاعزة؟!» (7)

كذلك تنتهى هذه القصيدة الحماسية استنهاضا للهمم وحضا على الجهـاد والثورة .

---

7) المصـدر السابـق ، ص. 448 .

2 — **لباب مراقى الجنة مما ورد فى الجهاد فى السنة** (8) لعبد الله بن على ابن طاهر الحسنـى .

بين المؤلف الغرض من هذا الكتاب بقوله فى المقدمة تلميحا وتصريحا : « الحمد لله الشهيد على اعمال عباده ، العليم بمن جاهد فيه حق جهـاده ، جاعل حماية البيضة بقتال العدو من أوكد الفرض ، « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (9) . وصلى الله وسلم علـى قـدوة المجاهدين ، وامام الصابرين ، وسيد الشهداء المخلصين ، صلاة وتسليما ننال بهما غاية الرضى ، ويصرف عنا بحول الله وقوته سوء القضا . وبعد ، فهذه احاديث مصطفوية ، وكلمات نبوية ، فى فضل الجهاد وأهله ، والنفقة فيه ، ووعيد تاركيه .. » (10) .

أتى المؤلف بثلاثين ومائة حديث من الاحاديث الصحيحة الداعية الـى الجهاد أو المبينة فضل المجاهدين وثوابهم ، ومقامات الشهداء فى الجنة ، مبتدئا بحديث أبى ذر الغفارى « أن رجلا قال يا رسول الله . اى الاعمـال افضل ؟ قال : ايمان بالله ، وجهاد فى سبيل الله »

**ولباب مراقى الجنة** هو ثانى كتاب للمؤلف فى الجهاد ، اذ الف قبلـه **الاسعاف والانجاد فى ذكر الآيات الواردة فى الجهاد** ، حسبما اشار الى ذلك فى المقدمة ، الا اننا لم نقف على هذا الاخير .

☘

3 — **فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة** (11) لعبد الهادى ابن طاهر الحسنى . أهم كتاب الف فى الجهاد أواخر عهد السعديين ، اذ كـان المؤلف يعرف اكثر من غيره ظروف الجهاد ومشاكله آنذاك، لمراسه واحتكاكه

---

8) مخطوط م. م. بالرباط ، 2993 .

9) الاية 4 من سورة محمد صلى الله عليه وسلم 47 .

10) ع. ابن طاهر الحسنى ، لباب ، 1 .

11) مخطوط م. م. بالرباط ، 2992 .

بالمجاهد العياشى ومساعدته اياه بالراى والسيف . وربما كان العياشى هو الذى دفعه الى تاليف الكتاب كما تشعر بذلك المقدمة وان لم تفصح عـــن اسمــــه .

**وفلك السعادة** انما هو مختصر من أصل ضخم يبدو أن المؤلف لـــم يتمكن من تنقيحه بسبب مشاغله الجهادية . على أن هذا المختصر هو بنفس تصميم الاصل أبوابا وفصولا ، ولا تنقصه الا بعض النصوص والتفصيـــلات الاضافيـــة .

يشتمل الكتاب على مقدمة ، واثنى عشر بابا ( بعدد بروج الفلـــك ) وثمانية وعشرين فصلا ( بعدد المنازل ) ، وخاتمة . يتحدث الباب الاول عن الامر بالجهاد وحكمه وآدابه ، والثانى فى معرفة من يحارب ، وشروط النكاية والمهادنة ، ومنع الاستعانة بالمشرك ، والثالث فى فضل المسارعة الـــى الجهاد ، والرابع فى ذم الفرار وفضل الثبات فى الصف ، .. والســادس فى ترجيح الجهاد على الحج ، وغزو البحر وشهادته وفضل الجرح فى سبيل الله ، والسابع فى وجوب النفقة فى سبيل الله بتجهيز الغزاة ، وفى أمانة المجاهدين.. بينما تختص الخاتمة بأحكام النفل والسلب والامان .

يشبه أسلوب ابن طاهر فى هذا الكتاب أسلوب ابن يجبش وضوحـــا وقوة وتأثيرا . فهو يعتمد مثله على الخطاب والتساؤل المثير ، الا أن نفسه أطول وتحمسه أشد ، حتى لتكاد تشعر بالرجل خرج عن طور الاعتدال كلما ذكر ما حل بالبلاد من البلايا ، بل ان كلامه أشبه بالخطابة المرتجلة أمـــام الجمهور منه بالكتابة المدونة فى القراطيس . وانك لتجد عنده من نصاعـــة الافكار وتسلسلها المنطقى ما تجده عند كبار الكتاب والخطباء المعاصرين ، وتعثر فى ثنايا كلامه على الفاظ الكفاح والجلاد ، والاسترقاق والاستعباد ، وعبارات نصوص الدفاتر وحماية الاوطان ، فتخالك تقرأ مقالات وخطـــب مصطفى كامل وسعد زغلول او اضرابهم من زعماء الوطنية العربية فى القرن العشرين .

فصل ابن طاهر فى الباب الاول القول فى مسالة الامر بالجهاد ، وعقب على ذلك بقوله : « فانظروا — وفقكم الله — بعيون الهمم ما تلى عليكم من آيات قرآنية ، وسيق على آذان التدبر من احاديث مصطفية ، وكروا على الفرسان ، وجولوا فى الميدان ، وحققوا ادعاءكم الايمان ، بمجالدة أتباع الشيطان ، يا من هم اعجز من النسوان ! واضعف عقلا من الصبيان! يا مقيما فى جوانب الحجرات ! يا متخلفا فى الخدر مع الصبيات! أهون بكم من شجعان، ابغض بكم من فرسان ! اف لكم من رجال ، تعسا لكم من انذال ، سحقا لكم من ابطال ، بعدا لكم يا ضلال ، تبا لكم يا من لا تخطر له المعالى ببال ! متى يؤذن ما بكم من خور بانتقال ؟ متى ينقضى ذيل الجبن المطال ؟ متى تنتفضون لقتال الاوباش الانذال ؟ .. اوما تصفحتم نصوص الدفاتر فيما ورد عن السلف الصالح من الصبر فى ذات الله والاحتمال ؟ اوما قراتم فى الذكر نداء ذى الاكرام والجلال ؟ ! اتصاممتم بعد اسماع الكتاب العلى ؟ أم تعاميتم بعد ما وضح الحق الجلى ؟ أم تحسبون لغباوتكم أنكم غير مخاطبين ؟ أم تظنون بجنائكم انكم غير مكلفين ؟ أم تعتقدون أن كفاركم اليوم لا يستحقون الجلاد ؟ أم جبنتم عن مقارعة الاخياف الاوغاد ؟ أم لكم براءة استثنتكم من عموم دعوة العباد ؟! .. » (12)

ثم استعرض المؤلف كثيرا من الآيات والاحاديث وأقوال الفقهاء المتعلقة بحكم الجهاد ، وأتى بعد ذلك باستنتاجه الشخصى ، فى صفحات ملتهبة بمثل النفس الحماسى المتقدم : « قلت . يتلخص من النصوص المتقدمة، ويتمحض من الاقاويل المنصرمة ، أن الجهاد اليوم فرض عين على كل أحد ، سواء كان بعيدا نائيا ، أو قريبا دانيا . أما على الاقوال المصرحة بفرض العين فواضح، وأما على المقتصرة على الكفاية فيؤخذ من شروطها التعيين ايضا . لانهم قالوا : اذا حمت طائفة الثغور وجاهدوا العدو سقط الفرض عن الباقين . والآن لم تحم ثغور ولا جوهد عدو . وأيضا فانهم قالوا : اذا نزل العدو بساحة الاسلام فهو فرض عين . ولا نعلم لهذا القول مخالفا من المسلمين.

والآن قد نزلوا بساحات ، وهتكوا أستارا وحرمات ، واخذوا معاقل وحصونا ، وسبوا قبائل وبطونا . وأيضا قالوا يتعين لفك الاسرى ، وهم مصبقتون على هذا القول . وقد استعبد الكفار الآن كثيرا من المسلمين ، واسترقوا طوائف من المومنين ، حتى تجد فى موطن واحد المئين . وأيضا فانهم قالوا : لا يجوز ترك الجهاد لهدنة ، ونص عليه فى التلقين ، فكيف يترك

12) فلك السعادة ، الباب الاول .

الآن ولا هدنة ؟!.. وايضا فقد قالوا : اذا عجز اهل دار نزل بها العدو عــن الذب عن انفسهم ، تعين على من بقربهم ، وكذلك يتعين على من علم بضعفهم وامكنه غياثهم . وقد كنا الآن نسمع ونبصر بنزول العدو ديارا فضلا عن دار فنتغافل ، وربما استصرخونا فنتكاسل ، حتى ينتهزوا فرصتها ، ويتمكنوا من غرتها ، ثم يفعلون بأخرى مثل ذلك ، فدل على استخفافنا بالامر ، وتهاوننا بما لا يحل فيه صبر ، كأننا ما سمعنا قول الله تعالى « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » ..

وانه ــ الجهاد ــ وان كان كفاية فهو الآن على التعيين لاجل ما عرض، اذ كان واقعا فى صدر الاسلام لاعلاء الدين وكلمته ، وأما الان فقد أفضى الامر الى مدافعة الانسان عن حريمه وذريته ، فتشتد عزيمته وتتأكد فريضتــه . فيا لله ويا للابطال ! ويا لحماة الزمان من الرجال ! هل فيكم من يعــين المسلمين ويستنصر لاخوانه المومنين ؟ او من تهزه اريحية التعطف فيلبى نداء المستصرخين ؟ أو من له أنفة أبية لا يرضى بترك اخوانه بين اظهــر المشركين ؟ !.. الا ذو همة كريمة ! الا من له عزيمة ! الا شخص لا يرضــى بالعــار ! الا شخص لا يبقى مع المراضع فى الدار ! .. أما والله لو سمع هذا من تقدمكم من أهل الصلاح ، لبادروا الى الكفاح . ولو عاين ما وقع من فساد من سبق من الابطال ، لم يعرجوا على أهل ولا أطلال . ولو أبصر أهل النجدة ما جرى فى الاسلام ، لراوا ان الخير كله فى ورود الحمام . عجبا كيف يستبيح الذل مقدام ، أم كيف يجبن أريب همام ؟ أم كيف يتأخر متعصب لدينه، أم كيف يتوانى مساجل عن نفسه وثمينه ؟ أم كيف يتردد من يريد حمايــة الاوطـــان ، أم كيف يقصر من يسعى لنفسه وأهله فى الامان ؟ ؟ ..

هيهات ! ذهبت الغيرة من النفوس ، وماتت القلوب التى عليها مدار الاسوس ! فلم نكن بررة نجاهد احتسابا ونية ، ولا بفجرة نغزو عصبية ، ولا ذوى أنفة لا نرضى بما فعلوا ، ولا أصحاب عدل نجازيهم بما عملوا!..» (13)

تتكرر مثل هذه القالات الوطنية الجهادية فى الكتاب ، ويختم بها كــل فصل وبـــاب .

---

(13) المصدر السابق فى نفس الباب .

4 — الباب الثامن من **مطلب الفوز والفلاح** (14) لعيسى بن محمد البطوئى .

سبق ان اشرنا الى ان هذا الكتاب جامع لموضوعات مختلفة ، غير ان الباب الثامن منه يكون وحدة مستقلة يشبه أن تكون كتابا خاصا فى الجهاد ، فصل فيه المؤلف القول فى معنى الجهاد لغة وشرعا ، وبين اقسامه ، والاصل فيه ، وشروطه وفرائضه ، وفضائله وآدابه .

وقد ذكر من جملة فرائض الجهاد الوفاء بالعهد ، وطاعة الامام ، والثبات عند اللقاء ، وعدم فرار الواحد من اثنين .. مستشهدا بأحاديث كثيرة تثبت ما تقدم ، واخرى تحض على الاستماتة فى مجابهة العدو ، وعقب على ذلك بقوله : « واعلم — رحمك الله ! — ان أصل الوهن والضعف عن الجهاد ومكافحة العدو هو حب الدنيا وكراهية بذل النفوس لله تعالى وبذل مهجتها للقتال فى سبيل الله . الا ترى الى حال الصحابة وكيف مهد الله لهم البلاد ، ودان لدينهم العباد ، لما بذلوا لله انفسهم فى الجهاد . وحالنا اليوم كما ترى عدد اهل الاسلام كثير ، ونكايتهم فى الكفار نزر يسير » (15) .

وعندما تحدث البطوئى عن فضائل الجهاد وآدابه ، أفاض القول فى الحث على الدفاع عن الحرمات ، موردا كثيرا من الاحاديث وقصص المجاهدين واشعارهم . وختم القول بالكلام على الرباط لحماية ثغور المسلمين ، ومقارنته بالجهاد .

⁂

أما الاثار الادبية المتعلقة بالجهاد فانها مرتبطة أيضا بأحداث تاريخية بارزة فى ذلك العصر ، وسنجتزىء هنا بايراد ثلاثة أمثلة منها :

## 1 — تسليم العرائش الى الاسبانيين :

بعد أن قضى محمد المأمون الشيخ نحو ست سنوات فى القتال مع اخوته توالت عليه فيها الهزائم ، ركب البحر مع أهله الى اسبانيا مستصرخا بملكها ليمده بقوة تمكنه من الاستئثار بملك أبيه ، فتمنع فيليب الثالث (1598 — 1621 ) واشترط فى الاخير أن يترك المامون اهله رهينة عنده ، ويسلمه

---

14) انظر ما سبق ، ص 164 ، هامش 188 .

15) **مطلب الفوز والفلاح** ، أواخر الباب الثامن.

مدينة العرائش ففعل . وتم اجلاء سكان العرائش عنها كرها ، ودخـــول الاسبانيين اليها يوم رابع رمضان عام 1019 / 20 نونبر 1610 .

كان لهذا الحادث رد فعل قوى لدى عموم الشعب المغربى والمثقفين بصفة خاصة ، وتهيأت ضده ثورتان ، احداهما بفاس تزعمها الشريف أحمد ابن ادريس العمرانى « ودار على مجالس العلم ونادى بالجهاد والخـروج لاغاثة المسلمين بالعرائش ، فانضاف اليه اقوام وعزموا على التوجه لذلك، ففت فى عضدهم قائده حـم المعروف بأبى دبيرة ، وصرف وجوههم عمـا قصدوه فى حكاية طويلة » (15) .

وقاد الثورة الثانية أحمد بن أبى محلى ، وهو يومئذ بداره فى قرى بنى عباس بصحراء توات يؤلف **سبيل الحقيقة والحق** ويكتب فى القسم الرابع منه عن أرزاق الائمة والقضاة والمفتين ، فأوقف الكتابة فى هذا الموضوع وسجل الحادث المروع بقوله : « ولما وصلت هذا المحل من هذه الفصول وقد ورد علينا خبر مهول ، بل فحش مطيش ، أن العرائش من الساحل أخذها الكفار، وهم على أثر ذلك بجيش يجيش يريدون استئصال الاسلام .. أرقنى ماسمعت واقلقنى لما رأيت من شتات الكلمة .. هنالك تنفست الصعدى بهذه العجالة، لعل بنى النجدة من المومنين يستيقظون لوعى المقالة ، خصوصا منهم مـن كان ذا سلطان ، كيف لا يغضب لله تعالى عن حزب الشيطان ؟! فواها علـى الدين ، ان لم يتداكه الله على يد هؤلاء المؤيدين ! » (16) .

وهنا أنشد ابن أبى محلى قصيدة حماسية من خمسين بيتا تفجع فيهـا على سقوط العرائش ، واستنهض الهمم للجهاد وتخليص المدينة وسكانهـا المشردين من قهر المتسلطين الظالمين :

« لئن صح ما قد قيل ما عيش عائش ... اذا أخذ الكفار ثغـر العرائـــش

فيا معشر الاسلام من بعد عزكـم ... عليكم اكاف الذل لا من منـــاوش

فأين ملوك الغرب فى كـل ضـــارب ... بسيف ورام فى جيوش الابارش ..

من أهل الجبال والوطا ومدائـــن ... وعرب ضوار باللقا والتنـاوش ..

---

15) م. الافرانى ، **نزهة** ، 178 .

16) أ. ابن أبى محلى ، **سلسبيل** ، 182 .

وكـل كريم بربـــرى مبربـــر كليث الشرى عند اشتباه الهوائش

عريـض طويـل رمحـه ونجـاده ومسدل شعر خلفه كالمفارش» (17)

هكذا استنجد ابن ابى محلى بجميع عناصر سكان المغرب من أهل الجبال والسهول والحضر والبدو ، والعرب والبربر ، والصحراويين أصحاب الشعور المسدلة . وتمكن فعلا من ان يجمع حوله عددا وافرا من جميع هذه العناصر فى ثورته العارمة ، ويستولى على جنوب المغرب كله ويطرد زيدان من مراكش ، لكنه قتل بعد نحو ثلاث سنوات دون أن يتمكن من متابعة زحفه لمناجزة الاسبانيين فى العرائش .

***

## 2 ـ استصراخ السلويين باهل سوس

قويت اطماع الاسبانيين بعد أن تركزت اقدامهم فى العرائش واحتلوا من جديد مرسى المهدية على مصب نهر سبو شمالى مدينة سلا ، ولم يعودوا يجدون مقاومة الا من السلويين فى المعمورة وأسطولهم ( القرصانى ) المعزز بالمجاهدين الاندلسيين . ركز الاسبانيون عملهم العسكرى ضد سلا برا وبحرا ، والمجاهد العياشى يومئذ غائب عنها فى ولايته على آزمور . ولما لم يلق السلويون من زيدان سلطان مراكش أذنا صاغية لاستغاثتهم ، ولوا وجوههم شطر الامير يحيى الحاحى بترودانت ، وهو الذى أصرخ من قبل زيدان ورد له عرشه السليب .

كان لهذا الاستصراخ صداه البعيد فى سوس ، فكتب قاضى الجماعة هناك عبد الرحمن التمنارتى رسالة وجهت باسم الامير يحيى الى جميع الجهات الخاضعة لنفوذه ، داعية الى الجهاد واصراخ السلويين . وانشأ التمنارتى كذلك خطبة حماسية لتلقى فى جموع المجاهدين المتوافدين على مركز التجمع بايمينتانوت (18) ، وعززها بقصيدة تاريخية طويلة تذكر بأمجاد دول المغرب المتعاقبة من لدن الادارسة الى السعديين ، والادوار الحاسمة لعظماء ملوك المغرب فى الدفاع عن حوزة البلاد ونصرة المسلمين فى الاندلس .

---

17) انظر القصيدة بتمامها فى المصدر السابق ، 182 و ـ 183 ظ.

18) قرية فى الاطلس الكبير بين ترودانت ومراكش ، وتبعد من هذه الاخيرة بنحو 120 كلم .

جاء فى الرسالة الاميرية ، وهى مؤرخة بغرة جمادى الثانية عام 1025/ 16 جوان 1616 ، بعد مقدمة فى الجهاد ، عرض لحال سلا المهددة :

« .. ورد علينا بتاريخه رسول من مدينة سلا ، التى علاها من قتــام الكفر ما علا ، مما دهمها من العدو وحسبما تقرر عندكم . وان العدو ــ دمره الله ــ لما استوثق بناءه ، ومكن بساحتها حشمه وابناءه ، أخذ يشن الغارات على ما قرب وما بعد من بلاد الاسلام ، ويدب الضراء لاغتيال المسلمــين ونكايتهم بضروب الآلام ، ويكاثرهم بالجنود العتيدة برا وبحرا ، ويداهمهم بالمكائد المريبة سرا وجهرا ، حتى ضاق بسكانها الخناق ، وبلغت القلوب الحناجر من ذلك التضياق .. » (19) .

ثم تحدثت الرسالة عن الهدف الذى تتوخاه ، وهو اعلان النفير الشعبى والرسمى :

« ... فكاتبناكم بهذا النبأ الذى حال بين الجفن والسهاد ، لتذيعــــوا النفير بالجهاد ، فى سائر البلاد ، وتنادوا فى الاسواق بأخذ الاهبة له بالطارف والتلاد ، وتستنهضوا له الصدور والاعجاز ، وتعمموهم بخطاب الحقيقة بلا مجاز ، وتذكروا الخاصة والعامة بهذا الفرض ، وتحرضوهم على اقامة رسوم الالفة التى هى عماد كل نفل وفرض ، حتى تجتمع بحول الله قلوبهم ، وينجح بمرضاة الله مطلوبهم . فانه ما غزى قوم فى بلادهم الا ذلوا ، ولا قعدوا عن الدفاع عن ذمارهم الا اضمحلوا . فكيف والروم ــ أخزاهم الله ــ قطعــوا الى بلادكم أمواج البحار ، ومدوا اليد العادية الى أسر قرى الاسلام ومـــا شيد بها من الآثار ، وفغر تثليثهم لابتلاع توحيدكم فاه ، وعدا الصليب من الادلال طوره ومداه ... وقد كان سلفكم الكريم يقطع البحر مع ملوك الدول الماضية لجهاد كفار الاندلس من وراء البحار . وكانت لهم وقائع بادية الآثار ، واضحة الاشتهار ، مثل غزوة الارك والزلاقة ، قطع المسلمون للكفر فيها كل طالعة وكل ساقة . افتعجزون أنتم عن قتالهم فى بركم وبين أهليكم ، ومــن مسافة ثلاثة ايام او أربعة من بواديكم ، وأنتم والحمد لله اكثر منهم عددا ، وأوفر عددا ، وأيسر أسبابا واقرب مددا .

---

19) ع. التمنارتى ، **فوائـــد** ، 198 .

... ولتعلموا ان مولانا الامام — ايده الله — قد اذاع النفير بالجهاد ، فى سائر البدلا ، واستنهض من جميع الجهات اهل الكفاح والجلاد . وهو — أيده الله — جاد فى اخذ الاهبة لهذا القصد الاسنى ، مؤكد العزيمة فى رفع قناع الذل عن وجه الحنيفية البيضاء ... » (20)

وتقع خطبة التمنارتى فى اربع صفحات تبتدىء بالترغيب فى الجهاد عموما ، والتحريض عليه اعتمادا على آيات قرآنية واحاديث نبوية ، وتتخلص الى ذكر الاحوال السيئة العامة بالمغرب ، فتعللها بما حل بالبلاد من وباء جارف طال سنوات وموت احمد المنصور ورجاله الاشاوس :

« ... وقد قام بهذه الفريضة — الجهاد — فى المغرب ملوكه — رضى الله — جاد فى اخذ الاهبة لهذا القصد الاسنى ، مؤكد العزيمة فى رفع قناع عام ونيف ، فنزل الامر الذى ينسف الاقطار ، ويجرفها جرف السيول والامطار ، طاعون السادس بعد الالف ، واستمر خناقه وعناقه الى العام السادس عشر بعد الف ، فلم يدع بيتا الا صدعه ، ولا بابا الا قرعه ، ولا جمعا الا فرقه ، ولا ذا حال الا طرقه ، حتى اغتال ملكه المنصور ، وكل أسد هصور ، فكسد سوقه ، وتعطلت مصادره وموارده، وطمست سبله ومعاهده فركب أهله الهوان ، وشملهم الخذلان ، وأسر العدو — دمره الله — غدرا اولى العدوتين ، والقى عرشه بعرائشه وخنق حلق واديه (21) بأخرى العدوتين . وكان السبب فى ذلك الحادث المذكور ، موت أمير المؤمنين المنصور .. » (22) .

ثم تجىء قصيدة التمنارتى (23) لتركز على جانب الجهاد فى سيرة ملوك المغرب عبر عصور التاريخ قبل أن تفصل القول فى واقع البلاد المظلم وتستثير حمية النفوس لتغيير هذا الواقع :

«.. خفافا ثقالا فانفروا وتجهزوا ... أمامكم النصر العزيز يقود

لئن أخلدت منا النفوس الى الثرى ... فأنى لنا دار النعيم خلود

وان نكصت عن الجهاد لخيفة ... عساكرنا يخشى علينا وعيد

---

20) المصدر السابق ، 199 — 200 .
21) مرسى المهدية على مصب نهر سبو تدعى أيضا حلق الوادى .
22) ع. التمنارتي ، فوائد ، 204 .
23) تقع هذه القصيدة الدالية فى 103 بيت ، وهى من بحر الطويل . انظرها بتمامها عند ع. التمنارتي ، **ديوان** ، 1 : 49 و — 51 و .

وكيف ووعد الله بالنصر صـــادق لنا به تعلو الكافرين هنـــــود
كانــى بأجبل النصارى تدكدكـــت اذا نشرت يوما عليها بنود..» (24)

ويخص الشاعر فى الاخير قومه السوسيين بالاستصراخ والاستنجاد :

«.. ابجمل بالابطال من سوسنا التى لها الفخر قدما فى الهيـــاج قعود ؟
وبالضاربين الهام من كـل فاتــك من الغرب ذى العز الوثيق ركود ؟
بلى ! نحن كنا اهلها سنشدهـــا ونحسم يوما ما بنتـــه قـــرود
فلله من وفـــى الجهاد مصدقـــا بما قال قبل فى البراء لبيد .. » (25)

⁂

## 3 ــ استنفـــار التطوانيين لاهل فـــاس

لما اقلقت غارات المجاهد العياشى راحة المحتلين ، وكانت حركاتــه الجهادية لا تنقطع من المهدية والعرائش الى سبتة ومليلية ، عزم فيليـــب الرابع (1621 ــ 1665 ) على مهاجمة المغرب ، وجهز حملة بحرية كبـــرى للقضاء على المجاهدين السلويين بحرا وبرا .

علم التطوانيون بأخبار الحملة فبعث رئيسهم عبد الله بن أحمـــــد النقسيس ( ت. بعد 1633/1042 ) برسالة وصلت الى فاس فى مهل صفر عام 20/1039 شتنبر 1629 . والرسالة مكتوبة بأسلوب ادبى رفيع ولو أنه مثقل بالسجع، وموجهة الى عامة أهل فاس وخاصتهم لتطلعهم على استعدادات الاسبانيين :

« .. تواترت الاخبار لدينا عنهم أن طاغيتهم الفائل الرأى ، الخائـــب السعى ، قد وسوست اليه أمنيته ، وأنشبت أظفارها فيه بحول الله منيته ، أن يقصد بأسطوله هذه العدوة ، ولعه اتخذ الخالى قبله قدوة (26) . فاحتفل فى جمع عمارة ــ اى اسطول ــ هى بحول الله من النصر فارغة ، وللمسلمين ان شاء الله تعالى غنيمة سائغة . اشتملت الآن على ستة وستين غرابا دون السفائن التى بين الكبار والصغار ، والله يلبس جميعهم الذلة والصغار . وهم الآن بمرسى مالقة ــ أعادها الله ــ ينتظرون ما يرد عليهم من أممهم من

24) المصدر السابق ، 50 و ــ ظ .
25) نفس المصدر ، 51 و . والاشارة الى بيت لبيد العامري من شعراء المعلقـــات :
ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
26) الاشارة الى سبستيان ملك البرتغال الذى مات فى معركة وادى المخازن .

المدد ، ويتكامل لزيهم من العدد والعدد . وقد استعدوا بكل وجه يقـدرون عليه ، وتنتهى طاقتهم اليه .. وقد كانت هذه الامم الكافرة فيما سلف من السنين القريبة متنافرة ، فالآ قد الفتهم دعوة التثليث (27) ، وتنادوا الى الاسلام والله المغيث . ونحن نستعين على الثلاثة بالواحد، ونضرب بالتوحيد وجه كل مثلث جاحد .. واعظم ما يتوقع من عبورهم ونزولهم بثغورهـم ، زلزلة سلا فى البر والبحر ، والله يرفع ما يتوقى من هذا الامر . وان كان لذلك اللبد من هذا الامر حظ التعصيب ، فلكل ثغر بل بلد من ذلك سهـم ونصيب ... » (28)

بعد هذا العرض الذى وصف استعداد العدو وبين أهدافه الصليبيـة ومقاصده الحربية ، انتقلت الرسالة الى ذكر غرض التطوانيين منها :

« .. فكتبنا الى تلك الحضرة التى هى قاعدة الاسلام ، المحتوية على جملة من حملة السيوف والاقلام ، والبلد الطيب المخصوص بجزالة الآراء واصالة الاحلام ، من الاسد المسارعة الى نصرة دين النبى عليه الصلاة والسلام ، لتأخذوا للفرض الواجب ما يستحقه من الاهبة ، وتتقربوا من ذلك الى الله تعالى بأعظم قربة ، وتعرفوا بذلك من اليكم تعريفه من قبائـل المسلمين وأجنادها وأنجادها ، وتبلغوا مبلغ الجد فى استنفارها واستنجادها، فى أغوارها وأنجادها وليس يحتاج مثلكم أن يولج الى تحريض على الجهاد ، وحض على الجد فيه والاجتهاد ، فان وجوب ذلك كالشمس ليس لها حاجب، وأنتم أعرف الناس بالفرض الواجب . وقد عرفنا أهل هذه الثغور ، خصوصا أهل سلا ومن اليهم من الخاصة والجمهور . أما اخوانكم من هذا الثغر فعلى حال تسركم — ان شاء الله — قد بذلوا المجهود فى الاستعداد ، وبلغـوا المقدور فى استجماع آلات الجهاد . وقد جعلوه نصب أعينهم ، وعمارة قلوبهم والسنهم ، تطير بهم أجنحة العزم استباقا ، وتهزهم أحاديث الجهاد طربـا واشتياقا ، راجين احدى الحسنيين ، مؤملين النصر من منزل السكينة على جـد الحسنيـن . . . »

---

27) يشير ولاشك الى حركة التصالح الدينى والسياسى بين بعض الدول المسيحية فى نهايـة القرن 16 وأوائل 17 ، كنهاية الحروب الدينية فى فرنسا بمرسوم نانت سنـة 1598 ، ومعاهدة الصلح بين فرنسا واسبانيا فى نفس السنة بواسطة البابـا كليمـان الثامـن ( 1592 – 1606 ) ، وصلح انجلترا مع اسابنيا سنة 1604 ، ومعاهدة لوبـك سنـة 1629 التي أوقفت الصراع بيـن الكاثوليـك والبروتيستـان فى أوربـا وانهـت الدور الدينى لحرب الثلاثين سنة .

28) م. ابن القاضى ، ادبيات ، 5و — ظ .

بقى ان نشير الى ان مدينتى فاس وتطوان كانتا معا خاضعتين — شكلا — الى سلطة المجاهد العياشى بسلا ، غير أن بعده عنهما واشتغاله الدائم بحركات الجهاد ، جعل المدينتين — عمليا — مستقلتين عن نفوذه . وكانت المنافسة آنذاك على اشدها بين عدوتى القرويين والاندلس ، لذلك تلقى التطوانيون جوابين عن رسالتهما السابقة .

كتب جواب اهل عدوة القرويين محمد بن قاسم ابن القاضى بنفس الاسلوب الادبى الفنى ، فقال بعد مقدمة طويلة فى التلميح الى فضل الجهاد والاشادة بالمجاهدين التطوانيين ورئيسهم النقسيس :

« .. ان كتابكم الكريم ، وخطابكم العظيم ، وصل للقراء فى البلد ، واجتمع عليه فى الجامع الاعظم الصغير والكبير والوالد والولد ، حتى لم يبق من اهل المدينة من الخاصة والعامة أحد ، وصاحوا كلهم عند سماعه صيحة واحدة ، تتقطعت عند ذلك لسماعها القلوب والافئدة . ونادت جميع العباد ، يا للمسلمين ويا للجهاد ! واقبلت الناس بالوفود ، واقشعرت من ضجيجهم المسامع والجلود ، وفاضت من شدة غيرة الاسلام مدامعهم على الوجنات والخدود . فياله من مجمع عظيم يجل عن الصفة ، ومشهد كبير لا يصفه الا من حضره وعرفه . فاجتمعوا وتألفوا ، وتعاهدوا وتحالفوا ، أن كل من تخلف منهم عن هذا الامر العظيم اذا صدر ، أن دمه عندهم هدر .. وأما ما ذكرتم أنهم جمعوا ستة وستين غرابا ، فسيعود ذلك عليهم — ان شاء الله — حسرة وعذابا . فويل لهم ولما جمعوا ، وتبا لرأيهم وبئس ما صنعوا ! ولكن لو كان كبيرهم الذى علمهم السحر معه عقل وازن ، لذكرهم بغنيمة وادى المخازن ! » (29)

وحرر جواب اهل عدوة الاندلس محمد بن احمد المكلاتى بأسلوب رائق استهله ببيتين يشبهان ما نسمعه اليوم فى الاناشيد الوطنية :

« شهد الاله وانت يا أرض اشهدى
انا اجبنا صرخة المستنجد

(29) المصدر السابق ، 7 ظ — 8 و .

لما دعا الداعى وردد صوته
قمنا لنصرته ولم نتردد

وقال فى معرض جواب الرسالة بعد مقدمة طويلة أيضا :

« . . . وقد وصل كتابكم ففضضنا ختامه، وتصفحنا أخباره وأعلامه، فاذا السحب وأنواؤها ، والبروق وقد خفق على راس أمير الكلم لواؤها ، فسجد له كل بليغ واقترب ، وبايعه رعايا الكتاب منشدين فسمعا لامير العرب ، وطاعة لداعية للجهاد ، واخلاص النية لرب العباد . وما هو الا النذير العريان ، وخبر الواحد الذى صار كالعيان . أشار الى جلية خبر العدو — دمره الله — ... وأنه شحن أساطيله بمرسى مالقة — أعادها الله — ، وما كان منه من الاستنفار بعد النفار ، فما ذكرتم منا ناسيا ، ولا استحثتم لنصرة الدين وانيا . ها نحن بعد التأهب وأخذ الحذر طيرنا بالخبر فى الآفاق، أجنحة الاوراق ، وحملناه الركبان والرفاق . فأنسوا من هنالكم من طوائف المجاهدين بانجاز الله لهم موعد نصره ، وتبلج أفق الاسلام عن سناء بدره ... » (30)

***

وقد جمع الفصل الخاص بالجهاد من كتاب **الجواهر المختارة** (31) لعبد العزيز الزياتى نماذج لكتابة الفقهاء وحوارهم فى مسائل الجهاد ، فلنقتبس منه فقرات من فتوى تناولت موضوعات متعددة كانت مثار جدال وخصام بين دعاة الجهاد المخلصين ومحترفى السياسة النفعيين . ذلك أنه بعد انتشار نفوذ المجاهد العياشى بشمال المغرب ، واستمرار اعراضه عن المتأخرين من ملوك مراكش السعديين ، قام بعض أذناب هؤلاء من الفقهاء بالتشويش على العياشى واثارة الشبه حول أعماله ليظن العامة أن جهاده غير مشروع فينفضوا من حوله .

هنالك طرح بعض العلماء خمسة أسئلة على عموم فقهاء المغرب ، وذلك فى حدود عام 1630/1040 ، يتعلق الاول منها بحكم تحرير المدن

30) نفس المصدر ، 8 ظ — 9 و .
31) يبتدىء الجزء الثانى من **الجواهر المختارة** بفصل الجهاد الذى يمتد من صفحة 229 الى 274 .

المغربية المحتلة والحصون التى شيدها العدو فى مناطق احتلاله ، والثانى بأدلة ذلك الحكم اثباتا أو نفيا ، والثالث بتوقف الجهاد على وجود الامام واذنه ام لا ، والرابع بحكم بيع الطعام والسلاح للحربيين ، والخامس بشراء الطعام من الحربيين عند الضرورة .

وكان ممن أجاب عن هذه الاسئلة بتفصيل وادراك فقهى واع ونفس وطنى عال محمد العربى الفاسى ، فقال عن السؤال الاول :

« ... مما علم من الدين ضرورة أن الجهاد مطلوب ، من المقاصد التى تعتمدها الشريعة بالوجوب بحسب نفع الاسلام ونكاية عدو الدين ، يتأكد الطلب على الكفاية أو التعيين . . فاذا كان الاجر ثابتا فى الموطىء والغليظ وقطع الوادى ، فكيف لا يكون فتح الحصون ، واستباحة الحمى المصون ، مطلوب الفعل على التأكيد ، مأمور به أهل الاسلام على التأبيد .. فما بالك بما اغتصبه الكفار بدعوى الثأر ، فتعينت على حميته اجابته ، ووجب أن تقوم بعصبيته عصابته . فان أضاعوه فانفسهم أضاعوا ، والحظ النفيس بالحظ الخسيس باعوا .. » (32) .

وعن السؤال الثانى :

« ــ الجهاد ــ فرض عين على من نزل العدو به أو قريبا منه من أهل مدينة أو غيرها . اذا علم أنه يجب علينا أن ندافعهم عن الاستيلاء على وطن من أوطان المسلمين قبل استيلائهم عليه ، فما الذى رفع هذا الوجوب عنا بعد استيلائهم ؟ ! وعلة وجوبه قبل الاستيلاء موجودة بالاحروية بعد الاستيلاء ولم يختلف الناس فى بقاء الحكم مع بقاء العلة ، انما اختلفوا فى بقائه مع زوال العلة . ولا يتوهم متوهم أن ترك المسلمين مدائن المسلمين فى أيدى الكفرة يدل على عدم الوجوب ، لان ذلك من تقصير الملوك ، وهم بذلك فى محل العصيان ، لا فى محل الاقتداء بهم والاستنان . . » (33) .

---

(32) المصدر السابق ، ص 233 .
(33) نفس المصدر فى نفس الصفحة .

وعن السؤال الثالث :

« لا يتوقف وجوب الجهاد على وجود الامام ولا على اذنه فى الجملة . وذلك شرط كمال لا شرط وجوب . ومن المعلوم الواضح أن الجهاد مقصد بالنسبة الى الامامة التى هى وسيلة له ، لكونه فى غالب العادة لا يحصل على الكمال الا بها . فاذا أمكن حصوله دونها لم يبق معنى لتوقفه عليها فكيف نترك المقاصد الممكنة لفقد الوسائل المعتذرة ؟ ! ومن المعلوم فى الفقه أن جماعة المسلمين تنزل منزلة السلطان . وما تهذى به بعض الالسنة فى هذه الازمنة من انه لا يجوز الجهاد لفقد الامام واذنه ، فكلمة أوحاها شيطان الجن الى شيطان الانس وقرها فى أذنه ، ثم ألقاها على لسانه فى زخارف هذيانه ، اغواء للعباد ، وتثبيطا عن الجهاد . وحسبك فيمن يقول ذلك أنه من أعوان الشيطان ، واخوانه الممدين فى الغى والطغيان . والذى تشهد به الادلة أن الجهاد الان أعظم أجرا من الجهاد مع الامام ، لان القيام به الآن عسير.. » (34)

وعن السؤالين الاخيرين أفتى بعدم جواز بيع القوت والسلاح للحربيين، ولا شراء الطعام منهم ولو عند الحاجة ، لان المشاهد آنذاك تسرب عملة الذهب والفضة الى يد المسيحيين واستغناؤهم بها وافتقار المسلمين .

— *** —

هكذا شغل رجال الفكر بمسالة الجهاد طوال عهد السعديين ، مزجوها بالعاطفة الوطنية ، وحللوها على ضوء أحكام الشريعة الاسلامية وظروف الواقع الذى عاشته البلاد .

(34) المصدر السابق ، 234 .

# الفصل الثاني

❁

## الأمـــر بالمعروف والنهـــى عن المنكـــر

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قاعدة عظيمة من قواعد نظام المجتمع الاسلامى، تحدث عنها المفكرون فى العصر السعدى من الوجهة النظرية العامة، ومن الوجهة العملية المتعلقة بمسائل معينة اقتضتها ظروفهم الخاصة .

تعددت موضوعات الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فشملت عـــددا غير قليل من عادات المجتمع وتقلبات السياسة . ورغم اصطباغ أقـــوال المصلحين واعمالهم بالدين فانهم لم يقصوا جانب الفكر والنظر ، بل تجدهم كثيرا ما يلجؤون الى سوق أدلة محسوسة أو اثارة عواطف انسانية ليجعلوا مخاطبيهم يدركون المقاصد المتوخاة ادراكا أكثر وضوحا وواقعية .

واختلفت صيغ الامر بالمعروف والنهى عن المنكر باختلاف طبيعـــة الظروف وشخصية المصلحين ، فكان منها ما وجه الى أفراد من ملوك وولاة وشيوخ ، أو جمهور معين فى قرية أو مدينة أو اقليم ، ومنها ما صرف الـــى تكتلات سياسية أو فرق مذهبية ، ترشدهم الى طريق سوى زاغوا عنه أو تحذرهم من شبهات وأضاليل وقعوا فيها . ولم تكن مهمة المصلحين باليسيرة السهلة . فقد تعرض بعضهم للاذاية والاهانة والسجن ، وقدم آخـــرون أرواحهم لقاء جهرهم بالحق واصرارهم على ما دعوا اليه من أفكار .

اخترنا من بين الآثار المكتوبة الباقية من العصر السعدى نمـــاذج متنوعة لاربعة مصلحين من العلماء المتصوفين ، وعززنا بأربعة أخرى عـــن المهدوية وفرق ضالة شغل الناس بالرد عليها والتحذير منها طوال ذلـــك العصـــر .

## 1 ــ الفية الهبطى (1)

لم يدع الشيخ عبد الله الهبطى منكرا من المناكر المنتشرة بين قومه سكان الريف الا تحدث عنه فى **الفيته** ، ناهيا ومنفرا أو داعيا الى البديل المنسجم مع تعاليم الاسلام والاخلاق الفاضلة . ورتب ذلك فى خمسة عشر بابا تتخللها فصول كثيرة .

مما جاء فى الباب الثامن المخصص لما وقع من تغيير العامة فى الملة الاسلامية :

### ا ــ اختلاط الرجال بالنساء :

اختلاط الرجال بالنساء فى المحافل حيث يجىء الرجل منهم بزوجه لترقص مع النساء والرجال ، وقد تزينت بأحسن ما تملك ، واعتصبت فوق الغفار الحريرى الاحمر بعصابة مرصعة بالجوهر ، وعلقت فى أذنيها قرطين مستديرين يحتكان بخديها اللامعين ، وكحلت عينيها وحاجبيها ، وصبغت فمها وصقلت أسنانها وخضبت يديها بالحناء ، ووضعت من حلى الذهب والفضة اساور وخواتم فى يديها وخلاخل فى رجليها ، وتدثرت (بموطة) خيطت أطواقها بالذهب وتمنطقت بحزام مزخرف من حرير . . . ثم وصف دوائر الرقص وحركات الراقصين والراقصات قبل أن ينتقل الى اختلاط الرجال بالنساء فى الاسواق ، وفى الانهار حيث يسبحن عاريات مع الرجال ويلعبن معهم فى الماء ( لعبة الركلة ) ...

« فهؤلاء الفاقدون الغيرة ... كما تراهم ما لهم من قيمة
... كم من نصيحة لهم أدينا ... وكم حقيقة لهم بينا
وهم على ما هم فى كل حين ... بل زادوا فى عنادهم للدين» (2)

### ب ــ مناكر الاعراس :

من عادتهم أن تزين العروس فى بيت أبيها ويحملها شاب ( حلوف ) على ظهره الى بيت زوجها وسط جموع من الشبان يغنون ويرقصون

1) سبق أن اشرنا الى **الفية الهبطى** فى المقدمة ضمن المصادر الرئيسية ، وقدمنا معلومات من المخطوطات الموجودة منها . انظر ص. 31 وهامش 82 .

2) ع. الهبطى ، **الفية** ، الباب الثامن .

ويضربون بالاكف والمزاهر . فاذا دخلوا بها على العروس وقد أحاط بـــه ( وزراؤه ) ، تسابق هؤلاء اليها يحلون ما عليها من الملابس والحلى وهم يدغدغونها ويداعبون صدرها ويقبلونها أمام زوجها الذى خضب يده بالحناء ولبس الاساور وهو فى غاية الانشراح . ثم تستمر زيارة ( الـــــوزراء ) للعروسين بنفس طريقة الملاعبة والرقص والغناء سبعة ايام .

« .. ولا دروا بأن ذا هو الحـــرام عند الذين يعرفـــون الاســـلام

اما الذى كانوا عليه مـــن بـــوس فغير جائز ولو عند المجوس » (3)

## ج ــ الوشـــم :

عقد الهبطى الباب التاسع لمنكر تغيير خلق الله بالوشم فبين كيف كان القوم يحتفلون بوشم الفتيات قبيل سن الزواج ، حيث يأتى الوشام الىالبيت، وهو رجل مخنث متزين كالنساء بكحل العين وصبغ الفم ... ، ويعطى مـــن الفرص ما يزيل الكلفة بينه وبين الفتاة من مواكلة ومداعبة . ثم يوتى بنساء واشمات يكشفن عن اجسامهن أمام الوشام ليقلد رسومهن على أعضاء الفتاة من الجبين الى الساقين . ويتحين الفساق من الشبان الفرصة فيـــزورون الوشام أثناء عمله لمشاهدة مفاتن الفتيات العاريات .

« يصور الوحوش والسلوقـــــى فى لحمها ذو الغـــى والنفـــــاق

... نعم ! وهذا الامر طم يا نبيـــه لم يخل منه عابد ولا فقيه » (4)

## د ــ الــزفـــان :

يختص الباب العاشر من **ألفية الهبطى** بالزفان (5) ووقاحته وسفهه وما ترتكب بسببه من مناكر . اذ كان الريفيون مولعين بغنائه ورقصه حتى لا يكاد يتخلف عن محفله أحد من أهل القرية التى ينزل بها ، وتتبارى النســـاء فى الرقص بين يديه وهو ينشد الاشعار الغزلية الخليعة باللسان الدارج الـــذى يفهمه الجمهور ويطرب له .

---

(3) المصدر السابق فى نفس الباب .

(4) المصدر السابق ، الباب التاسع .

(5) الزفان بلهجة سكان شمال المغرب هو ( الشطاح ) فى لهجة اهل الجنوب . ومن امثالهم «يموت الزفان وما ينساشى هز كتافو » . انظـــر م. داود ، مجلـــة **تطـــوان** ، سنة 1962 ، عـــدد 7 : 166 .

« اليه يحضرون فى مقت كبير كأنهم هناك ذود من حمير

نساؤهم يشطحن للزفان سمعا وطاعة لدى الشيطان

.. فما استحى لذكره الزفان يقوله سيدهم فلان

يعيب التى تخاف من زنى ويمدح التى لها به اعتنا

كمدحه التى تجى للصاحب ووعدها يكون غير كاذب

والناس كلهم له يستمعون بغاية الفهم عليه يقبلون » (6)

## هـ ـ شرب الخمر

عقد الهبطى فى الباب الحادى عشر فصلا لانتشار تعاطى الخمر بين الريفيين فيشربونه فى المحافل التى تضم المئين والآلاف من العامة والخاصة دونما تستر أو حياء ، فاذا تجرأ أحد الطلبة وذكرهم بآية أو حديث مما ورد فى تحريمها سخروا منه وأعرضوا عنه .

« قد انتهى فى الاشتهار الخمر الى التمام فاستفاض الشر

وذهب الحياء من أهل الزمان فدل ذا على ذهاب الايمان

ان حضر القبيل كم انسانا تراه من مدامة سكرانا.. » (7)

---

6) الفية الهبطى ، الباب العاشر .

7) المصدر السابق ، الباب الحادى عشر .

## 2 ــ رسالــة التيزركينــي (8)

احمد بن عبد الرحمن المسكدادى التيزكينى عالم كبير ، وصوفى شهير ، عرف بصراحته وصلابته فى الحق ، تشهد بذلك مراسلاته الكثيرة مع معاصريه من علماء وشيوخ التصوف بسوس . وكان السلطان محمد المهدى الشيخ يقول فى كبار شيوخ عصره : « سيدى احمد بن عبد الرحمن يخاف الله ولا يخافنا، وفلان يخاف الله ويخافنا ، وفلان لا يخاف الله ويخافنا » (9) .

توثقت عرى الصداقة والاخوة فى الله منذ عهد الدراسة بين التيزركينــي وسعيد بن عبد المنعم الحاحى . ثم صار هذا الاخير فى طليعة المجاهديــن الذين يناهضون البرتغاليين واحلافهم البدو فى بلاد حاحا وعبدة ، وتاقت نفسه الى الرياسة قبل ان يستحكم أمر السعديين ، فكتب اليه التيزركينى رسالــة صريحة يحذره سوء مغبة تفريق الكلمة بعد ان اخذت تلتئم ، وشق العصا من حيث يروم المصلحون جمع الشمل حول الدولة الناشئة .

« بلغنا عنكم انكم عازمون على مخالفة الشرع العزيز ، وعلى الرمــي باديانكم وابدانكم وارواحكم وعقولكم واولادكم واموالكم واحبابكم واتباعكــم وازواجكم فى بحور الهوى والردى ، ولا سفينة ! وعلى التورط فى مهواة الذنوب تتشبثون فيها بالصغيرة والكبيرة . وذلك طلب الملك والولاية ، ومنازعــة ارباب الدولة بالقتل والمشاتمة . هــاه ! هــاه ! هــاه ! كــلا لا ! كــلا لا ! كــلا لا !

اين عقولكم الراجحة ؟ اين علومكم الراسخة ؟ اين بصائركم الثاقبة ؟ اين عهودكم للسادة السالفة ؟ انتهوا خير لكم ! انتهوا خير لكم ! وانى لكم والله من الناصحين » ! (10) .

وتخلصت الرسالة بعد ذلك الى ابطال ما ادعاه الشيخ الحاحى واتباعه من اشارة كتب الجفر والحدثان الى امارة الشيخ ، وزعم بعضهم سماع ذلك من النبــي صلى الله عليه وسلم فى المنام :

---

8) انظر الرسالة بتمامها عند م. المختار السوسى ، معسول ، 13 : 272 ــ 275
9) م. الحضيكى ، طبقات ، 1 : 13 .
10) م. المختار السوسى ، معسول ، 13 : 273 .

ثم لكمل من تاهب أن يخوض بحور « فما مثلكم عندى فيما انتم فيه الا كمثل من تاهب أن يخوض بحور السموم وأوديتها ليبحث فيها عن حجر الياقوت ، فيقال له : أيها المسكين ! ان السم الذى تخوض فيه لا يبقى ولا يذر ، يهلك اول وهلة هلاكا تاما أبديا قبل الظفر بالمأمول من حجر الياقوت . فلا تعدل بالسلامة شيئا ! ولا يغرنكم سيدى فى ذلكم ما رسم فى دفاتر المعتنين بعلوم الحدثان فجله افك وزور . فالسعيد ابن السعيد من اتعظ بغيره ، والاحمق الشقى من وعظ به غيره . وأحرى من ذلك الهواتف التى تهتف بالانسان فى نومه أو يقظته ، فلا تسكنوا اليها وان كان سامعها منكم يزعم أنه سمعها من النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، اذ لا يجوز التدين بها حتى تعرض على الشريعة المحمدية ، فان وافقتها فالرؤيا حق والمسموع حق ، وان خالفتها فالرؤيا حق والمسموع وسوسة من الشيطان أو من النفس (11) » .

ثم ذكر التيزركينى صديقه الحاحى بصفاء حاله السابق محذرا اياه من الانصات الى رفقة السوء المغرضين ، ودافعا به الى التمسك بحبل الشاذلية وشيوخها العارفين :

« فسبحان الله ! كنت أخبرتنى يا سيدى قبل هذا أنك هممت أن ترمى بنفسك من سطح دارك حين نسب اليك هذا الامر ، والآن عزمت على ما عزمت عليه ! .. فهذا امام الطريقة ، جامع الشريعة والحقيقة ، سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه قال : ضمن لك العصمة فى جانب الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لك فى الكشف والالهام . رلقد كان لك يا سيدى فى شيخك سيدى عبد العزيز (12) ، وسيدى محمد ابن سليمان (13) أسوة حسنة ، فاسلك سبيلهم تسلم ! » (14) .

ونشير فى الاخير الى أن هذه الرسالة أتت أكلها وصرفت الشيخ الحاحى عن الخوض فى معترك السياسة والرياسة .

---

11) المصدر السابق ، ص. 274 .

12) يعنى عبد العزيز بن عبد الحق التباع صاحب الضريح الشهير بمراكش ، المتوفى عام 914 – 1509 .

13) يقصد محمد بن عبد الرحمن بن ابى بكر ابن سليمان الجزولى دفين مراكش أيضا ، المتوفى عام 869 – 1465 .

14) م. المختار السوسى ، معسول ، 13 : 275

## 3 ــ صيحـــة الاغصـــاوى (15)

كان الشيخ محمد الحاج البقال الاغصاوى ــ كسلفه ــ من اكبر دعـــاة السعديين فى الشمال ، واتصل حبل المودة بينه وبين محمد المامون الشيـــخ طوال المدة التى قضاها هذا الاخير وليا للعهد ونائبا عن أبيه فى فاس ، ثـــم اميرا متنازعا مع اخوته على العرش . فلما هم المامون بتسليم العرائش الـــى الاسابنيين انقلب الاغصاوى ضده منتقدا وداعيا الى نقض بيعته . ولم يجـــد وعد المامون ولا وعيده شيئا فى استرجاع مودة صديقه القديم وتاييده .

ولما صرح الشر بينهما كتب أخو محمد الاغصاوى الى المامون يداريه ويعتذر عن اخيه الذى « تغلب عليه الاحوال ويتكلم بلا قصد » . اخبر الشيخ بمضمون خطاب اخيه ، فعجل بارسال خطاب آخر للمامون يؤكد غضبه على تصرفه الشنيع ، ويخاطبه بلهجة نابية لم نر مثيلا لقوتها وصراحتها فى رسائل ذلك العصر . وكانت بحق صيحة مدوية ردد صداها الشمال كله ، وسقـــط المامون على اثرها صريعا بيد أحد المجاهدين التطوانيين .

هذه الرسالة خالية من كل تقديم الا عبارة من فلان الى فلان ، وأسلوبها عار عن كل زخرفة أو تنميق ، فتشعر وأنت تقرؤها بغضب الكاتب واهتمامه الاكيد بتبليغ رأيه الى المخاطب دونما تستر أو التواء .

« أما بعد . ما كتب لك به أخى علي فى شأنى بعضه حق وبعضه كذب . بأى موجب قلعت محلتك من سلا واتيت مهرولا لهتك حرمة الاسلام ؟ ! أتعين لك نفع فى عبادة الاوثان والاصنام ؟ أم اتخذت الها ثانيا حتى نصرت ديـــن الاوثان ؟ والله ما تبدل دينى . قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلـــم : معظم الدين النصيحة (16) ، لكن لا ايمان لك أنت والذين على عهدك ، ولا عهد لك . والحمد لله الذى قلب قلبى عن صحبتك ، فقد أراد بى خيرا . واللـــه لا سعيت فى وصالك أبدا ، لان وصالك بعد من الله . فالوجود كله يخاطبنى باللغة الصريحة بسبب خلطتك ، فلا تطمع فى وصالي أبدا . . » (17) .

---

15) مخطوطة خاصة بالرباط فى صفحتين .

16) روى البخارى وغيره هذا الحديث باسقاط لفظ ( معظم ) . انظر **صحيح البخارى** بـــاب الدين النصيحة .

17) **رسالة الاغصاوي** ، الصفحة الاولـى .

ثم عبر الاغصاوى بشجاعة نادرة عن رفضه تهديدات المامـــــون ، واستخفافه بالموت المحقق :

« .. والموت محيط بكل احد وتنطرة بين دار الفنا ودار البقا . فان لقيت الله وهو راض عنى لا ابالى بما القى تبل لقاء الله . ولا خوف ممن يقتـــل ولا يغفر . فان كنت انت تقتل والله يغفر فلا فائدة فى قتلك. والموت سبيل مسلوك، للمالك والمملوك ، فانا اليوم وانت غدا وعند ربكم تختصمون.. فكيف يا مخذول تسلم النصارى ـــ دمرهم الله ـــ حصون المسلمين ومعاقل الدين ! ...

والآن حيث سولت لك نفسك أن تسمع كلام من لا خلاق له ويبيع آخرته بدنياه ، ويرى القرب منك اعظم من القرب من الله ، ورأيت انت أن الخلق ليس لهم خالق بل انت خالقهم وليس غيرك غافر ، فكأنك أحطت بجميع الخلـــق وارواحهم بيدك ، فان استطعت أن تقبض أرواحهم فافعل ما تريد ! فكيــــف يا مسكين انطمست بصيرتك على منهاج الحق وتحملت سريرتك ما لا يطاق من الخبث ؟ لو كان الخير فيك لعكس الله بصرك الى بصيرتك ، ولاتخذت مـــن العلماء لصحبتك اهل الورع الذين يقتدى بهم دنيا واخرى ، وتحسنت سيرتك وعلا مقامك ومن هو ملازم لخدمتك . ومحمد بن على ـــ يعنى نفسه ـــ حر . لله ما كان وما يكون . فليس لك عليه سبيل ، فلله الحجة البالغة ، ولا حاجة لى بمخالطتك البتة . ومن أسر سريرة البسه الله رداءها . وها جل الاخيار قـــد ماتوا بالسيف وانا ملحق بهم » (18) .

ولقد لقى الشيخ الاغصاوى فعلا حتفه على يد المامون بفاس .

---

18) المصدر السابق ، الصفحة الثانية .

## 4 ــ نصيحــة الدلائـــى (19)

بسط ابو حسون السملالى امير ايليغ بسوس ، حوالى عــام 1040/ 1630 ، نفوذه على الجنوب المغربى كله ، فأثقل كاهل سكــان تفيلالــت بالاتاوات والمغارم لضغائن قديمة بينه وبينهم ، وملأ السجــون بالاعيــان والاشراف ، استصرخ أهل تفيلالت بالدلائيين ، وكانوا قد خلصوهم من قبل من غارة السوسيين ، فكتب محمد بن أبى بكر الدلائى رسالة مطولة الى أبــى حسون ينهاه عن القسوة والجفاء . وخصص صدر الكتاب للتحدث عن فضــل أسرة الشيخ أحمد ابن موسى وأهلية أبى حسون للامارة ، ثم تخلص لمطالبته بالرفق والاحسان فقال : « ... لكن المرجو منكم ، والمأمول من شملكــم ، رحمة المسلمين ، والشفقة على الضعفاء والمساكين ، لانكم دار رحمة ، لا دار نقمة . ان كان الملك مطلوبكم فأتوه من بابه ، وتوصلوا اليه بأسبابــه . ويسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا . وخذوا أموركم بسياسة ورفــق لا بشدة وعنف ، واسعوا فى عمارة البلاد ، برحمة العباد ... » (20)

ثم عدد الدلائى ضروب العسف التى يتحملها السجلماسيون علــى يــد عمــال أبى حســون :

« ... فمن أطاع ، أكثر عليه من التكاليف ما لا طاقة له به حتى ضاع ، ومن أبى وخشى ما وقع بمن قبله وعصى ، على بالعصا . الناس فى سجــون حصونهم ، النساء والرجال والدواب كأنهم فى حشر . الثمار تجنى وأهلهــا ينظرون نظر حسرة ، والاشجار تقطع وقد حرم الشرع قطع أشجار الكفار فضلا عن المسلمين (21) .

وبعد ذلك طمأن أبا حسون بنفى منافسة الدلائيين له ، بل ومساعدتهــم اياه متى عدل واهتم بمصالح السكان :

---

(19) انظر هذه الرسالة بتمامها عند س. الحوات ، **البدور الضاوية** ، ورقة 48 و ــ 49 و .
(20) المصدر السابق ، ورقة 48 و .
(21) نفس المصدر فى نفس الورقة .

« ... وبلغنا ان من لا يبالى بما يقول ولا فيمن يقول ، يكاتبونكم بسوس ان العبد الفانى العاجز عن اصلاح نفسه يريد تفيلالت يتولى أمرها . فتامل — ارشدك الله وسددك ! — ادنى تامل هل لهذا الكلام وجه أو يلتفت المنصف اليه . هذه البلدة بينكم وبينها نحو ثلاثين مرحلة ، وبيننا وبينها ست مراحل . ولضعف ملك المغرب نحو ثلاثين عاما ما المانع لنا لو كانت لنا فيها شهوة او رغبة ؟ فمن بلغ أو قرب سنه الثمانين ، والتفت للملك المحدود بالسنين ، فاعدده مـــن المجانيـــن .

حاصلها ان كانت لك رغبة فى الملك ولابد ، وعلمت من نفسك القدرة على وظيفها ، من احاطتك بالعدل والرحمة لقويها وضعيفها ، فتقدم أن لم نعنــك لم نمنعك ، وان كان مرادك جمع المال ، والغاء النظر عن مصالح العبــاد والقاء أمورهم فى زوايا الاهمال فأنت وذلك ، فالرب عالم قدير رحيم بعبــاده قوى عزيز ... » (22)

---

(22) نفس المصدر ، ورقة 49 و .
انظر تعليقنا على هذه الرسالة فى كتابنا **الزاوية الدلائية** ، ص. 141 — 142 .

## 5 ـ المهدويـــة : (23)

المهدوية فكرة شيعية قديمة تطورت عن عقيدة اختفاء الائمة عندهم ، وعودة الامام المختفى ـ الذى سمى فيما بعد بالمهدى المنتظر ـ ليمـــلأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا .

وقد استغلت المهدوية فى المغرب استغلالا سياسيا غير ما مرة ، فقامت عليها دولة الموحدين ، واستعملها السعديون استعمالا محدودا فى بداية أمرهم مع محمد المهدى الشيخ ، ثم ظهر ( متمهديون ) عديدون فى ذلك العصر حاولوا ان يستحوذوا على السلطة عن طريق الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلم تكن لهم على العموم حظوظ كبيرة فى النجاح ، وسنقتصر على ذكر اثنين منهم .

### ا ـ احمـــد بن ابـــى محلـــى :

تحدثنا عن هذا الرجل مؤلفا وناقدا وثائرا ، غير أن المهدوية أبرز جانب فى شخصيته المعقدة ، لازمته وساوسها منذ شبابه المبكر وظلت تصحبه فى اطوار حياته ، ولم تطر من راسه الا مع الرصاصة التى ذهبت بحياته فى معركة كيليز بضاحية مراكش .

اختلطت المهدوية بالتصوف فى ذهن ابن أبى محلى عندما بدأ يسلك طريق القوم على يد الشيخ محمد بن مبارك الزعرى فى تستاوت ، فكانت تعتريـــه احوال غريبة بين يدى الشيخ ويصيح : « أنا سلطان ! أنا سلطان ! » دون أن يثنيه عن ذلك تعنيف الشيخ ومريديه . وتحدث ابن أبى محلى عن المهـــــدى المنتظر فى جميع كتبه ، بمناسبة وبدونها ، مبينا آراء علماء الاسلام فيه دون تمييز بين أقوال أهل السنة والشيعة ، وكتب صفحات وانشد قصائد ومقطعات فى مناجاة ( المهدى ) وكأنه عاشق موله يستعطف محبوبه ويرجو منه الوصال ! وجرد من نفسه ( مهديا ) تحدث عنه بغاية الرقـــة والشغـــف فى **الارجـــوزة**

---

(23) انظر دائرة المعارف الاسلامية ، 3 : 116 ب ـ 120 ب .

المهدوية (24) . داعيا اياه الى الظهور ، وملحا عليه فى القيام بدوره المنتظر فى تغيير المناكر المتفشية ونشر العدل بين الناس :

« ... وصاحب الوقت وبدر عصره — بل شمس كل مومن فى دهره
عرضنا الله لنفحه الخفى — بهمة بكل مقصد تفى
ما زلت من تشغافه أحاكى — قيسا على ليلاه فى التباكى
قطب الولاية وغوث الامة — وعارف وكاشف للغمة
حيا الاله ليلة كالقدر — تأتى به بغتا كوجه البدر
من عالم الغيب لقطر الناس — من بعد صوم طائل مهراس
يا ليتنى من المبشر به — وبطلوع شمسه من غربه
قد طال ما رجوته لكربى — يكشفه عنى وفرط حبى
يا حسرتى ان مت قبل رؤيته — بغلتى وعلتى من حرقته .. » (25)

وليس من الممكن هنا تتبع أقوال ابن أبى محلى وأعماله فى المهدوية لكثرتها وتشعبها بل وتناقضها . فقد تجرد للامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى بادية تستاوت وفى الدلاء وتفيلالت وتوات وفجيج ، بل وفى مصر والحجاز ، ومهد لذلك بدعوى القرشية والانتساب الى أبى جعفر المنصور مؤسس مدينة بغداد وجده العباس ابن عبد المطلب ، وكاتب عددا وافرا من العلماء والولاة والشيوخ غربا وشرقا ناصحا أو مستفتيا فى الظاهر ، ومنتحلا دعوى المهدوية فى الباطن .

تنفس ابن أبى محلى الصعداء بعد وفاة المنصور وانتشار الفتن ، وكان هواه فى البداية مع زيدان يدعو لنصرته ويرجو أن يتمكن من القضاء على البدع والمبتدعين ، وأنشد فى ذلك قصيدة بعث بها الى بعض علماء تيكورارين من صحراء توات ، جاء فيها :

« .. وليت أمير المومنين درى به — وبدعته مع ذيخه المتأسد
لعل اله العالمين يريح من — ضلال القصى عن هدى كل مرشد

---

24) تبلغ أبيات هذه الارجوزة 247 . أنظرها تامة عند أ. ابن أبى محلى ، **سلسبيل** ، 60 ظ — 66 ظ .

25) المصدر السابق ، 65 و — 66 ب .

فيا رب زد زيدان (26) مالك وقته ومولى الضعيف والشريف وايــد

هدى وصلاحا وانبساطا لملكـه وعــزا ونخـرا وارتفاعا وخلـد

وجنبــه قرن السوء واختر له وخر وخذ بيديه ينتهج نهـج احمـد

واصلح به الاقطار واقطع بسيفـه حبال الهوى وابعثله بالمجدد..» (27)

يفهم من دعاء ابن ابى محلى لزيدان فى البيت الاخير أن يبعث الله لـه بالمجدد اى المهدى المنتظر — يعنى نفسه ولا شك — أن صاحبنا كان يأمل فى ان يتصل حبله بزيدان ، ليحقق من ورائه بعض احلامه فى الولاية والسلطان

وقد بعث ابن أبى محلى فعلا الى زيدان برسالة (28) يستحثه فيها على القيام بواجب تطهير البلاد من المناكر والضرب على أيدى المفسدين ، حتى اذا لم يجد منه استجابة لمطالبه الظاهرة والخفية ، قلب له ظهر المجن وأخذ يشتمه ويعرض به فى جملة « ولدان » المنصور السالكين سبل الشيطان ، ثم هاجمه فى عقر دار ملكه مراكش ، وشرده عنها كما سبقت الاشارة الـى ذلـــك .

وكتب ابن أبى محلى بعد نجاح ثورته **رسالة مطولة** (29) فى شكـل اجوبة انتقد فيها حال الوقت وفساد الولاة وانتشار المحرمات ، ورد علـى الذين أنكروا عليه اعلان الثورة على السلطان الشرعى ، مبينا شـروط الامامة فى الاسلام .

« أما المجاهر بالكبائر — يشير الى زيدان — فان قام عليه عـادل — يعنى نفسه — غيرة على الدين وجب على كل المسلمين القيام مع الثانى ليظهر دين الله . والمتخلف عنه عاص ... » (30)

وانتقد ابن أبى محلى بعد ذلك الذين انكروا عليه ( ضربه لطبل الجهاد) بعد ان تعين عليه لمفاجأة العدو أهل العرائش واستنصارهم اخوتهم المسلمين بقوله :

---

26) محـى اسم زيدان فى الاصل — وهو ما يزال ظاهرا — وكتب فى الهامش بدلا منه (مصفاك). ولعل ذلك من فعل المؤلف نفسه .

27) ورقة مخطوطة فى نفتس المجلد الذى يحتوى على **المنجنيــق** . م. ع. بالرباط ، 338 ق ص 128 . والقصيدة دالية من بحر الطويل ، فى 27 بيتا .

28) مخطوط خاص بالرباط فى نحو كراسة . انظر ع. ابن سودة ، **دليل** ، 1 : 151 ، رقم 558.

29) فى أول المخطوط المحتوى على **مهراس رؤوس الجهلة** ، م. ع بالربـاط ، 192 ك ، ص. 1 — 11 .

30) المصدر السابق ، ص 7 .

« والسلطان بزعمه وزعم معميه بوهمه ان عجز عنهم عجوز ، وولاية مثلـه لا تجوز . ماحرى ان ابى اختيارا ... » (31)

وخصص ابن ابى محلى القسم الاخير من هذه الرسالة للكلام علـى دعواه المهدوية بصراحة لا يشوبها الا قليل من التردد والغموض ، معلنا ان احتكامه الى السيف من شانه ان يقطع دابر خصومه المنكرين :

« ثم ان قيل بعد هذا كله : كلامك ايها الانسان كله يحوم حول مقـام المهدى المشهور عند العامة بالفاطمى المنتظر ... فان كنته حقا فاصدع بما تومر ، وبشرنا تؤجر ... فالجواب : أن الامر كذلك . اذ لا يخلو أمرى مـن وجوه ثلاثة ، فاما أنى شاك الآن فى نفسى أو ظان أو متيقن . فان كنت شاكا أو ظانا فقط فلا يجوز لى ادعاء ذلك المقام ، وان كنت متيقنا فيمنعنى مـن التفوه به دون اشارة بل بعبارة صريحة توقفه على الاذن الخاص ... ان كنت انا هو بل اياه والله أعلم بغيبه وليس الا عليه الاعتماد .

وللمهدى المنتظر فى الاجفار .. أمارات فى معناه ومبناه وزمانه ومكانه واسمه وابيه وامه وأمده وأصحابه وانسابه فليبحث عنها مريده ... والحق انه مما يرى لا ما يسمع لكثرة من غلط فى رتبته وان جم علمه ورجحت نيته . ولذلك كله سددت هذا الباب فى دعوى الناس قاطبة للجهاد ليلا يطول الخصام الذى لا يرفعه الا الصمصام ، قبولا وردا فيفوت القصد والمرام . واقتصرت على الدليل القطعى فى المسألة وان كان اذنا عاما مع الحـــال الخـــاص والصيام (32) ، فوجب النهوض والقيام ، ولا عدوان الا على الظالمين اللئام، لجهاد عبدة الاصنام ، ومن يتعرض دونهم من الجهلة أو الظلام ... » (33)

ومما يدل على تمكن فكرة المهدوية عند أتباع ابن ابى محلى أن طائفة منهم لم يصدقوا هلاكه وبقوا بعد موته بأكثر من قرنين ينتظرون ظهوره كما ينتظر الشيعة خروج الامام (34) .

---

31) المصدر السابق ، ص 8 ــ 9 .
32) يشير بالدليل القطعى الى الجهاد ، وبالصيام الى ما يزعمه بعضهم من أن خروج المهدى المنتظر يكون فى شهر الصيام ، وفيه أعلن ابن ابى محلى الثورة والدعوة للجهاد .
33) المصدر السابق ، ص. 10 ــ 11 .
34) انظر م. القادرى ، نشر ، 1 : 123 ــ 124 .

## ب ـ محمد التاهرتي :

ادعى محمد بن عبد القادر التاهرتى الزناتى المهدوية فى تزنيت حوالى الفترة الواقعة بين سنتى 1035 ــ 1039 / 1626 ــ 1630 (35) . وهو شخصية مجهولة فى كتب التراجم (36) التى وقفنا عليها لم يذكره غير معاصره القاضى عبد الرحمن التمنارتى بسبب المراسلات المتبادلة بينهما . ويبدو من اجوبة التهارتى ــ على افتراض انه منشئها ــ ما يجعل شخصيته شبيهة بشخصية ابن ابى محلى متانة أسلوب واطلاعا على علوم الشريعة ودقائق التصوف .

توحى رسائل التمنارتى وأشعاره بانتشار نفوذ المهدى التهارتى وانطلاء ناموسه على عدد غير قليل من قبائل الساحل بسوس . غير أننا نفترض كذلك ان ميدان نشاطه كان متجها جنوبى تيزنيت نحو كولمين ، لتمركز قوات أبى حسون السملالى على ضفاف نهر ماسة ، وبخاصة فى مصبه الذى يعتبر ميناءه الرئيسى (37) .

كانت لهجة التمنارتى عنيفة جدا فى مخاطبته الاولى للتاهرتى ، يصفه بالكلب والدجال واخى الشيطان ، ويشنع عليه تحامله على ائمة الاسلام مما يجعلنا نعتقد أنه كان على اتصال بالطائفة الاندلسية التى نتحدث عنها بعد هذا . ومما استدل به التمنارتى على بطلان دعوى التاهرتى قيامه بتزنيت دون رباط ماسة على قرب المسافة بينهما ، لان الشائع بين الخائضين فى المهدوية بالمغرب أن خروج الفاطمى المنتظر سيكون من ماسة ! ثم تحداه أن يدخل اليها وهو يعلم الا قبل له بها :

تمطيت متن الغى فى كل وجهة ... هواء بذاك الغى فوق هواء

فهلا رحمت النفس بالتوبة التى ... تجير أخا صدق وخل تقاء

واعرضت عن قول السفاهة والخنا ... وسرد ضلال الدهم دون خفاء

.. وماسة منك من قريب فقم لها ... يبن لك وجه الحكم دون قضاء! (38)

---

35) افترضنا هذا التاريخ لانه يمثل فترة الضعف والانتظار فى سوس الممتدة من موت يحيى الحاحى أمير ترودانت الى استيلاء أبى حسون السملالى أمير ايليغ على شمال سوس .
36) لم يذكره حتى م. المختار السوسى فى كتبه الكثيرة عن سوس .
37) يؤيد ذلك تحدي التمنارتي للتاهرتي أن يدخل ماسة وهي قريبة منه .
38) ع. المتمنارتى ، ديوان ، 11 و

جاء جواب المهدى التاهرتى مزيجا من عقل وخيال ، خاليا من الفحش والاتذاع ، اوله نثر فنى مسجع يزعم فيه لنفسه مقامات روحانية وجسمانية لا تدرك على طريقة شطحات الصوفية :

« انا لؤلؤة الاصداف، انا جبل قاف! انا سر الحروف ، انا بزر الظروف! انا الجبل الراسخ ، انا العلم الشامخ ! انا نور الارواح ، انا روح الاشباح! انا الفارس الكرار ، انا نصرة الانصار ، انا شمس مرآة الافكار ! انا السيف المسلول ، انا برزخ البتول ، انا سليل بنت الرسول ! .. انا سفينة البحر ، انا عماد القصر ، انا صاحب النصر ، يوم الجمعة بعد العصر ! .. انا صاحب الجفر الاحمر ، انا لابس الابيض والاخضر (39) ! انا عنقا مغرب ، انا شمس المغرب ! ... انا حوت النجم الزاهر ، انا مشتريه الظاهر ! انا قطب فلك الاسماء ، ومركز مدار السماء ! انا حجاب النور ، وسقف البيت المعمور !.. انا هدية الرحمان ،، ومغضب الشيطان ، وهازم السلطان ! .. » (40)

واتبع ذلك بقصيدة (41) انتقد فى قسم منها المفاسد السائدة آنذاك ، منكتا على القاضى التمنارتى الذى خاطبه من قبل باسم الدين وغض النظر عنهـــا :

« .. وليس بالدين توهـين المساكـــين لا ولا الشريف الضعيـــف قلبـه كســرا

وليس بالديـن تقريـب بنـــى فســـق كلا ولا قـــرب من طغـــى ومن فجـــرا

وليس فى الديـن طـرد مـن يـدل علـــى نهـج الشريعـــة فاحذر عول من قهر » (42)

وتخلص بعد ذلك لذكر الامامة وشروطها ، وضرورة تنصيب امام عادل تختاره الامة ــ يعنى نفسه ــ بدلا من المتسلطين على الحكم بالوراثة او القهر دونما كفاية ، يشير بذلك الى الملك السعدى القابع بمراكـــش ، والاميرين الصوفيين فى ايليغ وترودانت :

---

39) الاشارة بالاوقات والالوان هنا الى امارات المهدى فى بعض كتب الاجفار والحدثان .

40) ع. التمنارتى ، ديوان ، 11 ظ .

41) هذه القصيدة رائية من بحر البسيط ، تحتوى على ستين بيتا . أوردها بتمامها ع. التمنارتى فى الديوان ، 12 و ــ 13 و .

42) المصدر السابق ، 12 و .

« نصب الامام على التحقيق أوجبه — كل الفرائق بالنص الذى اثرا
شروطه سافرات عن محاسنها — خمس وعشر بخلف عند بعض جرا
عاقدها اهل حل ثم عقد اذا — راوا شروطا به بالاختيار سرى
وقد رضوه لدين مع شواهد فى — حال الجميع فذاك الفن قد ذكرى
لا بالوراثة فاقف نهج شرعتنا — بل بالرضى والسواد فاقتف الاثرا
لا بالتغلب قهرا لا ولا سفها — ولا لدنيا ولا فخرا ولا بطرا.. » (43)

ثم تحدث عن دور الامام العادل — وهو المهدى طبعا — فى اقامة شرائع الدين ، واصلاح حال المسلمين :

«.. به اقامة هذا الدين حققتها — اهل الشريعة اذ بالحجة انتبرا
هذا هو الحق لا شىء سواه فدع — عنك التقاعس والانفاس مبتدرا
صارت به الكتب تعريفا لناصره — فاستفت حبرا يقول الحق اذ نظرا
ان الامين رسول الله باح به — الى ذوى العلم فاسأل كل من مهرا
اذ قال يجبر هذا الدين ناصره — بعد الجبابرة الاذال فانتظرا
وبعد كل صبى ظل ملتهيا — بزهرة الملك واللذات منغمرا..» (44)

وخصص الباقى من أبيات القصيدة لذكر صفات المهدى ، وزمان خروجه ، وأماراته المختلفة حسب السير والاجفار .

اتى رد التمنارتى على الرسالة والقصيدة السابقتين مفصلا نثرا ونظما، مشتملا على مقدمة تلمح وتصرح بالتنويه بعلماء السنة ، وتقبيح آراء الماردين من شياطين البدعة . ويمكن تقسيم هذا الرد الطويل الى أربع نقط :

ا — تداول اعيان الحضرة المحمدية وأميرها فى شأن التهارتى وخطابه، واتفاقهم على مطالبته بالتوبة من جريرته ، والرجوع عن شعوذته ، بالدخول مع الجماعة فى طاعة الامير :

---

43) نفس المصدر ، 12 ظ .

44) نفس المصدر فى نفس الورقة .

« .. وانا دعوناك ايها التهارتى الى التوبة مما انت فيه ، ولزوم السنة فى الامر بالمعروف بما فيه ، فان القيام على الامراء لا يترتب عليه سوى فساد نظام الانام .. فاجتنب ذلك ، واطرد ( عنك ) ما هنالك ، وخذ بوصيتى السابقة اليك ، واعمل لخاصة نفسك ثم لا عليك » (45) .

ب — تذكيرهم اياه بهلاك من سبقه من دعاة المهدوية ، واتهامهم لـه باليهودية ومعاداة المسلمين اخذا من عباراته فى الخطاب السابق :

« .. وهلا اتعظت بصاحب هواك أحمد بن عبد الله (46) الذى بلغ غبار جراته فنتكه عنان السماء ، وهول ما هولت به من الفاطمية والمهدية وخواص الاسماء ، قد لعبت به عقبان جو هذا القطر الذى طمعت أن تدبر ملكه ، وان تدير فى الامور فلكه . ثم ما وريت به من المريخ لنفسك (47) فانك اضمرت للمسلمين ضرا لانه درى نحيس . وكذلك ما وريت به منحيوان (48) وهو درى السبت ، مؤذن بأنك انما قصدت نصرة دين أهل السبت . وهذه التورية تجمع المسلمين على تدميرك ، وتصرف الصادر والوارد عن تأميرك .. » (49)

ج — اعذارهم له مرة اخرى قبل أن يعلن السوسيون قاطبة الحرب ضده فيستأصلوا شافته ويفرقوا جموعه :

« .. ثم ان انتهيت فلك السلامة ، وانتفت عنك الملامة . والا فانظر اى سماء تظلك ، وأى أرض تقلك ، فان القطر بأمرائه سيرميك بجبله وفضائه ، موشك أن ينزل بك غضب الله وكريه قضائه ، فتشتت عنك حيلة معيشتك ، وتتلون عليك أيام عيشتك ! .. » (50) .

د — سوق عدد كثير من الآيات والاحاديث الداعية الى حفظ النظام ، الناهية عن شق عصا طاعة الامام ، وانذاره للمرة الاخيرة ان لم يجب داعى الله ، ثم دعوة الثائر الى التأمل والاتعاظ :

45) المصدر السابق ، 14 و .
لاحظ ضعف راى التمنارتى فى نصحه مخاطبه بالاعتناء بشؤونه الخاصة فقط ، ولا عليه فى شؤون الاخرين .
46) الاشارة الى احمد ابن ابى محلى .
47) يشير الى عبارة ( النجم الزاهر ) فى رسالة التهارتى .
48) يشير كذلك الى لفظ ( حوت ) الوارد فى الرسالة السابقة . والى الآية 163 من السورة 7 : ( اذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ) .
49) ع. التمنارتى ، ديوان ، 14 ظ .
50) المصدر السابق ، فى نفس الورقة .

« .. وهذه النصوص القرآنية والنبوية كلها أيها التاهرتى أضعتها ، وانتحلت لها تمويهات أهواء فاطعتها . ويوشك أن تواجهك بالعقاب، وتخاطبك بضرب الرقاب ، اذ نكبت بها عن طاعة من أوجب الله طاعته من الامراء ، وزاحمتهم بالتضريب فى البوادى بضروب الاهواء . وكان يكفيك لو تبلت النصيحة أن تسمع لامير المسلمين بقاعدة ملك المغرب مدينة مراكش (51) فالناس كلهم أو جلهم فى السمع له والاعانة بحسب الامكان ، طلبا لاستبقاء الامان ، وتسكين الاحوال ، والحذر من تفاقم الاهوال . وانت تريد بوهمك النازغ ، وطمعك الفارغ ، أن تشبها ، وتثير فى المسلمين شبهها ، ثم لا طائل لك منها ، ولا مذاق يحلو لك بها . ثم ما أدعيته لنفسك من الشرف يعلو به السبطية والقطبية والفاطمية وما معها من أراجيف الضلالة لا يعرفك به جن ولا انس ، ولا يشهد لك بها نوع ولا جنس . . . ودع عنك التمويهات واراجيفها ، والانذارات ومخاويفها ، والدعاوى واغلوطاتها.. ولا تمد يد الغير لهذا القطر السوسى فانه غاب الاسود التى تحمل الاسل والنار ، وتأنف الدنية والعار ... فدع الامر لمن نسبه فى الشرف شمس بازغة ، وحجته فى الامر بالغة ، وسيرته للمسلمين نافعة .. » (52) .

والحق التمنارتى بهذه الرسالة قصيدة (53) يغلب عليها كذلك طابع التعنيف ولو أن بعض أبياتها تتسم بسمة النصح :

« يا ساريا فى ظلام الليل معتكرا واسد غابه تحتد له شزرا

ايقظ جفونك من نوم الغرور فقد يرجو السلامةمن يستحضر السهرا

واحذر— هديت — سهام الدهرفىأمم مضى بها المثلات فسرت خبرا

.. نسجت بالهجر يا ظل الانام فخذ جواب هجرك منا والتقم حجرا » (54)

ثم يسدل الستار فلا نعرف ماذا فعل التاهرتى بعد ذلك وماذا كان مصيره .

---

51) رغم استبداد يحيى الحاحى بحكم شمال سوس وابى حسون بجنوبها ، فانهما ظلا يواصلان الملوك السعديين بمراكش فى شبه اعتراف لهم بالخلافة والاكتفاء بالحكم المحلى .

52) ع. التمنارتى ، **ديوان** ، 15 و — 16 و .

53) القصيدة رائية من بحر البسيط وتحتوى على تسعة وعشرين بيتا . انظرها بتمامها فى المصدر السابق ، 16 و — 17 و .

54) المصدر السابق فى نفس الورقات .

### ج ــ محمد الكراري :

محمد بن اسماعيل المسناوى الكرارى الذى رايناه من بين العلماء ذوى المكتبات الخاصة ابتلى هو ايضا بوسواس المهدوية ، وقضى حياته من اجلها متنقلا من قطر الى آخر شرقا وغربا . وربما كان اقل المهدويين حظا فى النجاح ، لانه بقى فى المرحلة النظرية السلمية للامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لم يمتشق الحسام لفرض ما يدعو اليه من اصلاح ومحاولة تغيير النظم القائمة لتحقيق ما يصبو اليه من جاه وسلطان . ويبدو أن اتباعه ، وهم خليط من الفرق الصوفية الشاذلية والقادرية ، كانوا على شاكلته فى حب السلامة وطلب العافية ، لا يكادون يرون بوادر غضب السلطة حتى ينفضوا من حوله .

لم يعلن محمد الكرارى مهدويته ــ لسوء حظه ــ فى مسقط راسه بالصحراء فتكون له عصبية من قومه ، وانما أعلنها غريبا فى السوس الاقصى ثم فى اليمن والعراق وتركيا وليبيا . وأخيرا رجع الى المغرب عام 1060/ 1650 وقام بحركة واسعة للامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى جبال الريف، واتخذ من جبل العلم مركــزا لمهدويته ، فلم يكن حظه هنا بأحسن منه هنـــاك .

وخرج الكرارى أخيرا منهوك القوى محطم المعنوية الى فجيج ، فلقيه ثمة ابو سالم العياشى وكتب عنه فى **الرحلـــة** : « ولقيته بها سنة أربع وستين فطلب منا المساعدة على ما يحاوله فلم يصادف عندنا ما يحب وأظهرنا له جلية امرنا وأنا لسنا ممن يتعرض لما ليس من شأننا ، ولا ممن له قدرة على اقل ما يحاوله . فلما تحقق ذلك منا أظهر التأسف والتلهف على ما مضى من عمره وسعيه فى غير طائل ، فقال : انى جلت جوانب الارض كلها فلم أجد من يبكى الاسلام بالعين التى أبكى ، والله فوالله ما كذبت ولا كذبت ! الا أنى عسى ان أكون قد غلطت فيما أخبرت به . فانى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى أنت عالم وغنى وسلطان . فأما العلم فقد حصلت منه على ما قسم لى ، وأما الغنى فانى لا أعدم الخمسمائة دينار وما يقاربها متى طلبتها ، وأما السلطنة فلعلها سلطنة الآخرة ، وكنت أظنها فى الدنيا ... وأنشدنى :

فسد الزمان كما ترى مــن حالــه ... وكذا عوائــد آخــر الازمــان

يتولــون الزمان بــه فســـاد ... وهم فسدوا وما فسد الزمان» (55)

---

(55) أ. العياشى ، **رحلة** ، 1 : 42 . وانظر ايضا م. القادرى ، **نشر** ، 1 : 207 ــ 211

## 6 ــ العكـــازيـــة : (56)

العكازية فرقة منحرفة عن الاسلام تزعم لنفسها التصوف والانتساب الى الشيخ احمد بن يوسف الراشدى الملياني ( ت. 927 / 1521 ) تلميذ الشيخ الشهير احمد زروق. ولذلك دعوا ايضا بالطائفة اليوسفية وبالشراكة. على أن بعض المؤرخين يرجعون العكازية الى اصل اقدم من هذا عند قبيلة مصمودة السوسية ، اذ كان منهم المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى مستهل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى لا يأخذ معه من متاع الدنيا فى سياحته الكبرى سوى عكاز وركوة ، واعتقد قومه وانصاره عصمته وراوا تكفير غيرهم من المسلمين الذين لا يتمذهبون بمذهبهم (57) .

أخذ عن شيخ مليانة ــ فى جملة الآخذين ــ مريدون مغاربة كثيرون امثال أحمد بن موسى السملالى ، وعبد الله بن ابراهيم الخياط ، وأحمد بن عبد الله المنزولى . وتذكر كتب التراجم أن الزرهونى والمنزولى كانا رفيقين فى زاوية مليانة ثم غادراها فى يوم واحد . وفى أثناء الطريق تمثل الشيطان للمنزولى فى صورة الشيخ الملياني وقال له : « يا أحمد ! أوصيك على التلاميذ والمريدين ، فانى قد ضمنت لهم الجنة بغير صيام ولا صلاة ، وحللت لهم المناكر والفحشاء ! فنادى المنزولى عبد الله الخياط ، وكان قد سبقه فى الطريق ، قائلا : خذ ! هذه وصية من الشيخ وأعاد له الحكاية . فقال له الخياط : الله اكبر هذا هو المحال ! والله لو تحققت أن الشيخ قال لك هذا مما يخالف السنة لضربت رأسه بهذا الشاقور ! ثم رجع الخياط الى مليانة واخذ يدق باب دار الشيخ بعنف . فناداه الشيخ من الداخل : أتمم عملك يا عبد الله ، واتبع الكتاب والسنة ، واجتنب البدعة ، وكن مجاهدا فى حق الله ، وأخلص نيتك . ومن نقل عنا ما لم نقل لا يموت على الملة ... » (58)

مهما يكن من صحة رواية تمثل الشيطان أو عدمها ، فان أحمد المنزولى قد تزندق وتمذهب بمذهب الاباضية (59) من الخوارج ، وشرع لاتباعه

---

(56) بغض النظر عن حزب ابن تومرت صاحب العكاز ، لا نعرف أصلا لهذه التسمية عند أتباع المنزولي الا أن يكونوا اتخذوا من العكاز شعارا لهم بدلا من الخرقة الصوفية،بالاضافة الى تعبيرهم عن بعض طقوسهم الفاسدة بالجعبة وهى كالعكاز . ويدعون أيضا العكاكزة والعكازيين . وذكر الحسن اليوسى ( **رسالة العكاكزة** ، ص 171 ) أن أهل زمور بربروا هذا الاسم ، فلقبوا انفسهم ( أعكازين ) ودعوا غيرهم من المسلمين ( أرومين ) أى النصارى .

(57) انظر م. المجاصى ، **اجوبة** ، 91 .

(58) م. الريفى ، **جواهر السماط** ، 8 ظ ــ 9 و ، بتصرف .

(59) انظر عن الاباظية **دائرة المعارف الاسلامية** 2 ، 3 : 669 وما بعدها .

ــ وجلهم من بدو العرب والبربر ــ من المعتقدات والاحكام ما يصادم قواعد الاسلام ومبادىء الاخلاق العامة . من ذلك :

ا ــ انكار نبوة محمد عليه السلام والتصريح ببغضه وتفضيل المنزولى عليه ، فكانوا يقولون للمسلمين انتم أصحاب محمد ونحن أصحاب احمد ، وينشدون فى مجالسهم : « آمنا بك اسيدى احمــــــد ! وصدقنا بك يـــا العلوفى ! » (60) .

ب ــ ادعاؤهم ان لهم كتابا يسمى ( ابن رباش ) بديلا من القرآن ، فيه مناجاة المنزولى ويعتبرونها أوثق من الوحى المحمدى .

ج ــ تركهم الصلاة والصيام الا عند الضرورة للتستر من المسلمين .

د ــ اعتقادهم حلية أكل الميتة والخنزير ، وحرمة أكل أضحية العيد ، وقولهم : « ان الميتة ذبيحة الله ، وهى خير من ذبيحة الآدمى » .

هـ ــ اعتقادهم حلية فاحشة الزنى : « يأتى الرجل منهم أمه واخته . وان نساءهم يتركونهن بينهم ، يفعل كل واحد منهم بزوجة صاحبه ما شــاء عيانا ولا يتسترون . وأنهم يجتمعون ــ الرجال والنساء ــ ويضربون الدف ويكبون ويذكرون الفاظا مصطلحة بينهم فى دينهم ، وأنهم اذا أرادوا النوم بعد ذلك وهم مجتمعون يأمرون باطفاء القنديل فيفعل كل واحد منهم ما شاء فى النساء بينهم ... ويقولون : نحن ناكل من حبة ، ونشرب من جعبة ، ونرقد فى جبـــة !

فكنوا بهذه الكلمات عن أصل مذهبهم الخسيس فى الشركة فى البضع.. وفى الافواه والشفاه .. ومباشرة الجسد بالجسد من غير حائل .. » (61)

و ــ اعتقادهم حلية دماء وأموال غيرهم من المسلمين . وبذلك أصبـــح العكاكزة قوة فوضوية خطيرة فى فترة الاضطراب الطويلة التى أعقبت وفاة احمد المنصور ، فكانوا يقطعون السبل ويسفكون الدماء وينتهكون الحرمات.

وقد حل عكاكزة تادلا يوما بالزاوية الدلائية وهم جياع ، فقال لهـــم الشيخ ابو بكر الدلائى : أدرسو زرع الزواية وكلوا ، فأنكر عليه ولده محمد

---

60) علق المؤلف المجهول لكتاب **تبصرة الرئيس الامين** على مرادهم بالعلوفى فقال هو : رجل يزعمون انه اتاهم وقال لهم : أنا رسول اليكم من عند تسيدى احمد يقرأ لكم السلام ، ويقول لكم انى رفعت منكم فرض صلاة الخمس والصيام »

61) المصدر السابق . وانظر أيضا أ. ابن أبى محلى ، **منجنيقا** ، 133 ــ 134 .

لان هؤلاء فساق أو كفار ، ثم هم ظلام محاربون . فقال ابوه : أريد أن أتخذ عندهم يدا اذا استلبوا يوما مسكينا لعلهم يستحيون اذا تشفعت فيـــه لديهم . (62)

ناهض المصلحون من العلماء والولاة الطائفة العكازية الضالة طوال العصر السعدى ، وفى مقدمتهم الشيخ أحمد بن يوسف الراشدى الملياني نفسه الذى دخل المغرب الاقصى متبرئا من بدعتهم « وقاتلهم وبلغ المجهود فى تشريدهم » (63) . وأشار الفقهاء على عبد الله الغالب بوجوب تغيير منكر العكاكزة وحسم مادة فسادهم ، فطاردهم وسجن البعض منهـــم وقتـــل آخرين . (64) .

وكتب فى استنكار هذه البدعة والتشنيع على أصحابها محمد ابن عسكر فى **الدوحة** ، وأحمد ابن القاضى فى **الـــدرة** ، ومحمد العربى الفاســـى فى **المـــرآة** وغيرهم .

ومما قاله ابن القاضى عن العكاكزة أثناء ترجمة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني : « واليه ــ رحمة الله عليه ــ تنسب الطائفة اليوسفية بالمغـــرب الملعونة ، وحاشاه أن يقول بمقالتهم اذ هم أحلوا ما حرم الله تعالى ، وقـــد اختلقوا بدعتهم من ترك الصلاة والصوم ، واستباحة الزنى والدياثة والقيادة أذلهم الله وأخزاهم ... وهى طائفة من الطوائف المعدودة بالمغرب التـــى خرجت عن الحق الى الزيغ والعياذ بالله من مخالفة السنة والجماعة . أماتنا الله على اتباع السنة والجماعة الصالحة بمحمد وآله » (65) .

غير أن الذى توسع فى استقصاء معتقدات العكاكزة وفضح أعمالهـــم المخزية هو المؤلف المجهول الذى يظهر انه عاش فى أواخر العهد السعدى، وكتب **تبصرة الرئيس الامين فى ذكر شروط امام المسلمين** (66) جاعلا الباب الخامس فيما يلزم الامام القيام به من مصالح الدين والدنيا . وقد عقد فى هذا الباب فصلا للبدع وواجب الامام تجاهها قائلا : « تنبيه . يجب على الامام أن يقطع البدع المحرمة كلها على قدر اجتهاده واستطاعته ، ويحرم علـــى العالم السكوت عن ظهورها . وفى الحديث اذا ظهرت البدع وسكت العالـــم

---

(62) ح. اليوسى ، **محاضرات** ، 145 ، بتصرف .
(63) م. العربى الفاسى ، **مرآة** ، 224 .
(64) م. ابن عسكر ، **دوحة** ، 92 .
(65) أ. ابن القاضى ، **درة** ، 1 : 165 .
(66) مخطوط خاص بفاس ، لا توجد منه سوى 24 ورقة . به بتر من الاول ومن أواخر الباب الخامس الى أواخر الباب السابع ، ثم من آخر أبوابه الذى هو الباب الحادى عشر .

فعليه لعنة الله . هذا والبدع كثيرة وقد الف الناس فيها من غير حصرها . . .
ولكن هاهنا كلام يحسن ذكره بالاقتصار على نوعين من تلك الفرق المذكورة ،
وهما الطائفة الاندلسية ، والطائفة العكازية الشراقيون ، وقد اشتهـــرت
بدعتهم فى مغربنا هذا الاقصى » (67) .

ثم بين القبائل التى اعتنقت هذا المذهب البدعى ومواطنها بقوله :

« اما الطائفة العكازية ــ اذلهم الله وأخلى منهم الارض ! ــ فقـــد
انتشر امرهم حتى دخل فى دينهم كثير من القبائل ، ومواضعهم متفرقة . فمن
مشهورها : موضع فى جبل بنى يزناسن وفيه من قبائلهم أولاد ابن مجذوبــة
ومن انضاف اليهم ، وموضع فى جبل البرانس ، وموضع فى جبل تازا ، وفيه
بنو عبد الخالق الكثير منهم ، وموضع فى جبل زمور الشلح ، وفيه فرقة منهم
يقال لهم العكاكزة مشهورون ، وموضع ببلد فيه بنو عمير فرقة منهـــم ،
وموضع فى بنى يعلا فيه فرقة منهم . وهذه مواضعهم المشهورة ، ويذكرون
فيما سواها من بعض المواضع بالمغرب كمدينة تلمسان ومدينة فاس » (68)

بعد هذا نصح المؤلف السلطان بما يجب عليه شرعا القيام به تجـــاه
العكاكزة من التحرى والنصح والارشاد أولا ، ثم التعزير والتشريد أو القتل
عند الاقتضاء :

« فالامام يجب عليه أن يفحص عن بدعتهم هل هى كما ذكر أم لا ؟ فان
تبينت عنده وظهرت له كما ظهرت لغيره فليدعهم الى السنة وترك البدعة ،
فان جهلوا ما يلزمهم وادعوا شبهة أزال عنهم تلك الشبهة وعلمهم ما يجب
عليهم فى الجملة . فان اجابوا ودخلوا فى السنة فليفرقهم وليشتتهم عن أوطانهم
ان راى ذلك يصلح ، والا تركهم فى أوطانهم . فان أبوا ونصبوا دون دينهـــم
الحرب قاتلهم ان اظهروا الكفر واعلنوا به ، أو دعاهم الى الجزية وسن بهم
ما سنه الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ بالمجوس ، لانهم مثلهم ان صح الخبر
اذ لا كتاب لهـــم .. » (69) .

---

67) المصدر الاخير .
68) المصدر الاخير فى نفس الباب .
69) نفس المصدر .

## 7 — الطائفـــة الاندلسيـــة :

الطائفة الاندلسية من الطوائف البدعية الطارئة على المغرب فى أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، مع الفقيـه محمـد الاندلسى (70) الذى يبدو انه هاجر هو أو أبوه من غرناطة بعد سقوطها واستقر فى مدينة مراكش . على أن تعاليم هذه الطائفة قديمة فى الاندلس ترجع الى القرن السادس أو ما قبله ، وقد رد عليها القاضى أبو بكر ابـن العربى الاشبيلى ثم الفاسى (ت. 1151/546 ) فى كتابه **عارضة الاحـوذى فى شرح جامع الترمذى** (71) .

ويعتبر محمد الاندلسى رئيس هذه الطائفة من جهابذة علماء عصـره تضلعا فى العلوم الشرعية ومشاركة فى العلوم العقلية ، الا انه كان ينحـو منحى ابن حزم الظاهرى ويبالغ فى انتقاد أئمة الاسلام ، خصوصا مالك بن انس ، حتى لقب أنصاره بالمحمدية وغيرهم بالمالكية ، اشارة الى أن هؤلاء ابتعدوا عن رسول الاسلام وتشبثوا بغيره ! ثم لم تقف جراة الاندلسى عند مهاجمة كبار الائمة ، وانما نال من قدر النبى عليه السلام أيضا ، تسترا وراء تقديس الخالق القديم تعالى وتنزيهه عن أن يشاركه فى قدسيته مخلوق مهما كان نبيا أو غيره . وبهذا مس الاندلسى مبدأ العقيدة الاسلامية مسا خطيرا ، وطعن فى أحد شقي كلمة الشهادة التى هى عنوان الايمان وشعاره .

ومع ذلك تركزت الحركة الاندلسية بالمغرب بسبب دهـاء محمـد الاندلسى الذى عرف كيف يدارى جماعة من علماء السنة ويوهمهم بأنه مثلهم متشبث بالدين الحنيف ، وأن انتقاده لا يعدو أسلوب بعض الفقهاء الجامدين، فاختلفت آراؤهم فيه وفى طائفته بين متشدد ومتساهل ومتوقف . وكان ممن موه عليهم محمد ابن عسكر الذى كتب عنه فى **الدوحـة** : « لقيته مـرارا وتكلمت معه ، فكان يتنصل من أكثر ما نسب اليه ويظهر التمسك بالسنـة والاضراب عن القول بالرأى والقياس ، ويعيب طريقة الفقهاء .. » (72) .

اشتهر أمر محمد الاندلسى بالمغرب وكثر أنصاره وخصومه من بين العلماء والعامة . ووقفت الجالية الاندلسية من ورائه تناصره وتلتف حوله ، فاصبحت حركته دينية — سياسية خطيرة تناهضها السلطة ويتبارى علماء

---

(70) انظر ترجمته واخباره عند . ابن عسكر ، **دوحة** ، 80 — 81 ، أ. ابن القاضـى ، **درة** ، 2 : 35 — 37 ، رقم 480 ، م. الافرانى ، **نزهة** ، 47 ، أ. الناصرى ، **استقصاء** 5 : 50، م. ابن الموقت ، **سعادة** ، 2 : 86 ، ع. ابن ابراهيم ، **اعلام** ، 4 : 317 — 318 .

(71) انظر أ. ابن القاضى ، **درة** ، 2 : 36 .

(72) م. ابن عسكر ، **دوحة** ، 81 .

السنة — وهم الاغلبية الغالبة — فى الرد عليها والافتاء بفساد تعاليمها ومروق انصارها من الدين . وبسبب ذلك دخل محمد الاندلسى السجن اكثر من مرة ، واصطدم انصاره وخصومه فى مراكش وفى خارجها بالقلم واللسان، وبالخناجر والبنادق .

وكانت المشنقة خاتمة مطاف محمد الاندلسى على اثر مشاركة طائفته فى الاحداث السياسية التى ادت الى خلع محمد المتوكل وتولى عمه عبد الملك المعتصم الملك . ففى غمار المعارك الطاحنة التى دارت بين الملكين فى الجنوب ، تمكن محمد المتوكل من الدخول الى مراكش لمدة قصيرة عام 1576/984 ، فانتزع محمد الاندلسى من بين انصاره وسط فتنة عارمة ، واسلمه للعامة فقتلوه وصلبوه على باب داره بحى رياض الزيتون بمراكش .

## من تعاليم الطائفة الاندلسية :

ا — الاجتهاد فى الاحكام الشرعية جريا على ظاهر الكتاب والسنة ، وعدم تقليد مالك أو غيره من الفقهاء .

ب — انكار أحكام جزئية مشهورة عند جمهور المسلمين ، فقالوا بعدم مشروعية الدعاء دبر الصلوات ، وعدم وجوب اعادة الصلاة اذا خرج وقتها الخ .

ج — استنكار ذكر النبى عليه السلام مع الله تعالى فى الشهادة وغيرها « لان ذكر المحدث لا يفيد ، ولا يفيد الا ذكر الله القديم سبحانه » بل قالوا ان الاكثار من ذكر النبى عليه السلام حجاب عن الله .

وكتب فى الرد عليهم عدد غير قليل من المؤلفين المغاربة فى ذلك العصر، منهم :

أولا — أبو القاسم ابن سلطان القسنطينى خطيب جامع القصبة بتطوان وكتابه فى مجلدين (73) نقض فيه ضلالات الاندلسيين جملة وتفصيلا ، وزيف أقوالهم وبين أوجه فسادها .

ثانيا — أحمد بن حسن الورياكلى المعروف بالصغير . كان فى بداية أمره اندلسى المذهب ، ثم انفصل عنهم وبالغ فى الرد عليهم وتسفيه آرائهم

(73) وقف ا. ابن القاضى على هذا الكتاب عام 995 / 1587 ونوه به كثيرا وأحال عليه فى غير ما موضع من كتبه ، انظر مثلا درة ، 2 : 36 — 37

والف فى ذلك **كتابا** مختصرا وقف عليه عبد الرحمن الفاسى مؤلـــف **ابتهاج القلوب** بخط المؤلف (74) . ولم تفت الفرصة الاندلسيـــين فاغتالوا الورياكلى بقصبة فاس (75) أو بمراكش .

ثالثا — احمد ابن القاضى فى **درة الحجال** فى غير ما موضع ، الا أن دوره اقتصر على التنفير منهم دون التعرض لذكر تعاليمهم ودحضها بالحجة. ومما قاله عنهم فى ترجمة محمد الاندلسى : « .. وهذه البدعة التى دعا اليها المطرود من باب فضل الله الى غضبه ، وتمسك بها اصحابه من بعده ، كعبد الخالق الومغارى المتشرف وليس بشريف ... ومن تبعهم — أبعدهم الله واذلهم — قال بمثلها بعض الاندلسيين قبلـــه .. وانما اطلنا فى ذكر هذا الخبيث واشياعه ليتحفظ منه ، لانطمـــاس بصيرته واعماء عينى قلبه حتى راى الظلمة نورا والنور ظلمة . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا .. » (76) .

وكتب فى ترجمة عبد الخالق الومغارى الذى خلف محمد الاندلسى فى رآسة هذه الحركة البدعية : « .. رأس الطائفة الاندلسية الملعونة ولقد شاهدت بمكناسة ثلمة عظيمة فى الدين : أجلسوه على كرســى بجامعها الاعظم وهو يتكلم فى التصوف بزعمه ، ويضل العامة بمذهبه الشنيع . أهلكها الله من طائفة مضرة بالسنة السمحة .. » (77) .

رابعا — المؤلف المجهول صاحب **تبصرة الرئيس الامين** ، ذكر فى البـــاب الخامس الفرقة الاندلسية ومواطن انتشارها مقارنا بينها وبين العكازية: « وأما الطائفة الاندلسية — أذلهم الله وأخلى منهم الارض — فشرذمة قليلون . ونبغ شيخها وذبيحها بمراكش ، وانتشرت بدعتها بســـلا ، وظهر شىء منها بمكناسة الزيتون ، وخفى أمرها بفاس الا النـــادر لكثـــرة الفقهـــاء والاشراف بفـــاس » (78) .

ثم بين واجب السلطان تجاه هؤلاء المبتدعين بقوله : « فيجب على الامام اذا ظفر بواحد منهم تعزيره بما يراه من الضرب والسجن حتـــى يفىء الى السنة والجماعة » (79) .

---

(74) انظر ع. الفاسى ، **ابتهاج** ، 122 .

(75) انظر أ. ابن أبى محلى ، **اصليت** ، 58 و . أ. ابن القاضى ، **درة** ، 2 : 37

(76) أ. ابن القاضى ، **درة** ، 2 : 36 — 37 .

(77) المصدر السابق ، 3 : 167 — 168 ، رقم 1138 .

(78) مجهول ، **تبصرة الرئيس** ، الباب الخامس .

(79) المصدر السابق فى نفس الباب .

خامسا — عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيرى عليوات مؤلف **سراج الغيوب فى اعمال القلوب** (80) . خص الباب الثانى بعد الباب الجامع ببيان مقام الايمان وذكر لا اله الا الله محمد رسول الله . وتوسع فى الرد على الاندلسيين الذين انكروا ذكر اسم النبى مع اسم الجلالة ، وسماهم ( الطائفة الخاسرة ، والزمرة الفاجرة ) واورد مناظرة وقعت بينه وبين بعض دعاة هذه الفرقة رايت ان اثبتها — على طولها — لانها تصور مجلسا حيا لجمهور متحمس يتتبع باهتمام مناقشات دينية — مذهبية وينفعل لها ، فضلا عن اتاحة الفرصة للقارىء ليستمع الى ( أندلسى ) منطلق على سجيته فى شرح نظريات فرقته :

« قلت . وقد رتعت لى مناظرة مع بعض أكابر الطائفة الخبيثة بقرية ولى الله تعالى سيدى عمر الراعى — رحمة الله عليه — بمحضر جم غفير من المسلمين عامتهم وخاصتهم . وكان هو الطالب لذلك وتغيبت له فى الناس ولا زال يبحث على من طلوع الشمس الى الزوال ، فحينئذ دل على وقيل له هذا فلان . وكان فصيح اللسان ، جرىء الجنان ، قوى المنطق ، فدار بنا الناس وكانوا مهما تكلم يستلذون قوله وينصتون له ، فأتركه الى حين يتنفس فأتكلم بكلمات تبطل له ذلك ، حتى صار اكثر الناس ينهروننى عن جوابه لشدة حلاوة منطقه . فقلت فى نفسى : هذا لا اقهره الا بالله ، وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد ، والله ناصر دينه .

فسكت عن جوابه حتى تنفس مرارا ولم نجبه بشىء ، فظن أنه قهرنى وظن ذلك كل من حضر ، ففرح بذلك وسر سرورا عظيما ، فوفقنى الله لشىء يزيد فى سكره وغفلته فأخذت يده فقبلتها ومرادى لو كنت قطعتها . فقلت له : الآن يا سيدى قد ظهر الحق وانتفى الشك ، وأردت أن ترشدونى كما أرشدتم الذين هداهم الله بك .

— فقال : حبا وكرامة . وأى سعادة أكبر من هذه ؟ انطلق معى بمنزلى .

— فقلت له : هذا أمر هين خفيف كنت سمعته منك وسمعه هؤلاء الحاضرون ، فأردت أن أسألك عنه بلسان الافادة لعلك تجيبنى بما يزيل شكى فننتفع به وينتفع جميع الحاضرين .

— فقال : وما ذاك ؟

(80) كتاب ضخم فى 669 صفحة . مخطوط خ. ع بالرباط ، 455 ك .

— فقلت له : سمعت منك انكم لا تحتاجون الى نبينا محمد فى شىء . وانما هى انا وربى حاضر لا يغيب ، فتقول : يا رب ! فيقول : يا عبدى !

— فقال : نعم ! وما تنكر من ذلك ؟ اليس نبيك محدثا وهو من جملة خلق الله تعالى ، والله خالق كل شىء واليه ترجعون ؟ فقال : سلمــت هــذا ؟

— قلت : نعم ! سلمته وانا قائل به ، لكن بقى لى أن نزيد هنا بيانا !

— فقال : وما ذاك ؟

— قلت له : ولماذا تقرؤون القرآن وتحتج عليه بنصوصه ، وهو انما أنزل على سيدنا محمد ؟

— فقال : ما قرأته قط ولا تعلمت منه حرفا ولا أعلم اسمى فى اللــوح ! ـــ وهو كاذب بذلك ـــ !

— فقلت : فكيف لك بقراءة القرآن عن ظهر قلب بغير تعليم ؟

— فقال : بل الشيخ سيدى محمد الاندلسى الذى قتل بمراكش فى الزمان السالف زاره جدى وكان عاميا لم يقرأ فضربه بكفه على كتفه فمكنه الله من حفظ القرآن كله بتلك الضربة ، وكذلك فعل معى جدى .

— فقلت له : وحيث ينزل الله عليكم القرآن بأدنى سبب فاطلبوه أن ينزل عليكم قرآنا آخر غير القرآن الذى أنزله الله على سيدنا محمد ، وقولوا له : يا ربنا ان محمدا نبغضه فأنزل علينا من كلامك قرآنا يشهد الناس انه غير قرآن محمد . يا كافر !! وأصحبت هذه الكلمة ( بطرشــة ) لوجهه . فانتبه الناس وافترقوا فرقا ثلاثا : فرقة تضرب بالحجارة له ولاصحابه ، وفرقة منهزمة وهم أصحابه وهو أولهم ، وفرقة تجــدد الاسلام ويستكثرون من قول ( لا اله الا الله محمد رسول الله ) وهــم الذين استمال قلوبهم وكانوا ينهروننى ويسكتوننى عنجوابه قبل» (81)

— *** —

كذلك كان الصراع على أشده بين الحق والباطل والسنة والبدعة على عهد السعديين ، ولم يتخل رجال الفكر عن تسخير اقلامهم للصدع بالراى أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر .

---

81) ع. عليوات ، **سراج الغيوب** ، 622 ـــ 623 .

# الفصل الثالث

## استعمال التبغ

التبغ (1) نبات معروف عند قدماء الهنود والفرس بأسماء أخرى واستعملوه فى مداواة الجراح وأغراض طبية متعددة ، وعنهم اخذه العرب وذكروه فى كتبهم الطبية باسم ( شجر القمر ) . وأول من تحدث عن تدخين التبغ كريستوف كولومب فى رحلته التى اكتشف بها أمريكا أواخر القرن الخامس عشر . وعلى اثر ذلك جلب البرتغاليون والاسبانيون عينات من التبغ الى العالم القديم فى نطاق محدود . وربما كان الانجليز أول من شربوا دخان التبغ على نطاق واسع بعد أن جلبوه من أميركا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر وتفننوا فى صنعه .

دخلت عادة تدخين التبغ الى افريقيا السوداء الوثنية عن طريق الاوروبيين ، ووصلت الى تمبكتو فى مستهل القرن الحادى عشر / أواخر السادس عشر، ومن ثم حملها السودانيون الذين رافقوا الفيلة الى مراكش عامى 1005 — 1006 / 1597 — 1598 (2) ، ثم دخلوا بها الى فاس مع الفيلة أيضا عام 1007 / 1599 .

انتشر التدخين فى المغرب بسرعة وأقبل عليه مختلف الطبقات ، غير أن الحظ الاوفر كان للرعاع والسفلة الذى أخذوا يتعاطونه فى مجالس اللهو

---

1) هذا هو الاسم الغالب ، وسماه بعضهم أيضا الطبغ ، وطابة ، والطباق ، والطابغة ، والتوبغة ، والدخان ...
انظر من تاريخ التبغ فى العالم : **دائرة المعارف الكبرى** الفرنسية ، جزء 30 ، ص. 821 وما بعدها

2) اعتمدنا هذا التاريخ لانه هو الذى عند أ. البوسعيدى فى **بذل المناصحة** ، واخبر به عن مشاهدة . لا ما ذكره م. الافرانى فى **النزهة** ، 646 وتبعه أ. الناصرى فى **الاستقصا** ، 5 : 126 من ان ذلك كان عام 1001 / 92 — 1593 .

والقيان ، فزاد ذلك من تنفير أهل الورع من العلماء وشيوخ التصوف ، وغدوا يرون فيه بدعة سيئة تتعين محاربتها ومنكرا يجب تغييره .

لم تمض غير بضع سنوات على ظهور التبغ فى المغرب حتى اصبحت له اسواق رائجة وكثر التجار الذين يبيعونه فى المدن والقرى ، تحمله اليهم من السودان القوافل المنتظمة بين تمبكتو ومراكش ، وتجلبه اليهم السفن الانجليزية والهولاندية المترددة على مراسى سلا وآسفى واكدير .

ضج المصلحون بالشكوى وبلغت اذن احمد المنصور ، فاستفتى العلماء حين توجه الى فاس لآخر مرة أوائل جمادى الاولى عام 1011 / اواسط اكتوبر 1602 ، فأفتاه كل من مفتى فاس محمد بن قاسم القصار (3)، وصالح سلا الفقيه عبد الله بن حسون بتحريم التبغ ووجوب اتلافه . امر المنصور حينئذ بانتزاع التبغ من باعته فى فاس ، وكدس اكواما فى الديوان واحرق على رؤوس الملأ (4) .

وفى غمرة الفتن التى أعقبت وفاة المنصور تجدد رواج التبغ وانتشر اكثر مما كان وبخاصة فى الصحراء . ومنها حمله احمد ابن ابى محلى الى مصر فى رحلته الحجازية الثانية عامى 1013 — 1014 / 1604 — 1605 . فدخل التبغ بذلك لاول مرة الى بلاد النيل ، ومنها انتشر فى الشام والجزيرة العربية (5) .

كان احمد ابن أبى محلى مدمنا على التدخين يرى حليته ويناقش آراء القائلين بالتحريم، لذلك أثار فى مصر بل وفى كل اقطار شمال افريقيا والسودان ضجة بالقاء أسئلة يذكر فيها منافع التبغ عن تجربة محاولا أن يدفع بأكبر عدد من المفتين الى القول بالحلية ، فلم يحالفه النجاح فى غالب الاحوال .

فوجىء ابن أبى محلى عندما وصل الى الفزان فى طريق عودته من الحجاز بتداول الناس هناك نصوصا جديدة فى تحريم الدخان ، منها فتوى

---

3) كان محمد القصار بمراكش ورجع الى فاس مع قافلة الفيلة عام 1599/1007 ، فرأى بعينيه تعاطى السودانيين ومن معهم للتدخين .

4) تدل الاكوام المحروقة فى فاس وحدها على ضخامة كمية التبغ التى دخلت الى المغرب آنذاك ، كما يدل نص المؤرخين المعاصرين على ضياع أموال كثيرة بسبب ذلك على ارتفاع ثمن التبغ .

5) هذا ما تتواطأ عليه منطوقا ومفهوما كتب **الاصليت** لابن أبى محلى ، 91 و — 145 ظ ، و **نصيحة الاخوان** ، لابراهيم اللقانى ، الفصل التابع ، **والكبائر والصغائر** ، للنجم الغزى . غير أن المؤرخين المشارقة اليوم لم يهتدوا الى تحديد تاريخ دخول التبغ الى بلادهم ، فجعلوها بين عامى 999 — 1020 / 1591 — 1611 ولم يعرفوا بتاتا اسم ابن أبى محلى الذى أدخله الى بلادهم . انظر مجلة **العربى** ، مارس 1967 ، عدد 100 — ص. 108 — 111 . ( مقال : **التبغ عند ظهوره اول مرة فى البلاد العربية** ، لابراهيم النحام ) .

مختصرة لامام المالكية بمصر سالم السنهورى (ت. 1606/1015) ، واخرى مطولة لقاضى تمبكتو محمد بن احمد بن عبد الرحمن السودانى . هناك كتب ابن ابى محلى سؤالا مطولا فى كتيب سماه **الحكاية الادبية والرسالة الطلبية مع الاشارة الشجرية** (6) ، وبعث به اصالة الى شيخه الامام سالم السنهورى، وبالتبعية الى سائر فقهاء المالكية والشافعية وغيرهم بمصر .

شرح ابن ابى محلى فى هذا الكتيب – وهو يسأل – وجهة نظره فى حلية الدخان تناولا وتجارة وزراعة ، وناقش أدلة التحريم عموما ، وما ورد فى فتوى السنهورى خصوصا ووصفها بأنها اكتفت بالعموميات التى لا غناء فيها . وانتقل بعد ذلك الى مناقشة فتوى العالم السودانى (7) مستشكلا بعض الادلة النقلية التى استند اليها ، كحديث النهى عن كل مسكر ومفتر ، معارضا اياه بحلية المرتد لقطع عضو ونحوه عند الضرورة كما يقول ابن فرحون وغيره من فقهاء المالكية .

وصل السؤال الى سالم السنهورى وبقى عنده شهورا دون ان يجيب عنه الى أن مات ، ووصل الى غيره من فقهاء المذاهب الاربعة بالازهر فلم يجب الا القليل منهم بفتاو مختصرة لم ترض صاحب السؤال ، كما لم ترضه فتوى سعيد المقرى بتلمسان . وكان من بين الردود التى تلقاها ابن ابى محلى فتويان مطولتان بحلية التبغ أثبتهما بنصهما فى كتابه **الاصليت** (8) ، وعلق عليهما ونوه بصاحبيهما كثيرا .

⁂

## أ – فتوى قاضى درعة احمد بن محمد البوسعيدى

كان أحمد البوسعيدى من المدمنين على التدخين رغم منصبه وشيخوخته ، وقد ناقش فى البداية القاعدة الفقهية الاولى التى قررها القرافى فى الفرق بين المسكر والمفسد والمرقد ، وطبقها على آيات من القرآن ثم كتب :

« ان تبغ من نبات الارض . وقد نص الامامان الطبرى وابن جزى فى **تفسيرهما** عند قوله تعالى : هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ، أن نبات الارض محمول على الاباحة حتى يرد دليل على التحريم . وكذلك القاضى عبد الوهاب فى **تلقينه** جعل نبات الارض أحد جزءى المباحات ، وقيده الدكالى بما لم يكن فيه ضرر على البدن . ثم مثل لما فيه الضرر بالدفلى لانه قتال .

---

6) انظره تاما عند ا. ابن ابى محلى ، **اصليت** ، ورقة 93 و – 100 و .

7) لم يفصح ابن ابى محلى ولا احمد بابا عن اسم هذا العالم ، وانما سماه ابراهيم اللقانى فى **نصيحة الاخوان** ، الفصل السابع .

8) ورقة 102 و وما بعدها .

وتبغ تشاركه فى هذا المعنى أكلها قتال ، وكذلك الحرمل أكله مدقوقا قتال . ومع ذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتبخير بالحرمل لان دخانه لا ضرر فيه وفيه منفعة . وتبغ بهذا السبيل اكلها حرام لانه قتال ، ودخانها فيه منافع ظاهرة بدليل العيان . منها أنه يهضم الطعام وهو من أعظم المنافع ، ومنها اطفاء السموم شاهدنا اكثر من اربعين نفسا لسعتهم العقارب فشربـــوه فشفاهم الله فى الحين . وشاهدت عربيا .. لدغت الحية العمياء ولده واشرف على الهلاك ودفعنا له تبغ فشرب حتى تقيأ وشفاه الله . ومنها ما شاهدته فى نفسى كانت ( الترويحة ) تضرنى كثيرا وأنا فى سن الشباب حتى تلزمنـــى الفراش ، وحين خالطتها — والحمد لله — عوفيت منها ... وأما انتفاء وصف السكر والفساد والرقاد عنه فأمر ضرورى لا يمترى فيه عاقل ، ومن أنكره فهو سفسطائى ومكالمته لا تفيد . وقد تكلمت مع أصحابنا فقهاء مراكش — وفقهم الله ورحم موتاهم — عليهـــا فلم أر أحدا يدعى تحريمها . والذى ينهى عنها منهم قال لاجل ان السفهاء يجتمعون على شربها وربما تحضر معهـــم النساء كاجتماعهم على الخمر . قلت له : وها هم يجتمعون على ( طواجين ) اللحم وغيرها من نعم الله عز وجل . ايصح لنا أن نقول بحرمة( الطواجين ) من أجل ذلك ؟ .. » (9)

ومن غريب التحايل الذى لجأ اليه بعض المتعصبين مـــن الفقهـــاء استغلالهم لفظ ( الطباق ) (10) الوارد فى كتب المالكية بأنه « لا تصح شهادة من استعمل الطباق » موهمين أن المراد به التبغ . وقد رد القاضى البوسعدى على ذلك فى فتواه بقوله :

« .. اتانى بعد ذلك شخص لا اعرفه الا أنه ظهر لى حين تكلمت معه أنه فقيه ، فقال لى : قيل عنك انك تشرب دخان تبغ ، هل هو صحيـــح ؟ فقلت له نعم نشربها . فقال لـــى : ها نحن وجدنا نصا عند الجزولى أن من استعمل الطباق فلا تجوز شهادته ولا امامته . فقلت له : وما معنى الطباق؟ فقال : هو تبغ ! فقلت له : هيهات ! انت نقلت عن الصحف من غير اعتماد على شيخ . انما الطباق هو الحكم الذى أمر به النبى صلى الله عليه وسلم فى أول الاسلام ، وذلك أنه أمر أن المصلى فى حالة الركوع يطبق كفيه احداهما على الاخرى ويجعلهما بين فخذيه ، ثم بعد ذلك نسخ وأمر أن تجعل الايدى على الركب ؟ وتمسك ابن مسعود بالحكم الاول لانه لم يصح عنده النســـخ . فمن أخذ بمذهب ابن مسعود بطل ركوعه ، واذا بطل ركوعه بطلت صلاتـــه

---

9) أ. ابن ابى محلى ، **اصليت** ، 103 و .

10) الطباق الوارد عند الفقهاء بكسر الطاء . ويظهر أن الذين احتجوا به فى قضية التبغ حرفوه وفتحوا طاءه . وما زال الناس حتى اليوم يدعون التبغ طبق .

صلاته فيصير تارك الصلاة معنى ، وتارك الصلاة لا تجوز شهادته .. فقال لـى : ومن فسره بهذا ؟ فقلت له : القاضى عياض فى مشارقة فى مسادة طبق . فذهب عنى ، وفى الغد جاءنى فسلم ودعا لى بخير وانصرف .. » (11)

وعقب البوسعدى بعد ذلك على ما كتبه سالم السنهورى مصححا فتواه — شكلا — ، لانه بنى حكم التحريم على ما أخبره به السائل مـن ان التدخين يغيب العقل ، وليس كذلك :

« واما جواب سيدنا .. فهو صواب ، لان السائل ذكر له انـه يغيب العقل . وما غيب العقل حرام ، سواء كان بالسكر او بالفساد أو بالرقاد ، لان القدر الذى يتعدى على العقل حرام من كل واحد . ويزاد فى المسكـر تحريم القليل الذى لا يعدو على العقل .. » (12) .

لم يعجب هذا التصحيح ابن أبى محلى فأقره فى الجملة وناقش بعض التفصيلات الواردة فى فتوى السنهورى المتعلقة بمنع بيع التبغ وزراعته . وختم البوسعدى فتواه مقارنا بين تأثير السكر والتدخين فى أسلوب صحراوى مزيج من التهكم المرح والاصرار على الراى :

« .. وهل رأيتم سيدى أو سمعتم أن شارب تبغ يتقلد سيفه ويعربد على الناس ، أو شربها واختلط عقله واختل كلامه أو مشيه ؟ وقد حكى عن أبى بكر ابن الامام داوود الظاهرى انه لما توفى والده وتولى الجلوس بحلقته استصغروه فدسوا اليه رجلا سأله عن حد السكر ومتى يكون الانسـان سكران . فقال : اذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم ، واختل كلامه المنظوم ، ومشيه المعلوم . فأقروا له بالعلم ! وهذه العلامات كلها منتفية من تبغ .. » (13) .

---

(11) أ. ابن ابى محلى ، اصليت ، 103 ظ .

(12) المصدر السابق فى نفس الورقة .

(13) المصدر السابق ، 103 ظ — 104 و .

**ب ــ فتــوى احمــد بابا السودانــي :**

احمد بابا هو ايضا من المدمنين على التدخين القائلين بحليته . وفتواه عبارة عن كتيب سماه **اللمغ فى الاشارة الى حكم طبغ** (14) ، وانتهى مــن تاليفه يوم الخميس 19 جمادى الثانية عام 1016 / 11 اكتوبــــر 1607 بتمكروت من بلاد درعة . وقال انه اختصر القول فيه لكونه فى حالة سفــر ــ راجعا من مراكش الى تمبكتو ــ ووعد بانه سيزيد الموضوع بسطا فى كتابه **عين الاصابة فى مسالة طابة** الا اننا لم نقف على هذا الكتاب الثانى ان كان انجــزه فعــلا .

استهل احمد بابا **اللمغ** بمقدمة قصيرة اجمل فيها رايه بجواز استعمال التبغ ما دام غير مرقد ولا مفسد ، واخبر انه افتى بذلك طوال مقامه بمراكش واجاب كلا من قاضى فاس على بن عمران وقاضى درعة احمد البوسعيدى وغيرهما حين استفتوه فى ذلك . ثم تتبع فى القسم الاول عناصر السؤال فقرة فقرة مجيبا عن كل واحدة بما يناسب قصرا أو طولا ، فقال عن تساؤل ابن ابى محلى عن اصل تفريق الفقهاء فى الحكم بين المسكر وغيره :

« .. وهو ان الشارع صلوات الله تعالى عليه وسلامه حرم المسكر.. نعلمنا أنه المحرم بيقين لورود النص فيه ، وانه نجس ويحرم تعاطى قليله وكثيره بنص الحديث ، وانه يحد فيه ثمانين جلدة باجماع الصحابة عليه .

« وغيره مما يجتمع فيه أوصافه المذكورة ليس لنا أن نحكم عليه بما ذكر الا بنص ، لان الحد توقيفى . وانما قالوا بحرمة تناول القدر المرقــــد والمفسد غير المسكر دون القليل منه الذى لا يفسد ولا يرقد لما علم من حرمة افساد العقل مطلقا ، اذ هو أشرف ما فى الانسان المميز له عن سائر أنواع الحيوان . ولذا وردت الشرائع كلها بوجوب حفظه كما قاله أهل الاصول . نتنــاول مــا يفســده حــرام قطعــا . وان لــم يكــن مسكــرا ، دون مــا لا يفســده ممــا لا ضــرر فيــه ، لان الاصــل الاباحــة . ( قــل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمــه ) الآيــة (15) وغيرها سيما ما فى تناوله منفعة من تسخين رأس وجسد كالزعفران ونحوه

---

14) أ. ابن أبى محلى ، **اصليت** ، 136 ظ ــ 145 ظ . بتصرف ، وتوجد نسخة مستقلة مخطوطة بمكتبة تمكروت ، رقم 2999 فى 17 ورقة انتسخت من خط المؤلف بواسطة واللمغ بالغين المعجمة يجىء بمعنى اللمع بالمهملة كما فى لسان العرب .

15) الآية 145 من سورة الانعام 6 .

فلذلك اباحوا تناول القليل من ذلك . وفى فتاوى البرزلى : ومن هنا اى لاجل تسخين الراس اجاز بعض ائمتنا اكل اليسير من جوزة الطيب لتسخين الدماغ ... » (16)

وعلق احمد بابا على استغراب أبى محلى من اختلاف آراء الفقهاء فى تبغ من محل مادح ، ومحرم ذام ، ومتوقف كاف :

« قلت : انما ادى الى ذلك عدم المعرفة مع التجاسر على الخوض فيما لا يعرف . ( ولا تقف ما ليس لك به علم .. الآية ) (17) . وقدما قالوا : لو سكت من لا يعلم قل الخلاف . والا فمن أجراها على القاعدة المتقدمة بان له امرها وظهر له سرها . وقد قال ابن عسكر فى كتاب **العمدة** : ... والنباتات كلها مباحة الا ما فيه ضرر أو يغطى العقل كالبنج ونحوه ... ومعلوم أن طابة المذكورة لا تغطى العقل ، ومنفعتها معلومة كما سياتى » (18) .

وخصص احمد بابا القسم الثانى من كتابه لمبحثين :

1 — الحشيشة وبيان العلاقة المفارقة بينها وبين التبغ تأثيرا أو حكما :

« .. انما يتعاطاها أهلها على ما جرت به عادتهم لا لمنفعة ، بل لمجرد تلذذها وطلب السكر بها كالخمر ، كما هو معلوم من عادتهم ، اذ لا يذكر عن احد منهم أنه يتناولها لمصلحة ، فلذلك قال فيها ابن فرحون ما قال مع ما فيها من المفاسد الزائدة على غيرها ...

« وفى بعض كتب الشافعية : وأما الحشيشة ... فلم يتكلم فيها الائمة الاربعة ولا علماء السلف لانها لم تكن فى زمانهم وانما ظهرت فى أواخر المائة السادسة أو السابعة . واختلف فيها هل هى مسكرة فيجب فيها الحد ، أو مفسدة للعقل فيجب التعزير . والذى أجمع عليه الاطباء أنها مسكرة وبه جزم الفقهاء .. واختلف هل يحرم تعاطى اليسير الذى لا يسكر ، فقال النووى فى شرح **المهذب** : لا يحرم قليلها الذى لا يسكر بخلاف الخمر . والفرق أن الخمر نجس والحشيش طاهر ...

قل لمن يأكل الحشيشة جهلا ... يا خسيسا قد عشت شر معيشة

دية العقل بدرة فلماذا ... يا سفيها قد بعتها بحشيشة » (19)

---

16) ا ابن أبى محلى ، **اصليت** ، 137 ظ .

17) الآية 36 من سورة الاسراء 17 .

18) ا ابن أبى محلى ، **اصليت** ، 138 ظ — 139 و .

19) المصدر السابق ، 141 و — 142 ظ .

2 ـ الرد على المفتى السودانى القائل بتحريم التبغ وتجهليه :

« انه تكلم بغير علم وتعاطى ما ليس له باهل فيجب الا يلتفت اليه ، اذ لم يات بحجة عليه ، فكلامه ساقط ، اذ هو فيه لاغط .. فمن جملة ما قال : قد ورد النهى عن كل مسكر ومفتر ، ثم ذكر حديثا عن **مسند** احمد **وسنن** ابى داوود، عن ام سلمة قالت : نهى رسول الله صلى الله عليهوسلم عن كل مسكر ومفتر . ثم نقل كلام العلقمى فى **شرح الجامع الصغير** عن شيخه الجلال السيوطى عن الخطابى ، فيقال عليه ان هذا الحديث انما رآه فى كتاب **الجامع الصغير** للسيوطى ، ولم يقف قط على **مسند** احمد ولا على **سنن** ابى داوود . فاللائق به أن يعزوه لموضع استفادته اداء للامانة فى العلم .

« وايضا فالحديث لا يستدل به الا من هو اهل لذلك ممن هو مجتهد دون غيره . وانما حظ المقلد الفتوى بكلام شيوخ مذهبه ومشهوره ، والاجراء عليه ان تأهل لذلك . فان خرج عن ذلك فقد تعدى وظلم ، وباء باثم اعظم ... لان الاستدلال بالحديث يحتاج الى معرفة انه غير منسوخ وغير مخصص بآخر ، وغير معارض بدليل آخر يقدم عليه ، ومعرفة وجوه الترجيح عند التعارض .. وانى بذلك للمقلد الصرف ، ومن هو فى معرفة ما ذكر كالجلف .. » (20) .

هكذا نلاحظ تحامل احمد بابا على بلديه الذى خلف قومه فى القضاء ببلاد السودان ، ولم يكتف بعبارات التجهيل واللمز حتى جزم بأنه لم يطلع قط على **مسند** احمد ولا **سنن** أبى داوود واتهمه بالتزوير فى النقل ! والعجب انه حظر على خصمه ما أباحه لنفسه من الاستدلال بالحديث والنظر فى غير كلام شيوخ مذهبه ، وكأنه نسى ما لم يجف قلمه بعد من كتابته نقلا عن كتب الشافعية !

وتتحدث الفقرة الاخيرة من كتاب **اللمغ** بجدية لا تخلو من تحامل أيضا عن خطأ المفتى السودانى فى استدلاله بحديث أم سلمة ( نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر ) من خمسة أوجه :

« .. أما أولا فالنهى ياتى للحرمة والكراهة فى كلام الشارع . ومجرد المقارنة بين المسكر والمفتر لا يقتضى تحريمهما معا . اما المسكر فتحريمه قائم بنص الشارع فى غير موضع ، وانى لك بتحريم المفتر ؟ ! مع أن النهى قد ورد فى الشرع عن أشياء مقترنة بعضها ممنوع وبعضها مكروه . ففى الحديث : نهى عن صوم ستة ايام من السنة : ثلاثة ايام التشريق، ويوم الفطر

---

(20) المصدر السابق ، 143 و .

ويوم الاضحى ويوم الجمعة . ومعلوم ان صوم يومى العيد حرام ، وصوم غيرهما مما ذكر معهما مكروه . .

واما ثانيا فما نقله عن العلقمى عن شيخه عن الخطابى يقال له : هؤلاء الثلاثة شافعيون وانت يلزمك اتباع مذهبك .. فكيف تفتى بمذهب غيرك ؟ وهل هذا الا تهور وتجاسر ؟ !

واما ثالثا . قوله — بعد الكلام على الحشيشة — ان هذا حال طابة . قلنا هذا من تهوره ، لان الحشيش ممنوع اتفاقا ، اكثر العلماء على انــه مسكر ، ومن قال انه مفسد وافق على حرمته لعظم مفسدته التى زاد بها على الخمر كما تقدم ، وطابة خالية عن ذلك ، لا مسكرة ولا مفسدة ولا مضرة . فأين هى من الحشيش ؟ !

واما رابعا . فقوله نقل الاجماع على تحريم الحشيشة غير واحــد كالقرافى وابن تيمية الذى قال ان من استحلها فقد كفر ؟ قلنا ذلك مسلم ، ولكن الحشيشة شىء وتبغ شىء آخر ، فحرمة الحشيشة لا توجب حرمته الا اذا اجتمعا فى صفة الحرمة التى هى السكر والافساد !

وأما خامسا . قوله : فليحذر كل مستحل طابة على نفسه ، ليلا يكون كالباحث عن حتفه بظلفه . يقال عليه : بل من حرمه بلا دليل هو الباحث بظلفه عن حتفه ، والساعى بذلك فى تلفه ، لتعاطيه ما ليس فى طوقه .. » (21).

***

وبعد مرور ازيد من عشر سنوات فى الاخذ والرد فى مسألة الدخان ، كتب ثلاثة من أعلام المالكية بمصر والمغرب الاوسط كتبا متعارضة من حيث الاحكام والنتائج رددت جميعا صدى ما قاله المغاربة فى الدخان تحليلا أو تحريما :

---

(21) المصدر السابق ، 143 و — ظ .

## ا ـ نصيحة الاخوان باجتناب الدخان (22)

كتبه ابراهيم اللقانى المصرى ( ت. 1631/1041 » ، وذلك فى اوائل عام 1616/1025 مرتبا على مقدمة واحد عشر فصلا وخاتمة . وخصص الفصل السابع منه لتاريخ الدخان فى العالم ودخوله الى مصر على يد احمد ابن ابى محلى متحاملا عليه باعتباره من المفسدين فى الارض :

« ... ففى اول شيوعه ـ الدخان ـ بمصر دخل به رجل من تفيلالت من بلاد المغرب يقال له احمد بن عبد الله الخارجى ـ ابن ابى محلى ـ المشهور بسفك الدماء بغير حق ، واهانة اهل بيت الرسول من اشراف ملوك المغرب . وكان ملبسا على العامة يزعم انه من العارفين واهل السلوك وهو مغرور مخدوع .. فسأل عنه ـ الدخان ـ شيخنا وقدوتنا العلامة سالم السنهورى فأفتاه بالتحريم فأسر ذلك فى نفسه والقى الى شياطين اخوانه أن ما افتى به الشيخ خطأ ، وانه جائز الاستعمال وهو من احل الحلال ، فعليه بالوبال واليم النكال !

ولازم شيخنا المذكور ـ رحمه الله تعالى ـ الافتاء بذلك الى أن مات ولم يخالفه فى ذلك مخالف . شاهدت ذلك منه سماعا وكتابة ، وتابعه على ذلك اهل الدين والصلاح والسداد والنجاح من الحنفية وغيرهم . وخالف بعض الشافعية لا عن دليل حتى قال انه لا يفطر الصائم فى رمضان ، وهو من الهذيان ! لتجسد ما يجتمع منه ، ومذهب الشافعى أن الدخان المتجسم مفطر ... » (23)

تشعر الفقرة الاخيرة من هذا النص بالضجة الصاخبة التى تركتها كتابات ابن أبى محلى فى مصر ، والحوار العنيف الذى تلاها بين فقهاء المذاهب الاربعة .

---

22) مخطوطة م. م بالرباط ، 7579 . وتوجد ايضا ضمن **مجموع الدخان** ، ورقة 1 ظ ـ 18 ظ.
23) المصدر السابق ، 9 و .

## ب — غايـة التبيـان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان (24)

الفه على الاجهورى فى نفس السنة كتعقيب على كتاب زميله ابراهيم اللقانى المتقدم وان لم يصرح باسمه ، مؤكدا كل ما جاء فى فتـــواه (25) السابقة التى بعث بها الى ابن ابى محلى ، وما حاوره به فى مصر اثناء مقامه بها . ومن المعلوم ان الاجهورى كان يشاطر ابن ابى محلى رايه فى حلية التبغ ويدمن مثله على التدخين . وقد بات الامير محمد الحاج الدلائى ليلة فى منزل الشيخ على الاجهورى بالقاهرة خلال رحلته الحجازية عام 1041/31 — 1632 « فبات — الاجهورى — ليلته على النظر فى كتب العلم وهو يشـــرب الدخان . فكان له صاحب يعمر له الدواة — اناء الدخان — حتى اذا فرغت عمر أخرى » (26) .

لخص الاجهورى رايه فى الدخان فى خاتمة الكتاب بقوله :

« ... شرب الدخان المذكور ليس مما يغيب العقل اصلا وليس بنجس، وما كان كذلك لا يحرم استعماله لذاته ، بل لما يعرض له من ضرر ونحوه . فمن لم يضره لم يحرم عليه ، ومن ضره باخبار عارف يوثق به أو بتجربة فى نفسه حرم عليه . وقد جرى الخلاف فى الاشياء التى لم يرد فى الشرع حكمها، والمرجح منه تحريم المضار دون غيرها . وانت خبير بما يحصل منه لبعض مبتدئى شربها من الفتور ، كما يحصل لمن ينزل فى الماء الحار ، أو كمن يشرب مسهلا مما لا يغيب العقل فى شىء كما يظنه بعض من لا معرفة له . وان سلم انه يغيب العقل فليس من المسكر قطعا ، لانه مع نشوة وفرح كما تقرر . وحينئذ فيجوز استعماله لمن لا يغيب عقله كاستعمال الافيون لمن لا يغيـــب عقله . وهذا يختلف باختلاف الامزجة والقلة والكثرة .. فلا يسع عاقـــلا أن يقول انه حرام لذاته مطلقا الا اذا كان جاهلا بكلام اهل المذهب او مكابـــرا معاندا » (27) .

---

24) يوجد ضمن مخطوطة **مجموع الدخان** ، ورقة 92 ظ — 100 و .

25) انظرها تامة عند ا. ابن ابى محلى ، **اصليت** ، 100 — 102 و .

26) ح. اليوسى ، **المحاضرات** ، 61 . وانظر ايضا كتابنا **الزاوية الدلائية** ، 149 .

27) **مجموع الدخان** ، 94 و .

وتعرض المؤلف بعد ذلك لمسالة مزج التبغ بالخمر عند تهيئه بأوربا، وهذا أمر حادث استغله انصار التحريم ولم تتعرض له فتوى الاجهوري السابقة فقال :

« فان قلت : قولك ان الدخان المذكور طاهر ممنوع لانه يبل بالخمر . قلت : ان تحقق هذا فتحريمه لامر عرض لا لذاته ، وان لم يتحقق ذلك فالاصل الطهارة . وهذا على فرض صحته انما هو فيما ياتى من بلاد النصارى ونحوها ، وأما ما يأتى من بلاد التكرور ونحوها فهو من محقق السلامة من هذا . على أن ابن رشد جازم بطهارة دخان النجس ، وظاهر كلامه أنه متفق عليه .. بقى هنا أمر ينبغى التنبه اليه ، وهو ان الحكم بالنجاسة على ما بل من الخشب ونحوه بالخمر ، وان طال مكثه فى الخمر ، اذ جف بعد ذلك انما هو اذا كان حيث لو بل تحلل منه ما يسكر . وأما اذا كان اذا بل لا يتحلل منه شىء أو يتحلل منه ما لا يسكر فانه طاهر كما فى الخمر اذا تحجر . وان كان بحيث لو بل لم يسكر فانه طاهر كما هو مصرح به ... » (28)

ثم أورد الاجهورى نص سؤال فى الموضوع ، وجوابه للشيخ محمد النحريرى الحنفى بأنه لا يحرم الا على من يغيب عقله أو يضره ، وفتوى شيخ الشافعية على الزبادى بأنه يحرم شربه لمن يغيب عقله دون غيره ، وبمثل ذلك أفتى الشيخان الشافعيان عبد الرؤوف المناوى ومحمد الشوبرى، واحمد الكلبى المالكى ، ومرعى الحنبلى وبعد ان أورد كل تلك الفتاوى ختم الكتاب بقوله : « .. فقد اتضح لك أن شرب ما لا يغيب العقل من الدخان المذكور غير محرم لذاته باتفاق المذاهب الاربع » (29) .

---

28) المصدر السابق ، 94 ظ — 95 و .

29) المصدر السابق ، 97 ظ .

## 3 ـ محدد السنان فى نحور اخوان الدخان (30)

الفه عبد الكريم بن محمد الفكون القسنطينى ( ت. 1663/1073 ) ، وذلك فى اواسط عام 1616/1025 بعد ان اطلع على ما كتبه كل من الامامين المصريين اللقانى والاجهورى ، وذكر انه اطلع قبل ذلك على جواب مفتى القيروان لامير اقليمه التركى مستدلا على اباحة الدخان بأدلة واهية . « وهذا المفتى ممن نقل عنه شربه واللهج به فى مواطنه وجمع الناس عليه فى مسكنه » (31) . كما اطلع على جواب آخر لمفتى مكة المكرمة الشيخ خالد الزواوى بتحريم شرب الدخان ، وعلى كتاب **كشف الغسق عن قلب دفق فى التنبيه على تحريم دخان الورق** لصديقه محمد السوسى المغربى المتوفى بالجزائر فى رمضان 1023/أكتوبر 1614 .

اشتمل **محدد السنان** على نقول مهمة من **كشف الغسق** هى كل ما بقى من هذا الكتاب الذى يعد اليوم فى حكم المفقود . وضمنها بعض اخبار احمد المنصور وموقفه هو وموقف المفتين فى عصره من الدخان ، وقصائد لشعراء مغاربة من سوس وفاس فى التنفير من التبغ وشربه. كما اشتمل على استفتاء منظوم قدمه مفتى الجزائر سليمان الاورارى الى مفتى القسطنطينية الاكبر محمد بن سعد الدين التركى حين اجتمع به هناك فى جملة وفد رسمى بعث به داى الجزائر الى عاصمة الخلافة .

ومما جاء فى سؤال الفقيه سليمان :

«.. رأيت الناس قد جنحوا لبلوى ... وهى والله مفسدة الرجال
دخانا يشربون لكل وقت ... وعم الخافقين على التوال
أفى المكروه يدخل شاربوه ... جهارا ، أم حرام أو حلال ؟ » (32)

فأجاب المفتى الاكبر :

« .. تيقن ليس فيه غير ضر ... وما فيه سوى اتلاف مال
وان أمعنت تضييعا لنفس ... ومسخ للنساء وللرجال

(30) مخطوطة م. م. بالرباط ، 6929 ، **مجموع الدخان** ، ورقة 56 ظ ـ 62 ظ .
وقد لخص أ. العياشى هذا الكتاب فى **الرحلة** ، 2 : 396 وما بعدها ، وسماه **رشق السنان** .
(31) **مجموع الدخان** ، 57 ظ .
(32) المصدر السابق ، 59 و .

... حرام ليس فيه شوب شك — محال ذكره بين الحلال
... يعزر شاربوه بعد نهي — مطاع دام حتم الامتثال
لسلطان الانام انام خلقا — كثيرا فى مهاد الاعتدال » (33)

وقد تطرق الفكون فى مجال التنفير من الدخان الى ثلاثة وجوه :

ا — اجتناب الدخان من حيث ذاته .

ب — تحريمه من حيث صفاته .

ج — تحريمه من حيث عوارضه ، من اضاعة المال ، والمنادمة ، والغيبة والنميمة ، والانصراف عن مهام الامور الى سفاسفها .

واتى فى المقدمة ببيان ما احل الله من طيب الماكولات وما حرم من خبثها ، وانتقد فى الخاتمة سلوك قومه وما هم عليه من المناكر المخالفة للشريعة ، ومن بينها شرب الدخان .

⁂

وغشى مدينة فاس خلال عامى 1026 — 1027 / 1617 — 1618 جو حار من انتقاد المدخنين والتشنيع عليهم . وربما كان ذلك رد فعل طبيعيا لانتشار عادة التدخين فى المدينة ، وعودة التجار الى ترويج هذه البضاعة الكريهة التى كانت محرمة الى عهد قريب . بدأت حملة الانتقاد بسؤال كتبه اديب الفقهاء على بن أحمد الشامى فى أواسط رمضان عام 1026 / شتنبر 1617 ، بأسلوب فنى رائع ، وجهه أصالة الى قاضى فاس أبى القاسم ابن أبى النعيم الغسانى ، ومفتيها أحمد المقرى ، وبالتالى الى سائر الفقهاء ، يعرض عليهم الحالة المزرية الفاشية التى آل اليها أمر التدخين ، ويستفتيهم فيما يجب عمله . وقد ركز السؤال على مقايضة التجار الاوربيين الذين يجلبون التبغ للمغاربة بمواد محرمة على المحاربين كالقوت والسلاح وما الى ذلك .

ومما جاء فى سؤال على الشامى :

« ... ما قولكم — رضى الله عنكم — فى هذه العشبة الخبيثة الشهيرة على الالسنة بطابة ؟ — لا طابت معيشة مشتهيها ، ولا ربحت تجارة بائعها ومشتريها — ، اختلقها الشيطان ، واتخذها من جملة الاشراك والاشطان ، وخدع بها من استثناه قوله تعالى : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان »

---

33) نفس المصدر فى نفس الورقة .

ولم تزل تلفظها البلدان ، وترفضها الاعاجم والسودان ، الى أن التت بهذا المغرب عصاها ، واستقلت فيه بيد كل من نبذ الشريعة المحمدية وعصاها. وتظاهر بها اللعين ــ اخزاه الله ــ مع اوليائه الكفرة على المومنين ، وجعلها ذريعة لمراده من تضعيف الدين ، وتقوية الضالين واعانة الملحدين . وغر بها الجهلة فحسبوا أنها من قبل الجائز الصراح ، والفعل اللائق المباح ، وزين لهم فيها أنواع المتاجر وتضاعف الارباح . فانكب من تجارهم على جلبها من أرض الكفرة الخاص والعام ، وضاعفوا لهم اسوامها من الاثمان الكثيرة الجسام ، والاموال الجزيلة العظام ، وربما حملوا لهم فيها ما لا يجوز حمله كالسلاح والطعام ، والخيل والبغال وسائر الانعام .. » (34)

وقد اجاب عن هذا السؤال كل من القاضى ابن أبى النعيم ، والمفتى احمد المقرى ، وسبعة عشر فقيها آخر بفتاو مختلفة الطــول والقصــر ، جمعت فى كتاب بعنوان **فتاوى علماء فاس فى الدخان** (35) . لم تأت هــذه الفتاوى كلها بشىء جديد فيما يتعلق بجوهر الحكم الشرعى لانعدام النــص الصريح ما دام التبغ لم يعرف فى صدر الاسلام ولا فى قرونه الاولى . غير أنه يلاحظ تنوع فى الاجوبة بتنوع شخصيات أصحابها . ففى جواب القاضـــى اشارة الى امكان عد رائحة التبغ الكريهة مما يؤذى الزوجة ويعطيها حق طلب الفراق الحاقا بحال الزوج الابخر خلقة . وفى جواب المفتى لجوء الى القيــاس بحسب المعطيات الآنية ، وتوجيه للحاكم ليضرب على أيدى مروجى التبــغ ومتعاطيه . بينما ركز المحدث عبد الرحمن الفاسى العارف جوابه علـــى المقارنة بين النص الحديثى الموجود ــ وهو حديث أم سلمة ــ ، والنص الفقهى المعدوم ، مبينا أن الاول قطعى على ما فيه من عموم ، والثانى ــ على فرض وجوده ــ ظنى فقط .

وقد حاول الفقهاء أن يضفوا على هذه الاستشارة صبغة رسميـــة الزامية فكتب شهود رسميون رسمين عدليين عقب الفتاوى التسع عشرة . نص أولهما على صحة نسبة كل فتوى الى صاحبها والتعريف به واثبـــات كتابتها بخطه . وسجل الرسم الثانى حكم قاضى فاس بتحريم التبغ اعتمادا على الفتاوى المذكورة . ومما جاء فى رسم الحكم :

« .. لما انهى الى الفقيه الاجل .. قاضى الجماعة بالحضرة الفاسية .. ماتظافرت عليه أجوبة الفقهاء، عرضه، وما صدعوا به ــ سددهم اللهـ فيها من تحريم العشبة الرديئة المسؤول عنها ... وسئل منه ــ أدام اللــه عزه ــ ما عنده فى ذلك ، فاقتضى نظره السديد ، ورأيه الموفق الرشيد ، أن

---

34) **مجموع الدخان** ، 75 و ــ ظ

35) جمع هذه الفتاوى ــ كما جاء فى آخرها ــ احمد بن يحيى الفشتالى فى فاتح ربيع الاول 1096 / 5 فبراير 1685 . وتوجد ضمن **مجموع الدخان** ، ورقة 74 ظ ــ 91 و .

حكم بتحريمها ومنعها وفساد المعاملات فى شرائها وبيعها ، والحاقها فى سائر الاحكام بغيرها من المنكرات ، وسائر المفسدات والمسكرات ، بعـــد ان احضر — اعزه الله — جميع فقهاء الحضرة المشار اليهم الموصوفة اسماؤهم فى الاجوبة المذكورة ، والمرفوع على خطوطهم المباركة فى الرسم يسرته ، واتفقت آراؤهم الكريمة على القول فيها بالتحريم المطلق الذى لا رخصة فيه، حكما انفـــذه وامضـــاه ، واوجب العمل بمقتضاه ... فى أواخر شوال عام 1026 » (36) .

غير ان الاضطرابات الخطيرة السائدة فى المغرب آنذاك لم تتـــح الفرصة الملائمة لنجاح هذه الحركة الاصلاحية ، فتفرقت جماعة الفقهاء شذر مذر ، ولقى القاضى ابن أبى النعيم بعد سنوات معدودة مصرعه على يـــد الغوغـــاء المفسدين .

⁂

بقى مشكل التبغ اذن مطروحا ، وبقى الفقهاء والمصلحون يتناولونه بالبحث والتعليق بحسب تطور الظروف . وسنورد هنا ثلاثة نماذج مختلفة للذين اهتموا بمسألة التدخين وكتبوا فيها فى العهد السعدى الاخير .

1) محمد العربى الفاسى الذى ألف حوالى عام 1625/1035 **ســهـــم الاصابة فى حكم طابة** (37) . وهذا الكتاب — على صغر حجمه — من أحسن ما كتب عن التبغ فى ذلك العصر ، سواء فى المغرب أو المشرق . وقـــف المؤلف متأملا أمام هذا المشكل الاجتماعى الذى كثر الحديث عنه دون طائل، وهاجمه المتحمسـون من الفقهاء والصوفية اعنف هجوم دون أن يتمكنوا من القضاء عليه ولا حتى من الحد من انتشاره . أخذ يستعرض أمام عينيه مـــا قيل وكتب فى الموضوع طوال ثلث قرن ويعرضه بتجرد على قواعد أصـــول الفقه فالفاه مجافيا لها على العموم ، وكتب **سهم الاصابة** بحثا عن الحقيقة.

كان المؤلف — على ما يبدو — يبحث عن وسيلة جديدة لمعالجـــة داء التدخين المستفحل يوما بعد يوم ، بعد أن تأكد لديه أن الوسيلة الدينيـــة المتبعة حتى آنذاك لم تنتج ولن تنتج ، لقيامها على أسس واهية جعلت رجال الدين ينقسمون على انفسهم بين محرم ومحلل ومتوقف ، وشجعت العامـــة على الامعان فى تعاطى تلك البدعة والتظاهر بها .

---

36) **مجموع الدخان** ، 87 ظ — 88 و .

37) يوجد ضمن **مجموع الدخان** ، ورقة 19 و — 46 و . الا أنه اقحم فى آخره ما ليتس منـــه من فتاوى المتأخرين عن عصر المؤلف ، وربما سقط منه شىء مما كتبه العربى الفاسى أو أجابه به معاصـــروه .

اراد المؤلف بتساؤله الهادىء ومقارناته المنطقية ان يجعل الفقهاء يفكرون فى المشكل بعقلية جديدة ويتخلون عن الاحكام المسبقة التى تحجب الحقيقة عن ابصارهم ، وبذلك يمكن أن يجتمعوا على كلمة سواء تكون منطلقا سليما لمنهج اصلاحى فعال .

فلنقرأ ما كتبه عن القول بتحريم التبغ ، بعد أن عرض الراى القائل بالاباحة الاصلية ، ولنلاحظ تزييفه لبعض أدلة المنع واستخفافه باخرى :

« . . — من أدلة التحريم — : أحاديث يوردونها من غير اسناد . وأجاب اهل القول الاول : انه لا يصح شىء منها فلا يحتج بها ، ومن قال بثبوتها فليذكر سندها ومن اخرجها وحالها من ضعف وحسن وصحة وعلى شرط من هى حتى يتبين هل تصح للحجة أم لا .. ومن مضحكات الاستدلال الاستناد فيه الى **طوق الحمامة** ، وهى من منازع العامة . ومتى كان**طوق الحمامة** مبينا لما به الفتوى ؟ !

« وما أعظم جرأة من ينزع الى أنه المراد فى قوله تعالى : — يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس — (38) ، وما أقر به من الكفر ، فانه تفسير بالراى ، واجتراء على الوحى .. ومثله من يفسر به سورة الهمزة . وما حملهم على ذلك الا التعصب لآرائهم والغلو فى أهوائهم ، والمراءاة بالقول بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما اتوا به من الكذب على الله ورسوله أسوأ وأنكر ! .. ومما يلتحق بذلك الاستدلال بمرائى يذكرونها . وفى الاستدلال بها فى هذا المقام ما لا يخفى . أما أولا فلعدم الوثوق بها لعدم عدالة مدعيها فى الاكثر فلا تعرف صحتها ، وأما ثانيا فلأن الاحكام لا تنبنى على المنامات لاسيما ان خالفت الدليل المعتاد جزئيا او كليا كهذه ..» (39) .

وسلك المؤلف نفس المسلك النقدى فيما زعمه دعاة التحريم من أن التبغ مضر بالانسان رادا عليهم بالواقع المشاهد . ثم تطرق لنقض فتوى شيخه محمد بن أحمد المرى التى بناها على أن الدخان من قبيل الطعام المحترق ، وقد نص فقهاء المالكية على انه لا يجوز أكله لمضرته .

« ... وأجيب بأن ايصال الدخان لجوف الانسان غير ممنوع للاجماع على جواز استنشاق البخورات مع وصولها للجوف بدليل منع الصائم منها . وكونها من قبيل الطعام المحترق ممنوع فى هذا المقام : فان أريد به أنه نوع منه ، رد بعموم دخوله فى حقيقته ، وان أريد قياسه عليه ، رد بأنه فاسد

---

(38) الاية 10 من سورة الدخان 44 ، والذى افتى بتحريم الدخان بناء على هذه الاية هو الشيخ خالد المكى مفتى الحرمين الشريفين ، وذلك عام 1011 / 1602 . انظر م. الافرانى ، صفوة ، 113 — 114 .

(39) مجموع الدخان ، 19 ظ — 20 ظ .

الاعتبار لما مر . ولو سلم فالطعام المحترق علة منعه مضرته ، ويدور معها الحكم وجودا وعدما ، فاذا انتفت المضرة انتفى المنع ... وكثير من الادوية يستعمل محترقا كالطباشير ونفعها ظاهر ، فليكن هذا منها . على أنهم قالوا ان المحترق ملتحق بالتراب وجار حكمه عليه ، وقد علمت ان فى التراب قولين مشهورين : الكراهة عن محمد ، والمنع عن ابـن الماجشون ، وعللـوه بالاضرار ، ومقتضاه الجواز حيث لا ضرر . وقد قال الامام احمد بن حنبل : ما اعلم فى اكل الطين شيئا يصح ..

استمر المؤلف هكذا فاحصا مختلف الادلة ضاربا بعضها ببعض ، ثم لم يصرح بالاباحة ولو أنه زيف نظرية التحريم ، تاركا القول الفصل للنظار من الفقهاء ، طالبا بالحاح أن ينتقدوا كلامه نقد الصيارف ، ويميزوا الخالص من الزائـف .

وقد رد على مباحث العربى الفاسى هذه جماعة من الفقهاء ، اثبـت ردودهم بنصوصها كاملة فى **سهم الاصابة** . منهم من تحامل عليه ولم يستسغ صراحته فى نقض اقوال المفتين ومرائى المتصوفين . وفى مقدمتهم عمه عبد الرحمن بن محمد الفاسى العارف الذى بعث اليه ( بتذكرة ) عززها بثانيـة وثالثة ، نبهه فيها الى ما ينبغى أن يحتوى عليه **سهم الاصابة** من حشر أدلة تحريم طابة لا غير ! متتبعا كلامه فقرة فقرة ، ومعارضا بحجج اعتقادية او وجدانية لا تقف أمام أدلة المؤلف العقلية . ومنهم من اعترف بالعجز والقصور عن مناقشة مباحث العربى الفاسى مقرا ضمنيا بوجاهتها واصالتها ، الا أنه لم يتخل عن اعتقاده الراسخ رسوخ ( ايمان العجائز ) بحرمة التبغ لا عن دليل ! كالقاضى ابراهيم بن عبد الرحمن الكلالى :

« .. ان محبكم قائل بتحريمها ولكن لا باستعمال قياس ولا دليل لانـه مقلد لا مجتهد . واستعمال القياسات والادلة وظيف المجتهد لا المقلد . ومقلده فى ذلك انه طالع تأليفا بيد سيدى عبد الله بن على ابن طاهـر الشريـف الفلالى فى حياة مولاى أحمد الذهبى حيث كان بفاس ، نص فيه على تحريمها وعلى تحريم تسميتها بطابة ... فقال لنا سيدى عبد الله المذكور هى محرمة كالخمر والميتة واطلعنا على التأليف (40) المذكور ، وفيه نحو الكـراس أو اشد منه . واظن والله أعلم أنى سألته عن مؤلفه او وجدته فى أوله حينئذ ، فقال لى انه من علماء سوس وانه من المحققين ، فقنعت منه بذلك فى ذلك الوقت .. وهذا الذى عندى ولا أرجع عنه لاجل كونى مقلدا لا مجتهدا . ولا شك أنى لم أطالع فيها شيئا . ولو كان يباح لى أن اقول بالرأى لقلت فيها انها محرمة وقطعت به » (41) .

---

40) لعله يشير الى كتاب كشف الغسق لمحمد السوسى صاحب عبد الكريم الفكون المتقدم .

41) مجموع الدخان ، 26 و ـــ ظ .

2 — احمد بن على البوسعيدى الذى الف حوالى عـام 1637/1047 كتاب **بذل المناصحة فى فعل المصافحة** (42) ، وخصص فصلا منه للكلام على ( فتنة الدخان ) كما قال . نحا البوسعيدى منحى الاعتدال والتأمل فى اقوال من تقدمه ، واهتم بالجانب التاريخى مشيرا الى تطور التدخين منذ ظهوره فى السودان والمغرب الى انتشاره فى البلاد الاسلامية غربا وشرقا . غير أنه قائل بتحريم التبغ منذ البداية ، باحث عن أدلة فقهية وعقلية جديدة تعزز وجهة نظر القائلين بالمنع .

والكتاب مع ذلك مشحون بالفوائد طافح بآراء الفقهاء والصوفيـــة ومناظراتهم . من ذلك ما ذكره المؤلف من أنه سأل عن التبغ عند ظهوره أول ما سأل شيخه المجاهد عبد الله ابن سعيد الحاحى « وكان اذاك لم يسمع به، فصار يسألنى عن كيفية استعمالهم له فأفصحت له عن تلك الهيئة ، وكان من حضر يدعمنى بما يوافق المقام . فقلت له : يأخذون ورق نبات فيجعلونها فى دواة ويرشقون فيها جعبة ، ويطلقون النار فى تلك الاوراق ويمصون دخانها. فقال : ذاك الويل حرام لا يتناوله الا الجاهلون !.. » (43) .

وسأل البوسعيدى أيضا شيخه عبد الله بن على ابن طاهر الحسنى عن التبغ ، وسمعه مرتين أخريين يسأل عنه وهو على كرسى التفسير بمراكش، فكان يجيب بما يشعر التحريم دون أن يصرح به باعتباره سما لما نص عليه الاطباء من أن الادخنة كلها مضرة ، وقال لا تجوز شهادة من يستعمل الدخان ولا امامته . « وكان — رحمه الله — يحكى لنا فيه حكاية عن بعض الاولياء.. لصحتها عنده فكانت السبب فى ميله الى التحريم ، ولم يلحظ قاعدة أصولية مع أنه ماهر فى فن الاصول ، مستوف فيه حق الموصول .. » (44) .

تقول الحكاية المشار اليها أن أعمى بتافيلالت كان ملازما للدخـــان فاستبطأ يوما تناوله لتغيب صاحبه الذى يعده له ، فرأى الولى الشيطـــان يملأ الدواة تبغا ويوقدها ، والاعمى يسف بشغف حتى اذا انتهى قال انه لم يدخن بلذة مثل ذلك اليوم !

والعجيب أن يلجأ ابن طاهر ، وهو المعروف بانكار كرامات الاوليـــاء والمبالغة فى الرد على المتصوفين ، الى الاحتجاج بمثل هذه الحكاية بدلا من القواعد الاصولية التى هى ميدانه !!

---

42) وقف على هذا الكتاب مؤلف **فهرس الفهارس** فى نحو مجلد ( 1 : 179 ) . ويوجد الفصل الخاص بالدخان من **بذل المناصحه** ، فى **مجموع الدخان** ، ورقة 46 ظ — 56 و .

43) **مجموع الدخان** ، 47 و .

44) المصدر السابق ، 47 ظ .

وناظر البوسعيدى فى مسالة التدخين يوما شيخه عبد الواحد ابن عاشر ، وكان مثل العربى الفاسى (45) يميل الى القول بالاباحة الاصلية ولا يجزم بها ، محاولا اقحامها فى القسم الرابع من أقسام الحرام المنصوص عليها فى كتب المالكية ، وهو ما ليس فيه منفعة :

« فعرضتها على الشيخ .. فقال لى : من يسلم أنه لا فائدة فيه ؟ فيلزمنا هذا التحريم اذا سلم أنه لا فائدة فيه ، ويلزمنا الحلية اذا قامت بينة صدق أن الفائدة فيه . فتكون المسألة حينئذ خارجة عن عمل الفقيه ووظيفته ، لانه لا يلزمه فى فقهه معرفة خواص الاشياء ولا ما أودع فيها من المنافع والادواء، وهذا سبب اختلافهم ! .. » (46) .

ورغم تشبث البوسعيدى بالقول بتحريم التدخين ، وتقصيه الادلة المرجحة له ، فانه انتهى الى خاتمة معتدلة متحرية استمدها من استشاراته وتأملاته :

« فيجب حينئذ على الامام وكل وال ... أن يجمع أهل التجارب ومن حكمه ممارسة المنافع والمضار مباشرة وامتحان خواص الاشياء مناولة ومسايرة من النبات والمعدن ، من العلماء والاطباء الاذكياء من أهل القرآن ومن أهل الكتابين اذا كانوا يصدقون ، فيسألهم عن هذا الدخان ، فان اتفق نظرهم على أن فيه فائدة مهمة عامة لجميع الاشخاص فى جميع الاوقات ... واذا تواطأ رأى المخبرين فى الدخان بعدم المنفعة فحينئذ يحكم الفقيه بالتحريم فمن يشير بعد ذلك الى الاباحة فذلك من عدم الانصاف .. واذا اجتمع رأى الملأ المذكور على وجود الفائدة فيه حكم الفقيه بالحيلة .. فيجتهد الحاكم اذا ثبت الحكم الاول بما يرى لازالته ــ الدخان ــ بالضرب والسجن » (47) .

---

45) أعجب ابن عاشر كثيرا بكتاب سهم الاصابة لما وصل الى فاس ومؤلفه يومئذ فى تطوان ، وقال : « الناس يدورون على العلم ، والعلم يدور على العربى الفاسى » . انظر م. الافرانى صفــــوة ، 71 .

46) نفس المصدر ، 51 و .

47) المصدر السابق ، 54 و ــ 55 و .

3 — عبد الرحمن التمنارتى التى تعرض فى غير ما موضع من كتابه **الفوائد الجمة** (48) لمشكل التدخين ، واورد مجموعة من فتاويه وفتاوى معاصريه من فقهاء سوس ودرعة والسودان (49) غير أن التمنارتى بعكس المؤلفين المتقدمين ، كان متشددا فى القول بالتحريم ، غير متحرج من الاستدلال بالاحاديث المعلولة والنصوص الفقهية المحتملة ، وتطبيق ذلك على النازلة التى يتحدث عنها دونما تثبت أو تمحيص .

وتتلخص علل تحريم التبغ عنده فى الاستقذار الذى من ضمنه الخبث ، والاضرار الذى منه الاسكار ، وسد الذرائع :

« .. فثبت بذلك كله كونه خبيثا مؤذيا مستقذرا . واذا ثبت كونه كذلك حكمنا بتحريمه لقيام علة التحريم . والظاهر عموم قوله : — ويحرم عليهم الخبائث — بعد قوله : — ويحل لهم الطيبات — (50) ... وقد لقيت ببلدنا حين وردته اعرابيا له سمت لكنه عامى ، فسألته هل كان يشربها ، فقال لى : معاذ الله ! دخان فى مزمار ، ونار فى غار ! والعرب لنصاعة أفهامها وذكاء فطنتها يكثر عثورها على الصواب فى الاشياء ببداهتها .. وقد أخبرنى رجل اعرف دينه وصدقه أنه شربها مرة فأسكرته فلم يعد اليها . فينبغى أيضا بمقتضى هذه العلة تحريمها » (51) .

هذه العلل الواهية التى استند اليها التمنارتى فى حكمه لم تغير من واقع المشكل شيئا بالطبع ، غير انها تبين موقف السلطة التى ظل يمثلها فى سوس زهاء أربعين سنة بوصفه قاضى الجماعة فى المحمدية ، وتشرح من جهة أخرى سبب ندرة عادة التدخين فى سوس بالنسبة للاقاليم الصحراوية المجاورة لـه .

❖

هكذا شغل رجال الفكر فى المغرب بمسألة التدخين عقودا عديدة من السنين باعتبارها مشكلا دينيا واجتماعيا وسياسيا ، والفوا فيها نحو ثلاثين كتابا (52) فضلا عن عشرات الفتاوى والاجوبة والمناظرات ، فنصحوا وفتحوا عيونا وعقولا ولو انهم لم يتمكنوا من ايقاف تيار التدخين الجارف .

---

(48) انظر ما تسبق ، ص 28 ، وهامش 75 و .
(49) انظر ما عند ع. المتمنارتى ، **فوائد** ، 300 — 311 .
(50) الاشارة الى الآية 157 من سورة الاعراف 7 .
(51) ع. التمنارتى ، **فوائد** ، 305 .
(52) انظر **مجموع الدخان** ، 33 .

# الفصل الرابع

## اليهود والاسلاميون

تواجد اليهود فى المغرب طوال العصر الاسلامى وتكاثر عددهم بعد انهيار مملكة غرناطة ، اذ كانت محاكم التفتيش الاسبانية تضطهد اليهود كما تضطهد المسلمين باعتبارهم جميعا مارقين من الديانة الكاثوليكية . بل اعتبرت تلك المحاكم اليهود المتنصرين منافقين انتهازيين شرا على البلاد من اليهود الباقين على يهوديتهم ، فلاحقوهم بأنواع التضييق والتعذيب واحرقوا الآلاف منهم . لذلك كانت موجات الهجرات من الاندلس تقذف خلال القرنين التاسع والعاشر / الخامس عشر والسادس عشر بمجموعات من المسلمين واليهود الى الضفة الجنوبية من حوض البحر المتوسط ، فاستقر عدد غير قليل من اليهود ببلاد المغرب ، ونزع آخرون الى دول أوربية بروتستانية ، كانجلترا والبلاد المنخفضة .

انتشر اليهود فى مدن المغرب وقراه على عهد السعديين ، من أقصى الشمال الى تخوم الصحراء (1) ، واستوطنوا بالخصوص المراكز التجارية التى تمر منها أو تنتهى اليها قوافل الذهب الرابطة بين شمال افريقيا

---

1) يدل على انتشار اليهود فى الشمال ما ذكره عبد الله الهبطى فى **الالفية السنية** من تحذير الريفيين من اختلاط نسائهم بتجار اليهود المتكاثرين فى الريف ، واورد الحسن اليوسى فى **المحاضرات** ( ص. 75 ) أن بعض جند المنصور قدموا من السودان وقاسوا شدائد الفيافى والقفار ، فلما لحقوا باحدى القرى السوسية خرج منها نفر من اليهود ، فحين بصر بهم جندى صاح قائلا : « مرحبا بوجوه الخير ! » اعتبارا للنعمة التى لا تفارقهم باقامتهم فى الحاضرة موطن الخصب والرفاهية . وما تزال حتى اليوم تعرف قرى اليهود فى لكتاوة بأسفل درعة كتصرى بنى صبيح وبنى حيون .

والسودان . اشتغل اليهود بالتجارة وصياغة الحلى وضرب النقود ، ولعبوا ادوارا مهمة كوسطاء فى تجارة السكر ، اذ كانوا على اتصال بكبار التجار وارباب السفن والشركات الاوربية التى تتعامل مع المغرب آنذاك ، وبخاصة ابناء ملتهم المقيمين باوربا (2) .

ردد العهد الاول لنشوء دولة السعديين صدى حملة واسعة ضد اليهود قام بها الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلى(3) فى مطلع القرن العاشر/السادس عشر .

فقد استنكر سيطرة اليهود على الاقتصاد ، وما خولهم ذلك من شفوف ودالة على رجال السلطة ، واستخفاف بالاحكام الشرعية واحتقار لفقراء المسلمين . وراى المغيلى ان اليهود نقضوا بذلك عهد الذمة المبنى اساسا على الخضوع المطلق لسلطة المسلمين مقابل حمايتهم والسماح لهم بالعيش بين اظهرهم . والف فى ذلك كتاب **ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار** (4) ، شرح فى الفصل الاول منه ما يجب على كل مسلم ومسلمة من مجافاة اليهود قائلا :

« والحاصل أنه لا يقرب كافرا — يهوديا — من نفسه او عياله او يستعمله فى أعماله ، أو يجعل بيده شيئا من ماله ، الا من لا دين له ، ولا عقل ولا مروءة .. » (5) ثم أخذ يفصل القول فى وجه انتفاء هذه الامور الثلاثة التى ذكرها عن المتعاملين مع اليهود .

وبين فى الفصل الثانى ما يجب على أهل الذمة من الجزية والصغار ، منبها الى ضرورة منعهم من احداث الكنائس ، وهى مسألة كانت مثار نزاع كبير فى الصحراء آنذاك ، بقوله :

---

2) انظر هـ. دوكاستر ، **مصادر غير منشورة** ، السلسلة الاولى ، وبخاصة انجلترا والبلاد المنخفضة ، فى مواضع متعددة .

3 — وقع اضطراب فى كتب التراجم حول المغيلى وتاريخ وفاته ، فنسبه بعضهم الى تلمسان وذكره بعضهم فى فاس وان اتفقوا على انه كان رحالة وقضى شطرا مهما من حياته بتوات ، وفيها توفى عام 909 او 910 او حوالى 930 / 1503 — 1505 — 1523 . والجدير بالاشارة ان مغيلة من البرابرة البتر ، كانت منهم فرقتان : احداهما فى المغرب الاوسط بقرب مصب نهر شلف شمالى مستغانم ، وقد انقرضت منذ عهد ابن خلدون . وبقيت الفرقة الاخرى بالمغرب الاقصى فى ضواحى فاس . والمغيليون من الاسر العلمية القديمة بسلا وما تزال بقية منهم فيها حتى اليوم. ( انظر م. ابن عتكر ، **دوحة** ، 95 — 97 ، أ. بابا ، **نيل**، 300 332 ، ع. نويهض ، **اعلام الجزائر** ، 157 والمراجع المذكورة هناك

4) طبع مرتين على الحجر بفاس بدون تاريخ .

5) م. المغيلى **مصباح الارواح** 30 .

« .. لا يمكنون من احداث كنيسة فى شىء من بلاد المسلمـــين ، وان اعطوا على ذلك ملء الارض ذهبا .. ولا يستدل فى هذا الزمن الكثير الشر بعمل الامصار ، وسكوت العلماء الاخيار ، لان الامر اليوم ومن قبله بكثير بيد ارباب الهوى ، لابيد ارباب التقوى .. » (6) .

وتعرض الفصل الثالث الى « ما عليه يهود هذا الزمان ، فى اكثـــر الاوطان ، من الجور والطغيان ، والتمرد على الاحكام الشرعية بتولية ارباب الشوكة وخدمة السلطان ، كيهود توات وتيكورارين وتفيلالت وكثير مـــن الاوطان بافريقية وتلمسان . وقد حلت دماؤهم وأموالهم وأولادهم ونساؤهم ولاذمة لهم . . . اختلف العلماء فى نقض عهدهم وقتلهم وسبيهم اذا اخلوا بواحد — مما يجب عليهم — ، فكيـــف بيهود لم يأتوا ولو بواحدة ، بـــل وتمردوا على الاحكام الشرعية بالبلاد السائبة ، والتعلق بأرباب الشوكة والتعصب بأموالهم على من يتسبب من العلماء فى اذلالهم . فهؤلاء ونحوهم لا خلاف فى نقض عهدهم وقتلهم وسبيهم . . . » (7)

عارض معظم الفقهاء فى أقطار المغرب الثلاثة راى المغيلـــى وردوا على كتابه بردود (8) اتسم بعضها بالعنف والتجريح ، واعتبر رد الامام ابن غازى معتدلا ، لخصه فى جمل مسجعه سجلها على ظهر كتاب المغيلـــى : « هذا كتاب جليل ، صدر عن نص عليل ، وعلم بالصواب كفيل ، وصاحبه غريب فى هذا الجيل ، بيد انه أطلق الكفر على التضليل » (9) .

ويعنى ابن غازى بالتضليل ما استنتجه المغيلى من الآية الكريمة : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فانه منهم » (10) فقال ان من يتعامل مع اليهـــود والنصارى فهو كافر مثلهم .

وقد عمل المغيلى على أن يناظر علماء فاس فى مسألة اليهود ليقنعهم برأيه المتشدد مشافهة بعد أن لم يقنعهم كتابه . فجاءهم من توات ومعه مماليكه السودانيون الخمسة الذين يقال انهم كانوا جميعا يحفظون **المدونة** . وتلقاه العلماء خارجمدينة فاس بمظاهر الاكرام والاجلال ، غير انه بادرهم هناك بفتح المناظرة طالبا من أحد مماليكه الفقيه ميمون أن يكلمهم فـــى

---

6) المصدر السابق ، 49 — 51 .
7) نفس المصدر ، 53 — 57 .
8) انظر أ. بابا ، **نيل** ، 331 . أ. الونشريسى ، **معيار** ، 2 : 130 وما بعدها ، م المغيلى، **مصباح الارواح** ، ملاحق ، 69 — 73 .
9) م. ابن عسكر ، **دوحة** ، 96 .
10) الآية 51 من سورة المائدة 5 .

« نازلة اليهود » ، فانف الفاسيون من الكلام مع المملوك ورجعوا الى ديارهم مغاضبين .

ثم لم تنتج ملاقاة المغيلى بعد ذلك لسلطان فاس محمد الشيخ الوطاسى ( ت 1505/910 ) بسبب الفقهاء الذين حذروه منه . نعم كان لدعوة المغيلى المتطرفة صدى واسع فى الصحراء والسودان ، فوقع التضييق على اليهود ومنعوا من الاقامة فى بعض الجهات (11) .

واذا كان تمركز نفوذ السعديين قضى عمليا على جميع النزعات الداعية الى اثارة الفتن وسفك الدماء مهما حسنت نية أصحابها ، فان بعض افكار المغيلى ظل صداها يتردد فى أرجاء المغرب طوال العهد السعدى . وكان أبو القاسم ابن خجو فى الريف ، وعبد الله بن على ابن طاهر الحسنى فى تفيلالت وغيرهما من العلماء يرون فى اليهود رأى المغيلى (12) .

واشتهر من الاسر اليهودية الثرية فى العهد السعدى آل بار يانط فى الشمال ، وبالاش فى الجنوب ، فكان منهم سفراء السعديين الى أوربا وممثلوهم فى الصفقات التجارية الكبرى (13) . وتمتع اليهود الى جانب الحرية التجارية بحرية دينية جعلتهم يقيمون شعائرهم وطقوسهم فى أمان داخل البلاد ، ويتصلون بأبناء ملتهم المقيمين فى الخارج . وقد حملت اليهم مرة باخرة انجليزية فى جملة ما حملت من بضائع ستة وعشرين صندوقا مملوءة بنسخ التوراة (14) . وعرف عن أحمد المنصور أنه كان يفدى أسرى المسلمين واليهود من رعاياه بالمال أو بالمبادلة بالمسيحيين أسرى معركة وادى المخازن . ومن بين اليهود الذين حررهم يهودى كان أسيرا عند القراصنة الرهبان فرسان رودس بجزيرة مالطة (15) .

ومما انتقد على احمد المنصور سماحه لليهود بالاتصال ببلاطة . وعندما زاره عبد الله بن على ابن طاهر صحبة الشيخ أحمد المنجور ، ورأى يهوديا

---

(11) انظر م. ابن عسكر ، **دوحة** ، 96 .

(12) المصدر السابق ، 97 .

(13) انظر ه. دوكاستر ، **مصادر غير منشورة** ، فرنسا ، انجلترا ، البلاد المنخفضة ، السلسلة الاولى ، مواضع متفرقة . مثلا فرنسا ، 3 : 309 ، 5 : 128 .

(14) المصدر السابق ، انجلترا ، السلسلة الاولى ، 1 : 44 .

(15) انظر ا. ابن القاضى ، **المنتقى** ، 60 — 61 .

يركب فى موكب فخم الى القصر الملكى ، غضب غضبا شديدا وما زال يسعى فى قتله لدى المنصور حتى اقنعه (16) .

وانتقد على ولى العهد محمد المامون الشيخ — اثناء نيابته عن ابيه احمد المنصور بفاس — اختلاطه بالسفهاء والارذال ، ومن بينهم اليهود الذين كانت لهم عليه شبه دالة . واشتهر فى عهده أمر اليهودى الساحر ابراهام الذى كان يستطيع فتح جميع الاقفال دون حاجة الى مفتاح ، وطالما سرق ونجا من اشد العقوبات الصادرة ضده . وبلغت به الجراة أن سرق دار القاضى عبد الواحد الحميدى ، فطلب القاضى من المأمون أن يعاقبه بما يستحق فلم يعره اى اهتمام . ولم يتخلص الناس من شر هذا اليهودى السارق الا على يد قائد فاس يحيى الذى قام خلال عام 1593/1001 بحملة تفتيش امـــر على اثرها بشنـــق ابراهام وهو يصرخ كعادته باعتناقـــه الاســـلام (17) .

ومن الشروط التى اشترطها يحيى الحاحى على زيدان بن أحمد المنصور واتسم هذا الاخير على الوفاء بها — فيما قيل — ألا يسمح بعد لليهود بركوب الخيل فى مملكته باستثناء عدد قليل منهم (18) . وهذا يدل على كثرة اليهـــود المتصلين بزيدان ، وكان يستخدمهم فى مسائل التجارة مع الخارج .

غير انه لما انحلت دولة السعديين وعاد اليهود الى تجبرهم واستخفافهم بالاحكام الشرعية محتمين بالمتسلطين على السلطة فى كل مكان ظهرت من جديد فكرة معادة اليهود ومحاربتهم ، وكتب الفقهاء فتاوى ضدهم فى سوس ومراكش والدلاء .

احتد الخلاف بين فقهاء سوس عندما سمح الامير أبو حسون السملالى لليهود ببناء كنيسة فى فناء الحى الذى خصه لهم فى مدينته الجديدة ايليغ . واتخاذ مقبرة خارجها لبعد مقبرة اليهود القديمة بافران (19) . وقد دافـــع الفقهاء الموالون للامير ما استطاعوا تبريرا لعمله الذى أثار امتعاضا لدى السكان ، لكن حجج خصومهم كانت أقوى وعزائمهم أشد .

---

16) انظر ع. المدغرى ، **فتح القدوس** ، الباب الثانى .

17) انظر م. الافرانى نزهة ، 161 ، ج. فاجدا ، **مجموع نصوص** ، 7 : 17 — 18 .

18) انظر ج. كوتينهو ، **مازاكان** ، 40 .

19) الاشارة الى افران الاطلس الصغير جنوبى ايليغ ، لا افران الشهير بالاطلس المتوسط .

اقترح ابو حسون أن يحتكم المتجادلون الى كبير فقهاء سوس عيسى السكتانى ، وهو يومئذ مفتى مراكش ، فكتبوا اليه سؤالا (20) مطولا جاء فيـــــه :

« . . فنزلها — ايليغ — برســـم الاستيطان أو شـــاب مـــن أهـــل الذمة ، باذن مختطها الامام العالى الهمة ، فاختطوا بها عن أذنه منازلهم ، وبنوا بفنائها كنيستهم وصيروها متعبدهم . . فأفتى بعضهم بوجوب هدمها لانها محدثة ببلاد الاسلام ، ولما فى تركها مـــن المفاســـد العظـــام . . وافتى فريق بجواز ابقائها ، وانه لا ينبغى تقويض بنائها ، ولا التعـــرض لهم فى احداثها ، اذ على مثل هذا من دينهم الفاسد أقروا وأعطوا الذمة ، فاعطوا الجزية صاغرين . ولم يرد منع اجتماع دينين الا فى جزيرة العرب . وكم من بلد اسلامى محدث مشحون بالعلماء أحدثت فيه ولم يقولوا بمنعه . وتواطؤهم على تركها كالنص والدليل على جواز احداثها وابقائها بعده . واستمر الحجاج ، وكثر اللجاج ، ولم يقتنع كل فريق بما أبداه الآخر من الاحتجاج . . » (21) .

وجاءت فتوى عيسى السكتانى قاضية بمنع احداث متعبد اليهود فى ايليغ باعتبارها بلدا اسلاميا حديثا كما نص على ذلك فقهاء المالكيـــة . وتعرضت الفتوى الى شىء آخر لم يرد صريحا فى السؤال ، وهو صحـــة تملك اليهود أرض الكنيسة التى يبدو أن الامير أبا حسون كان قد أعطاهم اياها ، وجواز تصرفهم فى منافعها الا اذا كان شرط بناء الكنيسة داخـــلا فى العقد فتبطل العطية من الاساس . ويقال أن أبا حسون أمر بهدم بيعة اليهود بعد أن اطلع على فتوى السكتانى .

⁂

وتختلف الروايات فى موقف الدلائيين من اليهود ، فلم تتحدث كتب التاريخ العربية عن مضايقة السلطان محمد الحاج الدلائى للجالية اليهودية الكبرى التى سكنت الزاوية الدلائية الحديثة ، حيث لا تزال أحجار قبورهم المكتوبة بالعبرية مبعثرة فى ضاحية زاوية آيت اسحاق حتى اليوم . ولم يتعرض

(20) انظر نص السؤال والجواب كاملين عند أ. الناصرى ، استقصا ، 6 : 79 — 81 .
**ملاحظة :** يوجد فى مقبرة افران هذه اقدم أثر لليهود بالمغرب ، وهو قبر يوسف بن منصور المتوفى فى العام العبرى 3756 الموافق للعام الرابع قبل الميلاد . أنظر مجلة هيسبريس ، 1921 ، ص 325 .

(21) المصدر السابق ، 80 .

ابنه الامير عبد الله الدلائى بسوء لجاليـة اليهود بسلا . غير أن نصـا عبريا (22) معاصرا ذكر ضمن أحداث عام 1646/1056 ، أن السلطـان محمد الحاج الدلائى بعث برجال الى فاس ليهدموا بيع اليهود فيها ، وسهر على تنفيذ ذلك حاكم فاس أبو بكر التملى (23) فتتبعها بالهـدم الواحـدة تلـو الاخـرى .

⁂ ⁂

واختصت مدينة فاس فى العصر الذى ندرسه بظاهرة التعصب ضد حديثى العهد بالاسلام من اليهود وتسميتهم بالمهاجرين (24) على سبيل اللمز والتعيير . بل ان نفرة الفاسيين من اليهود والاسلاميـين قديمة طالمـا تسببت فى اضطرابات وفتن دامية ، وبخاصة على عهد المرينين (25) .

ذلك أن ارستوقراطية أندلسية تركزت فى فاس منذ تأسيس المدينة ، واستأثرت بالجاه والثروة والعلم لا ينافسها فى ذلك الا الشرفاء الاصليون من احفاد ادريس ، كالجوطيين والعمرانيين ، أو الطارئون كالصقليـين والعراقيين والقادريين . يتجلى ذلك فى أن أحدهم اذا انتسب ذكر المدينة الاندلسية التى خرج منها أجداده ان عرفت ، والا اكتفى بذكر عموم الاندلس، ففلان غرناطى ، وفلان اشبيلى أو مالقى ، وفلان أندلسى (37) .

وقد أنكر جماعة من العلماء الفاسيين من أصل غير أندلسى هـذا الانتخار الاعمى بالفردوس المفقود ، ونسبوا أصحابه الى التعصب والجهل بالتاريخ والانساب ، لانهم ظنوا أن الاندلس لم يسكنها غير الاوس والخزرج من الانصار ، وما دروا أن الحملات والهجرات الاسلامية الى الاندلس تعددت وشملت أخلاطا من الاعراب والبربر ، بالاضافة الى القوط والصقالبة واليهود وغيرهم ممن اعتنقوا الاسلام وامتزجوا امتزاجا كاملا بالمسلمين .

ظهر تعصب الارستوقراطية الفاسية لذلك العهد فى وسطين ، وسط العلماء ووسط التجار . فالعلماء الذين عرف أصلهم اليهودى ، ولو تعدد

---

22) انظر : ج ، فاجدا ، **مجموع نصوص** ، 21 : 46 — 48 .

23) ظل ابو بكر التملى حاكما لمدينة فاس من قبل الدلائيين عشر سنوات 1051 — 1061 / 1641 — 1951 . انظر كتابنا **الزاوية الدلائية** ، 208.

24) ارادوا بالمهاجرين الطارئين على الاسلام ، بينما الآخرون السابقون أصليون فى الديـن . وسمى الاسلاميون فى فاس أيضا ( البلديين ) . وهى تسمية متأخرة عن العصر السعـدى وما زالت مستعملة حتى اليوم .

25) انظر مثلا ا. ابن القاضى ، **جذوة** ، 28 .

**مـلاحظـــة :**
سقطت هنا الارقام من 26 الى 36 بسبب تغييـر الهوامش ، ونبهنـا عليهـا حتـى لا يظن أن هنا نقصا أو حذفا .

37) انظر م. ميارة ، **نصيحة المغترين** ، 92 و .

اجدادهم المسلمون ، لا يولون المناصب الشرعية السامية ، كالقضاء والفتيا والامامة والخطابة ، مهما علا كعبهم فى ميدان المعرفة واشتهر صلاحهم وورعهم . ومن أمثلة ذلك الائمة الثلاثة ، رضوان الجنوى ، وأحمد المنجور ، ومحمد ميارة .

برز رضوان الجنوى فى الفقه والحديث ، واشتهر بالورع والصلاح ، حتى كثر اتباعه والفت الكتب فى مناقبه ، ومع ذلك لم يتول قضاء ولا فتوى، اذ كان أبوه مسيحيا وامه يهودية اسلما ، وقيل عنه دائما انه « خرج من بين فرث ودم » (38) .

واحمد المنجور الذى انتهت اليه رآسة العلوم العقلية والنقلية بفاس ، لم يطمع قط فى غير تولى كراسى التدريس بالقرويين ، على ما كان له من شفوف فى الدولة . بل ان أحمد المنصور قدمه يوما للصلاة ، فلما أراد أن يدخل المحراب منعه القاضى الحميدى . فقال له السلطان : « دعه فقد قدمه علمه » . فقال الحميدى : « ان قدمه علمه فقد أخره نسبه » (39) . ومحمد ميارة مالك عصره المتفرد بمعرفة أصول المذهب وفروعه ، لم يكن له من وسيلة للعيش سوى حلى يكريه للنساء فى الاعراس (40) .

⁂

أما التجار فقد تحزبوا ضد الاسلاميين ومنعوهم من دخول الاسواق الكبرى حتى لا يزاحموهم فى الاتجار بها . ووقع بسبب ذلك هرج ومرج ، فسلت السيوف وسالت أقلام المفتين والعدول ، وتكرر ذلك بصورة حادة ثلاث مرات .

أ — حمى وطيس الخلاف بين الفريقين خلال عام 27/934 — 1528 عندما حاول اسلامى يدعى أحمد بن ابراهيم ابن يحيى المكناسى أن يعتمر حانوتا يبيع فيها الثياب فى القبة الكبرى بقيسارية فاس ، فاعترض التجار سبيله ورفعوا أمرهم الى الامير أحمد الوطاسى ( 932 — 1526/956 — 1549 ) محتجين بشهادة لفيفية جاء فيها :

38) الآية 66 من سورة النحل 16 .
39) انظر م. الافرانى ، نزهة ، 155 .
40) انظر م. الافرانى ، صفوة ، 140 .

« يشهد من يتسمى عقب تاريخه من أهل فاس . . بمعرفة قبة قيسارية المدينة المذكورة ــ كلاها الله وحفظها ــ ويشهدون انهم منذ عرفـوا بعقولهم ، وميزوا باذهانهم ، أن القبة المذكورة لم تزل تلحظ بعين الوقار ، وتنزه حتى من دخول الملاهى والمزمار ، لا يعمرها الا أهل الفضل والديانة ، ممن تحفظ عندهم الوديعة وتؤتمن عندهم الامانة . وكذلك سمع شهوده عن آبائهم ، وآباؤهم عن اسلافهم ، أن المهاجرين من المسلمين ممنوعون من اعتمارها بطول الايام ، وتقادم الشهور والاعوام ، وأن من تقـدم او تأخر من ملوك الاسلام ــ قدس الله أرواحهم ــ لم يبيحوا لهم أن يعمروها ولم يسمحوا لهم فى ذلك بوجه ولا بحال ، مستمرين على ذلك خلف عن سلف حتى الآن ، لم يخرق أحد من الملوك ولا من العلماء المتقدمين والمتاخرين على سكانها بدخول المهاجرين فيها عادة ، ولا احداث نقص فى ذلك ولا زيادة ، صونا للقبة المذكورة عن الغش والخيانة ، بأن يعمرها من لا مروءة لـه ولا ديانـة . . أواخر شهـر اللـه المحرم فاتح عام أربعة وثلاثيـن وتسعمائة » (41) .

كلف أحمد الوطاسى وزيره محمد المسعود بتتبع هذه القضية والفصل فيها بعد ان وجه نسخا من الشهادة اللفيفية الى علماء فاس ومكناس وغيرهما يستفتيهم فى النازلة . وقد تلقـى الوطاسيون سبعـة عشر جوابا (42) ، اثنا عشر منها لفقهاء فاس ، وثلاثة لفقهاء مكناس ، وجواب من قبيلة تسول شمالى فاس ، وآخر من الجزائر .

تصدر أجوبة الفاسيين فتوى الفقيه أحمد بن محمد الحباك ( ت 938/ 1531 ) وهى تبطل مزاعم التجار اعتمادا على صريح القرآن والحديث ، وجاء فى آخرها :

« . . فان كانوا منعوهم لاعتقادهم أن فيهم نقصا وانهم ليسوا كسائر المسلمين فهذا مخالف لما كان عليه الصحابة ، فكثير من اليهود أسلموا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما استنقصوهم ولا احتقروهم ، منهم عبد الله بن سلام ، فانه كان من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك غيره ممن حسن اسلامه وصلحت سيرته . وقد قـال الله تعالى :

---

41) م.ميارة ، **نصيحة المغترين** ، 77 ظ .
42) نقلها من خطوط أصحابها محمد ميارة مع نص شهادة اللفيف وسؤالين ومرسومين بتنفيـذ الحكم فى كتابة **نصيحة المغترين** ، 73 و ــ 82 ظ .

( يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا . ان اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير (43) ) .

وان كانوا يعتقدون أنهم يضيقون عليهم فى رزقهم ، فالارزاق بيد الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء . . » (44)

بعدها فتوى قاضى الجماعة بفاس ومفتيها عبد الواحد الونشريسى بالتأكيد لما جاء فى فتوى الحباك ، الا أنه أثار نقطة فقهية هامة تتعلق بالغش الوارد فى شهادة اللفيف ، ودور أمين السوق فى محاربته :

« . . والمسلمون كلهم مهاجرهم وغير مهاجرهم محمولون على السلامة فى معاملاتهم . ومن تبين فيه غش أو ادخال فساد فى الاسواق فأمين السوق الناظر فى مصالحها يؤدبه ويخرجه من السوق اذا لم يرتفع ضرره الا بذلك . والمهاجر وغيره فى ذلك سواء . . » (45)

وتأتى بعد ذلك فتاوى الائمة محمد اليسيتني، وعلى بن هرون المطغرى ، وعبد الوهاب الزقاق، ومحمد بن جيدة الوهرانى وغيرهم ، كلها مؤيدة للفتويين السابقتين ، مؤكدة حكم الاسلام بالمساواة بين جميع معتنقيه السابقين منهم واللاحقين .

وتصدر أجوبة المكناسيين فتوى الفقيه الخطيب أبى على حرزوز ، وهى تشتمل على ثلاثة اقسام . ذكر فى الاول انه امتثل أمر الوزير محمد المسعود فجمع فقهاء المدينة وتباحثوا فى قضية سوق البز بفاس وقلبوا وجوه النظر فيها ، فتبين لهم بطلان دعوى التجار وفساد شهادة اللفيف . وأورد بعد ذلك جملة من الآيات والاحاديث القاضية بمنع التفريق بين المسلمين ، كحديث خطبة الوداع الشهير : « يا أيها الناس . ان ربكم
المسلمين ، حديث خطبة الوداع الشهير : « يا أيها الناس . ان ربكم
واحد ، وان أباكم واحد . الا لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر الا التقوى . ان اكرمكم عند الله أتقاكم . الا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال فليبلغ الشاهد الغائب » (46) .

---

43) الآية 13 من سورة الحجرات 49 .
44) م. ميارة ، نصيحة المغترين ، 75 – ظ .
45) المصدر السابق ، 75 ظ – 76 و .
46) نفس المصدر ، 78 ظ .

وتطرق حرزوز فى القسم الاخير من الفتوى الى نقض دعوى تجار ناس عن طريق المقارنة مع حال الاسلاميين فى مدينة مكناس ، وهم — بحسب الفتوى — من احسن الناس اسلاما وأكثرهم أمانة واستقامة :

« . . . فالذى شاهدناه من اخواننا هؤلاء وعلمناه المسارعة الـى الطاعات ، وامتثال المأمورات ، والمبادرة الى أنواع القربـات ، مـن الصلاة والحج والصدقات ، وفيهم جماعة من حماة الاسلام ، يناضلون عن دين النبى عليه الصلاة والسلام ، ويبذلون أموالهم وأنفسهم فى رضـى الملك العلام . فكيف يسوغ لموثق هذه الوثيقة الشنيعة ، والمكذوبـة البشيعة ، أن ينسب اخواننا فى دين الله الى الغش والخديعة ؟ ! . . . » (47)

بعد هذه الفتوى تأتى أخريان لعبد الرحمان الوقاد ، وعبد الله ابن العافية ، مؤكدتان ما قاله الخطيب حرزوز ، وموجهتان أيضا الى الوزير المسعود . وايدت كذلك فتوى احمد التسولى كل ما جاء فى فتاوى علمـاء فاس ومكناس جملة وتفصيلا .

أما عالم الجزائر محمد بن على الخروبى فذكر فى مقدمة جوابه ما يشعر بوجود فتاو كانت تقول بمنع الاسلاميين من الاختلاط بالتجـار القدامى فى الاسواق ، الا أننا لم نطلع عليها . وبنى رده على ثلاثة أوجه :

الاول : انهم أحدثوا فى الدين ما ليس فيه ، وخالفوا النبى واصحابه فى حسن معاملتهم لمن أسلم من اليهود ؛ واشار بعد ذلك بروح صوفية الى ذم الحسد والاثرة الظاهرين فى موقف التجار الفاسيين بقوله : « . . . والدنيا وامتعتها أحقر من أن نغضب مومنا من اجلها ، أو نرغب فيها عنه » (48) .

وحمل فى الثانى مسؤولية المخالفة للعلماء الذى قصروا فى واجبهم نحو العامة فتركوهم فى غوايتهم أو ما لؤوهم عليها : « . . . ولا لوم على العوام فيما صنعوا من المنع ، وخالفوا من أمور الشرع . والعذر لهـم بجهلهم الامور الشرعية . وانما اللوم على من وافقهم من الفقهاء علـى تحسين آرائهم وانفاذ شهواتهم . وقد كان العلماء فى غير زماننا هذا يردون الشارد ويعلمون الجاهل ويهدون الضال ، فاذا بهم فى زمننا هذا يوافقونهم فى مراداتهم ، ويفتونهم على وفق عاداتهم . . . » (49)

47) م. ميارة ، **نصيحة المغترين** ، 79 و .
48) المصدر السابق ، 73 ظ .
49) نفس المصدر ، 74 و .

منها بالبداهة بطلان ما ذهب اليه التجار من احتكار الاسواق :

واتى الخروبى فى الوجه الثالث باستنتاجات ومقارنات يدرك المرء

« لو صنعنا هذا بكل من دخل فى ديننا لاخرجنا من أسواقنا نفرا كثيرا واخرج آباؤنا من قبلنا ثم نحن من بعدهم ويتسلسل الامر . واينا لم يكن له آباء حديثو عهد باسلام ؟ ! ومع هذا كله اذا كان الداخل فى ديننا لم يمنع من الدخول فى أسواق الآخرة التى هى المساجد والاماكن المشرفة حتى روضته صلى الله عليه وسلم التى هى اشرف البقاع ، فكيف يمنع من اسواق الدنيا وتجارات البوار ؟ ! » (50) .

اقتنع حكام فاس براى هؤلاء الفقهاء ، وقضوا بالسماح للاسلاميين بالدخول الى جميع الاسواق كسائر المسلمين ، وصدر بذلك مرسوم وزيرى جاء فيه :

« . . . من وقف على مكتوبنا هذا فليعلم أنا أمضينا الامر على ما افتى به ساداتنا وعلماء ملتنا ومصابيح ديننا ، اعلاه ويمنته وبمحوله ، امضاء تاما يستمر حكمه على الدوام ، وتعاقب الازمنة والاعوام ، ولا سبيل لاحد من الخاصة والعوام ، أن يتعرض لما افتى به علماء الاسلام . كتب هذا سلك شهور سنة اربع وثلاثين وتسعمائة » (51) .

⁂

ب — تجدد اعتراض تجار فاس على دخول الاسلاميين معهم الى الاسواق فى مطلع القرن الحادى عشر / السادس عشر، غير أن أمير فاس آنذاك ولى العهد محمد المأمون الشيخ لم يسلك سبيل الوطاسيين فى استفتاء الفقهاء ، وانما اكتفى براى من يعمل فى بلاطه منهم ، فأصدر ظهيرا مؤرخا بشهر جمادى عام 1010/نونبر — دجنبر 1601 ، جاء فيه :

. . . محمد المسعود — اصلح الله حاله — فى أواخر صفر المتسق فى

« . . . كتابنا الكريم هذا — أسماه الله تعالى — نعهد به لكافة التجار أهل حضرتنا فاس — حرسها الله تعالى — معتمرى حوانيت القبة الكبرى من قيسريتها ، والقبة الصغرى ، والسماط وما بها من الروائغ والجهات ، ومن يتعاطى الحياكة ونسج البز وثياب الحرير ، والمتسببين فى اصناف السلع وأنواع التجارات ، أن تكون فعالهم على مناهج الشريعة سالكة

---

50) نفس المصدر فى نفس الورقة .
51) المصدر السابق ، 81 ظ .

ولغير فروض الحق رافضة وتاركة . . . ويتركوا التفاخر بالانساب ، ونبز من قرب دخوله او بعد فى دين الملك الوهاب ، فلا فارق فى الدين ، ولا فرق بين المسلمين . انتم بنو آدم وآدم من تراب ، والاسلام يجب ما قبله . . فمن ابتغى غير هذا ، او مال للطعن بهذا عربى وهذا عجمى ، او ذا حنفى وذا اسلامى ، واراد اتباع العوائد الخارجة عن المعتاد ، المؤدية الـــى الفرقة والفساد ، فقد اشتغل بالغى والعناد ، وحاد عن سبيل الهدى والرشاد واخطأ الصواب وما أفاد ولا اجاد . فأسواق المسلمين شىء واحد ، لا يختص ببعضها واحد دون واحد . . . فعلى هذا العمل بحول اللـــه وقوته ، والواقف عليه يقدره قدره ، ويمتثل نهيه وامره » (52) .

⁂

جـ ــ عاد التجار الفاسيون مرة أخرى الى مضايقة الاسلامين ومنعهم من الاتجار فى الاسواق الكبرى خلال عهد الاضطراب الذى اعقب وفاة احمد المنصور . حتى اذا دخلت فاس فى طاعة الدلائيين عام 1641/1051 . اثيرت قضية الاسواق من جديد ، وتزعم حركة مناهضة الاضطهاد والتفرقة محمـــد ميارة ، فاستفتى وافتى ، والف كتابه الشهير : **نصيحة المغترين وكفايـــة المضطرين فى التفريق بين المسلمين** (53) .

حمل ميارة على المتعصبين من الفاسيين الذين احتقروا الاسلاميين ولمزوهم بالمهاجرين ، وقال انهم « لا مروءة لهم ولا حياء ولا دين » . واذا كان قد أورد كل ما تقدم من فتاوى العلماء واحكام الولاة بالتسوية بين جميع المسلمين ، فانه ضرب صفحا عما كتبه الخصوم دعاة التفرقة ، ولـــم يثبت من ذلك سوى شهادة اللفيف المشار اليها قبل .

ينبىء كتاب **نصيحة المغترين** بخطورة الخلاف بين الخصوم فى هـــذه المرحلة ، من حمل السلاح وتحطيم الدكاكين ونهب البضاعة ، حتى التجأ الحاكم ــ ابو بكر التملى ــ الى الفقهاء يستفتيهم ، لكن معظمهم لاذ بالصمت او اجاب بأجوبة مقتضبة لا تخلو من ابهام ، مما يدل على خوفهم ممن دعاهم ميارة « همج العوام ممن يتفاخر بكونه الد الخصام » ، الا محمـــد بـــن

---

(52) المصدر السابق ، 81 ظ ــ 82 ظ .
(53) مخطوط م. م بالرباط ، 7248 . ضمن مجموع ، من ورقة 71 و ــ 123 ظ .

احمد الابار ، فانه اطال فى جوابه ــ ثلاث صفحات ــ مؤكدا حكم الاسلام بالتسوية بين جميع المومنين ، معتمدا على ادلة شرعية لا تخرج عمـا سبقـت الاشارة اليـه .

وعلق محمد ميارة على فتاوى المتقدمين ورسومهم فى اثنين وثلاثين فصلا ، خصص منها ستة ــ من الفصل 14 الى 19 ــ لنقض شهـادة اللفيف المشار اليها عروة كما قال ، مبينا وجوه بطلانها من حيـث معارضتها للقرآن والسنة ، واشتمالها على القذف بالباطل ، والدعوى الى العصبية الجاهلية . وعقد الفصل الخامس والعشرين لشهادة السمـاع وشروطها ، مستنتجا فساد تلك الوثيقة من الوجهة الفقهية . ورد فى الفصل السابع والعشرين على قولهم فى التغبيط بسكنى مدينة فاس : « ان المهاجرين بها محقورون اكثر من غيرها ، والشرفاء معظمون بها أكثر من غيرها » . وشرح فى الفصل الثلاثين لفظ ( مهاجر ) لغة وشرعا وعرفا ، مستدلا على حرمة التعبير بالمهاجر وذم الاعتماد على الحسب بنصوص القرآن والحديث ، وبزواج النبى عليه السلام من صفية بنت حيى من يهود بنى قريظة . ثـم ختم الكتاب بثلاث تنبيهات أجمل فيها القول فى الرد على تعصب العامـة ضد الاسلاميين وقولهم : « لا تأمنهم ولو طال اسلامهم » .

⁂

وبالجملة فان الاسلاميين أو المهاجرين فى العصر السعدى لقوا من عطف اخوانهم فى هذا البلد ما جعلهم يندمجون فى الوسط المغربـى اندماجا كليا ، باستثناء طغمة منحرفة من أهل فاس لم تعدم من يقوم أعوجاجها بالقلم والسيف حتى من بين الفاسيين المتنكرين للعصبية الجاهلية . بل ان اليهود انفسهم تمتعوا فى هذا العصر بشىء غير قليل من الطمأنينة ورغد العيش بين اظهر المسلمين فى الحواضـر والبوادى ، واحتلوا مناصب مهمة فى تسيير شؤون التجارة الخارجية للدولة ، والسفارة لها الى أوربا . ولم يكن وقوف الفقهاء فى وجه بعض مشاريعهم الدينية سوى رد فعل طبيعى عندما تجاوز اليهود حدهم كذميين فى بعض الاحيان .

# الفصل الخامس

✿

## مناظرات

كل الموضوعات التى تطرقنا اليها فى الباب الرابع داخلة فى صنف المناظرات ، لما وقع فيها من حوار وأخذ ورد ، غير أننا أفردنا لها هذا الفصل نظرا لصبغتها الخاصة وللحيز الهائل الذى شغلته فى أوساط المثقفين لذلك العهد . ونود هنا أن نجمل القول فى بقية الموضوعات التى وقع اختيارنا عليها من بين المسائل التى كثر الحديث عنها فى المجالس العامة والخاصة آنذاك ، وألفت الكتب حولها تأييدا أو ردا . ذلك أن تتبع تفاصيل هذه الموضوعات يخرج بنا عن دائرة الاختصار الذى نحرص عليه من جهة ، ويقحمنا فى نطاق اختصاصات معينة لا تتلاءم وموضوعنا العام من جهة ثانية .

وقد اكتفينا بالاشارة الى بعض النماذج من مناظرات كلامية ، واخرى فقهية .

أشرنا فيما سبق الى انتعاش الدراسات الكلامية بالمغرب فى العصر السعدى واقبال المتكلمين المغاربة على التأليف فى هذا الفن . واذا كان مذهب الاشعرى ظل سائدا فى هذه البلاد ، فان دراسات المتكلمين لهذا العهد اتسعت وجعلتهم يطلعون على آراء السنين والبدعيين ويناقشونها معا . ومن ثم اختلفت آراؤهم فى جزئيات بقى بعضها فى نطاق النظريات المجردة والاستدلالات المنطقية الفلسفية ، ودخل البعض الآخر الى ميدان التطبيق فى الحياة العامة وأهم جمهور الامة . من ذلك :

## ا ـ مفهـوم كلمـة الاخـلاص :

ابتدا الخلاف حول كلمة الاخلاص فى المغرب لهذا العهد على اثر ما جاء فى **رسالة ذى الافلاس الى خواص مدينة فاس** (1) التى سبقت الاشارة الى ان محمد الخروبى الجزائرى الفها لما دخل الى المغرب فى أواسط القرن الهجرى العاشر ، مشتملة على مسائل تتعلق بقواعد الاسلام الخمس ، وجاء فيها فيما يتعلق بشهادة لا الـــه الا اللـــه :

« ومن الادب أن لا يتناول نفيك عند النطق بحرف النفى الا ما ادعاه المشركون من الآلهة سوى الله تعالى ، وليكن الحق جل جلاله ثابت ( كذا ) عندك فى حال النفى والاثبات . والى هذا أشار بعض العلماء حيث قال : النفى لمن يستحيل كونه ، والاثبات لمن يستحيل عدمه » . (2)

اعترض المتكلمون فى فاس على هذا الرأى ، ودحضوا مفهوم النفى عند الخروبى بأساليب مختلفة . وكان الشيخ عبد الله الهبطى آنذاك بفاس، جاءها بدعوة من السلطان محمد المهدى الشيخ ، فكتب ردا معتدلا التمس فيه العذر للخروبى قائلا انها « هفوة طغى بها القلم » . ويتلخص اعتراض الهبطى بأن المنفى فى **كلمة** الاخلاص ليس هو الآلهة الباطلة التى يعبدها المشركون ، وانما المنفى الا له الحق المماثل لله تعالى تصورا ذهنيا لا وجودا فى الخارج ، وعلى ذلك يتنزل الاثبات بـــ ( الا ) واقرار الالوهيـــة الحق لله تعالى ، ونفى المثل لله تعالى نفيـــا قطعيا . أما لو افترضنا أن المنفى فى كلمة الاخلاص هو الآلهة الباطلة من أصنام وكواكب ونار وظلمة ونور الخ فيلزم على ذلك الكذب أو الكفر . لاننا اذا اعتبرنا نفى ذواتها ، وهى موجودة فى الخارج ، كان ذلك كذبا ومخالفة للواقع . واذا اعتبرنا نفى صفة استحقاق العبادة عنها ثم أثبتنا ذلك ( بالا ) لله تعالى كان كفرا . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وأحال الهبطى على ما أورده الشيخ محمـــد السنوسى فى **شـــرح صغراه** من قوله : « فان كان المراد بالكلى الذى هو الاله مطلق المعبود لم يصح تسلط النفى عليه ، لما يلزم عليه من الكذب لكثرة المعبودات الباطلة ، وان كان المراد المعبود بحق صـــح » . (3)

---

1) نشير الى اننا لم نقف من هذه الرسالة الا على ما اقتطفه منها م. ابن عسكر فى **الدوحة** ص. 9 ، و ح. اليوسى فى **مشرب العام** ، ص. 70 وما بعدها

2) م. ابن عسكر ، **دوحـــة** ، ص. 9 .

3) ح. اليوسى ، **مشرب العام** ، ص. 94 .

واعترض محمد اليسيتنى كلام الخروبى من أربعة اوجـــه :

**الوجـــه الاول :** انه مخالف لما اتفق عليه النحاة والمتكلمون من أن الاله المراد به الجنس والحقيقة ، ولا يبنى مع لا الا اذا كان كذلك ، وهو كلى ، ولا شىء مما ادعاه المشركون بكلى . اذ ما يدعونه ويعبدونه جزئيات خارجية متشخصـــة .

**الوجـــه الثانى :** انه لو كان كذلك لكان الاستثناء منقطعا ، ولا قائل به ، والاصل فى الاستثنـــاء الاتصـــال .

**الوجـــه الثالـــث :** انه ليس فيما ادعاه كبير ادب ، بـــل الادب ان يشمل النفى كل اله يقدر سوى الله تعالى على قول النحاة ، أو أن يشمل الماهية المطلقة على رأى المتكلمين .

**الوجـــه الرابـــع :** أن هناك تناقضا فيما قاله أولا مع العبارة الاخيرة التى نقلها عن بعضهم ، لان مفهوم ( من يستحيل كونه ) كلى لا يحصر فيما ادعاه المشركون . وهذا هو الحق الذى لا شك فيه . (4)

وكتب عبد الله الهبطى بعد رجوعه الى الريف رسالة مطولة الـــى اليسيتنى ينتقد ما ذهب اليه من شمول النفى كل الـــه يقـــدر ، أو ماهيـــة الالـــه لما يلزم ذلك من كذب أو كفـــر كما تقدم ، وأطال القول فى شـــرح نظريته القاضية بأن النفى انما يتسلط على المثل المقدر غير الموجـــود لا على ما يعبده المشركون مما هو موجود ، بل صرح بأن هذه المعبودات الباطلة مسكوت عنها وغير منفية فى كلمة الاخلاص . ولم ينتبه الهبطى الى أن ينص على أن ما يعبده المشركون باطل بأدلة أخرى عقلية ونقلية ، لانه حصر كلامه فى موضوع الخلاف الذى هو مشمول النفى فى كلمة الاخلاص لا غيـــــر .

غضب اليسيتنى لانتقاد الهبطى وتخطئته ايـــاه ، واتهمه بالزيـــغ عن الصواب ، والزمه القول بمفهوم كلامه من أن معبودات المشركين ثابتة صحيحة ، وذلك كفر صراح ! واحتد الخلاف بين أنصار هذا وذاك ، وبلغ الخبر الى السلطان محمد المهدى الشيخ فأمر أن تعقد مناظرة بحضرته يستدعى لها الهبطـــى .

تحزب ضد الهبطى ــ حسب قول ابن عسكر ــ ثلاثة : المفتى محمد اليسيتنى ، وكاتب السلطان محمد بن عيسى التملى ، وقائد شفشاون ابن راشد ، ووشوا به للسلطان قبل بدء المناظرة زاعمين « انه يخشى منه على الملك ، وأن أصحابه يقولون أن السلطان هو الشيخ » . واتصل هؤلاء

---

4) انظر ح. اليوسى ، **مشرب العام** ، ص. 70 — 71 .

الثلاثة بالفقهاء الذين سيحضرون المناظرة واوهموهم ان السلطان عازم على اهلاك الهبطى حتى لا ينتصروا له ولا يستصوبوا رايـه .

اجتمع مجلس الفقهاء بمشور القصر الملكى بفاس بحضور السلطان ، وتولى الكلام محمد اليسيتنى فاخذ يشرح المسألة من وجهة نظره ، والفقهاء الحاضرون يؤيدونه ، حتى اذا انتهى من ذلك تولى هو عرض راى الهبطى دون ان يترك له فرصة الكلام ، وصار يذكر العبارات الموهمة من كلامه ويؤولها كما شاء الى ان استنتج منها أن الهبطى قائل بثبوت المعبودات الباطلة فهو كافـر ، وافتى بوجوب قتله !

دهش الهبطى لتواطؤ الفقهاء ضده ، ولم يجد مجالا للكلام ، فقـام الى مسجد المشور منسحبـا من المناظرة دون دفاع ولا استئذان . الح اليسيتنى على السلطان فى أن يأمر بقتله فأبى ، وحملت الى الهبطى ، وهو فى المسجد ، رقعة كتب فيها انه يتخلى عمـا قاله : فوقعها بعد ان كتب هذه العبارة : « تلدت فى ذلك السلطان واليسيتنى » . ثم رجع الـى قريته فلم يغادرها حتى مـات . (5)

ونشير الى أن الهبطى الف كتبا متعددة فى مفهوم كلمة الاخلاص ، اكبرها جرما واكثرها فائدة : **الاشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة** ، (6) **ورسالة فى معنى لا اله الا الله** ، (7) **وتقييد فى الهيللة** ، (8) بالاضافة الى العقائد الكثيرة نثرا ونظما . ولم ينته الجدل حول هذا الموضوع طوال العصر السعدى . واكتسى فى بعض جهات الجنوب صبغة الحدة والمضايقة، الامر الذى حدا بالحسن اليوسى أن يؤلف كتابه الشهير **مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص** (9) جامعا فيه خلاصة ما قيل فى الموضوع من لدن مناظرة الهبطى واليسيتنى الـى أيامـه .

---

5) انظر م. ابن عسكر ، **دوحـة** ، 9 وما بعدها .
وانظر عن هذه المناظرة ايضا ح. اليوسى ، **مشرب العام** ، 93 — 94 .

6) انظر م. ابن عسكر ، **دوحـة** ، ص. 12.

7) مخطوط م. ع بالرباط ، 2167 د ، السابع فى مجموع . مخطوط م. ع بتطوان ، 353 ، الثانى فى مجموع .

8) مخطوط م. ع بالرباط ، 2076 د ، السابع فى مجموع .

9) طبع على الحجر بفاس عام 1909/1327 .

## ب ــ خلــف الوعيـــد مـــن اللـــه تعالـــى :

بحث المتكلمون الاولون فى صدر الدولة العباسية مسألة امكان خلف وعد الله ووعيده بين مثبت وناف . واختلفت وجهات نظرهم فيها بنـاء على اختلافهم فى الاعمال التكليفية هل هى علة لاستحقاق الثواب والعقاب ام لا . فذهبت طائفة الى انها علة يجب الثواب والعقاب مع وجودها ويستحيل عند عدمها كما هو الشأن فى العلل العقلية . ومن ثم قالوا : يجب على الله تعالى أن يثيب المطيع ويعاقب العاصى . بينما راى جمهور اهـل السنـة خلاف ذلك فقالوا لا يجب على الله شىء .

تجدد الخلاف فى المغرب السعدى حول مسألة خلف وعيد الله تعالى حين اخذ عبد الوهاب الزقاق يرجح فى دروسه بالقرويين جانبا من الراى الاول ويعلن مخالفته للامام الاشعرى . تصدى للرد عليه زميله فى التدريس بالقرويين محمد اليسيتنى ، وكان قد تخصص فى الكلام والمنطق على كبار علماء المغرب والمشرق ، وألف كتابا (10) احتج فيه بالمنقول والمعقـول على أن وعد الله لا يتخلف . وتقبل علماء فاس هذا الكتاب بقبول حسن ، وكتب على ظهره الامام على ابن هرون : « قد أجاد مؤلفه ما شاء مـن نقـول ، وتحرير فصول ، وما ترك لقائل مـا يقول » . (11)

غير أن عبد الوهاب أصر على رايه وألف كتابا آخر (12) فـى الانتصار لمذهبه، ودحض أدلة خصومه من الناحيتين النقلية والعقلية. واذا كنا لم نقف على أى من الكتابين ، فان أصداءهما ظلت تتردد فى كـتـب معاصريها ومن أتى بعدهم من المؤلفين فى علم الكلام أجيالا عديدة . ولخص تلميذهما احمد المنجور ما جاء فى الكتابين معا فى شرحه الكبير **نظم الفرائد ومبدى الفوائد فى شرح محصل المقاصد** ، وفى مختصر هذا الشرح . (13) وخلاصة ما جاء عنده فى المسألة :

---

10) انظر أ. المنجور ، **فهـرس** ، ص. 20 .

11) المصدر السابق فى نفس الصفحـة .

12) نفس المصدر فى نفس الصفحـة

13) توجد نسخ مخطوطة عديدة **لنظم الفوائد** ومختصره فى مكتبة القرويين بفـاس ، وم. ع بالرباط و م. م بالرباط . انظر النسخة المعتمدة عندنا فى البيبليوغرافيا .

ان راى اليسيتنى هو ما عليه جمهور اهل السنة من وجوب الصدق لله تعالى فى وعده ووعيده وغيرهما من كل ما اخبر به سبحانه . ويؤيده العقل والنقل . اما العقل فلانه لو صح خلف وعيد الله تعالى ، وهو خبر على وفق علمه الازلى ، للزم كذب الخبر الازلى . واما النقل فآيات واحاديث كثيرة مثـــل :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يـــره » . (14)

فالذى غفر الله له بلا عقوبة لم يدخل تحت الوعيد . ومن دخل تحت الوعيد فلابد من ان تلحقه العقوبة ، لان خبره تعالى على وفق علمه لا يجوز فيه الكذب والخلف .

اما عبد الوهاب الزقاق فقال بجواز ورود الوعيد فيمن يغفر له، لان ذلك ليس بكذب فى اللغة ما دام يجرى مجرى التهديد ، والعفو مع ذلك مرجو من العاصـــى المهدد . وانما يعد مثل ذلك كرما لا كذبا . وقد تكفل احمد المنجور بابطال هذا الراى فى **شرحه الكبير** ، وجزم بأن الصواب مع الشيخ اليسيتنـــــى .

14) الآيتان 7 و 8 من سورة **الزلزلـــة** ، 99 .

## جـ ـ ايمـــان المـقـلـــد

اختلف المتكلمون ايضا قديما حول صحة ايمان المقلد الذى لا يعرف الادلة ، وذلك لاختلافهم فى مفهوم الايمان . فجمهور أهل السنة ، وعلى راسهم ابو الحسن الاشعرى ، يرون أن الايمان هو التصديق بكل ما علم بالضرورة مجىء الرسول به ، كوحدانية الله تعالى ووجوب الصلاة والزكاة . ويتفرع عن ذلك أن من انكر شيئا من ذلك فهو كافر ، بخلاف من انكر شيئا من اجتهاد الصحابة أو الفقهاء فليس بكافر . ويرى الشيعة وبعض القدرية ان الايمان هو المعرفة بما علم مجىء الرسول به ضرورة . ويتفرع عن هذا أن من جهل ذلك فهو كافر ، ولو صدق به دون معرفة .

وشغل المتكلمون المغاربة فى العصر السعدى بمسألة التقليد فى الايمان اكثر مما شغلوا بالمباحث الكلامية الاخرى ، لانها اهمت جمهور الامة ودخلت فى حياتهم العملية . ولم يقل أحد من علماء المغرب فى ذلك العصر بقول الشيعة أو القدرية ، وانما اختلفوا فى نطاق المذهب السنى . ذلك ان اجوبة ابى الحسن الاشعرى عن مدلول التصديق اختلفت ، فاجاب مرة بأن التصديق هو المعرفة بوجود الصائع والاهيته وصفاته وتصديق رسله ، واجاب مرة أخرى بأن التصديق هو حديث النفس التابع لذلك .

من اول من ألف فى مسألة التقليد فى الايمان لذلك العهد محمد شقرون ابن ابى جمعة المغراوى الوهرانى ، اذ كتب فى أواسط عام 1524/920 **الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين** (15) ، أجاب به عن سؤال مطول قدم اليه جاء فيه :

« من يعرف الله ورسوله ويفرق بينهما ، ويعلم أن الله قديم باق ، وانه يحيى ويميت ويغنى ويفقر ، ولا يعرف فى ذلك دليلا ولا برهانا . هل ايمانه صحيح وليس هو بكافر . وهل يطلب من عوام المسلمين الذين لا قابلية فيهم معرفة الدليل والبرهان ، وهم غير قادرين عليه ولا على التعبير عنه . أم لا يطلب منهم ذلك ويكتفى منهم باليسير فى ذلك . فان بعض الطلبة كفر عامة المسلمين بعدم معرفتهم لذلك ، وأراد استباحة أموالهم وفساد أنكحتهم وغير ذلك معا ينشأ عن التكفير بزعمه ، هل يصح قوله أم لا . . . » (16) .

---

15) مخطوط م. القرويين بفاس ، عدد 1514 ، مصور م. ع بالرباط ، عدد 39 ( السابع فى مجموع ) مخطوطات معرض 1974 .

16) **الجيش الكمين** ، المقدمة .

شرح المغراوى فى هذا الكتاب مختلف آراء المتكلمين فى مسالة النظر والاستدلال من متشدد ومتساهل ، واختار من بينها الراى القائل بان المقلد مومن غير عاص وان كان تقليده عاريا عن الدليل والبرهان ، وان استعمال النظر والاستدلال مستحب لا واجب . وهذا راى جمهور اهل السنة كابى الوليد ابن رشد ، والغزالى ، والقشيرى ، واستدل عليـه بادلة كثيرة ، مثل حديث : « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا اللـه ، فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى — اى فى امر سرائرهم — » (17) ، وكذلك الصحابة لم يلزموا احدا من العوام بالنظر والاستدلال .

وللحافظ احمد الفاسى **رسالة** (18) مطولة حول صحة ايمان المقلد ، انشاها على اثر سؤال قدم اليه عن « رجل قال فى ملأ من النـاس عامـة : من لم يعرف العشرين صفة واضدادها بالبرهان لم ينج من الخلود فى النار . وتحيرت العامة من ذلك وعظم عليهم الامر واضطربت أحوالهم » . (19)

بين احمد الفاسى فى جوابه اجماع اهل السنة على أن من آمن بالله تعالى وبالرسول عليه السلام عن تقليد جازم لا عن برهان ، فهـو مومن ناج فى الآخرة من الخلود فى النار . ثم استعرض أقوال الفقهـاء والمحدثين والصوفية وجمهور السلف والخلف فى عدم اثـم تارك البحث فى وجوه الاستدلال واستدرك قائـلا :

« . . . ولا قائل بأن البرهان شرط فى الايمان ولا يكفى التقليد فـى النجاة من الخلود فى النـار الا رواية شاذة تعزى للشيخ أبى الحسـن الاشعرى ، فشنع عليه جماعة بأنه يلزمه تكفير العوام وهم غالب المومنين ، وتأولها جماعة ، فبعضهم بأن ذلك فيمن اختلج فى قلبه شىء فيجب عليه زواله بالبرهان . . . وردها آخرون وكذبوا ناقلها عنه ، كالاستاذ أبـى القاسم القشيرى ، وهو من أعلم الناس بأقوال الاشعرى ، فقال : هـذا زور عليـــه . . . » (20) .

واهتم بعقيدة العوام أيضا جماعة من المتكلمين المتصوفين ، سلكوا مسلكا مزيجا من التشدد والتساهل ، مرتكزا أساسا على المبالغة فـى النصح وحب الخير للمستضعفين . منهم عبد الله الهبطى وابنه محمـد فى الشمال ، وسعيد بن عبد المنعم الحاحى وابنه عبد الله فى الجنوب . الفوا

---

17) حديث صحيح اخرجه البخارى فى **الصحيح** فى باب فضل استقبال القبلة ، ببعض تغيير .

18) اثبت القسم الاول منها م. العربى الفاسى فى **مـرآة** ، ص. 156 — 159 .

19) المصـدر السابق ، ص. 156 .

20) نفـس المصـدر ، ص. 157 .

عقــائــد (21) مبسطة عديدة ، واخذوا انفسهم بتلقينها للعوام باللهجة التى يفهمونها عربية او بربرية ، حتى كان النساء والاطفال والخدم فى بلاد الهبط يعرفون مهمات التوحيد مما يجب فى حق الله والرسل وما يستحيل وما يجوز . وكان الحاحيان بدورهما آليا على نفسهما الا يغادر عامــى زار زاويتهما الا بعد ان يعرف ما يلزمه من امور العقيدة .

وتطور البحث فى مسألة التقليد فى العقائد تطورا سيئا فى اواخــر العهد السعدى ، حيث قامت حركة متطرفة فى تفيلالت بزعامة طائفة من الفقهاء قال عنهم الحسن اليوسى ، بعد ان لقيهم حوالى عام 1660/1070 ، : « حسبوا انفسهم قد تمكنوا فى العلم والحذاقة ، وهم انما نبغوا فى الجهل والحماقـــة » . (22) تصدر هؤلاء لتعليم الناس مسائل التوحيد بكـــل التفصيلات الواردة فى علم الكلام ، واخذوا يسألون العامة عما يعتقدون ويدققون فى الاسئلة ، فاذا وجدوا جاهلا او متلعثما فى الجواب شهروا به ورموه بالكفر ، بل قاسوا من لم يتصلوا به من العامة على من راوه منهم فقالوا : ان جل العامة او كلهم كفار ، وحكموا بفسخ عقود انكحتهم ، وحرمة اكل ذبيحتهم . وانتشرت بذلك فى الجنوب فتنة عارمة لم يستطع الوقوف فى وجهها العلماء المصلحون ، ولم يقض عليها الا وباء جارف اتى على الاخضر واليابس هناك . (23) .

---

(21) انظر ما تسبق ، ص. 70 ، هامش 41 .

(22) ح. اليوسى ، **مشرب العام** ، ص. 405 .

(23) انظر المصدر السابق ، ص.405 — 407 ، **المحاضرات** ، ص. 76 — 79 .

عرفنا ان الفقه كان فى العصر السعدى أكثر بضاعة الدارسين والمؤلفين . ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الفقه فى ذلك العصر ، وبخاصة كتب النوازل ، من مراجعات ومناقشات بين الفقهاء ، غير اننا سنجتزىء هنا ايضا بثلاثة نماذج من المناظرات الفقهية حول انحراف القبلة فى فاس ، والالواح فى سوس ، ومسائل من العمل .

## ا ـ انحراف القبلة فى فاس

يرجع تاريخ انحراف القبلة فى فاس الى عهد تأسيس المدينة ، حيث وجه ادريس الثانى محراب المسجدين الاولين اللذين بناهما فى فاس : جامع الاشياخ بعدوة الاندلس ، وجامع الاشراف بعدوة القرويين ، نحو الجنوب بدل الشرق ، لضعف الوسائل المساعدة آنذاك على تحقيق الجهات وتحديد سمت الكعبة . ووقعت فى نفس الخطـا بعد ذلك الاختان الفهريتان فجعلتا محرابى جامعى القرويين والاندلس الى جهة الجنوب : وتوالى بناء المساجد فى فاس على تقليد القبلة المنحرفة .

ولما وسع المرابطون فى أوائل القرن الهجرى السادس جامع القرويين انتبه الفلكيون الذين كانوا فى بلاطهم الى خطأ اتجاه المحراب ، وعزموا على تغييره لولا أن اعترض سبيلهم الفقهاء ، وكان لهم نفوذ كبير فى الدولة . ثم طرح مشكل القبلة فى فاس مرة أخرى عندما بنى يعقوب بن عبد الحق المرينى فى أواخر القرن الهجرى السابع مدرسة الصفارين بجوار القرويين ، واستخرج الفلكيون قبلتها عن طريق الحساب والقياسات الهندسية المدققة ، فتبين الاختلاف الكبير بين القبلتين ، وظهر أن محراب القرويين ينحرف عن سمت الكعبة بثمان وسبعين درجة ، بحيث لم يبق له سوى ست درجات للخروج الى ربع الدائرة التى تنتهى باستدبار القبلة تماما . ومـع ذلك عارض الفقهاء تغيير قبلة القرويين ، وصار المصلون فى مسجدين متجاورين يتجهون اتجاهين مختلفين .

دفع هذا الوضع الغريب الناس حتى العامة الى التساؤل والتفكير فى سبب الخلاف . ولما لم يجدوا مقنعا لدى فقهاء مدينتهم أخذوا يستفتون اثناء رحلاتهم الحجازية شيوخ الاسلام بالمشرق ، وبذلك « دولت » مسألة القبلة فى فاس .

من بين الذين اهتموا بمسألة انحراف القبلة فى فاس عالم ليبى هاجر الى المشرق متنقلا بين مصر والحجاز وبلاد الاناضول يدعى عبد

الرحمن بن محمد التاجورى ( ت. حوالى 1553/960 ) ويعتبر هناك شيخ الجماعة فى الفلك والتوقيت ، وله فى هذا الفن مؤلفات كثيرة . (1) .

بعث التاجورى حوالى عام 1548/955 الى امير فاس احمد الوطاسي برسالة شرح فيها خطأ توجه المصلين فى المغرب الى الجنوب ما دامت مكة تقع منه فى جهة الشرق ، معتمدا على أدلة عقلية ونقلية ، ومصرحا بـأن ذلك منكر يجب تغييره . ونبه الامير فى الاخير الى أن عليه تقع تبعة هـذا الضلال ان هو لم يأمر بسد المحاريب المنحرفة واتخاذ أخرى بدلها توافق سمت البيت الحرام ، امتثالا لامر القرآن :

« وحيثمـا كنتم فولوا وجوهكم شطـره » . (2)

جمع احمد الوطاسى الفقهاء والمحدثين فى قصره ، وليس فيهم — على ما راينا من اسماء الحاضرين — متخصص واحد فى الفلك ، فتدارسوا موضوع الرسالة وتناظروا فيه ، فارتأى كبار الشيوخ السكوت ، وقـال احدهم « كلام هذا الرجل لا يلتفت اليه ولا يعول عليه » ، وتحمس للـرد على التاجورى اثنان من تلاميذهم البارزين ، هما محمد اليسيتنى وعبـد الوهاب الزقـاق .

---

1) من مؤلفات التاجورى الموجودة بالمكتبات المغربية ، زيادة على الرسائل التى ناظر بهـا فقهاء المغرب :
— شرح رسالة الماردينى فى الربع المجيب . مخطوطات م. ع بتطوان ، عدد 656 و 859 .
— رسالة فى استعمال بيت الابرة ، مخطوطات م. ع بالرباط ، 3457 دو 3488 د وميكرو فيلم 1309 .

2) الآية 144 من سورة البقـرة ، 2 .

## 1 — رد اليسيثنى (3)

لخص محمد اليسيتنى فى مقدمة الرد ما جاء فى رسالة التاجورى موجها اليه الخطاب باللوم والتجهيل والوعيد ، ثم بدأ يستدل على بطلان ما ورد فيها بأدلة كثيرة تنقصها قوة الاقناع ، منهـا :

ا — مخالفة التاجورى ما درج عليه علماء فاس ومفتوها أجيالا متعاقبة من اقرار قبلتهم ، ومجافاته أخلاق العلماء ولباقتهم فى تغيير المنكر عندما أخذ ينسبهم الى الخطأ والضلال والخروج عن اجماع المسلمين .

ب — « انكار امكان فساد قبلة مساجد نصبها الامام المهـدى . . . سيدى ادريس بن ادريس . . . والقطع ان ذلك كان عن الاجتهاد لا عن الشهوة والاغراض ، والا لكان قدحا فيهم ، نعوذ بالله تعالى من ذلك . نصبها فى القرن الثانى الكثير الخير والفضل ، فكيف يعارض اجتهادهم باجتهاد القرن العاشر الكثير الشر والجهل . . . واستمر العمل على مقتضى اجتهادهم ما يقرب من الف عام ، ولم يصرح أحد بما صرحت به من الخطـأ والضـلال واحرى اجماع المسلمـين ، ولـو صـرح أحـد بـذلـك لنقـل . . . » (4)

ثم أخذ يستعمل الاقيسة المنطقية استعمالا سفسطائيا للبرهنة على ثبوت اجماع معاكس على تسليم قبلة فاس بحالها .

ج — الاستشهاد بموافقة يعقوب بن عبد الحق المرينى فقهاء عصره على ابقاء قبلة القرويين على حالها بعدما تبين انحرافها الكثير عن قبلـة مدرسة الصفارين : « . . . هذا أبو يوسف ملك عظيم من ملوك الاسلام ، وكان يدعى الملك العابد ، أقر جامع القرويين بموافقة العلماء ، وهم فـى ذلك الوقت متوافرون ، وأنت تأمر بهدمه وتطميسه ، ثم لم تقتصر على الهدم والتطميس حتى صرحت بالخطأ والتضليل والخروج عن جماعة المسلمين لكل من تقدم من العلماء والملوك وغيرهم . . . وهب أنك أجتهدت وأصبت باجتهادك بزعمك وأنك من شيوخ الفتوى وممن توفرت فيك شروطها ، فليس اجتهادك بأولـى من اجتهادهم » . (5)

د — قياس صحة ( القبلـة المنحرفة ) بفاس على مثيلتها بجامـع القيروان الذى بناه الصحابة « ثم اخرجت قواعد الهندسة فيه الانحراف ، ومع ذلك لم يكترثوا بذلك وقالوا أنه مسجد بنته الصحابة والعلماء علـى اجتهادهم ، فبقى على ما هو عليه ، ولا ينقض أجتهاد باجتهاد » . (6)

---

3) مخطوط خاص بفاس ، يوجد منه ميكرو فيلم فى م. ع بالرباط ، عدد 204 / 73 ف . اول المجموع ، ( من ص 1 الى 28 )
4) المصدر السابق ، ص. 2 .
5) نفس المصدر ، ص. 4 .
6) نفس المصدر فى نفس الصفحة .

هـ ـ الاستدلال بما قال ابن الخطيب فى مدح فاس ، وبكثرة من عاش فيها من علماء وصلحاء وملوك : « وما انكر احد منهم هذا الانكار ، ولا صدر منهم ما صدر منك ولا دونه . وما ينبغى لهم أن يهملوا هذا الركن الاعظم من الدين لو كان على الخطأ كمـــا تزعـــم » (7) .

و ـ الاستشهاد بالتاريخ البعيد والقريب ، حيث أن ملوك المرابطين والموحدين والمرينيين لم يقم احد منهم بتغيير قبلة جامع القرويين رغم مـــا ادخلوا عليه من اصلاح وتوسيع ، « وان جامع القرويين الذى تطعن فيه جامع عظيم معمور غاية العمارة مملوء بمجالس العلم والوعظ ، فيه نحو عشرين منبرا معدة لانواع العلم والوعظ عليها احباس وأوقاف من الملوك وغيرهم . . . هذا سلطاننا احمد المرينى ـ الوطاسى ـ وضع فيه مآثر حسانا كتحبيسه على اقراء **صحيح البخارى** بابن حجر ، والتفسير ، وابن الحـــاجـــب . . . » (8)

ز ـ انكـــار ما ادعاه التاجورى من خروج قبلة فاس من جهة الكعبة استنادا الى راى موقتى جامعى القرويين والاندلس القائلين بخروجها عـــن السمت لا عن الجهـــة .

ح ـ الطعن فى طريقة تعرف التاجورى على حال القبلة بفاس سماعا لبعده عنها ، واعتماده على الوسائل الهندسية المستحدثة :

« اولى الناس بهذا الانكار الذى صدر منك من هم اقرب منك اليها كعلماء تلمسان ومراكش وسبتة والاندلس ، لم ينكر واحد منهم ذلك مـــع كثرة ترددهم على فاس . . . واما انت فبينك وبينها مسافة كبيرة وشهور كثيرة ، واهل كل بلد أعلم ببلدهم . . . **واعلم** انه لا يلزمنا أن نعرف القبلة بطريق الهيئة ، وانما يلزمنا أن نعرفها بما كانت العرب تعرفها حين نزول الآيـــــة » . (9)

هكذا استمر تهافت اليسيتنى فى هذا الرد الطويل الذى لا يخرج عن دائرة التقليد والتشبث بما لا ينهض حجة ولا يفيـــد ، باستثنـــاء الدليلـــين الاخيرين ، وفيهما من الاعتراف الضمنى بالانحراف ما لا يخفى . وكنا ننتظر من أحمد المنجور أن ينتقد هذا الكتاب انتقادا لاذعا على عادته فى مثله ، الا أنه اكتفى بذكر اسمه بين مؤلفات شيخه اليسيتنى دونما تعقيب .

## 2 ــ رد الزقــــاق (10)

اشتمل رد عبد الوهاب الزقاق على قسمين متميزين ، بين ف أولهما آراء الصحابة واجتهادات الفقهاء فيما يجب على من وجد خارج مكة من البحث عن القبلة سمتا او جهة ، واتى بما يرجح ان المطلوب الجهة فقط لتعذر التوصل الى معرفة السمت بتدقيق . وهنا ظهرت شخصية الزقاق كفقيه راسخ القدم فى اصول الشريعة وفروعها ، الا انه لم ينتبه او لم يرد ان ينبه الى ان تعذر معرفة السمت انما كان فى صدر الاسلام حيث كانت الامة ما تزال امية كما ورد فى الحديث . اما بعد تقدم المسلمين فى علوم الحساب والفلك والتوقيت فقد انتفت علة التعذر ، واصبح من الميسور التوصل الى معرفة السموت بتدقيق .

وناقش الزقاق فى القسم الثانى التاجورى فى بعض التفصيلات الفنية مبتعدا عن ميدان اختصاصه ، فوقع فيما وقع فيه زميله اليسيتنى مـن الخلط ، ولم يجد من وسيلة للرد غير اللجوء الى قواعد فقهية مسطرية لا تصمد امام حجج خصمه العقلية التقنية :

« قولكم ان بقبلة جامع القرويين انحرافا وكذلك ــ جامع ــ الاندلس ، ان أريد بذلك الانحراف خروجه عن الجهة الكبرى فذلك باطل قطعا ، ولو سلم أن قبلة القرويين على سمت أربع وثمانين درجة من الربع الشرقى الجنوبى ، والاندلس على سمت سبعين درجة منه كما زعمتم فيما أخبركم به فلان . وان أريد بذلك خروجه عن الجهة الصغرى فقط فذلك غير صحيح لوجوه ، أحدها انكم بنيتم ذلك على ما تلقيتموه من أخبار الواردين عليكم من العامـــة . ومن المعلوم عند من له أدنى مشاركة فى الفقه أن تقليـــد العامـــة فى مثل هذا لا يصح ، وانما يقلد فى ذلك العدل العالم . . . »(11)

أثار هذان الردان ضجة كبرى فى المشرق ، اذ ألف التاجورى تعقيبا عليهما كتاب **تنبيه الغافلين عن قبلة الصحابة والتابعين** (12) ، استفتى فى أوله علماء مصر فى النازلة بعد أن عرض عليهم مجمل ما أجاب به كل مـــن

---

10) ميكرو فيلم م. ع بالرباط ، عدد 73/204 ف ، الثانى فى المجموع ، ( من ص . 28 الى 58 )

11) المخطوط السابق ، ص. 40

12) مخطوط م. م بالرباط ، عدد 10153 . غير مرقم .

اليسيتنى والزقاق ، ثم تطرق لنقض الجوابين فقرة فقرة معتمدا علـى المعطيات الجغرافية والفلكية ، بالاضافة الى الاحكام الفقهية والحديثية . وهكذا لما أراد أن يبين خطـأ خصميه فى لاستشهاد بحيث « ما بين المغرب والمشرق قبلـة » مهد لذلك بذكر جهات الخارجين عن مكة ، وجعلهم أصنافا اربعة تبعا للجهة التى يوجدون فيها ، واضعا المغرب فى القسم الرابع ضمن الاقطار الغربية الاخرى التى توجد الكعبة فى جهة الشرق منها . ثم زاد قـائـلا :

« اذا تقرر هذا وعلم فالمساجد المسؤول عنها بفاس كائنة عن مكة فى جهة المغرب لا محالة . واذا كان الامر كذلك فما استدل به أهل هذه المساجد على صحة قبلتهم من الحديث الشريف ليس لهم فيه دليل ، اذ هو مصروف عن ظاهره عند العلماء كما تقدم . قال أحمد بن خالد ( القرطبى ) فى شـرح **المـوطـا** : انما ذلك لاهل المدينة ومن كان مثلهم ممن قبلته بين المشرق والمغرب . . . وأما من كان من مكة فى المشرق أو فى المغرب فان قبلتهم ما بين الجنوب والشمال انتهى . ونقل مثل هذا عن ابن رشد .

**قلـت** : يريد ابن رشد من كان غربيا عن مكة يصلى بين الشمال والجنوب ، بأن يجعل جهة الشمال عن شماله ، وجهة الجنوب عـن يمينه ، لا كما فهمه بعض علماء مدينة فاس بأن يجعل جهة الشمال خلفـه وجهة الجنوب أمامه كقبلة جامع القرويين بفاس ، وهو غلط بين . . . »(13)

ولم يلق التاجورى عنتا فى دحض حجج الفقيهين المغربيين اللذيـن مكناه من نفسهما عندما خاضا فيما هو خارج عن دائرة اختصاصهما . ونكت التاجورى على اليسيتنى الذى استدل على قداسة القرويين بما أوقفـه عليها أحمد الوطاسى لتدريس العلوم ، وكان الوضع السياسى قد تغيـر عن قرب وآلت السلطة فى فاس الى السعديين :

« وقولهم هذا سلطاننا أحمد المرينى ــ الوطاسى ــ وضع فيـه مآثر حسانا كتحبيسه على **صحيح البخارى** والتفسير وابن الحاجـب . . . أقول : هذا سلطان المغرب وخليفته وصاحب وقته ــ أيده الله ــ محمـد الشريف القرشى ــ أصلحه الله وفتح له فتحا مبينا ــ يصلح قبلة الجامع المذكور ويضع فيه مآثر حسانا ، كالتحبيس على **الموطـا** ، **ومسلـم** ، **والبخارى** ، **وتفسير ابن عطية** ، **والقرطبى** ، **والثعالبى** . . . » (14)

---

13) ع. التاجورى ، **تنبيه الغافلين** . الكراسة الاولى .
14) المصدر السابق ، فى نفس المكان .

وكتب التاجورى رسالة (15) اخرى فى نفس الموضوع بعث بها الى فقيه درعة محمد بن على التمكروتى يطلعه على تصلب فقهاء فاس فى امر القبلة ، ويبرهن له عن خطئهم ، طالبا منه أن يتدخل لدى السلطان السعدى محمد الشيخ ليتقدم على تغيير هذا المنكر بما آتاه الله من نفوذ .

وقد افتى فقهاء المذاهب الاربعة بمصر مؤيدين راى التاجورى ، والف هو ايضا رسالة ثالثة سماها **ورقات فى معرفة القبلة والاوقات** ، (16) تهجم فيها بعنف على الفقيهين المغربيين دون أن يسميهما باسمهما ، وقال فى آخرها : « . . . وأما من لا يحسن هذا العلم — التوقيت — فلا يجوز له أن يتكلم على شىء من ذلك ، ويجب عليه الاقتداء بأهله ، وهو عامى فى هذا العلم ، والعامى يجب عليه الاقتداء بالعارف » .

* *

واثار بعد ذلك محمد العربى الفاسى مسألة القبلة فى كتابه **مرآة المحاسن** (17) عندما تكلم على تأسيس الزاوية الفاسية الاولى فى مطلع القرن الهجرى الحادى عشر ، ونصب قبلتها الى جهة المشرق بحضور المعدلين . وقد تحدث المؤلف عن انحراف قبلة مساجد فاس حديث عالم منصف عارف بفن التوقيت ، موضحا كلامه برسم دائرة عين عليها جهة القبلة الحقيقية وقبلة فاس الزائغة. ونقل كلام التاجورى فى تخطئة القائلين بأن القبلة هنا ما بين المشرق والمغرب وأيده ، ثم روى عن أبيه الشيخ أبى المحاسن ومحمد القصار أنهما كانا يتجنبان صلاة الجمعة فى القرويين لانحراف قبلتها .

ونجد مثل هذا الانكار الفردى عند آخرين ، كالشيخ الصوفى عبد الله الكوش ( ت 1553/960 ) الذى كان يسكن دارا ملاصقة لجامع القرويين ، ويمتنع من الصلاة فيه لانحراف قبلته (18) . والفقيه أحمد بن على البوسعيدى الذى حفر قبره بيده بمقابر الشرفاء الطاهريين بحسب اجتهاده فى القبلة ، فجاء منحرفا كثيرا عن القبور الاخرى بها . (19)

15) مخطوط م. م بالرباط ، عدد 6999 .

16) مخطوط م. ع بالرباط ، عدد 740 ق ( آخر مجموع ) .

17) ص. 41 — 43 .

18) انظر م. ابن عسكر ، دوحة ، 82 .

19) انظر م. الافرانى ، صفوة ، 70 .

وتجدر الاشارة الى ان مساجد بعض القرى المغربية كانت تتجه محاربيها ايضا شطر الجنوب ، وربما كان ذلك من تقليد بعض ابنائها الذين درسوا فى فاس . كالمسجد العتيق بقرية تيلكات من آيت حامد بسوس ، غير ان قبلة المسجد الجديد الذى بناه السعديون بها صحيحة (20) .

ورغم تلك الضجة الكبرى التى أثارها التاجورى ومن معه كان على فاس أن تنتظر قرنا آخر لتشاهد بعض التغيير فى القبلة لا عن طريق هـدم المحاريب القديمة المنحرفة وتعويضها بأخرى مسامتة ، ولكن فقط بصدور امر من محمد الشيخ الاصغر برسم علامة فى جدار محراب القرويين تحدد جهة الكعبة التى على الامام أن يتجه نحوها ، وبتنبيه المؤذن المصلين بعد اقامة الصلاة لينحرفوا الى اليسار بانحراف الامـــام (21) .

(20) انظر م. المختار السوسى ، **خلال** ، 2 : 117 — 118 .

(21) موضوع انحراف القبلة فى فاس وفى المغرب عموما طويل عريض ، يخرجنا تتبعه عن الخطة التى التزمناها فى هذا الكتاب من الاختصار والاقتصار على الاشارات الخاطفة للمواضيـــع التى شغلت افكار المثقفين واقلامهم فى العصر السعدى . ونكتفى بتسجيل الملاحظتـــين التاليتـــــين :

ا — تأثر الاصطلاح المغربى القديم فى تحديد الجهات الاربع بخطأ الانحراف ، فاطلق اسـم ( القبلة ) على الجنوب ، يقابله ( الجوف ) اسم الشمال . وما زال العدول حتى اليوم يستعملون هذا الاصطلاح فيما يحررون من عقود تحديد العقارات وتملكها ، كما يسمى المؤلفون القدماء والمحدثون ما وراء جبال الاطلس ببلاد القبلة .

ب — ما تزال محاريب المساجد العتيقة بفاس حتى اليوم منحرفة كما كانت على عهـــد السعديين وقبلـــه .

## ب ـ الــــواح ســـوس :

قاعدة الحكم الاساسية فى سوس طوال العهد الاسلامى هى الشريعة المحمدية ، على مقتضاها يكون الزواج والطلاق والارث والملك والبيــوع وغيرها ، ما عدا بعض الاحوال المدنية والجنائية ، احتفظت القبائل بأعرافها الموروثة فيها وكتبتها بلغة عربية لا تخلو من لحن ومزج بألفاظ شلحيــة وسمتها ( الالــواح ) . (44) وهى قوانين صارمة مؤسسة على العقوبة بالمال فى حق كل من صدرت منه مخالفة تمس شرف الغير أو ماله أو بدنه أو تتلق الامن العام . وتكتسى الالواح صبغة القداسة عندهم فلا تغير الا بحضور الاعيان ( اينفلاس ) ، (45) ويحتفظ باللوح الموقع عليه من عدلين والاعيان عند اكبرهم سنا ، أو فى مكتبة المدرسة أو عند أستاذها أو امام المسجد ، ما لم يتعلق اللوح بحصن ( = أكدير ) فيكون عند أمينه .

يتولى الفصل فى القضايا الشرعية قضاة يعينهم السلطان أو نائبه ، أو فقهاء يحكمهم رجال القبيلة عند اختلال الاحوال وعجز السلطة المركزية . بينما يتولى ( اينفلاس ) الفصل فى الجنايات وبعض القضايا المدنية كأحداث الاسواق من غش وتطفيف فى الكيل والميزان بحسب ما فى الالــواح ، واحكامهم لا تقبل الاستيناف ، كمـــا يتولون تنفيذ ما يقضى به الفقهـاء المحكمـــون . (46)

وترجع أقدم الالواح التى وقع العثور عليها لحد الآن (47) الى أوائل القرن الهجرى العاشر ، الامر الذى يدل على أن الالواح انما عرفت التوسع

---

**مـلاحظـــة**

تبتدىء الهوامش هنا فى **الواح سوس** برقم 44 ، فلا نقص ولا قلــب .

44) ( الالواح ) مفرده لوح ، وهو الاسم الغالب على هذه الوثائق فى سوس . واسم اللوح فى آيت باعمران ( قانون ) ، وفى آيت افران ( ديوان ) ، وفى آيت صواب (عرف) .

45) ( اينفلاس ) مفرده ( انفلوس ) ، يعربه فقهاء سوس فى كتب نوازلهم بالاعيان ، والضمان، والشيوخ والعرفاء . ويذكرونه أحيانا بلفظه الشلحى على صيغة جمع التكسير العربــى فيتولون النفاليس .

46) انظر تفاصيل ذلك عند م. العثمانى ، **الواح جزولة** ، ص. 54 وما بعدها .

47) عثر العاملون فى قسم تاريخ المغرب على لوحين صادرين عن قائد آسفى من قبل البرتغاليين يحيى بن تعفضت عام 918 / 1512 لبعض القبائل التابعة له ، ونشر نصهما العربى مــع ترجمة فرنسية ومقدمة فى مجلة **هيسبريس** ، الجزء 18 ، الفصلة 1 ، سنة 1934 ، ص. 64 - 75 . وعثر محمد العثمانى مؤلف كتاب **الواح جزولة** أخيرا على لوح أقدم يرجع الى عــام 1499/904 .

والانتشار بين القبائل فى هذا العصر ، ولو على فرض وجودها من قبل . ومما جاء فى لوح لاحدى قبائل الاطلس الكبير :

« . . . دية من سرق : عشرة أواق ، أو مائة دينار دراهم ، أو تقطع يده . ديـــة من جرح أخيه ( كذا ) المسلم : وقيتين ( كذا ) ، أو عشـــرون دينارا . والكبش يعطيه للمجروح . دية من ضرب بعصا أو حجر : وقيـــة واحدة أو عشرة دنانيـــر . . » (48) .

اختلفت آراء الفقهاء حول الالواح ما بين مستحسن ومستهجن ، وكان من أول الذين عنوا بهذه المسألة فى العصر السعدى فقيه سوس الكبيـــر الحسن بن عثمان التملى تلميذ الامام ابن غازى ، فقال عنها : « الـــواح القبائل منها ما وافق الشرع ، وهو أكثرها لكن على غير مذهب مالك . واقلها مخالفة للشرع » (49) . ومن أمثلة ما وافقت فيه الالواح الشريعة علـــى غير مذهب مالك تغريم السارق ، وعدم الجمع بين الغرم والقطع ، كما رأينا فى النموذج السابق . وهذا موافق لمذهب أبى حنيفـــة .

وبحث فى الالواح أيضا مفتى البلاد السوسية عمرو بن أحمد البعقيلى المعروف بعمرو المفتى ، فكان لا يرى بأسا فى اتخاذ الالواح التى لا تصادم القواعد الشرعية ، وتستجيب للمتطلبات والتقاليد المحلية ، قال « وعلى هذا اجرينا الفتوى ، حين عمت البلوى ، وارتفعت الشكوى ، وسمعـــت الدعوى » (50) . بل أنشأ عمرو المفتى لوحا نموذجيا لقبيلته بعقيلة ، مؤرخا بشهر جمادى الثانية عام 964/ابريل 1557 ، بناه على آيـــة : « وداوود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم » (51) ، وعلـــى مبدأ الغرم لما أتلف مثلا أو قيمة المنصوص عليه فى الشريعة الاسلامية ، واجتهد فى تحديد مبالغ العقوبات المالية بحسب ما تتلفه الماشية مـــن الاشجار ، سيرا مع خطة الالواح فى ذكر الجنايات وعقوباتها . فمن دخلت غنمه أو بقره بستانا لغيره واتلفت له شجر التين أو الهرجان غرم درهما كبيرا عن الشجرة الجيدة ، ودرهما صغيرا عن الشجرة المتوسطة ، ونصف

---

48) هسبريس ، 18 ، 1 : 71 .

49) أ. التفنتاتينى ، فتاوى جزولة ، 244 .

50) م. المختار السوسى ، معسول ، 8 : 152 .

51) الآية 78 من سورة الانبياء ، 21 .

درهم صغير عن الشجرة الصغرى . واعطى بعد ذلك تفصيلات عن وسائل الاثبات والالزام بقولـه :

« فمن شهدت بينة على دخول بهائمه جنان غيره ، فليحضر رب الجنان معلم مسجدهم مع غيره من اهل الخير ، فيشهدون بما أفسدته من ذلك فيغرمه رب البهائم لرب الجنان . . . يغرم ذلك كله مع الادب لمن تكرر منه ذلك من بهائمه . واما ما كان من ذلك حول الطريق المعروفة لسلوك الغنم والبقر ، فان حفظها ارباب البساتين بالزرب على المعتاد فهو كغيره مما لم يكن حول الطريق ، وغرمه كما تقدم . وما لم يزرب ولا حفظ بالسد فلينظر اهل المعرفة ، فان تفاحش الفساد وكثر سقط نصف القيمة المتقدمة عن ارباب المواشى ، وان لم يتفاحش سقط الغرم كله لتفريط أربـاب البساتين . » (52) .

***

وتفاقم أمر الالواح بسبب اضطراب الاحوال على اثر وفاة أحمـد المنصور ، وأخذت كل قبيلة تتخذ لها لوحا تحفظ به حصنها ومالهـا ، و ( اينفـلاس ) تحتمى بهم من قطع الطرق ونهب السابلة المتفشية آنذاك . ولم يكن الفقهاء دائما حاضرين عند تحرير الالواح ، فامتلأت بآراء العوام وابتعدت عن روح الشريعة الاسلامية ، وكثر الجدل والانتقاد حتى أنشأ يحيى الحاحى سؤالا (53) مطولا حول الالواح و ( اينفلاس ) ، بعث به حوالى عـام 1614/1023 الى فقهاء الجنوب يستفتيهم ، وهو يومئذ يتحفز للاستيلاء على السلطة فى سـوس .

تضمن السؤال نماذج كثيرة من محتويات الالواح المستفتى بشأنها ، منهـا :

— التفاف أهل الجبال بالبادية حول ( اينفلاس ) لحفظ النظام والاقتصاص مـن الجنـاة .

---

52) م. المختار السوسى ، **معسول** ، 8 : 152 .

53) أ. التفاتينى ، **فتاوى جزولة** ، 239 ، 239 — 240 . وقد جمع مؤخرا هذا السـؤال والاجوبة منه فى كتاب نتسب لاحمد بابا السودانى بعنوان : **أجوبة فى شان القوانين العرفية** . مخطوط م. م بالرباط ، عدد 5813 .

- اتفاقهم فى الالواح على استرداد ما سلبه اللصوص والغاصبون من اموال ان كانت قائمة العين ، او تغريمهم لها ان تلفت . وكذلـــك استرداد الديون لاصحابها ، فان لم يكن لهؤلاء ما يغرمون به او يوفون به الدين انتزعوه من مال اقاربهم .
- معاقبة الجانى بالمال ، يلزمونه اداء مبلغ معين عن كل جناية اقترفها .
- معاقبته فى ماله بهدم داره وذبح بقرته وقطع شجره . ويسمون هذه العقوبة والتى قبلها بالانصاف .
- الزام المتهم بخمسين يمينا يعينه فى حلفها أقاربه . ومنهم من يلزم بعشرة ايمان أو خمسة حسب نوع التهمة وخطورتها .

وختم الحاحى سؤاله مستفهما عن مصرف المال المأخوذ على وجه ( الانصاف ) ، هل يأخذه المعتدى عليهم ؟ أم يصرف للمساكين ووجوه البر ؟ أم يرجع لبيت المـــال ؟

⁂

أجاب عن هذا السؤال اربعة من كبار فقهاء ذلك العصر بأجوبة مختلفة حجما ومضمونـــا .

أ ــ جزم مفتى مراكش عبد الواحد الرجراجى بالمنع ، اعتمادا على آيـــة : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . (54) وأمر من بسطت يده أن يعمل بحزم على اماتة هذه البدعة . (55)

ب ــ حكم قاضى مراكش محمد بن عمر الهشتوكى بالمنع ايضا ، لان الشارع بين جميع الحدود ، ولو علم الله دينا أفضل من هذا لاتى به نبينا محمد عليه السلام . « فترك الاحكام الشرعية واستنباط ضوابط وقوانين تخالف أحكام الشرع المحمدى كفر صراح ، يردون الى الشرع ولـــو بالقتال والسبـــى » . (56)

---

(54) الآية 7 ، من سورة الحشر ، 59 .
(55) أ. التنغانينـــى ، فتاوى جزولـــة ، 240 ــ 241 .
(56) المصدر السابق ، 241 .

جـ ـ اجاب قاضى ترودانت عيسى بن عبد الرحمن السكتانى بالتفصيل قائلا ما قاله من قبل الحسن بن عثمان التملى من أن بعض ما فى الالواح جائز وبعضه غير جائز . فمن الجائز التفاقهم حول عريف يصدرون عـن رايه ويعاهدونه على التعاون فى الضرب على أيدى الجناة والمفسدين ، لانه من باب تغيير المنكر والتعاون على البر والتقوى الواجـب بالكفايـة . ومن غير الجائز تغريمهم الابرياء من اقارب الجناة والمدينين ، وفيهـم الضعفاء والايتام والارامل ، لانه من باب دفع الضرر بالضرر ، ولان مؤاخذة الانسان بجناية قريب له من عمل الجاهلية . واستثنى من ذلك حالـة مظاهرة الاقارب أو غيرهم للجناة واعانتهم لهم فعليهم الغرم حينئذ . وقـال بخصوص اتخاذ الالـواح :

« وأما اختراعهم لالواح شيطانية ويبتدعون أحكاما على ما سولت لهم النفوس الامارة حتى أن النازلة تنزل بهم يهرعون فيها الى تلك الالواح نابذين ما أنزل الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أجهل هؤلاء وأبعدهم عن الدين الحق ! . . . فمن وجد السبيل الى ردهم للصواب بتلطف ورفق حيث نشؤوا على ذلك ووجدوا عليه آباءهم فليفعل » . (57)

فالقاضى السكتانى يجزم ببطلان الالواح المخالفة لاحكام الشرع لكنه يقضى باللين المأمور به شرعا للتذكير والدعوة الى الحق : « فقولا لـه لينـا لعله يتذكر أو يخشى » . (58)

وأجاب عن عقوبة الجناة بمالهم وفى مالهم المعروف عندهم بالانصاف ، بأن ذلك ليس من المذهب المالكى ، ثم استدرك على ذلك ما روى عن الامام ابن عرفة من اغرام حكام الفحص بتونس من أرسل بهيمته فى زرع غيره دراهم ، « وأنا أقول فى هذا أحرى » . وما ذكره القرافى فى **التنقيح** من شرعية قتال الظلمة لدفع ظلمهم ، وحسم مادة فسادهم بتخريب ديارهم وقطع أشجارهم وقتل دوابهم اذا لم يمكن دفعهم الا بذلك « والجماعة يفعلون

57) المصدر السابق ، 42 .
58) الآية 44 ، من سورة طه ، 20 .

وينزلون منزلة السلطان فى بلاد السؤال . . . والانصاف اسهل مما ذكر » .
كما اجاب عن مصرف مال الانصاف بانفاقه فى المصالح العامة .

وانتقد القاضى السكتانى تصلب العالمين للراكشيين فى افتائهما بالمنع القاطع للالواح ، وفساد قياسهما البادية المخوفة على الحاضرة الآمنة التى يعيشان فيها حيث يمكن اجراء الاحكام الشرعية على نحو ما اجابا به . لكن البادية النائية ، وهما يجهلانها ، تفرض على المفتى أن يتفهم ظروف الناس ويراعى مشاغلهم ومصالحهم ، وليس من راى كمن سمع !

د ـ راى احمد بابا السودانى راى القاضى السكتانى فى التفصيل : جواز اجتماع البدو على واحد منهم ، واتخاذ ضوابط ان كانت جارية على مقتضى الشرع . غير أنه تشدد فى منع كل ما خالف المذهب المالكى اتفاقا أو على المشهور ، كالعقوبة بالمال . وأنكر أخذ مال غير الجناة ، والحلـف خمسـين مـرة .

❖

وكان آخر من تحدث عن الالواح فى نهاية العصر السعدى القاضى عبد الرحمن التمنارتى فى كتابه **الفوائد الجمة** بقوله :

« سافرت لبلد القبلة من ترودنت ، فمررت ببلاد هنكيسة ، فكانوا يتحاكمون الى ، فاذا عرضت خصومة تتعلق بحصونهم التى أعدوها لحفظ أموالهم ــ وكانوا يبنونها على شواهق منيفة ــ قالوا هذه انما يحكم فيها الواح الحصـون . فسألتهم عنها . فقالوا هى ضوابط وقوانين رسموها وينتهون اليها عند وقوع حادث فى الحصن ، فشرحوا لى منها كثيـرا فوجدتها كلها من باب العقوبة بالمال التى ليست فى الشريعة الا فى الغش ، وليس شىء منها فى الغش ، بل هى كلها عوض عن الحدود التى نصبها الشارع زواجر . فقلت لهم : هذا من التحاكم الى الطاغوت الذى أمرنـا أن نكفـر بـه . . . » (59)

والعجب من التمنارتى ، وهو السوسى الصميم الذى عاش طوال حياته فى سوس ، يجهل وجود الالواح ومحتواها ، لكن العذر له ــ كما قال شيخه السكتانى من قبل فى حق المراكشيين ــ أنه عاش فى حاضرة المحمدية ، والالواح لا تعرف الا فى القبائل النائية بالجبال .

---

(59) ع. التمنارتى ، **الفوائد** ، 278 وبها تمزيق كثير ، يكمل من نسخة سلا ، ص. 236 ، وهى تـامـة .

## ج ـ مسائل من العمل

العمل عند الفقهاء هو العدول عن القول المشهور أو الراجح فى بعض المسائل الى القول الضعيف فيها رعيا لمصلحة الامة وما تقتضيه حالتها الاجتماعية . ومستندهم فى ذلك قول الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز : « تحدث للناس اقضية بقدر ما احدثوا من الفجور » ، فاتحا بذلك باب التطور فى الاحكام وصبغها بصبغة المجتمع .

ابتدا العمل فى الاندلس منذ القرن الرابع الهجرى ، حيث ورد فى الكتاب الفقهى لاحمد بن سعيد الهمدانى القرطبى ( ت 1009/399 ) أن العمل جرى فى الاندلس باعطاء الخصم نسخة من حجج خصمه سواء كانت مشكلة أم لا ، خلافا للمشهور فى المذهب المالكى من أن الحجج لا تعطى للخصم الا اذا كانت مشكلة . وفى أوائل القرن السادس بلغت مسائل العمل فى الاندلس حسب كتاب **المفيد فى الاحكام** لاحمد بن هشام الغرناطى ( ت. 1136/530 ) اثنتين وعشرين مسألة ، خالفوا فى أربع منها مذهب مالك ، وفى ثمانى عشرة مسألة مذهب ابن القاسم ، كالحكم بالشاهد واليمين ، وغرس الاشجار فى المساجد . (1)

وقد دخل العمل الاندلسى الى المغرب بسبب الامتزاج السياسى والثقافى القائم بين العدوتين على عهد المرابطين والموحدين ، وأخذ يتبلور شيئا فشيئا العمل المغربى فى القرن التاسع الهجرى عندما ضعفت تلك العلاقات ، بحيث لم تتعد المسائل التى جرى بها العمل فى فاس آنذاك حسب **لامية الزقاق** ، ثمانى عشرة مسألة . ثم توالت اجتهادات الفقهاء المغاربة على عهد السعديين ، وتكاثرت مسائل العمل فشملت معظم أبواب الفقه ، ولم يكد يخلو كتاب من الكتب الفقهية المؤلفة آنذاك منها وبخاصة كتب النوازل ، وجمع عبد الرحمن الفاسى فى نهاية هذا العصر عددا وافرا من تلك الاجتهادات فى كتابه المشهور : **العمل الفاسى** . (2)

وسنجتزىء هنا بذكر نماذج من مسائل العمل التى الف فيها فقهاء العصر السعدى كتبا خاصة أو تعددت فتاويهم ومناظراتهم حولها . منها :

---

1) انظر من موضوع العمل وتطوره فى المغرب والاندلس سلسلة مقالات المفتى السلوى أبى بكر زنبير فى ملحق جريدة المغرب **للثقافة المغربية سلا** ، ابتداء من العدد الاول ، أبريل 1938.

2) **العمل الفاسى** أرجوزة من453 بيت ، شرحها الناظم نفسه ، وتوجد الارجوزة مفردة فى مخطوطات كثيرة، من أحسنها مخطوط خ. ع. بالرباط، 1491 د، ومع شرح الناظم مخطوطة م. ع. بالرباط ، 1448 . وطبع **العمل الفاسى** مع شروح أخرى مرارا على الحجر بفاس، وعلى الحروف بالمغرب ومصر .

## 1 - شهــادة اللفيــف :

هى شهادة عدد كثير من الناس لا تتوفر فيهم شروط العدالة المقررة بحيث يحصل بها العلم على وجه التواتر . وهذه اول مسألة من مسائل العمل الفاسى التى وردت فى **لامية الزقاق** ، وقد تطورت فى الاندلس والمغرب . ففى القرن الخامس لم يقبل قاضى قرطبة ابو عبد الله ابن الحاج شهادة خمسين نفرا من العامة ولم يحكم بمقتضاها ، وفى القرن الثامن سئل قاضى فاس ابو الحسن الصغير عن رسم شهد فيه واحد وثلاثون رجلا هل يكتفى فيه بمجرد العدد القطعى كالتواتر . (3)

ثم اخذ القضاة يتساهلون فى قبول شهادة اللفيف حين تتعذر شهادة العدول ، كما هو الشأن بالبادية وبعض الحالات الخاصة بالحاضرة ، وبذلك جرى العمل فى العهد الاخير لمملكة غرناطة ، وفى المغرب علــى عهد السعديين . وقد شهد العربى الفاسى فى أوائل القرن الحادى عشر مناظرة حول شهادة اللفيف بمجلس قاضى الجماعة بفاس على بن عبــد الرحمن ابن عمران ، وكان حاضرا بالمجلس أحمد المقرى وابراهيم الكلالى وعبد الواحد ابن عاشر ، وانفصلوا على قول القاضى ابن عمران ان اللفيف « لا مستند له ، وانما هو شىء اصطلح عليه المتأخرون لتعذر وجــود العدول ، كما هو الشأن بالبادية وبعض الحالات الخاصــة بالحاضــرة ، عشر لا أصل لــه » . (4)

والف محمد العربى الفاسى بعد ذلك **رسالة فى شهادة اللفيف** (5) تسمها الى ثلاثة أقسام ، بحث فى الاول منها آراء المتقدمين من فقهاء الغرب الاسلامى حول مبدأ قبول شهادة غير العدول وترددهم بين النصوص ومــا تقتضيه ضرورات المجتمع ، وفصل فى الثانى عمل المتأخرين من الفقهاء واختلاف وجهات نظرهم فى عدد شهود اللفيف ، والمسائل التى تقبل فيها شهادتهم . هل هى الاموال فقط ؟ فتنزل شهادة اللفيف منزلة الشاهــد واليمين ، أو تشمل سائر أبواب النكاح والتسفيه والترشيد وغيرها ؟ وخصص القسم الثالث للاجابة على تساؤلات بعض معاصريه من الفقهاء : هل يسوغ الحكم باللفيف فى ذلك الزمان الذى قل خيره وكثر شره ؟ وقد دافع المؤلــف عن قبول شهادة العامة باعتبارها ضرورة اجتماعية لا مندوحة عنها فــى البادية ويضطر الناس اليها أحيانا بالحاضرة أيضا :

---

3) انظر م. العربى الفاسى ، **رسالة اللفيف** . القسم الاول

4) المصــدر السابق ، القسم الثانــى .

5) مخطوطا م. م. بالرباط ، 3728 ز ، 3364 ، وهذا الاخير ضمن شرح أبى حفص الفاســى **للامية الزقاق** . والمخطوطان معا غير مرقمين .

لا فرق بين هذا الزمان وغيره فى جواز الحكم بشهادة اللفيف

« لا فرق بين هذا الزمان وغيره فى هذا الزمان وغيره استجماعها عند من يرى جواز الحكم بها . والمعتبر فى هذا الزمان وغيره استجماعها لشروطها ، والنظر فى ذلك للقاضى وعليه الاجتهاد فيه والتحرز على قدر فساد الزمان ، كما عليه نحو ذلك فى شهادة العدول ، فان الناس بأزمانهم اشبه منهم بآبائهم ، وعدول كل زمان ولفيفه على قدر زمانهم » (6) .

٭

## 2 — بيع الصفقة :

تحدثت **المدونة** وغيرها من كتب الفقه المالكى القديمة عن رفع ضرر الشركة باجبار من لم يقبل القسمة من الشركاء عليها اذا طلبها الشريك متى اتحد مدخل الشركاء فى الملك بارث أو غيره ، وكانت القسمة لا تفسد المشترك ثم توسع فقهاء الغرب الاسلامى فى مسألة الشركاء المتحدى المدخل فقالوا ( باجمال البيع وضم الصفقة ) ، اى اعطاء الشريك حق بيع الملك المشترك كله **دفعا** لضرر الشركة ، ولشريكه حق ضم حظ البائع عملا بالشفعة .

اختلفت آراء المتأخرين من الفقهاء فى شروط الصفقة وما تصح فيه من الممتلكات وما لا تصح ، وألف فى ذلك أحمد الونشريسى صاحب **المعيار** كتاب **حل الربقة عن أسير الصفقة** ، الا أنه مات قبل اتمامه . وعد على الزقاق فى **لاميته** الصفقة من بين المسائل التى جرى بها العمل فى فاس تبعا للاندلس . ثم أجمل كل ما تقدم وفصله محمد ميارة فى كتابه **تحفة الاصحاب والرفقة ببعض مسائل بيع الصفقة** . (7)

ذكر ميارة فى هذا الكتاب ، استنادا الى اجتهادات الفقهاء المتأخرين ، أن بيع الصفقة لا يختص بالعقار ، بل هو جار فى كل ما لا يقبل القسم من عقار وعروض وحيوان وغير ذلك ، وجار أيضا فى بيع المنافع بناء على فتوى

---

6) المصدر السابق ، القسم الثالث .
7) مخطوط م. ع. بالرباط ، عدد 989 د ، ضمن مجموع من ورقة 158 ظ الى 163 ظ ، من الحجم الكبير بخط مغربى دقيق .

الامام على ابن هرون حينما سئل عن رجل له حظ فى بيت أرحـــى ولرجل آخر باقيها ، ثم أمضى عليه الكراء فيها صفقة واحدة ، ونازعه صاحب الحظ واراد اخلاء ما ينوب من حظه فيها ليستغله بنفسه ، فأجاب : « ان كان الكراء صفقة ودخلوا مدخلا واحدا ، فان شاء الشريك الذى لم يكـــر ضم الصفقة واكراها من الغير أو سدها . وان كان الكراء مبعضا فعـــل الذى لم يكر بحصته ما شاء . . . وان تنازعا فى الكراء هل صفقة ام لا ، فالقول قول مدعى التبعيض ، وعلى الآخر البيان ان قال هو صفقة » . (8)

وتتبع ميارة فى كتابه هـــذه ضوابط الصفقة التى جرى بها العمـــل وتفرعت عنها فروع كثيرة ، مثل قولهم : « يجبر الداخل للاصيل ، ولا يجبر الاصيل للداخل » . وهم يعنون بهذا أن من دخل على شركاء متحدى المدخل بشراء أو ارث حظ شريك ، فان الشركاء الاصليين يملكون حق الصفقـــة بيعا وكراء على الشريك الجديد الداخل الذى ينزل منزلة البائع أو الموروث ، ولا يملك هو حق التصفيق عليهم لعدم اتحاد مدخله معهم . وأورد فى ذلك فتوى مختصرة عجيبة لعبد الواحد الونشريسى ا اذ سئل عن رجل وهب له شقص من عقار فأراد بيع جميعه على من شارك الواهب صفقـــة ، فأجاب : « من دخل مفردا فلا يخرج الا مفردا » . (9)

ونبه ميارة الى التطور الذى حصل فى مسألة بيع الصفقة حيث كان أولا بيد القاضى ، ثم صار بيد الشريك يوقعه متى شاء دون احتياج الى أخـــذ راى القاضى . وأورد نموذجا لعقد (10) بيع الصفقة كما كان يكتبه العدول فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى ، وختم الكتاب **بأرجوزة** فى نحو ثلاثين بيتا لخص فيها مباحث الصفقـــة .

---

8) م. ميارة ، **تحفـــة الاصحـــاب** ، 160 و .
9) نفس المصدر
10) انظر نص العقد النموذجى للصفقة فى المصدر السابق ، ورقة 162 و — ظ .

## 3 — التخليـق والهـروب بالنســاء

التخليق هو ان يفسد رجل امراة عن زوجها ويوسوس لها حتى تنشز وتطلق منه . وقد جرى العمل فى فاس منذ اواسط القرن التاسع الهجرى بتابيد تحريم المراة المخلقة على المخلق . ثم قاس الفقهاء حكم هروب الرجل بالمراة على حكم التخليق فقالوا بتابيد تحريمها عليه مع اختلاف فى تحديـد الشروط واعتبار الملابسات . وقد تعددت حوادث هروب الرجال بالنساء فى المغرب السعدى بادية وحاضرة ، وبخاصة بعد موت احمد المنصور حتى لم يكن يخلو شهر من حادث اختطاف (11) وتباينت آراء الفقهاء بتبايـن وجهات نظرهم فى وسائل الزجر والاصلاح .

ثار جدل عنيف بين فقهاء الشمال على اثر اختطاف رجل من جبال غمارة بالريف شابة شريفة يتيمة ، وغاب بها مدة ثم ضبط وعزلت عنه للاستبراء بدار امين ، فاحتال وهرب بها مرة ثانية وعقد عليها بطريقة نكاح التفويض ، ولما امكنت المراة الفرصة فرت منه الى دار رجل آخر ووكلته ليقاضـى المختطف عند الشرع . كان القاضى الذى أجرى المسطرة هو ابراهيم ابن عبد الرحمن الجلالي ، واعترف له المختطف بما فعل ، لكنه زعـم أن الهروب كان برضى البنت ولغاية الزواج ، فعزل الجلالى المرأة للاستبراء بدار أمين ، وحكم بتأييد تحريمها على الغمارى معاملة له بنقيض قصده ، وعقابا له على اغتصابه وفسقه .

وجد المحكوم عليه من فقهاء بنى زجل من أفتاه بنقيض ما حكم عليه به ، وهو عبد الله آجليان الذى اكتفى بمجرد السؤال المموه الذى قدمه له المختطـف وأجـاب :

« . . . ان كان الامر كما ذكر وأنه استبرأها وخطبها وعقد عليها من له الولاية عليها ففى ذلك قولان : الاول أنها تحرم عليه قاله ابن الماجشون قائلا : وعليه أصحاب مالك وهو مذهب أبى حنيفة . والثانى أنها تحل له ، وهو مذهب مالك فى **الموطـأ** ، وقاله ابن القاسم وغيره وجماعة مـن العلماء ، وهو المشهور وبه العمل والفتوى . وقد وقعت هذه المسألـة لبعض الناس أيام اقامتى بفاس ، فجاءنى وطلب منى رغبة شيخنا السراج

---

11) ا. الجلالى ، تنبيـه ، ص. 10
12) المصدر السابق ، ص. 3 .

— رحمه الله — ان يفتى بالتحريم سدا للذريعة ، فرغبته فأبى وقال لى : لا اترك المشهور الذى به العمل ، فأفتى بعدم الحرمة . . . » (12)

غضب القاضى الجلالى لما اطلع على هذه الفتوى لا لردها عليه — كما قال — ولكن لاقدام بعض الفقهاء على ممالاة الظلمة الفسقة دونما تريث او مراعاة للصالح العام ، وكتب تحتها كلمات نابية جاء فيها أن الخلاف الفقهى فى المسألة يعرفه حتى الصبيان ، وأن الحق الذى جرى به العمل هو ما افتى به جماعة من الفقهاء سماهم ، ومنهم شيخاه يحيى السراج وعبد الواحد الحميدى .

كتب آجليان ردين (13) على تعليق الجلالى ليس فيهما شىء جديد فى الناحية الفقهية ، وانما ملأهما شتما وتذفا لخصمه متهما اياه بتحريف النصوص وعدم الاخذ عن الشيخين السراج والحميدى . ثم اطلع على مجموع ما كتبه الجلالى وآجليان قاضى شفشاون محمد ابن عرضون فصحح ما قالاه معا ، غير أنه مال الى التحليل قائلا :

« . . . والقول بتحليل الهاربة صحيح ، وبه اجاب شيخنا القصار . وقد فرقوا بين الهارب والمخلق فحرموها على المخلق تحريما موبدا ولم يحرموها على الهارب . . . » (14)

الف ابراهيم الجلالى بسبب ذلك كتابه **تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع فى مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان لمدعى استحقاق الفتوى آجليان** (15) ، وجعله قسمين . بحث فى القسم الاول بتفصيل حكم الهروب والتخليق فى المذهب المالكى وتطور آراء الفقهاء فيهما ، وذلك فى خمسة فصول ، خصص الاخير منها الى موقف الشيخين السراج والحميدى من الهروب بالنساء ، وأثبت لهما نص فتويين (16) صريحتين بالتحريم المؤبد عكس ما ذكره آجليان لهما تماما .

---

13) انظر نص الردين عند أ. الجلالى ، **تنبيه** ، ص. 5 — 6

14) انظر نص تعليق القاضى محمد ابن عرضون عند ع. الفاسى ، **شرح العمل الفاسى** ، ورقة 2 و .

15) مخطوط م. ع. بالرباط ، عدد 571 ك

16) انظر نص الفتويين معا عند ا. الكلالى ، **تنبيه** ، ص 11 — 12 .

وهنا يثار فى الواقع مشكل صحة النصوص وانتحالها ، لانه على فرض امكان ان يفتى الفقيه برأين مختلفين فى المسألة الواحدة باختلاف الظروف والملابسات ، فان النصوص المستند عليها لا تتغير قطعا وانما تؤول وتعلل . فكيف يعقل ان يعتمد السراج نصوصا فقهية يقول عنها – حسب زعم آجليان – انها هى المشهورة فى المذهب المعمول بها فى المغرب ، ثم يعتمد نصوصا اخرى مناقضة ويصفها بما وصف به الاولى من الشهرة والعمل . على اننا نرجح هنا رواية الجلالى لعدة أسباب ، منها :

– ان الجلالى أورد النص الكامل لكل من فتوى السراج والحميدى بمستندهما النقدى واجتهادهما الشخصى ، بينما اكتفى آجليان بمجرد الاخبار بأنهما افتيا دون أن يدلى بنص .

– ان آجليان زعم انه تدخل لدى السراج ليفتى وفق ما أراد المستفتى ويتخلى عن القول المشهور وما به العمل . وهذا مناف لاخلاق العلماء من جهة ، ولا يلائم دين السراج المتين وطبعه الحاد الذى لم يكن ينتظر منه – لو وقع – غير شتم الوسيط وطرده شر طرد .

– الفكرة الاصلاحية التى قصدها الجلالى باعتباره حاكما واعيا يعمل على ردع الجناة ، اذ عقاب الهارب بالمرأة عند الظهور عليه بمنعه منها منعا مؤبدا من شأنه أن يردع أمثاله من الشبان النازقين عن أن يفعلوا ما فعل بينما يبدو قصور نظر آجليان عن ادراك مقاصد الشريعة ، رغم أنه علل فتواه باحلال النكاح الشرعى بدل استمرار الزنى .

أما القسم الثانى من كتاب **تنبيه الصغير من الولدان** فعالج فيه الجلالى ما أنكره عليه خصمه من الانتساب الى شيوخ فاس ، وأثبت كل ما قرأه عليهم وعرفه من أحوالهم فى شبه **فهرس** سبق أن أشرنا اليه غير ما مرة ، وسنتحدث عنه أيضا فى القسم الثانى من هذه الدراسة .

## 4 ـ الانكحـة على طريقـة بـلاد غريـس

جرت فى منتصف القرن الهجرى الحادى عشر حوادث عنف كثيرة بين القبائل المتساكنة على ضفاف واد غريس بتفيلالت ، هلك بسببها عـدد وافر من الشباب خلفوا مخطوباتهم أيامى ، ووقع التنازع بين اسرهم فى الارث . رفع سؤال الى فقهاء المغرب حول ما جرت به عادة اهل بلاد غريس حيث يوجه الرجل منهم من يخطب له امراة لنفسه أو ولـده مـن وليها فيجاب بالقبول ويتواعدون للعقد الشرعى ليلة البنـاء ، ثم يبعـث للمراة أو وليها حناء وحوائج تتزين بها وهدايا فى المواسم ، ويولول النساء عند الخطبة ويسمع الجيران أن فلانا تزوج فلانة ويشتهر ذلك عندهم ، ثم يحدث قبل البناء والعقد تنازع وتنافر أو موت أحد الزوجين ، فهل تثبت الزوجية بتلك العادة وتنبنى عليها أحكامها من ارث وغيره وينزل ذلك منزلة نكـاح التفويض أم لا ؟ (17) .

اجاب عن هذا السؤال ـ فى جملة من اجابوا ـ ابراهيم الجلالـى بجواب مطول فى كتاب سماه **المسالة الشهية الامليسية فى الانكحة المنعقدة على عوائد البلد الغريسيـة** . (18)

تناول فيه اولا بالنقد فتاوى بعض فقهاء مصمودة وتفيلالت . وتتلخص هذه المناقشة فى المقارنة بين ما تقرر فى المذهب المالكى من الاركان الاربعة الضرورية لصحة عقد النكاح ، وهى الولى ، والصداق ، والمحـل ، والصيغة ، وبين ما جرت به عادة أهل بلاد غريس وغيرهم من البدو مما لم يستوف هذه الاركـان .

ووقع الطعن فى اجتهاد بعض المفتين المحليين الذين خرجوا نكاح الاغريسيين تخريج نكاح التفويض الذى أقره فقهاء المالكية وقال عنـه خليل فى **المختصـر** : « عقد بلا ذكر مهـر . . . » من ثلاثة أوجه :

ـ أن نكاح التفويض ( عقد ) تام الاركان بما فى ذلك الصداق الا أنه لم يحدد بالتعيين ، وترك ذلك للمكارمة والعادة .

---

17) انظر نص السؤال عند ا. الجلالى ، **المسالة الشهية** ، 1 ظ ـ 2 و .

18) مخطوط م. م بالرباط ، 7423 .

ــ ان نكاح التفويض لا يحتاج فيه الى عقد آخر قبل البناء ، وانما يبقى الاشهاد لفرض الصداق وتحديده .

ــ انه اذا لم يتراض الزوجان على الصداق عند فرضه فى نكـــاح التفويض فسخ النكاح بطلاق لتقدم العقــد .

وكل ذلك منتف فى عادة بلاد غريس حيث لا يوجد ( عقد ) من الاساس .

ونوقش ايضا ما ذهب اليه بعض المفتين من الاعتماد على شهادة الخاطب الذى اعتاد الاغريسيون أن يبعثوا به الى أولياء المرأة عند الخطبة بانه لا عمل عليه عند من اجازه الا بشرط أن يستوفى شروط شهود النكاح ، اى ان يكونا رجلين عدلين ، بينما يكون الخاطب عادة رجلا أو امرأة أو عددا منهما لا تتوفر فيهم شروط العدالة المنصوص عليها .

بعد ذلك تعرض المؤلف لحكم الشرع فى القضية المسؤول عنهـــا اعتمادا على النصوص الفقهية وتأويلها بحسب الحالة الخاصة عند الاغريسيين وما اصطلحوا عليه من العادات التى جرت بها الاحكام عندهم أجيالا عديدة ، وافترض لها ثلاث احتمالات :

ا ــ أن تكون جارية عندهم مجرى العقد المصطلح عليه عند أهـــل التوثيق فتنزل منزلته ويترتب عليها من الاحكام الشرعية ما يترتب عليه .

ب ــ أن تكون توطئة للعقد الشرعى الذى يتواعدون اليه ليلـــة الزفاف ، وأن كل ما يقع قبله انما هى أمارات على ميل كل من الجهتين الى الاخرى فقط فتكون حينئذ لاغية لا يترتب عليها شىء .

ج ــ أن تجهل الغاية من عادة البلد بحيث اذا سئلوا عن مرادهم بما يفعلون ، هل العقد أم مجرد الوعد . فتكون هذه الحالة هى محط الخلاف بين الفقهـــاء .

وقد خطأ الجلالى الذين أجملوا فى السؤال والجواب وخلطوا فـــى الاستشهاد بالنصوص العامة دون مراعاة ما هو محل اتفاق وما هـــو محل اختلاف . واستنتج من العرض السابق أن الاحتمال الاول الذى ذكره وهو ثابت ، لا اشكال معه فى صحة نكاح الاغريسيين بحسب عادتهم ، وأن

الاحتمال الثانى باطل فى الواقع ، بل حتى على فرض وجود الاحتمال الثالث رجح الجلالى رأى القائلين بصحة النكاح ، ودحض راى المعارضين فـى سخريــة :

« فمن قال انه تتنزل منزلة العقد المنبرم يقول ان الاركان المذكورة فى النكاح المنصوص عليها عند الموثقين من صيغة واشهاد كلها حاصلة فـى الواقع بينهم بالمعنى ، وأن ذلك أقوى فى الدلالة على الايجاب والقبـول والرضى ، لكون الدلالة الفعلية أقوى من الدلالة القولية ، لتطرق الاحتمالات الى الدلالات القولية اكثر مما تتطرق الى الدلالات الفعلية . بل وقد يقـال لا يتطرق شىء الى الدلالات الفعلية أصلا ، فيحصل الاكتفاء بذلك عـن الاشهاد المصطلح عليه ويتنزل ذلك بمنزلته . ومن يقول أن الاشهاد بالصنة المذكورة عند الموثقين متعبد به لا يقوم غيره مما يقوم مقامه ويدل علـى معناه دلالة واضحة مقامه ، فلابد من تلك الصيغة المعهودة . . . » (19)

واثار المؤلف بعد ذلك مسألة الاعراف التى لا تصادم مبادىء الشريعة ووجوب مراعاتها فى تأويل الاحكام الشرعية وتطبيقها ، وما يجب علـى المفتين من التفتح وعدم الجمود مع ظاهر النصوص ، ناقلا عن الامـام احمد الونشريسى قوله فى **المعيار** : « وينبغى للمفتى أن ينظر الى مقاصد الناس ومقتضى مخاطباتهم فيبنى بها فيما تختلف فيه الاحكام باختلاف المقاصد والعوائد . . . وأن الحكم بمجرد لفظ الروايات فيما تقررت به الاعراف والعادات فسق وجـور » . (20) .

وبعد أن استعرض الجلالى كثيرا من الحالات التى اجتهد فيها فقهاء المغرب والاندلس بما يخالف مشهور مذهبهم المالكى ختم هذا الفصل بقوله :

« وأما كون الاحكام الفقهية تجرى على مقتضى الاعراف والعوائـد بحسب الازمنة والبلدان فذلك معروف مشهور لا يختلف فيه اثنان ، فاذا علمت ذلك تبين لك صدق ما قلناه وفصلناه فى جواب النازلة ، وأن العرف مهما شهد بوجه محقق معين صير اليه واعتمد فى جرى الاحكام والآثار عليــه . . . » (21)

---

19) أ. الجلالى ، **المسالة الشهية** ، 10 ظ .

20) المصدر السابق ، 11 و .

21) نفس المصـدر ، 12 و .

## 5 — الغـاء بيـع الثنيـا فى سـوس

بيع الثنيا هو أن يتفق البائع والمشترى عند عقد بيع عقار أو غيره على أن للبائع حق استرجاع ما باع متى رد للمشترى ما دفع من الثمن . وهو جائز عند جمهور المالكية ، ومنعه منهم سحنون وابن الماجشون فكان تولهمــا ضعيفا لا يعتد به غير أن بيع الثــنيا تطور فى العصر السعدى تطورا سيئا فى سوس ، فاصبح ذريعة للربا . يعقد الطرفان البيع ظاهرا وهما متواطئان باطنا على انه مجرد سلف يقبضه الدائن بعد مدة يكــون خلالها قد استفاد كراء المبيع أو غلته ، فيصير سلفا جــر نفعا وهــو حــــرام .

اجتهد قاضى الجماعة بالمحمدية سعيد بن على الهوزالى ورأى ان يقطع التعامل ببيع الثنيا منعا لتحايل الناس للوصول الى الربح المنــوع شرعا ، فاستشار معاصريه من فقهاء سوس ، ومنهم محمد ابن ابراهيم التمنارتى ، فوافقوه على ذلك اعتمادا على القول الضعيف فى المذهب ، واتفقوا على أن الثنيا ان كانت شرطا فى صلب العقد فالبيع فاسد ، الا أن يفوت بما تفوت به البيوعات الفاسدة . وأصدر القاضى الهوزالى منشورا الى جميع القبائل السوسية جاء فيــه :

« . . . وما ارتكبه أهل البلدة الشاغرة عن العلم وأهله من اباحتهم للبيوعات الفاسدة ، كبيع الثنيا والرهن حسبما سولت لهم أنفســهـم ، واتخذوه عادة سلفا وخلفا ، فانا لله وانا اليه راجعون . فتوبوا الى الله جميعا أيها المومنون لعلكم تفلحون ) (22) . ولا غلة للمشترى فيمــا سلف ، اذ الغلة بالغلة على قول سحنون ، معاملة لكم بنقيض مقاصدكم ، ولما فى ذلك من المصلحة العظيمة وهى الانتهاء عن الفساد . ومن عمــل شيئا من ذلك يخرجه ويأخذ دراهمه . وشهادة كاتب الثنيا وشهادة شاهده وامامته ساقطة ما لم يتب الى الله عز وجل . ودافع الثمن فاسدا من عنده يرد عليه بمثل المثلى وقيمة المقوم يوم القبض . ووصوا أصحابكم بهــذا ليلا يبيعوا أصولهم بالبخس بل يبيعون البيع الصحيــح ، وانهــوا عـــن الاضرار . . . » (23)

وبذلك أصبح منع بيع الثنيا عملا جاريا فى بــلاد سوس والاطلس الكبيــر .

---

(22) الاية الاولى هى 156 من سورة **البقرة** ، 2 ، والثانية هى الاية 31 من سورة **النور** ، 24 .

(23) انظر نص المنشور كاملا عند م. المختار السوسى ، **معسول** ، 7 : 50 — 51 . وأيضا مخطوط مكتبة تمكروت 1644 ( الثالث فى مجموع ) . وانظر ايضا حول موضوع بيع الثيا بسوس : **اجوبة** عيسى السكتانى ، 121 — 126 ، ع. التمنارتى ، **فوائد** ، 74 .

## 6 ـ الـرد فـى الـريـال

الريال عملة فضية اسبانية راجت فى المغرب على عهد السعديين بسبب العلاقات التجارية القائمة آنذاك بين المغاربة والاسبانيين فى الاسواق الواقعة على حدود المناطق الساحلية المحتلة . واثار بعض الفقهاء مشكل صرف الريال ومبادلته بالدراهم الثمانية المغربية هل يجوز ام لا . لان المذهب المالكى يشترط فى مبادلة العين : الذهب والفضة بمثلها شروطـا ، منها ان يتساويا فى العدد وليس الريال الكبير الاسبانى بمساو للدراهم المغربية الصغيرة . وأن يتحدا فى السكة متسائلين : هل يعتبر الريال متحد السكة مع دراهمنا ام لا ؟ وهل يجوز لمن عليه دين من قرض أو بيع مـن دراهمنا ان يدفع لرب الدين عوضه من الريال أم لا ؟

اجاب معظم الفقهاء على تلك الاسئلة بالنفى ، وخالفم مفتى فـاس محمد القصار فجوز مبادلة الريال والرد فيه بالدراهم المغربية ، وتعددت المناظرة بينه وبينهم ، وهو فى كل مرة يأتى بأدلة ويطالبهم بأن ياتوا ببديلها فيعجزون ، واتفقوا فى النهاية على الاخذ برأيه وبه جرى العمـل .

ارتكز راى القصار على أن قبول مبدأ الرد فى الدراهم واستثناءه من مبادلة العين بالعين الممنوعة شرعا الا مثلا بمثل ويدا بيد ، انما هـو تخفيف على الناس لضرورة التعامل . « وكل سكة أذن امام الوقت فى التعامل بها جاز الرد بها لضرورة التعامل ، وصارت سكة واحدة كما لو عمـل الامام سككا مختلفة . واحترز الفقهاء باشتراط اتحاد السكة من سكـة لم يأذن الامام فى التعامل بها فلا ضرورة للتعامل حينئذ فلا تخفيف . والحكم يدور مع علته وجودا وعدما . وكبر الدرهم وصغره لغو . واما مبادلـة عشرين درهما بريال فقال ابن رشد : اجاز ابن القاسم أن يعطـى الرجل المثقال ويأخذ اربعة وعشرين قيراطا معدودة بغير مراطلة . . . **قلت** : فالرد فى الريال لحاجة الناس الى ذلك ، وهو مسكوك قطعا . واذن الامام ـ نصره الله ـ فى أربع سكك قبله وفى الريال مع سكته توسيعا على الناس يصيـر الست واحدة كانواع سكة واحدة » . (24)

(24) ع. الفاسى ، **شرح العمل** ، 22 ظ. بتصرف .

وقد اعترض معاصرو القصار من الفقهاء على فتواه بأنه يشترط فى الدرهم المرخص فى مبادلته والرد فيه أن يكون على الوزن الشرعى ، فطالبهم بالنص فلم يجدوه . ورجعوا الى الاستدلال بأن الرخصة فى المبادلة انما هى لاجل حاجة الناس فى النفقة ، ولهذا لا تجوز الا فى العدد اليسير كالستة ، بينما الريال يبدل بعشرين درهما وهذا كثير ، فاجاب بأن هذا التحديد تحكم وخروج عن القولين المعروفين فى المسألة . وقالوا أيضا يشترط فى الـدرهم أن يكون مسكوكا والريال غير مسكوك ، فرد عليهم بقوله :

« . . . ان كان معنى السكة كما فهمتم أن الدرهم يكون مضروبا عن أمر سلطان الوقت وعليه علامته ، لزمكم الا يجوز ذلك فى درهم من مات من الملوك كوالد السلطان واخيه ، وأنتم لا تقولون بذلك ، فلا فرق عندكم بين درهم السلطان أبى العباس المنصور ودرهم والده محمد الشيخ وأخويه عبد الله وعبد الملك وغير ذلك وان كان معنى سكة السلطان ما أذن السلطان فى المعاملة به على الوجه المخصوص دخل الريال لا محالة ، لان السلطان اذن فى المعاملة به على ذلك الوجه ولم يجره مجرى السلع ، ولو اجراه مجراها لقلنا انه لا يكون كالدرهم الجارى . ثم نقول : لا نزاع فى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يضرب سكة ، وكذلك الخلفاء الراشدون ، وانما كان التعامل آذاك بدرهم العجم ، فهل نقول كانت لهم سكة أم لا ؟ وكان الرد فى الدرهم جائزا عندهم أم لا ؟ . . . » (25)

أفادتنا فتوى القصار من الناحية التاريخية وجود ست عملات رائجة بالمغرب رواجا رسميا على عهد أحمد المنصور ، هى عملته المضروبـة باسمه ، وبقايا عملات أبيه محمد الشيخ ، وأخويه عبد الله الغالب وعبـد الملك المعتصم ، والريال الاسبانى . ولم يفصح القصار عن اسم صاحب العملة السادسة ولعله محمد المتوكل .

---

25) المصدر السابق ، 23 و .

## 7 – اجتهـــادات بمجلـــس احمـــد المنصـــور

عرف عن المنصور انه يهتم بمشاكل الامة والاستماع الى ظلامـــات العامة ، اهتمامه بجمع العلماء فى مجلسه اقامة وظعنا للمناقشة فى العلوم النظرية والاحكام العملية ؟ وقد نوقشت بمحضر المنصور مسائل فقهيـــة ووقعت فيها اجتهادات جرى بها العمل بعد ذلك فى الفتاوى والاحكـــام ، منهـــا :

⁂

### – شهـــادة الابـــن مـــع ابيـــه

المشهور فى المذهب المالكى أن شهادة الاب والابن تعتبر كشهادة شخص واحد كما نص عليه خليل فى **المختصـــر** وغيره . لكن الاندلسيين خالفوا المشهور فى هذه المسألة وجرى العمل عندهم ان يجلس الابن مع والده المنتصب للعدالة فى حانوته ويشهد معه كمعدل ثان فتتم الشهادة بهما . والى هذا اشار قاضى غرناطة محمد ابن عاصم فى **التحفـــة** بقولـــه :

« وساغ أن يشهد الابن بمحل    مع ابيه وبه جرى العمل » .

وطرحت المسألة فى المغرب ، لاول مرة على ما يظهر ، فى عصـــر احمد المنصور عندما جلس ابن أحد الفقهاء المدرسين بالقرويين مع ابيـــه فى حانوته بسماط العدول باذن من قاضى الجماعة عبد الواحد الحميدى ، نعارض ذلك المفتى يحيى السراج ، وكان دابه دائما الوقوف فى فتاويه عند المشهور من المذهب والاقتصار على ما فى **مختصر خليل** ، واحتد الخـــلاف بين القاضى والمفتى فرفع الامر الى المنصور . وفى ديوان القصر بفاس الجديد اجتمع الفقهاء من مراكش وفاس ، وتناظروا حول راى اصبغ ومن تبعه من الجمهور القائلين بعدم الاستقلال بشهادة الاب والابن ، وضرورة اضافة شاهد آخر أو يمين المدعى فى الاموال ، معللين ذلك بأن الاب لو شهـــد لابنه لم تقبل ، وكذلك العكس . وجعلوا شهادتهما معا للغير بمثابة شهادة تزكية كل منهما للاخر . غير انهم رجحوا الراى المعاكس ما دام كل مـــن الاب والابن متوفرا على شروط العدالة المنصوص عليها ، وما دام تعليل تزكية كل منهما للاخر غير متجه اذا قبلهما القاضى الذى يرجع اليـــه امر تعديل الشهود أو تجريحهم . وانفصلوا على أن الاوفق ما اختاره فقهاء الاندلس من قبل ، وبذلك جرى العمل فى المغرب الى الآن . (26)

---

26) انظر أ. الجلالى ، **المتسالة الشهية** ، 22 ظ ، ع. الفاسى ، **شرح العمـــل** ، 43 ظ ، ت. ابن سودة ، **شرح التحفة** ، 1 : 97 .

## ــ الحكـم لـولـى القتيـل دون شـاهـد

لما قدم احمد المنصور الى فاس للمرة الاخيرة عام 1602/1011 وسجن ابنه المامون الذى طال حكمه لهذه المدينة وشمال المغرب زهاء ربع قرن ، انحشر الناس الى مجلس السلطان لرفع ظلاماتهم اليه . وكان المنصور يعقد مجالس للمظالم بالديوان يحضرها قضاة مراكش وفاس وشفشاون والمفتون بها وغيرهم من كبار الفقهاء للبت فى القضايا المطروحة .

حضر بعض هذه المجالس محمد العربى الفاسى ، وهو يومئذ ما يزال فى مقتبل العمر ، وسجل ما شاهد من الحكم فى حادثة قتل ادعى والد القتيل أن مما انتهب لولده كمية من الدراهم عينها ولا حجة له تثبت دعواه وانكرها القتلة فقضى الفقهاء عليهمبغرم الدراهم مع يمين والد القتيل ، مع أن دعوى الاموال لا تثبت فى المذهب المالكى الا بشاهدين أو بشاهد ويمين . وجرى العمل بهذا الاجتهاد فى المغرب .

ووجد العربى الفاسى بعد ذلك بخط شيخه قاضى الجماعة بفاس ابى القاسم ابن أبى النعيم فتوى جاء فيها : « . . . وذكرتم أن ما ادعاه والد القتيل من الدراهم التى هى من جملة المنهوب أنكرها القاتلون وطلبتم ما يوجبه الشرع فيها . فالذى جرت به الاحكام عندنا بهذه الحضرة فى هذه النازلة ومثلها أن القول قول والد القتيل مع يمينه ، والظالم أحق أن يحمل عليه ، وان كان المشهور خلافه . وكم من مسألة جرت العادة بالحكم فيها بغير المشهور ورجحها العلماء للمصالح العامة » . (27)

⁂

كذلكم تتجلى حيوية الحركة الفكرية فى المغرب السعدى ، وتتأكد مشاركة المثقفين المغاربة فى مختلف الميادين العلمية والادبية ، وحرصهم على الحوار فى حل المشاكل الدينية والاجتماعية والسياسية التى عرفتها البلاد فى تلك الحقبة من الزمن .

27) انظر ع. الفاسى ، **شرح العمل** ، 1 و ــ ظ ، ع. ابن ابراهيم ، **الاعلام** ، 4 : 265

# الفهرس

## لموضوعات الجزء الأول

## مقدمة تمهيدية

صحيفـــة

صحيفة



# القسم الاول

## الحركة الفكرية فى عهد السعديين

# الباب الاول

## الفكر المغربى

صحيفة



# الباب الثاني

## التعليم

صحيفة

صحيفة



# الباب الثالث

## تأليف الكتب

صحيفة

# الباب الرابع

## مسائل فكرية مهمة

صحيفــة

صحيفـــة

صحيفة

تم طبع هذا الكتاب فى

**مطبعة فضالة**

فى متم ربيع الثاني 1397 / 20 ابريل 1977

